

كتاب الجواهر

و معادن الجوهر

الإمام أبي الحسن بن علي
المستغري

للكتبة العصيرية

مِرْوِجُ الزَّقَبِ

وَمَعَادِنُ الْجَوَهَرِ

تَصْنِيفُ

أَبِي الْحَسَنِ عَلَى بْنِ الْحَسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَسْعُودِيِّ

الموافق ٩٥٧ - هـ ٣٤٦

اعتنى به وراجعه
كمال حسن مرعي

المحتوى الثاني



الكتبة العصرية
مكنا - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى

٢٠٠٥ - ١٤٢٥ م

ISBN 9953-34-319-5



9 7 8 9 9 5 3 1 3 4 3 1 9 8

ISBN 9953-34-317-9

شركة البناء شهيريف الانصارى
لطبعات
والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية

الدار الشموعية
المطبعة العضرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلفاكس ٦٥٥.١٥ .٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠.٣١٧ .٩٦١٢

E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكر السودان، وأنسابهم، واختلاف أجناسهم، وأنواعهم وتباينهم في ديارهم، وأخبار ملوكهم

ولد كوش بن كنعان ومساكنهم

قال المسعودي: [و] لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فصارت منهم طائفة مُيَمَّنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانا وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج، وقدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي، الخليج البربرى وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع، وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام، وهي أكبر ما يكون من جلود النمور وأحسنها للسروج، وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند، وإن كانت مياههما متصلة، ومن أرضهم يحمل الذيل من ظهور السلاحف، وهو الذي تتخذ منه الأمشاط كالقرون، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش.

الزرافة

وقد توزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة؛ فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الإبل، ومنهم من رأى أن ذلك كان بجمع بين الإبل والنمور وأن الزرافة ظهرت من ذلك، ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر، وأن ليس سبيل البغال المولدة من [النتائج بين] الخيل والحمير، وتدعى الزرافة بالفارسية اشتراكاً، وقد كانت تُهدى إلى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل إلى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بنى العباس وولاة مصر، وهي دابة طويلة اليدين والرقبة، قصيرة الرجلين، لا ركبتين لرجليها وإنما الركبتان ليديها، وقد ذكر الجاحظ في

كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاماً كثيراً في تناجها، وأن في أعلى بلاد النوبة يجتمع سباع ووحش ودواب كثيرة في حمارة القيفظ إلى شرائع المياه، فتسافد هنالك، فيلقح منها ما يلقي ويمنع منها ما يتمتع، فيجيء من ذلك خلق كثير مختلفون في الصور والأشكال؛ منها الزرافة ذات الأظلاف، وهي دابة منحنية إلى خلفها، منصوبة الظهر إلى مؤخرها، وذلك لقصر رجليها، وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا في بدء تناجها، وأن النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق، وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم، وأن ذلك كاتساع أرحام القِلاصِ العربية، لفوالج كرمان وغيرها من إبل خراسان، فيظهر بينهما ويتولد عنهم الجمال البُختُ والجمازات، ولا يتبع بين بختي وبختية، وإنما يصح هذا النوع من الإبل بين فوالج الإبل، وهي ذات السنامين، وبين قِلاصِ الإبل، وهي النوق العربية، وكتناج البُختُ بين البحاوية والمهرية، وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المتنطق في كتابه الكبير [في الحيوان] ومنافع أعضائها وغير ذلك من سائر أعضاء الحيوان، وقد أتينا على جميع ما يحتاج إليه من ذلك في كتابنا المترجم بـ «القضايا والتجارب».

والزرافة عجيبة الفعل في إلهاها، وتؤدها إلى أهلها، وهي كالفيلة: منها وحشية، ومنها مستأنسة أهلية، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحابش الذين صاروا عن يمين النيل، ولحقوا بأسفل البحر الجبشي، وقطعت الزنوج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصل إلى بحر الزنوج، فسكنت الزنوج في ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقصى بلاد الزنوج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في [أسافل] بحر الزنوج كما أن أقصى بحر الصين متصل ببلاد السيلي، وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وكذلك أقصى بحر الزنوج هو بلاد سفالة، وأقصايه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة حارة.

وقليمي ملك الزنوج

واتخذها الزنوج دار مملكة، وملكونا عليهم ملكاً سموه وقليمي، وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدمنا آنفاً، ويركب وقليمي - وهو يملك ملوك سائر الزنوج - في ثلاثة ألف فارس، ودوابهم البقر، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل، ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد، ولا غيرهم من الأحابش، ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً.

ومساكن الزنوج من حد الخليج المشتمل من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق

واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ
أودية وجبال ورمال.

صيد الفيلة

والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وحشية كلها غير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها، بل تقتلها، وذلك أنهم يطهرون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم في الماء، ويختفي رجال الزنج، فترد الفيلة لشربها، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء [حرقها و] أسرّها، فتفعل، ولا مفاصل لقوائمها ولا رُكَبَ على حسب ما قدمنا، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها؛ فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة، في كل ناحية منها خمسون ومائة من، بل أكثر من ذلك [والاثنان منها ثلاثة منْ، وأكثر من ذلك] فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان، ومن عمان إلى حيث ذكرنا، ولو لا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً، وأهل الصين يتذبذب ملوكها وقوادها وأراكتها الأعمدة من العاج، ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج، ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوس؛ لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا، ويستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هيأكلها، كاستعمال النصارى في الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة، وأهل الصين لا يتذذلون الفيلة في أرضهم، ويتطهرون من اقتنائها [عندهم] وال الحرب عليها؛ لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم.

لعب الشطرنج ومقامرة الهند به

والهند كثيرة الاستعمال لما يجهز إليهم من العاج في نصب الخناجر، وهي الحراري، واحدتها حرّي، وفي قوائم سيفوها، وهي القراطل، واحدتها قرطل، وهي سيف معوجة، والأغلب في استعمال الهند العاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد، والشطرنج ذو صور وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم، كل قطعة من الشطرنج كالشبر في عرض ذلك بل أكثر، فإذا لعبوا بها فإنما يقوم الواحد [منهم] قائماً فينقلها في بيتهما، والأغلب عليهم القمار في لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر، وربما أنفق الواحد منهم ما معه فيلعب في قطع عضو من أعضاء جسمه، وهو أن يجعلوا بحضورتهم قدرأً من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لحم أحمر فيغلقى

ذلك الدهن المدمّل للجراح والمسك لسيلان الدم، فإذا لعب في أصبح من أصابعه وقمر قطعها بذلك الخنجر، وهو مثل النار، ثم غمس يده في ذلك الدهن، فكواها، ثم عاد إلى لعبه، فإذا توجه عليه اللعب أبان أصبعاً ثانية، وربما توجه عليه اللعب في قطع الأصابع والكف ثم الذراع والزند وسائر الأطراف، وكل ذلك يستعمل فيه الكي بذلك الدهن، وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقارب بأرض الهند عجيب المعنى، لما ذكرنا، وما ذكرناه عنهم فمستفيض من فعلهم.

الفيل ببلاد الهند

والهند تتخذ الفيلة [في بلادها] وتنتاج في أرضها، ليس فيها وحشية، وإنما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر والإبل، وأكثرها يأوي [إلى] المروج [والضياع] والغياض كالجواميس في أرض الإسلام، والفيلة تهرب من المكان الذي يكون فيه الكركدن على حسب ما قدمنا، فلا ترعن في موضع تشم فيه رائحة الكركدن، ويعمر الفيل بأرض الزنج نحواً من أربعين سنة، كذلك يذكر الزنج؛ لأنها تعرف في ديارها ومفاوزها، والفيل العظيم مما لا يتأتى لهم قتلها، ومنها الأسود والأبيض والأبلق والأغبر، وفي أرض الهند منها ما يعمر المائة سنة والمائتين، ويضع حمله في كل سبع سنين.

حيوان الزيرق

ولها بأرض الهند آفة عظيمة نوع من الحيوان يعرف بالزيرق، وهي دابة أصغر من الفهد أحمر ذو رَغْب وعيين براقيتين [عجبية] سريع الوثبة، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعاً، وأكثر من ذلك، فإذا أشرف على الفيل رشش عليه بوله بذنبه فيحرقها. وربما لحق الإنسان فأنى عليه، وفي الهند من إذا أشرفت عليه هذه الدابة تعلق بأكبر ما يكون من [شجر] الساج، وهي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز، تُكِن الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على حسب ما يحمل إلى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله، فإذا تعلق الإنسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن إدراكه لصق بالأرض ووثب إلى أعلى الشجرة، فإن لم يلحق الإنسان في وثبته رشش من بوله إلى أعلى الشجرة، وإلا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجبياً، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته، وأي موضع من الشجر سقط عليه بوله أحرقه، وإن أصاب الإنسان شيء من بوله أتلفه، وكذلك سائر الحيوان.

وملوك الهند تتخذ في خزائنها مرارة هذه الدابة، ومذاكيه، ومواضع من أعضائه،

وهو السم القاتل من ساعته، ومنه ما يسكنى به السلاح فيتلاف من فوره، ومذاكير هذه الدابة كمذاكير كلب الماء الذي يخرج منه الجندي بادستر، وهذا الكلب [أمره] مشهور عند الصيادلة وغيرهم، وهو اسم فارسي معرب، وإنما هو كند وتفسير ذلك الخصية، فعرب فقيل جندي بادستر.

والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزيرق لا تأوي إلى موضع يكون فيه التوشان - وهو الكركدن - وتهرب منه كما يهرب منه الفيل أيضاً، والفيل يهرب من السناني - وهي القطاط - ولا يقف لها البة إذا أبصرها، وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توفي الفيلة المقاتلة بالرجالية حولها ومراعاة الأعداء عند الحرب بتخلية السناني عليها، وكذلك أفعال ملوك السندي والهندي إلى هذه الغاية، وقد ذكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة.

وقد كان رجل بالمولتان من أرض السندي يدعى هارون بن موسى مولى الأزد، وكان شاعراً شجاعاً ذا رياضة في قومه ومتنة بأرض السندي مما يلي أرض المولتان، وكان في حصن له ، فالتحق مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة، فبرز هارون بن موسى أمام الصف وقصد لعظيم [من] الفيلة وقد خبا تحت ثوبه سوراً، فلما دنا في حملته من الفيل خلّي القطف عليه، فولى الفيل منهزاً لما بصر بذلك الهر، وكان ذلك هزيمة الجيش، وقتل الملك، وغلبة المسلمين عليهم، ولهارون بن موسى قصيدة يصف فيها ما ذكرناه ، وهي :

اليس عجيبة بأن تلقه له فطن الأسد في جرم فيل وأطرف من نسبه زوله
 أليس عجيبة بأن تلقه بحلم يجل عن الخنشبيل غليظ الدراك لطيف الحوبل
 وأرقص مختلف خلقه طويل النیوب قصير النصليل
 ويخضع لليث ليث العَرِين وإن ناشرب الهر من رأس ميل
 ويلقى العدو بناب عظيم وأشباه شيء إذا قسته
 ينمازعه كل ذي أربع
 ويعصف بالبَرِ بعد النمور
 وشخص ترى يده أنفه وإنما في الأنام له من عَدِيل
 وأقبل كالطُّود هادي الخميس
 بصوت شديد أمام الرعيل
 بخطو خفيق وجرم ثقيل
 فمرةً بسيل كسل الأتى

فإن سُمْتَه زاد في هوله
 بشاعة أذنين في رأس غول
 وقد كنت أعدت هزاً له
 قليل التهيب للزنديبل
 فلما أحسَّ به في العجاج
 أتانا الإله بفتح جليل
 طوار وراغمَ فَيَالله
 بقلب نحيب وجسم ثقيل
 فسبحان خالقه وحده إِلَهِ الْأَنَامِ وَرَبِّ الْفَيْوَلِ

العنديبل: طائر صغير يكون بأرض السند والهند، تذكره الشعراء في أشعارها تمثلاً
 به لصغره، والزنديبل: هو العظيم من الفيلة والمقدم فيها، وقد قيل: إن الزنديبل هو اسم
 لما اشتد في الحرب من إثاث الفيلة، وقد ذكر بعض الشعراء في هذا المعنى الزنديبل عند
 ذكره للفيل فقال:

ذاك الذي مشفره طويل وهو من الأفيال زنديبل
 وقال آخر:

وفيَّةُ كَالْطُودِ زَنْدِبِيل

وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الحيوان هذه القصيدة، وفسر بعض
 أبياتها، وذكر في معنى الخنشبيل وتفسيره قول الأننصاري في صفة النحل:

[تبين العشاء بأذنابها وفي مدار الأرض عنها فضول]
 ويشبعها المص مص الشري إذا عاجت الشاة والخنشبيل
 قال: وهذا غير قوله:

قد علمت جارية عُطْبُولْ أني بنصل الصيف خَنْشِبِيلْ
 والفيلة لا تتسع ولا تتوالد إلا بأرض الزنج والهند، ولا تعظم أنبيابها بأرض السند
 والهند على حسب ما تعظم بأرض الزنج، والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدَّرَقَ وكذلك
 الهند، ولا يلحق ذلك في المنعة شيء من الدرق الصيني والتبتى، [واللمطي]
 والبجاوى، ولا ما نقع في اللين وغير ذلك من أنواع الدرق.

وخرطومه أنفه، وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شيء بين الغضروف
 واللحم والعصب، وبه يقاتل ويضرب، ومنه يصبح، وليس صوت الفيل على مقدار عظم
 جسمه وكبير خلقه.

عنابة المنصور بالفيلة

وقد كان المنصور عني بجمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائها لها، وإعدادها للحروب والرينة في الأعياد وغيرها؛ فإنها أو طأ مراكب الملوك وأمهدها، وأخبرني بعض الكتاب ممن يرجع إلى أدب [وعقل] ومعرفة أيام الناس بمدينة السلام، أنه اشتري بغلة في غاية الفراحة والحسن، فكان يركبها في مهماته وتصرفاته، وكانت إذا رأت الجمال البُخت أو العراب من العمالة أو غيرها في الطريق نفرت وَشَبَّتْ، وكان يلقى منها جهداً جهيداً فيصبر على ذلك المكروره؛ لما هي عليه من الفراحة والحسن، وأنه لا يحمله غيرها لعظم جسمه وكبر بطنه [وسمنه] قال: فلما كان في بعض الأيام اجترت بباب الطاق - وذلك في أيام المقتدر، وقد أخرج الفيلة للرياضة والتمهيد وليحمل عليها الليث بن علي الصفار وأصحابه، وقد كان مؤنس [المظفر] الخادم أسره ببلاد فارس حين خرج على السلطان - قال: فأشرفت على قطار من الجمال البُخت منهزمة خائفة من الفيل، تجمز في مشيتها، لا سيل لمن عليها أن يجسها لما قد لحقها من الجزع، فلما رأت البغله ذلك شَبَّتْ وَوَلَتْ على عقبها، وَرَمَتْ بي الأرض فوقعت كجلد ثور منفوخ، وَدخلتِ الجمال إلى درب لا ينفذ، وقد كانت البغله حين رمت بي ونفرت من الجمال دخلت ذلك الدرب، وجاءت الفيلة على أثر ذلك، فلما نظرت البغله إلى الفيلة وَعَظَمَ خلقها لحقت بالجمال وَدخلت بينها كأنها لم تزل معها وَتَزَلَّلتْ كترزيل الجمال، إذ رأني جماعة من الناس، فرفعوني، ودخل الغلام فأخرج البغله، وما استطاع إخراجها حتى مضت الفيلة، وأخرجت من وسط بعض الجمال، فوالله ما نفرت بعد ذلك من جمل، وقد ألفت الجمال حتى كأنها بعضها؛ لاستصغرها صورة الجمل عندما شاهدت [من عظم] صورة الفيل.

عود إلى وصف الفيل

وكل حيوان ذي لسان فأصل لسانه إلى داخل، وطرفه إلى خارج، إلا الفيل؛ فإن طرفه لسانه إلى داخل وأصله إلى خارج، والهند تزعم أنه لو لا أن لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتتكلم، والهند تُشرف الفيل وتفضله على سائر الحيوان، لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة: من علو سمكه، وعظم صورته، وبديع منظره، واتصال صهوةه، وطول خرطومه، وسعة أذنه، وكبر غرموله، مع خفة وطئه، وطول عمره، وثقل جسمه، وقلة اكترائه بما وضع على ظهره، وأنه - مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة - يمر بالإنسان فلا يحس بوطئه، ولا يشعر به [حتى يعشاه] لحسن خطوطه واستقامة مشيه.

وقد وصف [عمرو بن بحر] الجاحظ الفيل في كتاب الحيوان فأغرق في وصفه، وأكثر في مدحه، وعدّ معاني كثيرة في صفة الفيل وهيئته، وما هو عليه من عجيب التركيب وغريب التأليف، والمعاني الصحيحة، والإحساسات الطيبة، وفي قبولها الناديب [صحة تميزها] وسرعتها إلى التقلين والتقويم، وما في أبدانها من الأعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة، وكم مقدار منافعها، ومبلغ مضارها، وبتلك الفضيلة من الإحساس فاقت تلك الأجناس، وما فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التي جلّها الله لعيون خلقه، وفرق بينها وبين عقول عباده، وقيدها عليهم، وحفظها لهم، لتكثر لهم، وتزيد بهم إلى وضوح الحجة، وتسخرهم لنمام النعمة، وما ذكر الله في الكتاب الناطق والخبر الصادق، وفي الآثار المعروفة، والأمثال المضروبة، والتجارب الصحيحة، وما قالت الشعراة فيه، ونطقت به الفصحاء، ومميزته العلماء، وعجبت منه الحكماء، وحالها عند الملوك، وموضع نفعها عند الحروب، وتبينها في العلوم، وجلالتها في الصدور، وفي طول أعمارها، وقوّة أبدانها، وفي اعزامها وتصميماها وأحقادها وشدة اكتئانها، وطلبها بطرائفها، وارتفاعها عن ملك السُّقَاط واقتضاء السفلة والأرذل وعن ارتخاصها في الثمن، وارتباطها على الخسف، وإذلالها، وإذلالها، وعن امتناع طبائعها، وتمتنع غرائزها أن تصلح أبدانها وتنتسب أنبياتها وتعظم جوارحها وتتساfäh وتتلاطح إلا في معادنها وببلادها ومجارس أعراضها، مع التماس الملك ذلك منها، وطعم القوم عليها بالتقرب بذلك منها، حتى أعجزت الحيل، وخرجت عن حد الطمع، وعن الأخبار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها، والذي خالفت فيه الأشكال الأربعية التي تحيط بالجميع مما يستباح أو يقوم أو يمشي أو يطير، وجميع ما يتقلّ عن أولية خلقه، وما يبقى على الطبع الأول من صورته، وعما يتنازعه من شَبَهِ الحيوان، وما يخالف فيه جميع الحيوان، وعن القول في شدة قلبه وأشره وفي حدته على ما هو أعظم بدنًا وأشد قلبًا وأحد ظفراً وأذرب لساناً وهربه مما هو أصغر جسمًا، وأكله حداً، وأضعف أسرًا، وأحمل ذكرًا، وعن الأخبار عن خصاله المذمومة، وأمرره المحمودة، وعن القول في لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبلوه ونجوه، وعن لسانه وفمه، مع غير ذلك من المواجهات الكثيرة التي تضمن إيرادها، فلما انتهى إلى موضع نظمها وإيراد وصفها وما أسلفه من القول في هذه المعاني التي قدّمتها أورد جوامع متفرقة، ولمعاً غير متسبة في الفيلة وغيرها، وأعرض عن إيراد خواص أعضائها، وأكثر منافعها، وعجيب خصالها، وما ذكر من أسرار الطبيعة فيها، وما قالته فلاسفة الهند في بذئها، وما أثرتة عن تقدم من حكمائها في بدء أوليتها وعلة تكوينها في أرض الزنج والسندي، دون سائر البقاع من الأرض، والسبب المانع لتكونها في غيرها، والتضاد الذي بينها وبين الكركدن مع عظم

خلقها؛ وفرارها من السنور، مع صغر حجم جسمه ولطافة منظره، وعن كثرة الطرب الذي يوجد في الفيل دون غيره من الحيوان، وقبولها الرياضة والدربة والمعرفة عند المحاورة، والدهاء، والخبث، والتميز.

وقد ذكر صاحب المنطق في كتاب الحيوان جملًا كثيرة من خصال الفيل ومتافع أعضائه، وسلك طريقة لم يسلكها من تقدم من حكماء الهند [في الفيل، وما ذهب إليه حكماء الهند] من أن العالم بما فيه من الأجسام على جهات ثلاث: متفق، و مختلف، ومضاد وأن ذلك في الجملة هو جماد ونام، وإخراجهم عن العالم الأفلاك والنجرؤ والبروج وغير ذلك من الأجسام السماوية، وأنها ليست بجماد ولا نام، وأنها أحيا ناطقة.

عود إلى وصف الزنج

قال المسعودي : فلنرجع الآن إلى ما كانا فيه آنفًا في صدر هذا الباب ، من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش ؛ فالزنج - مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها - غير متفرعة بشيء من ذلك في آلاتها إنما تتحلى الزنج بالحديد بدلاً عن الذهب والفضة ، وما ذكرنا من دوابهم أنها بقر ، وأنهم عليها يتقاولون بدلاً من الإبل والخيول ، وهي بقر تجري كالخيول بسرور وجُمْ.

البقر والجوميس

ورأيت بالري نوعاً من هذا البقر يبرك كما يبرك الجمل ويثير بحمله كما تثور الإبل إذا استقلت بأحمالها ، وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميّة من الحيوان كالخيول والإبل والحمير والبغال ، وملأ كلها نوع من المجوس مَزْدَقِيَّة ، ولهم خارج الري قرية لا يسكن معهم فيها غيرهم ، فإذا مات بالري أو فَرَّوْين شيء مما ذكرنا من البهائم ورد الواحد منهم مع ثوره فأناخه ، وحمل عليه تلك الجيفه وسار بها إلى قريته ، فأكلُّهم منها ، وَبَنِيَّانُهُمْ من عظامها ، ويحفرون من لحمها ما يدخلونه لشتائهم ، فأكثر أكلهم وأكل بقرهم من تلك اللحمان رطباً ويبساً ، وهذا النوع من البقر الغالب عليه حمرة الحدق ، وسائل البقر تنفر وتهرب من هذا البقر ، ورأيت بأصابعهان وَقَمَّ منها ما في أنوفها حلق الحديد والصفر ، قد خُزِّمت فيها الجبال ، وخطمت بها كما يفعل بالجمال البُخت ، وكذلك بالري رأيت ثوراً منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع ، فلما رأاه [قد] قصده قام فزعاً من هذا الجنس . وليس فيسائر أنواع البقر ما يأوي المياه والجزائر والبحيرات إلا البقر المعروف الحبيبية التي تكون ببلاد مصر وأعمالها ، وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار ،

وأما الجواميس فإنها بالشغر الشامي تجر أكبر ما يكون من العجل، في أنوفها حلق الحديد والصفر على ما ذكرنا من البقر، وكذلك منها ببلاد أنطاكية، وأكثر ذلك ببلاد السندي الهندي وطبرستان، وفرون تلك البقر أكبر من قرون هذه الجواميس التي بأرض الإسلام، وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلي طفوف الكوفة والبصرة والبطائح وما اتصل بهذه الديار، والناس يذكرون عنقاء مغرب ويصورون العنقاء في الحمامات وغيرها، ولم أجد أحداً في هذه الممالك من شاهدته أو نسي إلى خبره ذكر أنه رآها، ولست أدرى كيف ذلك، ولعله اسم لا مسمى له !

تفسير لقب ملك الزنج

ولنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها: فاما تفسير اسم ملك الزنج - الذي هو وقليمي - فمعنى ذلك ابن الرب الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتي جار الملك عليهم في حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض، ويسمون الخالق عز وجل ملکنجلو، وتفسيره الرب الكبير، والزنج أولو فصاحة في أسلتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغبهم في القرب من بارئهم، ويعيثم على طاعته، ويرهبون من عقابه وصواته، ويدركهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم، وأنواع من السياسات يسوون بها رعيتهم، وأكلهم الموز، وهو ببلادهم كثير، وكذلك بأرض الهند، والغالب على أقوات الزنج الزلة، ونبت يقال له الكلاري يقلع من الأرض: كالكمأة، والراسن، ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن، ويشبه هذا الكلاري القلقاس الذي يكون بالشام ومصر، ومن غذائهم أيضاً العسل واللحوم، ومن هوي منهم شيئاً من نبات أو حيوان أو جماد يجده، وجزائرهم في البحر لا تحصى كثرة، وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج، ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين، فيها خلائق من المسلمين يتوارثها ملوك من المسلمين، يقال لها قنبلو، على حسب ما ذكرنا من أمرها في هذا الكتاب .

مساكن النوبة

وأما النوبة فافتقرت فرتقين: فرقة في شرق النيل وغريه، وأناخت على شطيه، فاتصلت ديارها بديار القبط [من] أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مضعدة، ولحقوا بقريب من أعلىه، وبنوا دار مملكة،

وهي مدينة [عظيمة] تدعى دنقلة، والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة، وبنوا مدينة عظيمة سموها سرية.

قال المسعودي : وانتهيت في تصنيفي إلى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وتلاثين وثلاثمائة ، [و كنت بفسطاط مصر] فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلة للنوبة «كابل» بن سرور ، وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعداً وملكه يحتوي على ما قرية وعلوة ، والبلد متصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس ، وإليه تضاف الريح المريمية ، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان .

البجة

وأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقاً ، وملكوا عليهم ملكاً ، وفي أرضهم معادن الذهب ، وهو التبر ، ومعادن الزمرد ، وتنتمي سراياهم [ومناسرهم] على الثجُب إلى بلاد النوبة ، فيغieren ويسُبون ، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، إلى أن قوي الإسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معادن الذهب وببلاد العلاقي وعيذاب ، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتتدت شوكتهم ، وتزوجوا في البجة ؛ فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار من سكن تلك الديار ، وصاحب المعدن في وقتنا هذا - وهو سنة اثنتين وتلاثين وثلاثمائة - أبو مروان بشر بن إسحاق ، وهو من ربيعة ، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمين وتلاثين ألف حراب على الثجُب من البجة بالحجف البحاوية ، وهم الحدارية ، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة ، وبباقي البجة كفار يعبدون صنماً لهم .

الحبش

وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر وهي مدينة عظيمة ، وهي دار مملكة النجاشي ، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة ، يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي ، ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة ، وهو مقابل لبلاد اليمن : فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناسع ، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة ، وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة وهي ساحل زيد من أرض اليمن - ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين ، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي ئواس وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن ، وصاحب زيد في وقتنا هذا إبراهيم ابن

زياد صاحب الحرمي ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركت فيها التجار بالأمتعة، وبينهم مهادنة، وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطرين - أعني ساحل اليمن، وساحل الحبشة - أقل المواقع فيه عرضاً، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين: منها جزيرة العقل، يقال: إن فيها ماء يعرف بماء العقل، يستستقي منه أرباب المراكب، وي فعل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً، وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وما له من الخواص، وذكر علة ذلك، وقد أتينا على الخبر في كتابنا «أخبار الزمان» عند ذكرنا لأخبار المتطيبين في تجاربهم وما كان من قضيائهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الإسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع، وقد غالب ابن زياد على الجزيرة، وله في هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه.

جزيرة سقطرة وسكانها

وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقاطري، ولا يوجد إلا فيها، ولا يحمل إلا منها، وقد كان أرسطاطاليس بن نقوما خس كتب إلى الإسكندر بن فيليس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقاطري الذي يقع في الأياجرات وغيرها، فصيّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوما خس، وهي مدينة إسطاغر، في المراكب بأهلיהם في بحر القلزم؛ فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند، وملكوا الجزيرة، وكان للهند بها صنم عظيم، فنقل ذلك الصنم في أخبار يطول ذكرها، وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها، ومضى الإسكندر فظهر المسيح فنتصر من كان بها إلى هذا الوقت، وليس في الدنيا - والله أعلم - موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يُداخلهم في أنسابهم رومي ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة، وهم في الوقت تأوي إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج - وهي المراكب - على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم في الشوابي على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر، ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر [السقاطري] وغيره من العقاقير، ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا.

بقية أجناس السودان

وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب - مثل

الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة - فكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحباش ملك، ودار مملكة.

وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها من الفلك، ولأية علة تقللت شعورهم وأسودت ألوانهم، وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم في أنسابهم؛ في كتابنا «أخبار الزمان» في الفن الأول من جملة الثلاثين فنا، ثم في الكتاب الأوسط مما لم نذكره في كتابنا «أخبار الزمان» من أخبارهم، وذكرنا في هذا الكتاب ما لا يسع ترك إيراده فيه ولا تعرية منه.

بين النوبة وفاتح مصر

قال المسعودي: وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون، فوجدوهم يرمون الحدق وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صرَّف عن مصر، وولىها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يُشَبِّه هذا الملك المجاور لل المسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب المدعو بملك مرسيس وغيرها من أرض النوبة، فصار ما قبض منه من السبي سُنة جارية في كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر ويدعى هذا السبي [في العربية] بأرض مصر والنوبة بالبقط، وعدد ذلك ثلاثة وأربعين رأساً وخمسة وستون رأساً، وأواه رُسُم على عدد أيام السنة، هذا ليت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي أربعون رأساً، ولخلفيته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة، وهو المتولي لقبض هذا البقط، وهو السبي، عشرون رأساً غير الأربعين، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الأمير، ولاثني عشر شاهداً عدولاً من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة، والموضع الذي يتسلَّم فيه هذا البقط ويحضره من سميته وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق، ويلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل في الجبال والأحجار، وهذه المدينة في هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كإحاطة ماء الفرات بالمدن التي في الجزائر [الكافئ] بين رَحْبَة مالك بن طوق وهيت، وهي ناوسة وعانة والحديثة وفي مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ونخل كثير من كلا الشطرين، وهذه المدينة إليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان، ومدينة أسوان يسكنها

كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد من ربعة ومضر وخلق من قريش، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره، والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير ثوَّدُ النواة الأرض فنبت نخلة، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين، وليس تربتهم كترية البصرة ولا الكوفة ولا غيرهما من أرض النخل؛ لأن النخل بالبصرة لا يثبت من النوى بل يثبت من الثالث والفسيل، وهو النخل الصغير، وما يخرج من النواة فليس يثمر ولا يفلح، ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كبيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة، وابتليت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفده أو فدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن ناساً من أهل مملكته وعيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ومن جاورهم من أهل أسوان، وأنها ضياعه والقوم عبيد [هـ، و] لا أملاك لهم، وإنما تملکهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها، فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيخوخ، وعلم من ابتعث هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستترع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتعث منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقرروا لملوكهم بالعبودية، وأن يقولوا: سببنانا معشر المسلمين سببلكم مع ملوككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته، فإن كتم أنت عبيداً لملوككم وأموالكم له فتحن كذلك، فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملوكهم إلى هذا الوقت، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مَرِيس، وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوع من وصفنا أحراز غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهي بلاد مَرِيس.

معدن الزمرد وأنواعه

ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة فقط، ومنها يخرج إلى هذا المعدن، والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة مفاوز وجبال، والبجة تحمي هذا المكان المعروف بالخربة، وإليها يؤدي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد، والزمرد الذي يقتلع من هذا المكان يتتنوع أربعة أنواع: النوع الأول منها يعرف بالمر، وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضراء كثير الماء، وتشبه حضرته بأشد ما يكون من السلق خضراء، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السوداء، والنوع الثاني يدعى بالبحري، ومعناهم في هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السندين والهند والزنج والصين ترغب في

هذا النوع من الزمرد، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورةتها، فسمى البحري لما ذكرنا، وهو ثاني المر في الجودة وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ ورق الآس الذي يظهر في أوائل أغصان الآس وأطراقه، والنوع الثالث يعرف بالمغربي، ومعناهم في هذه التسمية وإضافتهم إيه إلى المغرب هو أن ملوك المغرب من الإفرنجية والنوكبرد والأندلس والجلالة والوشكند والصقالبة والروس، وإن كان أكثر هؤلاء الأمم متصلين بالجدي وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من ديار ولد يافت بن نوح يتنافسون في هذا النوع من الزمرد كتنافس من ذكرنا من ملوك الهند والصين في النوع المعروف بالبحري، والنوع الرابع هو المسمى بالأصم، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً؛ لقلة مائه وخضرته، وهذا النوع يتفاوت في اللون من الخضراء في القلة والكثرة، وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربع في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها وأكثرها خضرة وأنقاها من السواد والصفرة، وغير ذلك من الألوان، مع تعري هذا الجوهر من التموشة، فإذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه غاية في الجودة ونهاية في الوصف، وفي حجارته ما يبلغ الخامسة المثاقيل من الوزن، إلى أن يتهمي إلى حد العدسه في المقدار، فيدخل ذلك في النظم من المخاتق وغيرها.

وآفات هذا الجوهر كثيرة، منها الريم والحجارة، والعروق البيض التي تشوب هذا الجوهر وتُوجَد فيه، ولا تناكر بين ذوي الدرایة بهذا الجوهر ومن عني بمعرفته أن الحيات والأفاعي وسائر أنواع الحيات من العابين وغيرها إذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداها، وأن الملسوع إذا سقي من الزمرد الخالص، وزن دانقين على الفور أمن على نفسه من أن يسري السم في جسده، ولا يوجد شيء من أنواع الحيات يقرب من معدهه وأرضه، وهو حجر لين رخو، يتكلس إذا ورد على النار.

وقد كانت ملوك اليونانيين ومن تلامهم من ملوك الروم تعظم شأن هذا الجوهر، وتفضله على غيره من سائر الجواهر؛ لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة، والمنافع الكثيرة، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية.

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربع العروق في الأرض، وهو المتنافس فيه، إذا سلم من الاعوجاج والثقب، واستقام سلكه، واستطال ما استدار، وأدناه ما ينحل في معده من التراب ويلقط من الطين، وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباره وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهما المغربي والأصم المقدم ذكرهما.

وقد يحمل من أرض الهند من بلاد سنдан، ونحو كنباية من مملكة البهرا صاحب

المانكير المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب نوع من الزمرد يلحق بما وصفناه من النور والخضرة والشعاع، إلا أنه حجر صلب أصلب مما وصفنا، وأنقل مما ذكرنا، ولا يُفرق بين هذا النوع المحمول من أرض الهند وبين الأنواع الأربع المقدم ذكرها إلا ذو دراية فطن أو ماهر فيه، وهذا النوع الهندي يعرفه أصحاب الجوهر بالمكي؛ لأنه يحمل من أرض الهند إلى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن، ويؤتى به مكة، فاشتهر بهذا الاسم لما وصفنا، وبيان بهذا النعت لما ذكرنا.

وقد أتينا على مبوسط أخبار الجوهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والإيضاح في كتابنا «أخبار الزمان» ووجدت جماعة بصعيد مصر، من ذوي الدرائية - من اتصلت معرفته بهذا المعدن، وعرف هذا النوع من الجوهر الذي هو الزمرد - يخبرون أن هذا الزمرد يكثر ويقل في فصول من السنة، وفي قوة من مواد الهواء، وهبوب نوع من الرياح الأربع، وتقوى الخضرة فيه والشعاع النوري في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر، وكذلك وجدت في أخبار من عني بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيرها من أنواع الكبريت يكثر في معدنه في السنة التي يكثر بزقها، وتشتد صواعقها، على حسب ما أخبرنا به فيما سلف من هذا الكتاب عن الكافور في بلاد منصورة وغيرها من أرض الهند أنه يكثر في السنة التي تكثر فيها الصواعق والرعود والبروق، ولو لا أن المكتار كحاطب ليل، والإيجاز لمحة دالة، وَوَحْيٌ صَرَحَ عن ضمير، والبلاغة إياضًا يجاز لأسهبت في هذا الباب.

قوص وقفط من بلاد مصر

ويبين هذا الموضع المعروف بالخرية الذي فيه معدن هذا النوع من الجوهر، وهو الزمرد، وبين ما اتصل به من العمارة وقرب منه من الديار، مسيرة سبعة أيام وهي فقط وقوص وغيرها من صعيد مصر، وقوص راكبة للنيل، وبين النيل وقطن نحو من ميلين، ولمديتي فقط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمرانهما وما كان في أيام الأقباط [من أخبارهما] إلا أن مدينة قبط في هذا الوقت متداعية للخراب، وقوص أعمرا، والناس فيها أكثر.

وبأوادي البحيرة المالكة لهذا المعدن تتصل ديارها بالعلاقي، وهي معدن الذهب على حسب ما قدمتنا في هذا الباب، وبين العلاقي والنيل خمس عشرة مرحلة، وماء أهل العلاقي ما انهل من السماء، ولهم ماء من عين يسيل في وسط العلاقي، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان، ومنها يسمى العلاقي، والتوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان، وأهل أسوان مختلطون بالتوبة.

الواحات

قال المسعودي : وأما بلاد الواحات - وهي بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم - فقد ذكرنا جملًا من أخبارها، وكيفية العمران بها، والخواص في أرضها، فيما سلف من كتبنا، وبها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم، وصاحب الواحات في وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - عبد الملك بن مروان ، وهو رجل من لواطه، إلا أنه مرواني المذهب، ويركب في ألف من الناس خيلاً [ورجلاً] ونجاً، وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة، وفي أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفترق إليه، ويحمل من أرضه التمر والزبيب والأعناب ، وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات يباب الإخشيد محمد بن طفج ، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلد़هم ، وما احتجتُ أن أعلمهم من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلى مع غيره في سائر الأوقات من لم أصل إلى بلادهم ، وأخبرني هذا الرجل بما بأرضهم من الشّبُّ وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم .

وقد ذكر صاحب المنطق أن بعض المواقع عيونًا حامضة يستعمل ماؤها، كاستعمال الخل ، وذكر المواقع التي تبع منها العيون المرة ، وأن قوة مائتها في المرارة لا يخالف شيئاً إلا مرّره ، وأن العلة في اختلاف هذه الطعوم في المياه أن الأرضين مختلفتين مثل مواضع الشّبُّ والمواضع الناريه والرماديّه ، وذكر الأطعمة التي يبلاد صقلية المقدم ذكرها إذا خالطت الماء أفادته طعوماً مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها .

أعداد الطعوم وخواصها

وأعداد الطعوم ثمانية: فأولها العذب ، والملح ، والدسم ، والحلو ، والحامض والمر ، والقبض ، والحرّيف ، وقد تنازع الناس فيما ذكرنا؛ فمنهم من رأى أن أعدادها سبعة ، ومنهم من ذهب إلى أنها ستة ، وأكثر من قال في أعدادها هو ما ذكرنا آنفًا [من أنها] ثمانية ، وقد قال من سلف في قوى المياه أقاويل مختلفة: فمن ذلك أن العذب معدٌ وإن كان سخناً؛ فإن استعمل من داخل أو من خارج [بقدر الحاجة إليه] فإنه ينقى الجسد ، وإن استعمل أكثر مما يحتاج إليه فإنه يرخي الأعضاء ويفضعها ، وأن الماء البارد يشد الأعضاء ، ويقطع العطش وأن الزيادة منه تحدى الجسم وتميته ، وأن الماء الأجاج ينفع من

سُدَّدَ الكبد والطحال، وأن الماء الكبيرتي ينفع العرجاً والقروه العتيقة والحكة، والبورقي نافع للحكة والجرب، وأما القاري فإنه نافع من أوجاع الصليب والعصب، وماء الحديد نافع من الاسترخاء في الأحشاء وما يَطْنَنُ من الأوعية، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبللة الكائنة في الجسد والرأس، وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها، وماء الزاج يحبس الدم، وماء البحر نافع من البرص، وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الأخلاط الفاسدة إذا شرب منه يسير مع دهن اللوز، وله في البصر اتعاب فظيع، وأن أصبع المياه للأجسام الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها. القابل بسرعة ما يرد إليه من الحر والبرد، وللناس فيما ذكرنا كلام كثير في أنواع المياه أو صافتها ومنافعها ومضارها، وليس كتابنا هذا موضعًا له، وإنما تغلغل بنا الكلام إلى ذكرها، وتشعب بنا القول إلى وصفها.

وصف بلاد الأحابش وحاصلاتها

وكلُّ ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربي اليمن وجدة والحجاز مما يلي بحر القلزم، فبلاد قشة لا خير في أرضها، ولا شيء يحمل من ساحلها إلا ما وصفنا من الذيل والنمور [وغيرهما]، وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وببلاد الأحقاف من ساحل حضرموت إلى عدن، فبلد لا خصب لأهله فيه، ولا يحمل من أرضهم [في وقتنا] إلا اللبن ويسمي الكندر، وهذا البحر اتصاله بالقلزم وهو عن يمين بحر الهند وإن كان الماء متصلًا، وليس في البحار، وما ذكرنا من الخلجان مما تحتوي عليه البحر الحبشي، أصعب ولا أكثر حيالاً، ولا أسهَّل رائحة، ولا أفتحط، ولا أقل خيراً في بطنه وظهره من بحر القلزم، وسائل البحر الحبشي تقطعه المراكب في إيان سيرها فيه بالليل والنهار، إلا بحر القلزم؛ فإن المركب تسير فيه بالنهار، فإذا جنَّ الليل أرسَت في موضع معروفة كالمراحل المشهورة، والمنازل المعروفة؛ لكثرة جباله وظلمته ووحشته، وليس هذا البحر مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره في شيء، وهو بالضد من ذلك؛ لأن بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ، وفي جباله الجواهر، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابعه الآبنوس، والخيزران، والقنا، والبقم، والساج، والعود، وأشجار الكافور، والجوز، والقرنفل، والصندل والأفاويه، والطيب، والعنبر، وطيوره البياغي البيض والخضر، واحدتها بيضة، ثم الطواويس وأنواعها في صورها واختلافها في الصغر والكبير ومنها ما يكون كالنعامنة كبيرة، وحشرات أرض الهند الزباد كالستانير بأرض الإسلام كثيرة متَّخذة كالسنور، وأكثر ما يخرج من ضروعها الطيب المعروف بلبن الزباد، وهو نوع من الطيب عجيب، ثم ما يظهر في وقت

من السنة من جباء الفيلة بأرض الهند ورؤوسها من العرق الذي هو كالمسك ، والهند تراعي ظهور هذا الطيب في الفصل من الزمان الذي يكون فيه ، فتأخذه وتجعله على بعض أدھانها الطيبة ، فيكون أغلى طيبها والمستطرف عندها ، والذي تستعمله ملوکها وخواصها لضروب من المนาفع منها طيب الرائحة والتجمير الذي قد فاق على سائر الطيب عندهم ، وما يؤثر في الإنسان عند شمه إياه واستعماله من ظهور الشّبق من الرجال والنساء والطلب للبه والإغتلام والطرب والنشاط والأريحية ، وكثير من قنّاك الهند وشجعانهم يستعمل هذا الدهن عند اللقاء وال الحرب؛ لأن ذلك عندهم مما يشجع القلب ، ويقوى النفس ، ويعيشهما على الإقدام ، وأكثر ما يظهر هذا النوع من العرق في جباء الفيلة في ذلك الفصل من السنة في حال اغتلامها وهيجانها ، وإذا كان ذلك منها هرب عنها سُواؤسها ورُعاتها ، ولا تفرق بين من تعرف وغيره من الناس ، وإذا وجد الفيل ما وصفنا سلك الأودية والجبال والغياض ، ونَدَّ عن بلده ، وغاب عن وطنه؛ فإذا قدم على التوشان الذي هو الكركدن هرب حيثئذ من الفيل ، ولا يقيم في الموضع الذي هو فيه؛ لأن الفيل عند ذلك بحال السكران لا يعقل ولا يميز بين الكركدن الذي كان يخافه قبل ذلك وغيره؛ فإذا خرج عنه ذلك الفصل من السنة واسترجع عاد إلى بلاده على مسيرة شهر وأكثر من ذلك ، وهو في بقية من سكره ، فيبقى نحو ذلك المقدار الذي كان هيجانه فيه عليلاً ، ولا يكون ذلك إلا في الفحول من الفيلة وذوي الجرأة منها والإقدام ، وما ذكرنا من ظباء المسك وغير ذلك مما عنه أمسكتنا من عجائبها [وخيراته] وفيما ذكرنا تنبية على غيره .

من أوصاف الفيل أيضاً

وللهند خطب طويل في ظهور هذا النوع من الطيب في هذه الحالة من الفيلة ، والفرق بينه وبين سائر أنواع الدواب وما يظهر من الفيل من العجز عند وروده المياه من الغدران والأنهار للشرب إذا كان الماء صافياً ، فإنه يشيره ويذكره ويمتنع من شربه حين صفائـه ، وإن ذلك يوجد في أكثر الخيل إذا وردت الماء ، وكان صافياً ضربته بأيديها فكدرتـه فتشرب حيثئـذ ، وتوافقـ الخيل الفيلة في هذا المعنى دون سائر الحيوان ، وإن ذلك لمشاهـدة صورـها في الماء لصقالـته وصـفائـه ، ولعلـها تقـصد زوالـ ذلك عند كـدر [ما تضرـبه بأيديـها] ، لعدـم ظـهور الصـورـ فيه في حالـ الكـدر] ، وإن الإـبلـ الأـغلـبـ منها يـفعلـ ذلكـ ، ولـمعـانـ غيرـ ذلكـ ما وـصفـناـ منـ آنـ ماـ عـظـمـ منـ الحـيـوانـ إـذاـ رـأـيـ صـورـتـهـ منـعـكـسـةـ عـلـىـ صـفـاءـ المـاءـ أـعـجـبـتـ لـعـظـمـهاـ وـحـسـنـهاـ وـماـ بـانـ بـهـ مـنـ حـسـنـ الـهـيـةـ عـمـاـ دـونـهـ مـنـ آنـوـاعـ الـحـيـوانـ ، وـلـيـسـ شـيـءـ يـفـعـلـ ذـلـكـ مـنـ الـحـيـوانـ غـيـرـ مـاـ ذـكـرـناـ مـنـ الـخـيلـ وـالـإـبلـ [وـالـفـيـلـ]ـ ، وإنـ الفـيـلـ - معـ عـظـمـ جـسـمـهـ [وـلـطـافـةـ نـفـسـهـ]ـ وـخـفـةـ روـحـهـ وـحـسـنـ تمـيـزـهـ وـالـتـفـرـقـةـ بـيـنـ وـلـيـهـ

وعدوه من الناطقين وغيرهم وقبوله الرياضة - يمتنع من الأنثى كما تمتنع النقء إذا لقحت، وليس شيء من الدواب يمتنع من السُّفَاد من الإناث عند حملها إلا الفيلة والإبل، وهذا باب إن نحن تَقْصِيَناه وذكرنا ما فيه طال به الكتاب، وخرج عن حد الاختصار والإيجاز. وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» وغيره من كتبنا، فلنذكر الآن أنواعاً من ولد يافت بن نوح؛ إذ كنا قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كثيراً من ذكر الأمم مع اختلاف ألوانهم، وتبينهم في ديارهم، واختلافهم في أحوالهم، إن شاء الله تعالى.

ذكر الصقالبة ومساكنها وأخبار ملوكها، و(تفرق) أجناسها

نسب الصقالبة وأجناسهم

الصقالبة: من ولد مار بن يافث بن نوح، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة، وبه يلحقون في أنسابهم، هذا قول كثير من أهل الدرایة ممن عني بهذا الشأن، ومساكنهم بالجدي إلى أن يتصلوا بالمغرب، وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب، ولهم ملوك، ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأي اليعقوبية، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع، وهؤلاء أجناس: فمنهم جنس كان الملك فيهم قديماً في صدر الزمان، وكان ملوكهم يدعى ماجك، وهذا الجنس يدعى وليناً، وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس الصقالبة؛ لكون الملك فيهم، وانقياد سائر ملوكهم إليه، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانة، وملوكهم في هذا الوقت يدعى بصدقلاطح، وجنس يقال له دلاونة، وملوكهم يدعى وانج علاف وجنس يقال لهم نامجين، وملوكهم يدعى عزانة، وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرس، وجنس يدعى منابن، وملوكهم يدعى زنبير، ثم جنس [يقال له سرتين وهو جنس] عند الصقالبة لعل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها، وتفرقهم من ملة ينقادون إليها، ثم جنس يقال له صاصين، ثم جنس يقال له جروانيق، ثم جنس يقال له خشانين، ثم جنس يقال له برانجابين، وما سميته من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسيمة معروفة لملوكهم، والجنس الذي سميته المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك والرئيس، ويحرقون دوابه، ولهم أفعال مثل أفعال الهند، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفاً من ذكرهم عند ذكرنا الجبل القبيح والخزر، وأن في بلاد الخزر [مع الخزر] خلقاً من الصقالبة والروس، وأنهم يحرقون أنفسهم بالنيران، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالشرق، ويعبرون من المغرب.

ملوك الصقالبة

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير، وله مدن واسعة، وعمائر كثيرة، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات.

ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأوانج، وله مدن وعمائر واسعة، وجيوش كثيرة، وعدد كثير، ويحارب الروم والإفرنج والنوكبرد، وغير هؤلاء من الأمم، وال الحرب بينهم سجال.

ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صوراً، وأكثرهم عدداً، وأشدتهم بأساً.

أجناس الصقالبة

والصقالبة أجناس كثيرة، وأنواع واسعة، لا يأتي كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفریع أنواعهم، وقد قدمنا الأخبار عن الملك الذي كان ينقاد إليه ملوكهم في قديم الزمان، وهو ماجك [ملك] ولینانا، وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة مُعظم في أجناسهم، وله قدم فيهم.

ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم؛ فزال نظامهم، وتحزّرت أجناسهم، وملك كل جنس [منهم] ملكاً على حسب ما ذكرنا من ملوكهم لأمور يطول ذكرها، وقد أتينا على جمل من شرحها وكثير من مبسوطها في كتابنا «أخبار الزمان» من الأمم الماضية، والأجيال الخالية، والممالك الدائرة.

ذكر الإفرنجة والجلالقة، وملوکها (وما يتصل بذلك)

نسبهم وصفاتهم

الإفرنجة والصقالبة والتوكبرد والأشبان وبأجوج وأجوج والترك والخرز وبرجان واللان والجلالقة وغير ذلك من ذكرنا ممن حل الجدي، وهو الشمال، لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح [وهو الأصغر من ولد نوح]؛ فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عَدَّة، وأوسعهم ملكاً، وأكثرهم مدنًا، وأحسنهم نظاماً وانتقاداً لملوکهم، وأكثرهم طاعة؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً، وأعظم منهم نكایة، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك، ولا تحزب، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بويرة، وهي مدينة عظيمة، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العماائر والكُور.

مساكنهم

وكان أوائل بلاد الإفرنجة قبل ظهور الإسلام في البحر جزيرة رودس، وهي الجزيرة التي ذكرنا أنها مقابلة للإسكندرية، وأن فيها دار صناعة المراكب في وقتنا هذا للروم، ثم جزيرة إقريطش، وقد كانت للإفرنجة أيضاً ففتحها المسلمون ونزلوها إلى هذه الغاية، وكانت بلاد إفريقية وجزيرة صقلية للإفرنجة أيضاً، وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان، وهي الأطمة التي يخرج منها أجسام من النار كأجسام الناس بلا رؤوس فتعلو في الهواء بالليل، ثم تسقط في البحر [فتطفو على الماء] وهي الحجارة التي يحك بها الكتابة من الدفاتر، وهي خفاف بيض على هيئة الشهد وأكور الزنابير الصغار، وهي الأطمة المعروفة بأطمة صقلية، وفيها قبر فرفوريس الحكيم الذي صنف كتاب إيساغوجي، وهو المدخل إلى علم المنطق، وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف، وكذلك أتينا على ذكر آطام الأرض، كأطمة وادي برهوت من بلاد حضرموت وببلاد السُّخْر، وأطمة بلاد الزابع من بحر الصين، وأطمة بلاد أسك، وهي ما بين بلاد

فارس [وببلاد الأهواز من أعمال مدينة أرجان من بلاد فارس]، وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخاً، وهي مشهورة بأرض الإسلام، وتفسير أطمة هي عين الناس التي تنبع من الأرض.

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر الحمامات الكبريتية والزاجية، ولا الحمامات التي تظهر من مائتها النار بالأطمة التي ببلاد ماسيدان من أرض أريوجان والسيروان يقال لها التومان [وهي أطمة تظهر من وسط مائتها النار] وهي أطمة عجيبة تمنع ورود الماء عن إطفائها، وتدفعه بشدة قوتها وسلطان لهبها، وهي إحدى عجائب العالم؛ إذ كنا قد أتينا على علل جميع ذلك فيما سلف من كتابنا.

وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجموع ذكرناها، ولمع لوحنا بها، فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأرض الواحات من بلاد مصر، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدّم من كتابنا.

ملوك الإفرنجية

قال المسعودي: ووُجِدَتْ في كتاب وقع إلى بسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه عرماز الأسقف بمدينة جريدة من مدن الإفرنجية في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية [بن هشام] بن عبد الملك بن مروان بن الحكمولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت في عهده: يا أمير المؤمنين، إن أول ملوك إفرنجية «قلودية»، وكان مجوسياً فنصرته أمرأته وكان اسمها غرطلة، ثم ملك بعده ابنه «الذرق»، ثم ولد لذرق ابنه «دقشت»، ثم ولد بعده ابنه «الذرق»، ثم ولد بعده «قرطان» بن دقشت، ثم ولد بعده ابنه «قارلة» ثم ولد بعده ابنه «تبين» ثم ولد بعده «قارلة بن تبين» وكانت ولادته ستاً وعشرين سنة، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس، وقد تدافع أولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم، حتى تفانت الإفرنجية بسببيهم، وصار لذرق بن قارلة صاحب ملوكهم؛ فملك ثمانيناً وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة فحاصرها، ثم ولد بعده ابنه «قارلة بن لذرق» وهو الذي تهادن مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولادته تسعًا وثلاثين سنة، وستة أشهر، ثم ولد بعده ابنه «الذرق» ستة أعوام، ثم وثبت عليه قائداً الإفرنجية المسمى «نوسة»، وملك إفرنجية، وأقام في ملكه ثمان سنين، وهو الذي صالح المجروس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنجية إليهم، ثم

ولي بعده «قارلة بن تقويرة» أربع سنين، ثم ملك بعده «قارلة» آخر، ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ثمولي بعده «الذریق بن قارلة» وهو ملك إفرنجية إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره.

بين عبد الرحمن والجلالقة

قال المسعودي: وأشد ما على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة، كما أن الإفرنجية حرب لهم، غير أن الجلالقة أشد بأساً، وقد كان عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس في هذا الوقت وزير من ولد أمية يقال له أحمد بن إسحاق فقبض عليه عبد الرحمن لأمر كان منه استحق عليه في الشريعة العقوبة، فقتله عبد الرحمن، وكان للوزير أخي يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس، يقال لها شَتَّرِين، فلما نمى إليه ما فعل أخيه عصى على عبد الرحمن، ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصدى في بعض المسلمين، ودَلَّ على عوراتهم، فصار في حيز رذمير ملك الجلالقة، فأعانه على متنزهاتها، فغلب على المدينة بعض علمائه ومنعوه من الدخول إليها، وكتبوا إلى عبد الرحمن، ومضى أمية بن إسحاق أخي الوزير المقتول إلى رذمير، فاصطفاه، واستوزره، وصيরه في جملته، وغزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمورة مملكة الجلالقة المتقدمة صفة بنيانها وأسوارها في باب جمل الأخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وأخبار الأندلس وغير ذلك، وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون، فكانت الواقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر ثلاثة أيام، وكانت للMuslimين عليهم، ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين أمية بن إسحاق، خمسين ألفاً، وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحاق، وخَوْفَه الكمين، ورغبه فيما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدُّ والخزائن، ولو لا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبد الرحمن، وتخلص من رذمير، فقبله عبد الرحمن أحسن قبول، وقد كان عبد الرحمن [صاحب الأندلس] بعد هذه الواقعة جَهَز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الواقعة الأولى، وكانت للMuslimين عليهم إلى هذه الغاية، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - وكان قبله على الملك أردون [وكان قبل أردون أذبُوشن]، والجلالقة والإفرنجية تدين بدين النصرانية على رأي الملكية.

ذكر النوکبرد، وملوکها

نسبهم ومساكنهم

قد تقدم ذكرنا للنوکبرد، وأنهم من ولد يافث بن نوح، وببلادهم متصلة بال المغرب، ومحليهم بالجدي، ولهم جزائر كثيرة فيها أمم من الناس، وهم ذوو بأس شديد ومنعة، ولهم مدن كثيرة يجمعهم ملك واحد، وأسماء ملوکهم في سائر الأعصار «أدنکبس» والمدينة العظمى من مدنهم دار مملكتهم هي يست، ويخترقها نهر عظيم، وهي جانبان، وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبير والعجبات يقال له ساپيط، قد ذكره جماعة من عنى بهذا المعنى ممن تقدم، وكان المسلمين ممن جاورهم من بلاد الأندلس والمغرب غلوبهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باري ومدينة طارنيو ومدينة شبرامة وغيرها من مدنهم الكبار.

ثم إن النوکبرد أنابوا ورجعوا على من [كان] في تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - في أيدي النوکبرد.

قال المسعودي: ومن ذكرنا من الجالقة والإفرنجية والصقالبة والنوکبرد وغيرها من الأمم فديارهم متقاربة، والأكثر منهم حرث لأهل الأندلس، وصاحب الأندلس في هذا الوقت ذو منعة وقوة عظيمة على ما قدمنا من نسبة وأخباره، وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سار إلى الأندلس في أول دولة بنى العباس، وله أخبار كثيرة في كيفية وصوله إلى الأندلس، ودار مملكة الأندلس قرطبة على ما ذكرنا، ولهم مدن كثيرة وعمائر [متصلة] واسعة، وتحفور في أطراف أرضهم، وربما يجتمع عليهم من جاورهم من الأمم من ولد يافث من الجالقة وبرجان والإفرنجية وغيرها من الألسن وصاحب الأندلس في هذا الوقت يركب في مائة ألف، وهو ذو مئنة بالرجال والمال والكراع والعدد، والله أعلم.

ذكر عاد وملوکها

عاد الأولى

ذَكَرَ جماعة من ذوي العناية بأخبار العالم أن الملك يُؤثِّر من بعد نوح من عاد الأولى التي بادت قبلسائر ممالك العرب كلها، ومصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُمْ أَهْلَكَ عَادًا أَلْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠] فإنه يدل على تقدمهم، وأن هناك عاداً ثانية، وأخبر الله عن ملکهم، ونطق بشدة بطشهم، وما بنوه من الأبنية المشيدة التي تدعى على مر الدهور العادية، وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه إياهم: ﴿أَتَبَنُونَ بِيَكْلٍ رِّيعَةً نَّبَقُوْنَ وَتَتَخَذُوْنَ مَصَائِعَ لَعْلَكُمْ تَخَلُّدُوْنَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِيْنَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

عاد أول ملك بعد نوح

وعاد أول من ملك في الأرض قول هذه الطائفة، بعد أن أهلك الله عز وجل الكفار من قوم نوح، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْقَهُمْ مِّنْ بَعْدِ قَوْمٍ نُوحَ وَزَادُوكُمْ فِي الْخَلْقِ بَشَطَّةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيئات النخل طولاً، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر، وكانت نفوسهم قوية، وأكبادهم غليظة، ولم يكن في الأرض أمة هي أشد بطشاً وأكثر آثاراً وأقوى عقولاً وأكثر أحلاماً من قوم عاد، ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم، لقوة آثار الطبيعة فيها، وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عز وجل.

نسب عاد وعبادته وأولاده

وكان عاد رجلاً جباراً عظيم الخلقة، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكان عاد يعبد القمر، وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد، وأنه تزوج ألف امرأة، وكانت بلاده متصلة باليمن، وهي بلاد الأحقاف، وببلاد صحاري [هي و] بلاد عمان إلى حضرموت على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا.

وقد ذكر جماعة من الأخباريين - ممنعني بأخبار العرب، أن عاداً لما توسط العمر

واجتمع له الولد وولد الولد، ورأى البطن العاشر من ولده، وظهور الكثرة مع تشيد الملك واستقامة الأمر، غمر إحسانه الناس، وقرى الضيف، وأحواله متظاهرة، والدنيا عليه مقبلة، فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات.

شديد بن عاد

وكان الملك بعده في الأكبر من ولده، وهو «شديد بن عاد» وكان ملكه خمسماة سنة وثمانين سنة، وقيل غير ذلك.

شداد بن عاد

ثم ملك بعده أخوه «شداد بن عاد» وكان ملكه تسعمائة سنة، ويقال: إنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بنى مدينة إرم ذات العماد، على حسب ما قدمنا فيما سلف من كتبنا عند إخبارنا عن هذه المدينة وتنافع الناس في كيفيةها [وماهيتها] وفي أي بلاد هي.

وهذه عاد الثانية التي ذكرها الله تعالى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ يُمَدِّد إِرَمَ ذَاتَ الْمَعَاوِ﴾ [الفجر: ٦، ٧] وإلى هذه الأمة انتهى البطش، ولشداد بن عاد مسیر في الأرض، وطوف في البلاد [وبأس] عظيم في ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب، وحروب كثيرة، أعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار، ومسؤولنا في ذلك على ما بسطناه من أخبارهم في كتاب «أخبار الزمان»: من الأمم الماضية، والأجيال الخالية، والممالك الدائرة» وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب - عند ذكرنا تفرق الناس ببابيل وتشعب الأنساب، وما قالوا في ذلك من الأشعار - جملًا من أخبار عاد ونبيها هود، فأما تنافع الناس ممن سلف وخلف في العلة التي لها عظمت أجسامهم وطالت أعمارهم فقد أتينا على ذكر ذلك في كتابنا المترجم بـ«كتاب الرؤوس السبعة من السياسة الملوكيّة» وكذلك في كتابنا المترجم بـ«بكتاب الزلف».

[وذكرنا العلة التي ومن أجلها عدم كون السباع والجمال بأرض الأنجلترا، وما يتكون في هذه الأرض من الجواهر في نباتها ومعادتها، وما في أرض جليقية، وإلى هذه الأرض أضيفت مملكة الجلالقة المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب، وهم أشد الأمم على أهل الأنجلترا، وأعظمهم بطشاً من جاورهم، ثم يليهم في الناس أمّة عظيمة الملك يقال لها الوشكنش، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا مما تقدّم تأليف هذا الكتاب].

ذكر ثمود وملوكها، صالح نبيها

مساكن ثمود

قد ذكرنا فيما سلف من ذكر ثمود [ونبئها صالح عليهما السلام] معاً، وإن كنا قد بسطنا ذلك] في غير هذا الكتاب، وكان ملك ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبسى، وديارهم بفتح الناقة، وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية منحوتة في الجبال، ورسومهم باقية، وأثارهم بادية، وذلك في طريق الحاج لمن ورَدَ من الشام بالقرب من وادي القرى، وبيوتهم منحوتة في الصخر بأبواب صغار، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا، وهذا يدل على أن أجسامهم على قدر أجسامنا، دون ما يخبر به الفُصّاص من بعد أجسامهم، وليس هؤلاء كعاد؛ إذ كانت آثارهم ومواقع مساكنهم وبنائهم بأرض الشحر تدل على بعد أجسامهم.

ملوک ثمود

وكان ملك الملك الأول من ملوكهم مائة سنة، وهو عابر بن إرم بن ثمود بن عابر [بن إرم] بن سام بن نوح.

ثم ملك بعده «جندع بن عمرو» بن الذبيـل بن إرم بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وكان ملكه إلى أن هلك مائـي سنة وتسـعين سنة ، وهـلك جندع هذا بعد أن كان من أمر صالح النبي ﷺ ما كان على ما ذكرنا أربعـين سنة ، فـجميع ما مـلك هذا الملك - وهو جندع - ثلاثة وسبـعين سنة ؛ فهو لـاء ملوك ثـمود .

صالح رسول الله إلى ثمود

وبعث الله صالحًا نبيًّا وهو غلام حَدَثٌ لشmod على حين فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة، فدعاهم إلى الله، وملكهم يومئذٍ هو جندع بن عمرو على ما ذكرنا، فلم يجب صالحًا من قومه إلا نفر يسير، وكبر صالح، ولم يزدد قومه من الإيمان إلا بعدها، فلما تواتر عليهم إعذاره وإنذاره ووعده ووعيده ساموه المعجزات، وإظهار

العلمات؛ ليمنعوه من دعائهم، وليعجزوه عن خطابهم، فحضر عياداً لهم، وقد أظهروا وأثنائهم، وكان القومُ أصحابَ إيل، فساموه الآية من جنس أموالهم، وطالبوه بما هو مجانس لأملاكهم، [وذلك] من بعد اتفاق آرائهم فقال له زعيم من زعمائهم: يا صالح، إن كنت صادقاً في قولك، وأنك مُعبِّر عن ربك، فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة، ولتكن [وبراء] سوداء عُشراء تَتَوَجَّا حالكة صافية اللون ذات عرف وناصية وشعر ووبر، فاستغاث بربه، فتحركت الصخرة وتململت، ويدا منها حنيْن وأئين، ثم انصدعت من بعد تمخلص شديد كتمخلص المرأة حين الولادة، وظهر منها ناقة على ما طلبه من الصفة، ثم تلاها من الصخرة سَقْبٌ لها نحوها في الوصف، فأنعمنا في رغى الكلأ وطلب [الماء و] المرعى، فآمن خلق من حضره، وزعيمهم الذي سأله وهو جندع بن عمرو، وأقامت الناقة يحبلون من لبنها ما يعم شربه ثموداً كلها، وضائقتهم في الكلأ والماء، وكان في ثمود امرأتان ذَوَاتا حسن وجمال، فزارهما رجالان من ثمود، وهما قدار بن سالف، ومصدع بن مفرج، والمرأتان عنيزه بنت غنم، وصادف بنت المجبا، فقالت صدوف: لو كان لنا في هذا اليوم ماء لأسقيناكمَا خمراً، وهذا يوم الناقة ووردها [إلى الماء] ولا سبيل لنا إلى الشرب، فقالت عنيزه: بلى والله ولو أن لنا رجالاً لكيفنا إليها، وهل هي إلا بعير من الإيل؟!! فقال قدار: يا صدوف، إن أنا كفيتك أمر الناقة فما لي عندك؟ فقالت: نفسي، وهل حائل دونها عنك، فأجبت الأخرى صاحبها بنحو ذلك، فقالا: ميلا علينا بالخمر، فشريا حتى توسطا السكر، ثم خرجا فاستغوايا تسعه رهط وهم التسعة الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَجُلٍ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وقصدوا طريق الناقة في حال صدورها، فضرب قدار عرقها بالسيف، فعرقبها، وأتبع صاحبه الآخر العرقوب الآخر [بسهمه]، فخررت الناقة لوجهها، ووجأ قدار لبئتها فنحرها، ولاذ السَّقْب بصخرة فلتحقه بعضهم فعقره [وفرقوا لحم الناقة]، وورد صالح فنظر إلى ما فعلوه، فوعدهم العذاب، وكان ذلك في يوم الأربعاء، فقالوا له مستهزئين: يا صالح، متى يكون ما وعدتنا به من العذاب عن ربك؟ فقال: تصبح وجوهكم يوم مؤنس - وهو يوم الخميس - مصفرة، ويوم العروبة محمرة، ويوم شيار مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أسماء الشهور والأيام بلغتهم، فَهُم التسعة بقتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً كما عاجلناه قبل أن يعجلنا، وإن كان كاذباً كما قد أحقناه بناقه، فأتوه ليلاً، فحالت الملائكة بينهم وبينه، وأمطرتهم الحجارة، ومنعه الله منهم، فلما أصبحوا نظروا إلى وجوههم كما وعدهم صفراء كأنها الورس: قد حالت الألوان، وتغيرت الأجسام، وتيقن القوم صدق الوعيد وأن العذاب واقع بهم، وخرج صالح في ليلة الأحد من بين ظهريانيهم مع من خفت

من المؤمنين، فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين، وأتاهم العذاب يوم الأحد، وفيهم يقول بعض من آمن بصالح عليه السلام:

أراكم يا رجال بني عتيد
كأن وجهكم طليت بوزسِ
ويوم عروبة احمررت وجوه
مُصفرَة، ونادوا يال مرسِ
ويوم شيار فاسودَت وجوه
من الحيين قبل طلوع شمسِ
فلما كان أول في ضحاه أثتم صيحة عمت بثغسِ
وفيهم يقول حباب بن عمرو، وكان من اعتزلهم من المؤمنين [وبيان عن ديارهم]:

كانت ثمود ذوي عز ومكانة
ما إن يضام لهم في الناس مِنْ جَارِ
[لا يرهبون من الأعداء حولهم]
وَقَعَ السيف، ولا نزعَا بآوتارِ
فأهلوكوا ناقة كانت لرَبِّهم
قد أنذروها وكانوا غير أبرار
[نادوا قداراً ولحم السَّقْبِ بينهم]
هل للعجل ولهم هل للسبب من ثارِ
[لم يرْعِيَا صالحًا في عقر ناقته]
وأخفروا العهد هذياً أي إخفارِ
[فصادفوا عنده من ربه حَرَساً]
فَشَدُّخوا رؤوسهم شَدُّخاً بأحجارِ
وستذكر فيما يرد من هذا الكتاب - عند ذكرنا لتفرق الناس ببابل - من أخبار ثمود
جملاً، وما كان من أمر الناس [بأرض بابل] وافتراق لغاتهم، وما قاله كل فريق منهم من
الشعر، على حسب ما أعطاهم الله من اللسان، وإن كنا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال
فيما تقدم لنا من كتابنا «أخبار الزمان» وبالله التوفيق.

ذكر مكّة وأخبارها، وبناء البيت

ومن تداوله من جرهم وغيرها، وما لحق بهذا الباب

سكن إسماعيل وأمه بمكّة

ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر، واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذي زرع، وكان موضع البيت رَبْوَة حمراء - أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكنًا، وكان من ظمآن إسماعيل وخبر هاجر ما كان إلى أن أنبع الله لهما زمزم، وأقحط الشحر واليمن، فتفرق العماليقُ وجراهم [في البلاد] ومَنْ هناك من بقايا عاد.

نزول العماليق معهم

فيممت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة، وعليهم السميديع بن هوبر بن لاوي بن قيطور بن كركر بن حيدان، فلما أمعنت بنو كركر في المسير - وقد عدمت الماء [والمرعى]، واشتد بها الجهد - أقبل السميديع بن هوبر يحثهم على السير في شعرٍ له ويشجعهم بما قد نزل بهم، وهو:

سيراوا بنبي الكركر في البلاد إني أرى ذا الدَّهْرَ في فساد
قد سار من قَحْطان ذي الرشاد [جَرْهُمْ لِمَا هَدَاهَا التَّعَادِي]

فأشرف رُؤادهم - وهم المتقدمون منهم لطلب الماء - على الوادي، فنظروا الطير ترتفع وتتحفظ، فهبطوا الوادي ونظرلوا إلى العريش على الرَّبْوَة الحمراء، وفيها هاجر وإسماعيل، وقد زَمَّت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان، وقد روی أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أمنا هاجر، لو لا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجري بما حَوَّطَتْ حوله من الأحجار لجري الماء على وجه الأرض» فسلم الرُّؤاد عليها، واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء، فأئسَت إليهم، وأذنت لهم في النزول، فتلقوها مَنْ [كان] وراءهم من أهليهم، وأخبروهم خبر الماء، فنزلوا الوادي مطمئنين، مستبشرين بالماء،

وبما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت الحرام، [فرجين وعيل إسماعيل]، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه.

وقد ذكرنا في هذا الكتاب وغيره ما قاله الناس في ذلك من قخطان ونزار وتزوج إسماعيل بالجداء بنت سعيد العملاقي.

زيارة إبراهيم الأولى لابنه

وقد كان إبراهيم استاذن سارة في زيارة إسماعيل، فأذنت له، فوافي مكة وإسماعيل في الصيد [والرعى] ومعه أمه هاجر، فسلم على الجداء [بنت سعد] زوجة إسماعيل، فلم ترد عليه، فقال: هل من منزل؟ فقالت: لا ها الله، قال: فما يفعل رب البيت؟ قالت: هو غائب، فقال لها: إذا ورد فأخبريه أن إبراهيم يقول لك بعد مسألته عنك وعن أمك: استبدل بعثبة بيتك غيرها، وانصرف إبراهيم من فوره نحو الشام، وراح إسماعيل وهاجر، فنظر إلى الوادي قد أشرق وأنار، والأغنام تتنسم الآثار، فقال لزوجته الجداء: هل كان لك بعدي من خبر؟ قالت: نعم، شيخ ورَدَ عليَّ، وأخبرَه بالقصة، فقال: ذاك أبي خليل الرحمن، وقد أمرني بتخليلك، فالحقِي بأهلك، فلا خير فيك.

نزول جرهم مكة

وتسامعت جرهم ببني كركر ونزلتهم الوادي، وما هم فيه من الخصب وإدرار الضرع، وهم في حال القحط، فبادروا نحو مكة، وعليهم الحارث بن ماضض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيني بن نبت بن جُرهم، حتى أتوا الوادي، ونزلوا مكة، واستوطنوها مع إسماعيل ومن تقدمهم من العمالق من بني كركر، وقد قيل في [بني] كركر: إنهم من العمالق، وقيل: إنهم من جرهم، والأشهر أنهم من العمالق، وتزوج إسماعيل زوجته الثانية، وهي سامة بنت مهلل بن سعد بن عوف بن هيني بن نبت.

زيارة إبراهيم الثانية

واستاذن إبراهيم سارة في زيارة إسماعيل، فاستحلقته غيرة عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزل من ر McCabe، وقد تنازع الناس على أي شيء كان ر McCabe: فمنهم من قال: إنه كان راكباً على البراق، ومنهم من قال: على أثاث، وقيل غير ذلك من الحيوان، فلما أتى إبراهيم الوادي سلم على زوجة إسماعيل الجرهمية، فسلمت عليه، ورحت به وتلقته بأحسن لقاء، وسألها عن إسماعيل وهاجر، فأخبرته بخبرهما، وأنهما في رعيهما، وعرضت عليه النزول، فأبى، وقيل: إن هاجر كانت قد ماتت ولها من السن تسعون

سنة، وألحت الجرهمية على إبراهيم في التزول، فأبى، فقدمت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد، فدعا فيه بالبركة، وجاءته بحجر كان في البيت فما عن ركباه، وجعلته تحت قدمه اليمنى، ثم رجأَت شعره ودهنته، ثم حَوَّلت الحجر إلى شماله، فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً، ومال برأسه نحوها، فرجأَت له ودهنته، فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال، فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم، فقال لها إبراهيم، ارفعيه، فسيكون له شأن ونبأ بعد حين، ثم قال لها: إذا جاءك إسماعيل فقولي له: إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك: احتفظ بعتبة بيتك، فنعمت العتبة هي، وسار إبراهيم راجعاً نحو الشام.

سر تسمية إسماعيل

وقيل: إنما سمي إسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هَرَبَت من سيدتها سارة أم إسحاق، وقيل: إن الله سمع دعاء إبراهيم.

وقبض إسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة؛ دفن في المسجد الحرام حِيَالَ الموضع الذي [كان] فيه الحجر الأسود.

أبناء إسماعيل

وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً ذكراً، وهم نابت، وقیدار، وأديبل، ومبسِم، ومشمع، ودوما، ودوام، ومسَا، وحداد، وثيما، ويطور، ونافش وكل هؤلاء قد أُنسَلَ.

بناء الكعبة

وقد كان إبراهيم قدم إلى مكة وإسماعيل ثلاثون سنة، حين أمره الله تعالى ببناء البيت، فبناء، وكان إسماعيل يأتي بالحجر من عدة جبال ذكرت، وطوله ثلاثون ذراعاً، [والحجر فيه وهو سبعة أذرع]، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً، وسمكة سبعة أذرع، وجعل له باباً، ولم يسفف، ووضع الركن موضعه، وألصق المقام بالبيت، وذلك قوله عَزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤدِّنَ في الناس بالحج.

ولادة البيت من جرهم وأبناء إسماعيل

ولما قُبض إسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن إسماعيل، ثم قام من بعده أناس من جُرهم، لغبة جرهم على ولد إسماعيل، وكان ملك جُرهم يومئذ الحارث بن مُضاض،

وهو أول من ولـيـ الـبـيتـ، وـكـانـ يـنـزـلـ هـنـاكـ فـيـ المـوـضـعـ الـمـعـرـوفـ بـقـعـيـقـانـ فـيـ هـذـاـ الـوقـتـ، وـكـانـ كـلـ مـدـنـ مـكـةـ بـتـجـارـةـ عـشـرـهـاـ عـلـيـهـ، وـذـلـكـ فـيـ أـعـلـىـ مـكـةـ، وـمـلـكـ العـمـالـيـقـ السـمـيـدـعـ بـنـ هـوـبـرـ [بـنـ وـلـايـ بـنـ قـيـطـورـ بـنـ كـرـكـرـ بـنـ حـيـدـ] وـكـانـ يـنـزـلـ أـجـيـادـاـ مـنـ أـسـفـلـ مـكـةـ، وـكـانـ يـعـشـرـ مـنـ دـخـلـ مـكـةـ مـنـ نـاحـيـتـهـ، وـكـانـ بـيـنـهـمـ حـرـوبـ، فـخـرـجـ الـحـارـثـ اـبـنـ مـضـاضـ مـلـكـ جـرـهـمـ تـقـعـقـعـ مـعـهـ الرـماـحـ وـالـدـرـقـ، فـسـمـيـ المـوـضـعـ بـقـعـيـقـانـ لـمـاـ ذـكـرـنـاـ، وـخـرـجـ السـمـيـدـعـ مـلـكـ العـمـالـيـقـ وـمـعـهـ الـجـيـادـ مـنـ الـخـيـلـ فـعـرـفـ المـوـضـعـ بـأـجـيـادـ إـلـىـ هـذـاـ الـوقـتـ، فـكـانـتـ عـلـىـ الـجـرـهـمـيـنـ وـافـتـضـحـوـاـ، فـسـمـيـ المـوـضـعـ فـاضـحـاـ إـلـىـ هـذـاـ الـوقـتـ، ثـمـ اـصـطـلـحـوـاـ وـنـحـرـوـاـ [الـجـزـرـ] وـطـبـخـوـاـ فـسـمـيـ المـوـضـعـ بـطـابـخـ إـلـىـ الـآنـ، وـصـارـتـ وـلـايـةـ الـبـيـتـ إـلـىـ الـعـمـالـيـقـ، ثـمـ كـانـ لـجـرـهـمـ عـلـيـهـمـ، وـأـقـامـوـاـ وـلـاـةـ الـبـيـتـ نـحـوـ ثـلـاثـمـائـةـ سـنـةـ، وـكـانـ آخـرـ مـلـوـكـهـمـ الـحـارـثـ بـنـ مـضـاضـ الـأـصـغـرـ اـبـنـ عـمـرـوـ بـنـ الـحـارـثـ بـنـ مـضـاضـ الـأـكـبـرـ، وـزـادـوـاـ فـيـ بـنـاءـ الـبـيـتـ، وـرـفـعـتـهـ عـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ مـنـ بـنـاءـ إـبـراهـيمـ عـلـيـهـ الـحـلـالـةـ.

إـسـافـ وـنـائـلـةـ صـنـمانـ

وـبـغـتـ جـرـهـمـ فـيـ الـحـرـامـ وـطـغـتـ، حـتـىـ فـسـقـ رـجـلـ مـنـهـمـ فـيـ الـحـرـمـ بـأـمـرـأـةـ، وـكـانـ الـرـجـلـ يـدـعـيـ بـإـسـافـ وـالـمـرـأـةـ نـائـلـةـ، فـمـسـخـهـمـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ حـجـرـيـنـ صـيـرـاـ بـعـدـ ذـلـكـ وـثـيـنـ وـعـبـدـاـ تـقـرـبـاـ بـهـمـاـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ، وـقـيـلـ: بـلـ هـمـاـ حـجـرـانـ نـحـتـاـ وـمـثـلـاـ بـمـنـ ذـكـرـنـاـ وـسـمـيـاـ بـأـسـمـائـهـمـاـ، فـبـعـثـ اللـهـ عـلـىـ جـرـهـمـ الرـعـافـ وـالـنـمـلـ وـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ الـآـفـاتـ فـهـلـكـ كـثـيرـ مـنـهـمـ، وـكـثـرـ وـلـدـ إـسـمـاعـيلـ [وـصـارـوـاـ ذـوـيـ قـوـةـ وـمـنـعـةـ فـغـلـبـوـاـ عـلـىـ أـخـوـالـهـمـ جـرـهـمـ] وـأـخـرـجـوـهـمـ مـنـ مـكـةـ، فـلـحـقـوـاـ بـجـهـيـنـةـ، فـأـتـاهـمـ فـيـ بـعـضـ الـلـيـالـيـ السـيـلـ فـذـهـبـ بـهـمـ، وـكـانـ الـمـوـضـعـ يـعـرـفـ بـإـضـمـ، وـقـدـ ذـكـرـ ذـلـكـ أـمـيـةـ بـنـ أـبـيـ الصـلـتـ الثـقـفيـ فـيـ شـعـرـ لـهـ فـقـالـ:

وـجـرـهـمـ دـمـنـواـ تـهـامـةـ فـيـ الدـ هـرـ فـسـالـتـ بـجـمـعـهـمـ إـضـمـ

وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ الـحـارـثـ بـنـ مـضـاضـ الـأـصـغـرـ الـجـرـهـمـيـ:

كـأنـ لـمـ يـكـنـ بـيـنـ الـحـجـوـنـ إـلـىـ الصـفـاـ أـنـيـسـ، وـلـمـ يـسـمـرـ بـمـكـةـ سـامـرـ
بـلـ نـحـنـ كـنـاـ أـهـلـهـاـ، فـأـبـادـنـاـ صـرـوفـ الـلـيـالـيـ وـالـجـدـودـ الـعـوـاـئـرـ
وـكـنـاـ لـإـسـمـاعـيلـ صـهـراـ وـوـصـلـةـ وـلـمـأـ تـدـرـ فـيـهـاـ عـلـيـنـاـ الدـوـاـئـرـ
وـكـنـاـ وـلـاـ الـبـيـتـ مـنـ بـعـدـ نـابـتـ نـطـوـفـ بـذـاكـ الـبـيـتـ وـالـخـيـرـ ظـاهـرـ
[فـبـدـلـنـاـ رـبـيـ بـهـاـ دـارـ غـرـبـةـ بـهـاـ الذـئـبـ يـعـوـيـ وـالـعـدـوـ الـمـحاـصـرـ]
وـفـيـمـاـ ذـكـرـنـاـ مـنـ أـخـبـارـهـمـ يـقـولـ عـمـرـوـ بـنـ الـحـارـثـ بـنـ مـضـاضـ الـأـصـغـرـ الـجـرـهـمـيـ.

وكنا ولة البيت والقاطن الذي إليه يؤدى نذرة كل محرم سكناً بها قبل الظباء وراثة لها عنبني هيني بن نبت بن جزهم [وفي ذلك يقول.

كهفنا جرهم، وأية كهفي وولاة لبيته والحجاب فسقوا في الحرام بعد تقاهم واستعاضوا العقاب بعد الشواب] ثم صارت ولية البيت في ولد إياد بن نزار بن معد، وكانت حروب كثيرة بين مصر وإياد، وكانت لمصر على إياد، فانجلوا عن مكة إلى العراق. وسنورد بعد هذا جملة من أخبار مكة وولد نزار وخزاعة وغيرهم.

رواية أخرى في الولاة بمكة

قال المسعودي : وقد أتينا على جمل من الأخبار في هذا الباب من أخبار جرهم وغيرها، ووُجِدَتْ في [وجهه] آخر من الروايات أن أول من ملك من ملوك جرهم بمكة مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة، ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مُضاض مائة وعشرين سنة، ثم ملك بعد الحارث بن عمرو ماتي سنة، وقيل دون ذلك، ثم ملك بعده عمرو بن الحارث مائتي سنة [وقيل دون ذلك] ثم ملك مُضاض بن عمرو الأصغر ابن الحارث بن عمرو بن مُضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن أربعين سنة.

وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعبيد وطسم وجليس والعماليق ووبار وجرهم، ولم يبق من العرب إلا من كان من عدنان وقططان، ودخل من بقي من ذكرنا من العرب البائدة في عدد قحطان وعدنان، فانمحى أنسابهم وزالت آثارهم.

العماليق

وقد كانت العماليق بَعَثَتْ في الأرض، فسلط الله عليهم ملوك الأرض فأفتقها، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للروم وأنسابها من الحق ولد عملاق وغيرهم، من ذكرنا، بولد عيسو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأن علماء العرب تسبّبوا إلى غير هذا النسب، وهو الأشهر في الناس؛ وقد رثّهم الشعراء: فقال بعض من رثاهم:

مضى آل عملاق فلم يبق منهم خطير، ولا ذو نخوة متشاوس

عَتُوا فَأَدَالَ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَحْكَمَهُ عَلَى النَّاسِ هَذَا وَعْدُهُ وَهُوَ سَائِسٌ

طسم وجديس

وَأَمَا طَسْمٌ وَجَدِيسٌ فَتَفَانَتْ فِي نَحْوِ مِنْ سَبْعِينِ سَنَةً فِي الْبَرَارِيِّ، بِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الشَّخْنَاءِ، وَطَلَبَ الرِّيَاسَةَ، فَدَثَرُوهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ بَاقِيَةً، فَضَرَبُتْ بِهِمُ الْعَرَبُ الْمُثُلُّ، وَضَرَبَتْ بِهِمُ الشَّعَرَاءُ الْمَقَالَ [فَمَنْ ذَلِكَ مَا قَالَهُ بَعْضُ الشَّعَرَاءِ مِنْ رَثَاهِمْ فِي قَوْلِهِ:]

فَوَيْلٌ لِمَنْ جَوَى هُمْ رَسِيسٌ مِنَ الْلَّاؤَا لَطَسْمٌ أَوْ جَدِيسٌ
بَنُو عَمٍّ تَفَانَوا بِالْمَذَاكِيِّ وَبِالْيَوْمِ الْأَخْمَمِ الْعَيْطَمُوسَ]

أصحاب الرس

أَمَا الرَّسُّ وَأَصْحَابِهِ فَقَدْ قَدَّمَا ذَكْرَهُمْ فِيمَا سَلَفَ مِنْ كِتْبَنَا، وَهُمْ قَوْمٌ حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ الْعَبْسِيِّ، بَعْثَهُ اللَّهُ [إِلَيْهِمْ] فَكَذَبُوهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ خَبْرِهِ لَمَعًا، وَقَدْ قِيلَ فِي أَصْحَابِ الرَّسُّ أَوْجُهٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَقَدْ ذَكَرْتَ هَذِهِ الْقَبَائِلُ فِي التَّوْرَاةِ، وَكُلُّ يَرْجُعٍ إِلَى وَلَدِ سَامَ بْنَ نُوحٍ. مِنْ بَنِي إِرْمَ بْنِ سَامٍ وَهُوَ مِنْ وَلَدِهِ عَوْصَ بْنِ إِرْمَ، وَمِنْ وَلَدِهِ [عَابِرُ بْنُ إِرْمَ، وَمِنْ وَلَدِهِ] مَاشُ بْنُ إِرْمَ.

النبيط

[فَوَلَدْ عَوْصَ بْنَ عَوْصَ، وَوَلَدْ عَابِرُ ثَمُودَ بْنَ عَابِرٍ، وَوَلَدْ مَاشُ بْنَ إِرْمَ] نَيِّطٌ
ابن مَاشٌ؛ فَسَائِرُ النَّبَطِ وَمَلُوكُهَا تَرْجِعُ فِي أَنْسَابِهِ إِلَى نَبَطٌ بْنُ مَاشٍ.

مساكن عاد وثمود وجديس

وطسم وعيلام ونبيط

فَحَلَّ عَادُ بْنُ عَوْصَ بْنُ سَامَ بْنُ نُوحٍ وَوَلَدُهُ الْأَحْقَافُ مِنْ بَلَادِ حَضْرَمَوْتَ،
وَحَلَّ ثَمُودُ بْنُ عَابِرٍ بْنُ إِرْمَ بْنُ سَامَ بْنُ نُوحٍ وَوَلَدُهُ أَكْنَافُ الْحِجَازِ، وَحَلَّ جَدِيسُ بْنُ عَابِرٍ
بِبَلَادِ جَوْ، وَهِيَ بِلَادِ الْيَمَامَةِ مَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِجَازِ، وَهَذَا الْبَلَدُ فِي هَذَا الْوَقْتِ - وَهُوَ
سَنَةِ اثْتَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ وَثَلَاثَمَاتِهِ - يَدُ وَلَدِ الْأَخِيْضِرِ الْعُلُوِّيِّ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ الْحَسَنِ بْنِ عَلَيِّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مَجاوِرُ الْبَحْرَيْنِ، وَمِنْ فِيهَا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ، وَحَلَّ طَسْمٌ
ابن لَوْدَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ وَوَلَدُهُ الْيَمَامَةُ مَعَ بَنِي جَدِيسٍ، وَحَلَّ عَمْلِيقُ بْنُ لَوْدَ بْنِ سَامَ بْنِ
نُوحٍ الْحِجَازِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا وَلَدَ عِيَالَمَ فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُمْ حَلُوا الْأَهْوَازَ
وَفَارِسَ، وَهُوَ عِيَالَمُ بْنُ سَامَ بْنِ نُوحٍ، وَحَلَّ نَبَطٌ بْنُ مَاشٍ بْنُ إِرْمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ بَابِلَ،

فغلبوا على العراق، وهم النبط، ومنهم ملوك بابل الذين قدمنا ذكرهم، وأنهم الملوك الذين عمروا الأرض، ومهدوا البلاد، وكانوا أشر ملوك الأرض، فأدال منهم الدهر، وسلبهم الملك والعز، فصاروا على ما هم عليه من الذل في هذا الوقت بالعراق وغيرها.

دعوى الشعوبية

وقد زعم جماعة من المتكلمين - منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن الأشرس وعمرو ابن بحر الجاحظ - أن النبط خير من العرب؛ لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبي ﷺ منهم لم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد [أعطاهم إيه، ومن لم يجعله منهم فلم يدع أكبر شرف في الدنيا إلا وقد] أعزراهم منه وسلبهم إيه، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبي ﷺ منهم أكبر من النبي ﷺ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عزّ وجّل النبي ﷺ منهم أكبر من خروج النبي ﷺ عنهم، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء.

الرد على الشعوبية

قال المسعودي : ولما لم يبال من قدمنا ذكره من تشريف النبط وتفضيلهم على ولد قحطان وعدنان وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزّة قال لهم المجتمع عن قحطان وزمار : إذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من سلب النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبي ﷺ منهم، فللعرب أيضاً التعلق بهذه العلة التي اعتل بها النبط ، فتقول : قد صرنا بعد أفضل من النبط؛ لما امتحنا به من سلب ما جعل الله للنبي من الفضل في شدة امتحانهم بسلب النبي ﷺ عنهم ، والنبط أيضاً قد صاروا دون العرب؛ إذ للعرب من فضل النبي ﷺ مما جعله الله لهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله إياهم من النبي ﷺ ما ليس للنبي؛ فتضير العرب أيضاً خيراً من النبط ، وهذا لا يصح لهم إلا كما يصح عليهم ، والكلام متوجّهٌ عليهم فيما قالوه ، ومكافئٌ لعلتهم فيما أوردوه : من تفضيل النبط على العرب .

وقد ذكرنا تنازع الناس في الأنساب والفضل بها وبالأعمال دون الأنساب [ومن قال العمل والنسب] ومن قال العمل دون النسب ، وما قالته الشعوبية وغيرها في كتابنا «المقالات ، في أصول الديانات» .

وقد ذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى في كتابه في الرد على الشعوبية عللاً كثيرة ، وذكر أن من اختصه الله تعالى من عباده ، واصطفاه من خلقه ، أذاك على طريق الثواب أم على طريق التفضيل؟ قال : فإن زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب

ومفهوم خطابها؛ لأنه لا يقال لمن أعطى الأجير أجنته ووفى العامل ثوابه: قد اختص فلان فلاناً بعطيته، وإنما يقال ذلك إذا نطوع عليه بالعطية بغير عمل ومنعها غيره بغير جرم، وإن زعموا أنه تفضّل قلنا لهم: فإذا جاز أن يصرف الله عزّ وجلّ رحمته إلى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به، فلِمَ لا يجوز أن يشرفهم بأنسابهم، وإن لم تكن الأنساب من أعمالهم؟! فإن قالوا: ليس من العدل أن يشرفهم بغير أعمالهم، قلنا لهم: أرأيتم إن عارضكم معارض؟ فزعم أنه ليس من العدل أن يمن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم، وبغير معصية كانت من غيرهم، ماذا يكون الفصل بينكم معاشر الشعوبية وبينه، وقد أخبر الله عنمن اصطفاه من خلقه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَّ مَادِمَ وَقُوَّاً وَمَالَ إِبْرَاهِيمَ وَمَالَ عِمَرَنَ عَلَى الْعَلَمَيْنَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَيِّعُ عَلَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤]؟

والواجب على ذي النسب الشريف، والمجد الرفيع، أن لا يجعل ذلك سلماً إلى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه، والاتكال على آبائه، فإن شرف الأنساب يحضر على شرف الأعمال، والشريف بهذا أولى؛ إذ كان الشرف يدعو إلى الشرف [ولا يثبط عنه] كما أن الحسن يدعو إلى الحسن [ويحرك عليه] وأكثر الممدودين إنما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم، وهذا كثير في أشعار الناس ومثارو كلامهم، وقد قال الشاعر في هاشم بن عبد مناف وهو إمام ذوي الأنساب:

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الشَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالَ مَكَةَ مُسْتَشِونَ عِجَافُ
فَمَدْحُهُ بِعَمَلِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ نَسْبَهُ، إِنَّ كَانَ شَرِيفًا رَفِيعًا، إِنَّمَا يَنْبَغِي لِذُوِي الْأَنْسَابِ
أَنْ يَكُونُوا كَمَا قَالَ أَخْوَهُمْ وَشَرِيكُهُمْ فِي النَّسَبِ [عَامِرُ بْنُ الطَّفْلِيْل]:

وَإِنِّي إِنْ كُنْتُ ابْنَ سِيدِ عَامِرٍ وَفِي السُّرُّ مِنْهَا وَالصَّرِيحُ الْمُهَذَّبُ
فَمَا سَوَدَّتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةِ أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأَمْ وَلَا أَبْ
وَلَكَنِّي أَحْمَيْ حَمَاهَا، وَأَتَقِيْ أَذَاهَا، وَأَرْمِيْ مَنْ رَمَاهَا بِمَقْنَبِ
وَكَمَا قَالَ الْآخِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرِمْتَ أَوَائِلَنَا يَوْمًا عَلَى الْأَخْسَابِ نَتَكَلْ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلَنَا تَبْنِي، وَنَفْعَلْ كَالَّذِي فَعَلُوا

ولاية خزانة أمر البيت

قال المسعودي: ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انزع بني ربيعة، فنزلوا تهامة، فسمُّوا خزانة لانخزاهم، ولما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار،

وكانت على إياد قلعت الحجر الأسود ودفته في بعض المواقع، فرأى ذلك امرأة من خزاعة، فأخبرت قومها، فاشترطوا على مصر أنهم إن رددوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم، فوفوا لهم بذلك، ووليت خزاعة أمر البيت.

عمرو بن لحي أول من عبد الأصنام

وكان أول من ولـيه منهم عمرو بن لـحي، واسم لـحي حارثة بن عامر، فـغير دين إبراهيم وبـذله، وـبعث العرب على عبادة التماثيل؛ لـخبر قد ذـكرناه في هذا الكتاب وـغيره، حين خـرج إلى الشـام ورأـي قـوماً يـعبدون الأـصنام، فـأعـطوه مـنها صـنـماً فـنصـبهـ على الكـعبة، وـقوـيت خـزـاعة، وـعـمـ الناس ظـلم عمـرو بن لـحي، وـفي ذـلك يـقول رـجل مـن جـزـهم كان عـلى دـين الحـنـيفـية:

يـا عمـرو لا تـظـلم بـمـكـة إـنـهـا بـلـد حـرام
سـائل بـعـاد أـيـن هـم وـكـذاك تـحـتـرم الأـنـام
وـبـنـي العـمـالـيق الـذـين لـهـم بـهـا كـان السـوـام

ولـما أـكـثر عمـرو بن لـحي مـن نـضـب الأـصنـام حـول الكـعبـة وـغـلب عـلى العرب عـبـادـتها، وـانـمـحت الحـنـيفـية مـنـهـم إـلا لـمـعاً، قـالـ في ذـلك شـحـنة بن خـلف الجـرهـمي:

يـا عمـرو، إـنـك قد أـحـدـثـت آلهـة شـتـى بـمـكـة حـول الـبـيـت أـنـصـابـاً
وـكـان لـلـبـيـت رـبـ واحد أـبـداً فـقـد جـعـلـتـ لهـ في النـاس أـربـابـا
لـتـعـرـفـنـ بـأـنـ الله مـهـلـ بـسـيـصـطـفـي دونـكـم لـلـبـيـت حـجـابـا
وـعـمـرـ عمـرو بن لـحي ثـلـاثـمـائـة سـنـة وـخـمـسـاً وـأـرـبعـين سـنـة.

خـصال ولاية الـبـيـت ثـلـاثـة خـصال

وـكـانـت ولاـية الـبـيـت في خـزـاعة وـفي مـصـر ثـلـاثـ خـصالـ: الإـجازـةـ بـالـنـاسـ مـن عـرـفةـ، وـالـإـفـاضـةـ بـالـنـاسـ غـدـاءـ النـحرـ إـلـى مـئـىـ، فـانتـهـى ذـلكـ مـنـهـم إـلـى أبيـ سـيـارـةـ فـدـفعـ أبوـ سـيـارـةـ مـنـ مـزـدـفـةـ إـلـى مـنـيـ أـرـبعـين سـنـةـ عـلـى حـمـارـ لـهـ، وـلـمـ يـعـتلـ فـي ذـلكـ، حتـىـ أـدـرـكـهـ إـلـاسـلامـ، فـكـانـتـ العـرـبـ تـمـثـلـ بـهـ فـتـقـولـ «أـصـحـ مـنـ عـنـيرـ أبيـ سـيـارـةـ»ـ.

وـفيـ أبيـ سـيـارـةـ يـقـولـ قـائـلـهـمـ:

نـحنـ دـفـعـنـا عنـ أـبـيـ سـيـارـهـ حتـىـ أـفـاضـ مـخـرـمـاً حـمـارـهـ
مـسـتـقـبـلـ القـبـلـةـ يـدـعـوـ جـارـهـ

النساء والنساء

والنساء للشهور الحرم، وكانت النساء في بني مالك بن كنانة، وكان أولهم أبو القلمس حذيفة بن عبد، ثم ولده قلع بن حذيفة، وورد الإسلام وأخرهم أبو ثمامه، وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصدر اجتمعت إليه، فيقوم فيهم، فيقول: اللهم إني قد أحللت أحد الصقرين الصفر الأول، وأنسات الآخر للعام المقبل، وظهر الإسلام وقد عادت الشهور الحرم إلى بيتها على ما كانت عليه في أصلها، وذلك قول النبي ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض» وما ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث إلى آخره، فأخبر الله عزّ وجلّ عنهم بذلك بقوله تعالى: «إِنَّمَا الَّذِي يُرِيكُمْ فِي الْكُفَّارِ» [التوبه: ٣٧] وقد فخر بذلك عمير بن قيس ابن جذل الطعان فقال:

السن الناصئين على معده شهور الحلّ نجعلها حراما؟

ولاية البيت تؤول إلى قصي بن كلاب

وقد كان قصي بن كلاب بن مرة تزوج ابنة حليل، وحليط هو آخر من ولد البيت من خزاعة، وقد كان عمرو بن لحي - حين عمر ما ذكرنا من السنين - مات وله من الولد وولد الولد ألف، ولما حضرت حليلًا الوفاة - وهو آخر من ولد البيت من خزاعة - وقد كان عمرو على ما ذكرنا جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصي بن كلاب، فقيل له: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقها، فجعل ولاية البيت إليها، وفتح الباب وغلقها إلى رجل من خزاعة يعرف بأبي غبشان الخزاعي، فباعه أبو غبشان إلى قصي بيعير ورق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلاً، فقالت «أنحر من صفة أبي غبشان» وفي بيعه لولاية البيت بيعير ورق من الخمر ونقله ولاية البيت من قومه من خزاعة إلى قصي بن كلاب، يقول الشاعر:

أبو غبشان أظلم من قصي وأظلم منبني فهير خزاعة
فلا تلحوا قصيًا من شرارة ولوموا شيخكم إذ كأن بائعة

وقال في ذلك آخر:

إذا افتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهراً بزق، بئس مفتخر الفخور

وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلاثة عشر سنة، واستقام أمر قصي، وعشر على مَنْ دخل مكة من غير قريش، وبني الكعبة، ورتب قريشاً على منازلها في النسب بمكة، وبئن الأبطحى من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً.

قريش البطاح

وقريش البطاح: هي قبائل عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني عبد العزى بن قصي، وزهرة، ومخزوم، وتيم بن مرة، وجُمَح، وسهم، وعدى، وهم لعنة الدم، وبني عتيك بن عامر بن لؤي.

قريش الظواهر

وقريش الظواهر: بنو [محارب، و] الحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي، وفي ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار للضحاك ابن قيس الفهري:

تطاولت للضحاك حتى رَدَّته إلى نسب في قومه متقارض
فلو شاهدْتني من قريش عصابة قريش البطاح لا قريش الظواهر
ولكنهم غابوا وأصبحت شاهداً فقبحت من حامي ذمار وناصر
[فريكان منهم ساكن بطن يثرب ومنهم فريق ساكن بالمشاعر]

الأحلاف

والأحلاف من قريش: بنو عبد الدار بن قصي، وسهم، وجُمَح، وعدى، ومخزوم.

المطيبون

والْمُطَيِّبُون: بنو عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة، وتيم، وبنو الحارث بن لؤي.

وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي في امرأة:
ولها في المطيبين جدود ثم نالت ذواب الأحلاف
إنها بين عامر بن لؤي حين تُدعى وبين عبد مناف

الإيلاف والتقرير

وأخذت قريش الإيلاف من الملوك، وتفسير ذلك الأمان، وتقرّشت، والتقرش :
الجمع ، ومنه قول ابن حلزة اليشكري :

إخوة فَرَّشُوا الذُّوبَ عَلَيْنَا فِي حَدِيثٍ مِنْ دَهْرِنَا وَقَدِيمٍ
وَرَحَلَتْ قَرِيشٌ - حِينَ أَخَذَ لَهَا الإِيلَافَ مِنَ الْمُلُوكِ - إِلَى الشَّامَ [وَالْجَبَشَةَ] وَالْيَمَنَ
وَالْعَرَاقَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مَطْرُودُ الْخَزَاعِي :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُخَوْلُ رَخْلَهُ هَلْ نَزَلْتَ بِالْأَيْلَافِ
الْأَخِذِينَ الْعَهْدَ مِنْ آنَافِنَا وَالرَّاجِلِينَ بِرِخْلَةِ الْإِيلَافِ
وَلَقَرِيشِ أَخْبَارَ كَثِيرَةَ ، وَكَذَلِكَ لِجَرْهِمِ وَخُزَاعَةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ مَعْدِ ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى
جَمِيعِهَا فِيمَا سَلَفَ مِنْ كَتَبِنَا ، وَإِنَّمَا نَذَرْ فِي هَذَا الْكِتَابِ لِمَعَ ، تَنبِيَهًا بِهَا عَلَى مَا سَلَفَ ،
وَسَنُورِدُ عِنْدَ ذَكْرِنَا تَفْرِقَ النَّاسُ مِنْ بَابِ جَمْلَةِ أَخْبَارِ مَكَةَ وَعَبْدِ الْمَطْلَبِ وَالْجَبَشَةِ ،
وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَحِقَ بِهَذَا الْمَعْنَى ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ذكر جوامع (من) الأخبار، ووصف الأرض والبلدان وحنين النفوس للأوطان

عمر بن الخطاب يستوصف بقاع الأرض

ذكر ذوو الدرية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر، وغير ذلك من الأرض - كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنا نأنس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونزيد أن نتبوأ الأرض، ونسكن [البلاد و] الأمصار، فَصَفَ لِي المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثُرُه التربة والأهوية في سكانها.

تأثير البيئة الطبيعية

فكتب إليه ذلك الحكيم: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، مما تناهى في التشريق [ولجأ] في المطلع السانح منه النور] فهو مکروه لاحتراقه وناريته وحدّته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضرّ سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضرّ ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغله فيه أحرق بnarته ما اتصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة، وسأصف لك - يا أمير المؤمنين - القطع المسكونة من الأرض.

الشام

أما الشام فـسُحبَتْ وآكام، وريح وغمام، وغَدق وركام، ترطب الأجسام، وتبلد الأحلام، وتصفي الألوان، لا سيما أرض حمص فإنها تحسن الجسم، وتصفي اللون، وتبلد الفهم، وتنزع غوره، وتجفى الطبع، وتذهب بماء القرحة، وتنصب العقول، والشام - يا أمير المؤمنين، وإن كانت على ما وصفت لك - فهي مسرح خصب، ووابل سُكب، كثُرت أشجاره، واطردت أنهاره، وغمرت أعشاره، وبه منازل الأنبياء،

والقدس المجتبى، وفيه حلأً أشراف خلق الله تعالى من الصالحين والمتعبدين، وجباره مساكن المجتهدين والمنفردين.

مصر

وأما أرض مصر فأرض قَوْرَاءَ غَوْرَاءَ، ديار الفراعنة، ومنازل العجابرة، تحمد بفضل نيلها، وذمُّها أكثر من حمدتها، هواؤها راكد، وحرها زائد، وشرها وارد، تكدر الألوان، وتخبب الفطن [وتكثر الإِحْنَ] وهي معدن الذهب والجوهر والزمرد، والأموال ومغارس الغَلَات، غير أنها تسمن الأبدان وتسود الأبشار، وتنمو فيها الأعمار، وفي أهلها مكر ورياء، وخيث ودهاء وخديعة، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن؛ لترادف فتنها، واتصال شرورها.

اليمن

وأما اليمن فيضعف الأجسام، ويذهب الأحلام، ويذهب بالرطوبة، في أهله هم كبار، ولهم أحساب وأخطار، مَعَايِضُه خصبة، وأطرافه جدبة، وفي هواه انقلاب، وفي سكانه اغتيال، وبهم قطعة من الحسن، وشعبة من الترفة وفقرة من الفصاحة.

الحجاز

وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حَرُور، وليله بهُور، ينحف الأجسام، ويُجفف الأدمغة، ويُشجع القلوب، ويُيسّط الهمم، ويُبعث على الإِحْنَ [وهو بلد مَخْلٌ قَنْطَنْ جَذْبٌ ضَنْكٌ].

المغرب

وأما المغرب فَيَقْسِي القلب، ويُوحش الطبع، ويُطِيشُ اللَّبْ [ويذهب بالرحمة، ويُكتسب الشجاعة، ويُقيشع الضراعة، وفي أهله عذر، ولهم خبث ومكر، ديارهم مختلفة، وهمهم غير مؤتلفة، ولديارهم في آخر الزمان نباءً عظيم، وخطب جسيم، من أمر يظهر، وأحوال تبهر].

العراق

وأما العراق فمنار الشرق، وسُرَّةُ الأرض وقلبها، إليه تحدرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فَصَفتْ أُمْزَجَةُ أهله، ولطفتْ أَذْهَانَهُمْ، واحتَدَّتْ

خواطرهم، واتصلت مساراتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم، وثبتت بصائرهم، وقلب الأرض العراق [وهو المجتبى من قديم الزمان] وهو مفتاح الشرق، ومسلك النور [ومسرح العينين، ومدنه المدائن وما والاهما] والأهل أعدل الألوان، وأنقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل، وفوائد المبرات، وفضائله كثيرة؛ لصفاء جوهره، وطيب نسيمه، واعتدال تربته، وإغراق الماء عليه، ورفاهية العيش به.

الجبال

وأما الجبال فتخشن الأجسام وتغلظها، وتبدل الأفهام وتقطعها، وتفسد الأحلام، وتみて الهمم؛ لما هي عليه من غلظ التربة، ومتانة الهواء، وتكافنه، واختلاف مهابه، وسوء متصرفاته.

والأخلاق والصور - يا أمير المؤمنين - تناسب البلد وتحاذيه، وتجاربه، وتوافقه وتضاهيه، وكل بلد اعتدل هواه، وخف ماؤه، ولطف غذاؤه - كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه، وتشاكل ما عليه أركانه، وما أسسَ عليه بنائه [وكل بلد يزول عن الاعتدال، اتنسب أهله إلى سوء الحال].

خراسان

وأما خراسان فتكبر الهمام؛ وتعظم الأجسام؛ وتلطف الأحلام؛ ولأهلها عقول وهم طامحة؛ وفيهم غُوص وتفكير؛ ورأي وتقدير.

فارس

وأما بلد فارس فخصب الفضاء، رقيق الهواء، متراكم الماء، مُعتم بالأشجار، كثير الشمار؛ وفي أهله شُحّ، ولهم خُبْت؛ وغرائزهم سيئة، وهم مهمن دنيئة، وفيهم مكر وخداع.

خوزستان

وأما بلاد خوزستان فهي كدرة الأهواء، تفسد الأحلام، وتبدل الأفهام، وتخبت الهمم، وستأكل الكرم، يساق أهله سُوقَ الأتعام، وهم الهمج الطُّغَام.

الجزيرة

وأما أرض الجزيرة فتناسب البر بالهاء اللطيف، وفيها خصب وسُرخ، ولأهلها بأس ومراس.

والبر - يا أمير المؤمنين - أفضل قطع الأرض وأسنها، وأشرفها وأعلاها، نحو الأنجداد والتهائم؛ لحماية الهواء الأقداء عن سكانه، ودفعه الآفات عن قطّانه، وسماحة المثوى، وتهذيب الماء، وصحة المُتَّسِّم، وارتفاع الأكدار، وذهب الأضرار.

واعلم - يا أمير المؤمنين - أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساماً فضل بعضها على بعض، فأفضل أقسامها العراق، فهو سيد الآفاق، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال.

الهند والصين

وأما الهند والصين وببلاد الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك؛ لأنها منازل شاسعة، وبلدان نائية، كافرة طاغية.

وفي الذي ذكرته لك ما أشفى بك إلى ما شَمَرْتَ إلى علمه، وكل ما وصفته في هذه البلدان فهو الأعم من أمور أهلها، والأغلب على أحوالهم، فإن وجد فيهم أحد بخلاف ذلك فهو النادر يا أمير المؤمنين، والحكم [في ذلك] للأغلب.

كعب الأخبار يصف لعمر العراق

قال المسعودي: وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أراد الشخصوص إلى العراق - حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم - سأله كعب الأخبار عن العراق، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لما خلق الأشياء الحق كل شيء بشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك، فقال المال: وأنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة: وأنا معك، [قال الخصب: وأنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك، فقال الفقر: وأنا لاحق بالحجاز، فقالت القناعة: وأنا معك]، فقال الشقاء: وأنا لاحق بالبودي، فقالت الصحة: وأنا معك.

وصف إقليم بابل وحنين المؤلف إليه

قال المسعودي: وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه، وساحت مسافتنا عنه، وولدت في قلوبنا الحنين إليه، إذ كان وطننا ومسقطنا، وهو إقليم بابل، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً، وقدره عظيماً، وكانت عناتهم إليه مصروفقة، وكانوا يشتون بالعراق، وأكثرهم يصيرون بالجبال، وينتقلون في الفصول [إلى الصرود من الأرض والحرور]، وقد كان أهل المروءات في الإسلام كأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الحرور، وهو العراق، ويصيرون في الصرود، وهي الجبال، وفي ذلك يقول أبو دلف:

وإنني امرؤ كِسْرَوِيُّ الفعال أصِيفُ الجبال وأشْتُو العرَا
وذلك لما خض به هذا الإقليم من كثرة مراافقه، واعتدال أرضه، وغضارة عيشه،
ومادة الواقفين إليه، وهو دجلة والفرات، وعموم الأمان فيه، وبُعد الخوف عنه،
وتوسطه الأقاليم السبعة، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد؛ لأن
أرضه من إقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب،
وبذلك اعتدلت ألوان أهله [واقتدرت] أجسامهم، فسلموا من شُفرة الروم والصقالبة،
وسواد الحبشة، وغلظ البربر، ومن جفنا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع
الأقطار، وكما اعتدلوا في الجبلة كذلك لطُفوا في الفطنة، والتمسك بمحاسن الأمور،
وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام، ويعز عليّ ما أصارتنى إليه الأقدار من فراق هذا المسر
الذي عن بقعته فصلنا، وفي قاعته تجمتنا، لكنه الزمان الذي من شيمته التشتت، والدهر
الذى من شروطه الإبانة [ولقد أحسن أبو دلف العجلي حيث يقول]:

أيا نَكْبَةَ الدهر التي طَوَّحَتْ بنا أَيادي سَبَّا في شرقها والمغارب
قَفِي بِالتي نَهَوْيَ فَقَد طَرُّتْ بِالقِيلِ إِلَيْها تَنَاهَتْ رَاجِعَاتِ الْمَصَابِ]

الحنين إلى الأوطان

وقد ذكر الحكماء - فيما خرجنا إليه من هذا المعنى - أن من علامه وفاء المرء ودومام
عهده حينه إلى إخوانه، وسوقه إلى أوطانه، وبكاءه على ما مضى من زمانه، وأن من
علامة الرشد أن تكون التفوس إلى مولدها مشتقة، وإلى مسقط رأسها تَوَافَةً، وللإلف
والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه.

وقال ابن الزبير: ليس الناس بشيء من أقسامهم أقمع منهم بأوطانهم، وقال بعض
حكماء العرب: عمر الله البلدان بحب الأوطان، وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة
والديك؛ لأن غذاءك منها، وغذاءهما منه، وقال آخر: أولى البلدان [بصيانتك] بلد
رضعت ماءه، وطعمت غذاءه، وقال آخر: ميلك إلى موضع مولدك من كرم مَحْتِدِك،
وقال بقراط: يداوي كل عليل بعقاير أرضه؛ فإن الطبيعة تتطلع إلى هوانها، وتنزع إلى
غذائهما، وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أفعع أدويتها، وقال جالينوس: يتروح العليل
بنسيم أرضه كما تنبت الحبة بيلل الأرض.

وللتفسُّر في علة حنينها إلى الأوطان كلام ليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتابنا
المترجم بـ «سر الحياة» وفي كتاب «طب النفوس».

فضل علم الأخبار

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم، وضع آخره؛ إذ كان كل علم من الأخبار يستخرج [وكل حكمة منها تستبط] والفقه منها يستشار والفصاحة منها تستفاد، وأصحاب القياس عليها يبنون، وأهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ، وأمثال الحكماء فيها توجد، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقبس، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس، وكل غريبة منها تعرف، وكل عجيبة منها تستطرف، وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل، ويستذهب موقعه الأحمق والعاقل، وبأنس بمكانه ويتزع إلى إليه الخاصي والعامي، ويميل إلى روایاته العربي والعجمي.

فضل الكتاب

وبعد؛ فإنه يوصل به كل كلام، ويتزين به في كل مقام، ويتجمل به في كل مشهد، ويحتاج إليه في كل محفل، ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم، وشرف منزلته صحيح في كل فهم، فلا يصبر على فهمه وتيقن ما فيه، وإيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد له، وفهم معناه، وذاق ثمرته، واستسفر من غرره ونال من سروره، وقد قالت الحكماء: الكتاب نعم الجليس، ونعم الذخر، إن شئت ألهتك نوادره وأضحكتك بوادره وإن شئت أشجتك مواعظه وإن شئت تعجبت من [غرائب] فوائده، وهو يجمع لك الأول والأخر [والغائب والحاضر] والنافق والواfir [والشاهد والغائب] والبادي والحاضر، والشكل وخلافه، والجنس وضده، وهو مبت ينطق عن الموتى، ويتترجم عن الأحياء وهو مؤنس ينشط بنشاطك، وينام بنومك، ولا ينطق [معك] إلا بما تهوى، ولا نعلم جاراً أبداً، ولا خليطاً أنصاف، ولا ريفقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل خيانة، ولا أجدى نفعاً، ولا أحمد أخلاقاً [ولا أقل خلافاً] ولا أدول سروراً، ولا أسكث غيبة، ولا أحسن موافاة، ولا أجعل مكافأة، ولا أخف مؤنة [منه] إن نظرت إليه أطال إمتعاك، وشحد طباعك، وأيّدَ فهمك، وأكثر علمك، وتعرف منه في شهر، ما لا تأخذه من أفواه الرجال في دهر، وينغيك عن كد الطلب، وعن الخضوع لمن أنت أثبت منه أصلاً، وأسمع فرعاً، وهو المعلم الذي لا يجفوئك، وإن قطعت عنه المائدة، لم يقطع عنك الفائدة، وهو الذي يطيعك بالليل طاعته لك بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته لك في الحضر، وقد قال الله تبارك وتعالى: «أَقْرَأَ يَاسِرَ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ عَلَيْهِ أَقْرَأَ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقُلُوبِ عَلَّمَ الْإِنْسَنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» [العلق: ١ - ٥]، كإشاراته عن نفسه بالكرم، [وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب]:

لَمَّا عَلِمْتُ بَأْنِي لَسْتُ أَعْجَزُهُمْ
 فَصَرَّتْ بِالْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ جَذَّلًا
 فَرِدًا يُحَدِّثُنِي حَقًّا وَيُنْطَقُ لِي
 الْمُؤْنَسُونُ هُمُ الْلَائِي غُنِيَّتْ بِهِمْ
 لَهُ دُرُّ جَلِيسِي لَا جَلِيسَهُمْ
 فَوْتًا لَا هَرْبًا قَدَمْتُ أَحْتَجْبُ
 حَاوِي الْبَرَاءَةِ لَا شَكُورًا لَا شَغْبُ
 عَنْ عِلْمِ مَا غَابَ عَنِي مِنْهُمُ الْكِتَبُ
 فَلَيْسَ لِي فِي جَلِيسٍ غَيْرُهُمْ أَرْبُّ
 فَذَا عَشِيرُهُمْ لِلسُّوءِ يَرْتَقِبُ]

وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس، وزُرْقَل مُقْبَرَة، وكان لا يُرَى إِلَّا وفي يده كتاب يقرؤه، فسُئلَ عن ذلك، فقال: لم أَرْ واعظًا أو ععظ من قبر، ولا ممتعًا أمعن من كتاب، ولا شيئاً أسلم من الوحدة، فقيل له: قد جاء في الوحدة ما جاء؛ فقال: ما أفسدتها للجاهل وقد قال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها:

رَوَامِلُ لِلأسفارِ لَا عِلْمَ عِنْهُمْ بِجِيدِهَا إِلَّا كَعِلمَ الْأَبَاعِرِ
 لَعْمُرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَحْمَالِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ

ذكر تنازع الناس

**في المعنى الذي من أجله سمي يمنا،
والعراق عراقاً والشام شاماً، والججاز حجازاً**

تنازع الناس في اليمن وتسميتها؛ فمنهم من زعم أنه إنما سمي يمنا لأنَّه عن يمين الكعبة [وهو التيمن] وسمى الشام شاماً لأنَّه عن شمال الكعبة، وسمى الججاز حجازاً لأنَّه حاجز بين اليمن والشام، نحو ما أخبر الله عز وجل عن البرزخ الذي بين بحر القلزم وببحر الروم بقوله عز وجل: «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِراً» [النمل: ٦١] وإنما سمي العراق عراقاً لمصب المياه إليه كالدجلة والفرات وغيرهما من الأنهار، وأظنه مأخوذاً من عراقي الدلو وعرافي القرية.

ومنهم من زعم أنَّ اليمن إنما سمي يمنا ليمنه، والشام شاماً لشُؤمه، وهذا قول يعزى إلى قُطْرُب النحوي في آخرين من الناس.

ومنهم من رأى أنه إنما سمي [اليمن] يمنا لأنَّ الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تَيَامَنَ بعضهم يمين الشمس وهو اليمن، وبعضهم تشاعم فوسِم له هذا الاسم، وسندُك تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع، وبعض ما قالوه في ذلك من الشعر، عند مسييرهم في الأرض واختيارهم البقاع.

وقيل: إنما سمي الشام شاماً لشامت في أرضه بيض وسود، وذلك في التراب والبقاء [والحجر] وأنواع النبات والأشجار، وهذا قول الكلبي.

وقال الشرقي بن القطامي: إنما سمي الشام شاماً بسام بن نوح، لأنَّه أول من نزله وقطن فيه، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول سام، فقالت: شام.

وقيل: إن سَامِرَا إنما سميت بذلك إضافة إلى سام.

وقيل: إن أول من سكنها من خلفاءبني العباس سماها بهذا الاسم، وإنها سرور لمَن رآها.

وفد ذكر في أسماء هذه [المعاقل و] البقاء والأقصار وجوه غير ما ذكرنا قد اتبنا عليها فيما سلف من كتبنا.

ذكر اليمن وأنسابها، وما قاله الناس في ذلك

اختلف الناس في أنساب قحطان؛ فحكي هشام بن الكلبي عن أبيه والشرقي بن القطامي أنهما كانا يذهبان إلى أن قحطان بن الهيسع بن نبت - وهو نابت - بن إسماعيل ابن إبراهيم الخليل، ويحتاجان لذلك بوجوه من الأخبار. منها ما روي عن النبي ﷺ، وهو ما رواه هشام عن أبيه عن ابن عباس، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي ﷺ مر على فتية من الأنصار يتناضلون، فقال: «أرموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راماً، أزموا وأنا مع ابن الأدرع» رجل من خزاعة، فرمى القوم نبالهم، وقالوا: يا رسول الله، من كنت معه فقد نضل!! فقال «ازموا وأنا معكم جميعاً».

قال المسعودي: وسائل ولد قحطان من حمير وكهلان يأبى هذا القول وينكره وقد ثبت أن قحطان هو يقطن، وإنما عرب فقيل له: قحطان.

وحكى ابن الكلبي، أن اسم يقطن في التوراة الجبار بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ ابن سام بن نوح، والواضح من أنساب اليمن، وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان إلى هذا الوقت قوله عملاً، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير[والذي] وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأمم، وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد وببلاد حضرموت والشحر والأحقاف وببلاد عمان وغيرها من الأمصار أن الصحيح في نسب قحطان أنه قحطان بن عابر بن شالخ [بن سالم] - وهو قينان - بن إرفخشذ بن سام بن نوح، وقد كان لعاشر ثلاثة أولاد: فالغ، وقحطان، وملكان، والحضر ﷺ من ولد ملكان في قول كثير من الناس، ولد لقحطان أحد وثلاثون ذكراً، وأمهم حَيَّة بنت روق بن فرارة بن منقد ابن سويد بن عوصن بن إرم بن سام بن نوح، فولد قحطان يعرب بن قحطان، ولد يعرب يشجب، ولد يشجب ولدين، أحدهما عبد شمس - وهو سباء بن يشجب - وإنما سمي سباء لسيبه السبايا، فولد سباء حمير وكهلان ابني سباء، والثاني لم يعقب، وإنما العقب من ولد هذين - وهما حمير وكهلان؛ فهذا المتفق عليه عند أهل الخبرة بهما، والمتيقن لديهما.

وكان الهيثم بن عدي الطائي [ينكر أيضاً أن يكون قحطان من ولد إسماعيل، وإنما] إسماعيل تكلم بلغة جرهم؛ لأن إسماعيل كان سرياني اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن حين أسكنه هو وأمه هاجر بمكة على ما ذكرناه، فصاهر جرهم، ونشأ على لغتها، ونطق بكلامها [وققا في مزاده خطابها].

ونزار تأبى أن يكون إسماعيل نشا على لغة جُرهم، ويقولون: إن الله عز وجل أعطاه هذه اللغة، وذلك أن إبراهيم خلفه هو وأمه هاجر، وإسماعيل ابن ست عشرة سنة، وقيل: ابن أربع عشرة سنة، في واد غير ذي ذرع، ولا أنيس، فحفظهما الله تعالى، وأتبى لها زمز، وعلم إسماعيل هذه اللغة العربية.

قالوا: ولغة جرهم غير هذه اللغة، ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معد، فهذا يقضي بإبطال قول من قال: إن إسماعيل أعراب بلغة جرهم، ولو وجب أن يكون إسماعيل [إنما كان] عربي اللسان لأجل جرهم [ونشته فيها] لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم، أو لغيرها ممن نزل مكة، وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان، وولده يعرب بخلاف لسانه، وليس منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة إسماعيل ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة إبراهيم [خليل الرحمن] فيمنع إسماعيل فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان.

ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا، في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم من سلف وخلف، وكذلك مناظرات السودان والبيضان والعرب والعجم ومناظرات الشعوبية في كتابنا «أخبار الزمان».

وزعم الهيثم [بن عدي] أن جرهم بن عابر بن سباء بن يقطن هو قحطان، وتتأول الهيثم قول النبي ﷺ - حين قال لرماة من الأنصار، «ازموا يابني إسماعيل» - أنه ﷺ نسبهم إلى إسماعيل من جهة الأمهات، وما نالهم من الولادات من ولد إسماعيل؛ لأن النبي ﷺ لا يزيل نسباً قد ثبت، ولا يثبت نسب قوم إلى غير آبائهم، وقد نقلوا ذلك قوله عملاً وقد روي عنه ﷺ أن سائله من مزاد عن سباء: أرجلاً كان أو امرأة أو واديأ أو جبل؟ فقال له: «كان رجلاً، ولد له عشرة فتشاءم أربعة ويتamen ستة؛ فالذين تشاءموا لهم وجذام وعاملة وعسان، والذين تيامروا حمير والأزد ومذحج وكثابة والأشعريون وأنمار الذين هم بجيلة وخشعم».

وقال أبو المنذر: هو أنمار بن إياد بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء.

قال المسعودي : وقد تنوزع في نسب أنمار؛ فذهب الأكثر إلى أن أنماراً وإياداً وربيعة ومضر بنو نزار بن معد بن عدنان، وإنما دخلوا في اليمن فأضيقوا إليهم، وما ذكرناه عن النبي ﷺ فيمن تيامن وتشاءم فمن أخبار الأحاديث، وليس مجئه مجيء الاستفاضة التي يقطع بها العذر ويثبت بها الحكم.

وللناس في هؤلاء كلام كثير، وقد ذكر هشام عن أبيه الكلبي قال: كان يقال لسائر ولد سباء السبيئون، ولم تكن لهم قبائل تجمعهم دون سباء.

وستذكر فيما يرد من هذا الكتاب خبر عمرو بن عامر مزيقياء، وخبر طريفة الكاهنة، وخبر عمران الكاهن، وهو أخو عمرو بن عامر، وأخبار العرم والسيل، وما كان من كهانتهما في أمر السد وسيل العرم، وتفرق القبائل من مأرب، ومن لحق بعمان وشبوة والشّرّاء والشام وغير ذلك من بقاع الأرض.

ذكر اليمن وملوكها، ومقدار سينتها

سباء

أول من يُعدَّ من ملوك اليمن سباء بن يشجب بن يعرُب بن قحطان، واسمه عبد شمس، وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمي سباء على ما قيل، والله أعلم، وكان ملكه أربعمائه سنة وأربعاً وثمانين سنة.

حمير

ثم ملك بعده ولده حمير بن سباء بن يشجب بن يعرب، وكان أشجع الناس في وقته، وأفرسهم، وأكثرهم جمالاً، وكان ملكه خمسين سنة، وقيل: أكثر من ذلك، وقيل: أقل [وكان يعرف بالمتوج] وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن.

كهلان

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سباء، فطال عمره، وكبر سنُه، واستقامت له الأمور، وكان ملكه ثلاثة مائة سنة، وقيل غير ذلك.

ثم عاد الملك بعد أن هلك كهلان إلى ولد حمير؛ لأنَّه يطول ذكرها، وتanax في الملك [بين] ولد حمير وكهلان.

عمرو بن سباء

ثم ملك أبو مالك عمرو بن سباء، واتصل ملكه، وغمر الناس عدله، وشملهم إحسانه، وكان ملكه ثلاثة مائة سنة.

قول آخر

وقيل: إن أول من ملك بعد كهلان الرائيش، وهو الحارث بن شداد. ثم ملك جبار

بن غالب [بن زيد بن كهلان، فكان ملكه عشرين ومائة سنة.

ثم ملك بعده الحارث بن مالك] بن إفريقيس بن صيفي بن يشجب بن سباً، وكان ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة، وقيل: إن هذا الملك هو [أبو] أبرهة بن الرائش المعروف بذى المنار.

جماعة من ملوك اليمن

ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن ملظاظ، وكان ملكه مائة وخمساً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش، وهو ذو المنار، وكان ملكه مائة وثمانين سنة. [ثم ملك بعده إفريقيس بن أبرهة، فكان ملكه مائة وأربعاً وستين سنة].

ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة، وهو ذو الأذعار، وكان ملكه خمساً وعشرين سنة.

ذو الأذعار

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش، وقد تنوزع في مقدار ملكه؛ فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين، ومنهم من ذكر سبعاً، ومنهم من قال: ستاً.

تابع الأول

ثم ملك تبع الأول، وكان ملكه أربع مائة سنة، وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلتة، وقيل غير ذلك، والأشهر ما قدمنا.

بلقيس وسليمان

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد، وكان لمولدها خبر ظريف ذكره الرواة فيما روی أنه تصور لأبيها في بعض قنصه حيثان سوداء وبقضاء فأمر بقتل السوداء منها، وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن، وأن الشيخ زوجه بابته، واشترط عليه شروطاً [لها]، فعلقت منه بلقيس، ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها، فغابت عنه، في خبر ظريف، وهو موجود في كتاب [أخبار] التباعة.

وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها، وليس قصتنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم؛ لأنهم يتذمرون لهذا ويمنعونه، وإنما نحكي في هذا الكتاب أقاويل أصحاب الحديث المتقددين للشرع والمسلمين للحق، وأخبار الشياطين على حسب ما نطق به الكتاب

المتزل على النبي المرسل، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه عليه السلام، وإعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة، وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ما ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه، وما اقتضى من خبر الهدى، وما اقتضى من أمرهما، فملك سليمان اليمن ثلاثة وعشرين سنة.

بقية ملوك اليمن

ثم عاد بعد ذلك الملك إلى حمير؛ فملكهم ناشر النعم بن عمرو بن يعفر وكان ملكه خمساً وثلاثين سنة.

[ثم ملك بعده شمر بن إفريقيس بن أبرهة، فكان ملكه ثلاثة وخمسين سنة.]

ثم ملك بعده تبع الأقرن بن شمر، فكان ملكه مائة وثلاثة وستين سنة.]

ثم ملك بعده كليكرب بن تبع وكان ملكه مائة سنة وعشرين سنة، وسَيِّرَ قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان.

ثم ملك بعده حسان بن تبع، فاستقام له الأمر، ثم وقع بعد ذلك في ملكه تنازع وخلاف، وكان ملكه إلى أن قتل خمساً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده عمرو بن تبع، وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضي، وكان ملكه أربعاء وستين سنة، ويقال: إنه عدم النوم، لما كان من فعله من قتل أخيه.

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب، وهو الملك السائر من اليمن إلى الحجاز، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب، وأراد هدم الكعبة فمنعه مَنْ كان معه من أخبار اليهود، فكساها القصب اليماني، وسار نحو اليمن وقد تهُّدَ وغلبت على اليمن اليهودية، ورجعوا عن عبادة الأصنام، وكان ملكه نحو مائة سنة.

ثم ملك عمرو بن تبع بعد تفرق وتنازع كان بينهم في الملك، ثم خلع عن الملك وملكوأ عليهم مرثد بن عبد كلال، وكان في اليمن تنازع وحروب، وكان ملكه أربعين سنة.

ثم ملك بعده وليعة بن مرثد، وكان ملكه تسعاً وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح بن وليعة بن مرثد، وهو الذي يدعى شيبة الحمد، وكان ملكه ثلاثة وتسعين سنة، وقيل: أقل من ذلك، وكان علاماً وله سير مُدوّنة.

ثم ملك بعده عمرو بن ذي قيفان، وكان ملوكه سبع عشرة سنة ثم ملك بعده ذو شَّتَّاتِر، ولم يكن من أهل بيت الملك، فغرى بالأحداث من أبناء الملك، وطالهم بما طالب به النسوان، وأظهر الفسق باليمن واللواء، وعدل مع ذلك في الرعية، وأنصف المظلوم، وكان ملوكه ثلاثة سنّة، وقيل: تسعًا وعشرين سنّة، وقتلته يوسف ذو نواس، وكان من أبناء الملك، خوفاً على نفسه، وأنفة أن يفسق به.

أبرهة أبو يكسوم

ثم ملك بعده يوسف ذو نواس بن زرعة بن نبع الأصغر ابن حسان بن كليرب، وقد ذكرنا خبره في غير هذا الموضوع من كتبنا، وما كان من أمره ما أصحاب الأخدود، وتحريقه إياهم بالنار، وهم الذين خبر الله تعالى عنهم في كتابه فقال: «قُتِلَ أَخْنَثُ الْأَخْدُودُ الْتَّارِ دَاتِ الْوَوْدُ» [البروج: ٤، ٥] وإليه عبرت الحبشة من بلاد ناصع والزيلع، وهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا، إلى بلاد [غلافقة من ساحل] زبيد من أرض اليمن، فغرق يوسف نفسه بعد حروب طويلة خوفاً من العار؛ وكان ملوكه مائتي سنّة وستين سنّة، وقيل أقل من ذلك، وذلك أن النجاشي ملك الحبشة لما بلغه فعل ذي نواس بأتباع المسيح عليه السلام، وما يعندهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنار بعث إليه الحبشة وعليهم أرياط بن أصحمة فملك اليمن عشرين سنّة، ثم وثبت عليه أبرهة الأشرم أبو يكسوم فقتله ملك اليمن، فلما بلغ ذلك من فعله إلى النجاشي غضب عليه، وحلف بال المسيح أن يجز ناصيته، ويريق دمه، ويطأ تربته - يعني أرض اليمن - فبلغ ذلك أبرهة فجز ناصيته وجعلها في حق من العاج، وجعل من دمه في قارورة وجعل من تراب اليمن في جراب، وأنفذ ذلك إلى النجاشي ملك الحبشة، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافاً، وكتب إليه يعترف بالعبودية، ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته، وأنه بلغه أن الملك حلف بال المسيح أن يجزنا ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه، وأنفذت إلى الملك ناصتي فليجزها بيده، وبدمي في قارورة فليهرقه، ويجرب من تربة بلادي فليطأه بقدميه، وليطفي الملكعني غضبه، فقد أبّرت يمينه، وهو على سرير ملوكه، فلما وصل ذلك إلى النجاشي استصوب رأيه، واستحسن عقله، وصفح عنه [وكان ذلك في ملك قباذ ملك فارس].

أبو رغال

وأبرهة أبو يكسوم هو الذي سار ب أصحاب الفيل [إلى مكة] لإنحراف الكعبة وذلك لأربعين سنة خلت من ملك [كسرى] أنو شروان، فعدل إلى الطائف فبعثت معه ثقيف بأبي رغال ليidle على الطريق السهل إلى مكة، فهلك أبو رغال في الطريق بموضع يقال له

المُعْمَس بين الطائف ومكة، فرجم قبره بعد ذلك [والعرب تتمثل بذلك]، وفي ذلك يقول جرير بن الخطفي في الفرزدق .

إذا مات الفرزدق فاز جمُوْهُ كما ترمونَ قبْرَ أبي رغال

قال المسعودي رحمه الله ، وقيل : إن أبا رغال وجده صالح النبي ﷺ على صدقات الأموال ، فخالف أمره ، وأساء السيرة ، فوثب عليه ثيف - وهو قسي بن منه - فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم ؛ فقال غيلان بن سلمة . وذكر قسوة أبيهم ثيف على أبي رغال نحن قسي وقسا أبونا وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

نَفَوا عن أرضهم عَذَّان طُرَا وَكَانُوا لِلْقَبَائِل قَاهِرِينَا وَهُم قَاتِلُوا الرَّئِيس أَبَا رُغَالِ بِمَكَة إِذ يَسُوقُ بِهَا الْوَضِينَا

وفي ذلك يقول عمرو بن دراك العبدى :

تَرَانِي إِنْ قَطَعْتْ حِبَالَ قَيْسِ وَخَالَفْتُ الْمُرْوَرَ عَلَى تَمِيمِ لِأَعْظَمِ فَجَرَّةً مِنْ أَبِي رُغَالِ وَأَجْوَرَ فِي الْحُكُومَةِ مِنْ سَدُومِ

[وقال مسکین الدارمي :

وَأَزْجُمُ قَبْرَهُ فِي كُلِّ عَامٍ كَرَجْمُ النَّاسِ قَبْرَ أَبِي رُغَالَ] وَسَنُورِدُ فِيمَا يَرِدُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ قصَّهُ الْجَبَشَةُ وَوَرَودُهُمُ الْحَرَمُ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي ذَلِكَ .

قبور العبادي

قال : وفي طريق العراق إلى مكة - وذلك بين الشعلية والهير نحو البطن - موضع يعرف بقبر العبادي ، ترجمته المارة إلى هذه الغاية كما ترجم قبر أبي رغال ، وللundayي خبر طريف قد أتينا على ذكره في كتاب «أخبار الزمان» وفي كتاب «حداثن الأذهان» وفي «أخبار أهل البيت رضي الله عنهم» .

فكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الأبابيل ثلاثة وأربعين سنة .

وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبعين عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين سنة للإسكندر وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر .

و سنذكر بعد هذا في الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملًاً من تاريخ عالم وتاريخ الأنبياء والملوك، في باب نُفره لذلك إن شاء الله تعالى.

ثم ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم، فعمَّ أذاه سائر اليمن، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة.

مسروق بن أبرهة

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة، فاشتدت وطأته على اليمن، وعمَّ أذاه سائر الناس، وزاد على أخيه وأخيه في الأذى، وكانت أمه من آل ذي يَزَنْ، وكان سيف بن ذي يَزَنْ قد ركب البحار، ومضى إلى قيسر يستتجده، فأقام بيابه سبع سنين، فأبى أن يتبعجده، وقال: أنتم يهود، والحبشة نصارى، وليس في الديانة أن تنصر المخالف على المافق، فمضى إلى كسرى أنوشروان فاستتجده ومتَّ إليه بالقرابة، وسألَه النصرة، فقال له كسرى: وما هذه القرابة التي أدليت بها إليَّ؟ فقال: أيها الملك العِجلة وهي الجلة البيضاء؛ إذ كنت أقرب إليك منهم، فوعده أنوشروان بالنصرة [على السودان] وشغل بحرب الروم وغيرها من الأمم، ومات سيف بن ذي يَزَنْ، فأتى بعده ابنه معد يكرب بن سيف، فصاح على باب الملك، فلما سئل عن حاله، قال: لي قبل الملك ميراث، فوقف بين يدي أنوشروان، فسألَه عن ميراثه، فقال: أنا ابن الشيخ الذي وعده الملك بالنصرة على الحبشة، فوجَّهَ معه وَهَرَزَ إصبهنَ الدليل في أهل السجون، فقال: إن فتحوا فلنا، وإن هلكوا فلنا، وكلا الوجهين فتح، فحملوا في السفن [في دجلة] ومعهم خيولهم وعددهم وأموالهم، حتى أتوا أَبْلَأَ البصرة - وهي فرج البحر، ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة، وهذه مدن إسلامية - فركبوا في سفن البحر، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مَثَوْبَ، فخرجوا من السفن، وقد كان أصيب بعضهم في البحر، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت، ولا وجه يؤملون المَفَرَّ إليه فيجهدون أنفسهم، وفي ذلك يقول رجل من حضرموت:

أصبح في مَثَوْبَ أَلْفَ في الجَهَنْ من رهط سasan ورهط مهرسْنْ
ليخرجوا السودان من أرض اليمن دَلَّهُمْ قَضَدَ السَّبِيلِ ذُو يَزَنْ

في شعر له طويل، ونما خبرهم إلى ملك اليمن مسروق بن أبرهة فأتاهم في مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر مَنْ سكن اليمن [من الناس] وتصافَ القوم، وكان مسروق على فيل عظيم، فقال وهرز لمن كان معه من الفرس: أصدقوهم الحملة، واستشعروا الصبر، ثم تأمل ملتهم وقد نزل عن الفيل فركب جملًاً،

ثم نزل عن الجمل فركب فرساً، ثم أنف أن يحارب على فرس فركب حماراً استصغرأ لأن أصحاب السفن، فقال وَهْرُزُ: ذهب ملكه، وتنقل من كبير إلى صغير، وكان بين عيني مسروق ياقوته حمراء معلقة في تاجه بمعلاق من الذهب تضيء كالنار، فرمى وَهْرُزُ، ورمي القوم، وقال وَهْرُزُ لأن أصحابه: قد رميت ابن الحمارة، فانظروا إن كان القوم يجتمعون عليه [ولا يتفرقون عنه فهو حي، وإن كان أصحابه يجتمعون عليه] ويتركون عنه فقد هلك، فنظروا إليهم [فراؤهم] يجتمعون ويتفرقون عنه، فأخبروه بذلك، فقال: احملوا على القوم واصدقوهم [فحملوا عليهم وصدقوهم]، فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف، ورفع رأس مسروق ورؤوس خواص الحبشة ورؤسائهم، فقتل منهم نحو ثلاثة ألفاً، وقد كان أنسوشنوان اشترط على معديكرب شروطاً: منها أن الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها [وفي ذلك يقول الشاعر:]

على أن ينكحوا النساء منهم ولا ينكحوا في الفارسينا
[وخرج يحمله إليه] فتوّج وهرز معديكرب بتاج كان معه وبدهه من الفضة ألبسه إياها، [ورتبه في ملكه على اليمن]، وكتب إلى أنسوشنوان بالفتح، وخلف هناك جماعة من أصحابه.

وكان جميع ما ملكت الأحابش [اليمن] اثنين وسبعين سنة، وكان ملك مسروق ابن أبزهه إلى أن قتله وهرز ثلاث سنين، وذلك لخمس وأربعين خلت من ملك أنسوشنوان.

[وأدت معديكرب الوفود من العرب تهنه بالملك، فأتاه عبد المطلب وجده أمية بن أبي الصَّلْتَ، وقد ذكرنا خبر عبد المطلب ووفاته على ابن ذي يزن في هذا الكتاب فيما بعد، وما قيل من الشعر] وفي مسيرة الفرس إلى اليمن ونصرتهم على الحبشة يقول بعض أولاد فارس:

نحن حُصنا البحار حتى فككنا حميرأ من بَلَيَّةِ السُّوْدَانِ
بليوث من آل سasan شُوس يمنعون الحرير بالمران
كستنا البرق في ذري الأبدان وبيض بوادر تتلاًّا
فقتلنا مسروق إذ تاه لَمَّا فلقنا ياقوته بين عينيه
بئْشَابَةِ الفتى الساساني [وَهْرُزُ الديلمي لَمَّا رأه
رابطِ الجأش ثابت الأركان] وحوينَا بلاد قحطان قسراً
ثم سرنا إلى ذري غُمْدان

فنعمنا فيه بكل سرور وَمَنْتَأً على بنى قحطان
وفي ذلك يقول البحترى يمدح أبناء العجم ، ويذكر فضل الفرس على أسلافه لأنه
من قطحان :

فكم لكم من يَدِ يزكوا الثناء بها
ونعمة ذُكْرُها باقٍ على الزَّمْن
إن تفعلوها فليست بِكُرْأَةً نعمكم
ولا يد كأياديكم على اليمَن
أيام جَلَّى أنوشروان جدكم
غيابه الذل عن سيف بن ذي يزن
إذ لا تزال خيول الفرس دافعة
بالضرب والطعن عن صَنْعاً وعن عَدَن
أنتم بنو المنعم المُجْدِي ونحن بنو مَنْ فاز منكم بفضل الطَّول والمَنِ

وفود العرب تهنئه معديكرب

قال المسعودي : وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنته بعود الملك إليه وأشراف العرب وزعماً لها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف [وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف] ، وخويلد بن أسد بن عبد العزى [بن قصي] و [أبو زَمْعَةً] جَدُّ أمية بن أبي الصَّلت التقفي ، وقيل : بل أبو الصلت أبوه ، فدخلوا إليه وهو في أعلى قصره بمدينته صنعاء المعروف بعمدان وهو مُضْمَخ بالعنبر ، وسود المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك [وأبناء الملوك] وأبناء المقاول .

عبد المطلب يهنيء الملك

فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب : إن الله جل جلاله قد أحلك - أيها الملك - مَحَلًا رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً ، باذخاً ، وأنبتك مَنْتَأً طابت أرومته ، وعزت جُرْثُومته ، وثبت أصله ويسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب [موضع و] موطن ، فأنت - أية اللعن ! - رأس العرب وريبعها الذي تُخصب به ، وأنت - أيها الملك - ذروة العرب الذي له تقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلتجيء إليه العباد ، سَلْفُكَ خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يحمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، أيها الملك ، نحن أهل (حرم) الله ، وسَدَّنَةُ بيته ، أشخاصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فَدَحَنَا ، ونحن وفد التهنة ، لا وفد المرزئة فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فقال الملك معديكرب بن سيف : أينْ أختنا ؟ قال : نعم ، قال : أذْنُوه مني ، فادني ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحباً وأهلاً ، وناقة وَرَحَلَاً ،

ومستاخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً، يعطى عطاء جزاً، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسائلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، لكم الكرامة ما أقمنم، والجباء إذا ظعنتم.

أبو زمعة يهنئه

ثم قام أبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقي، فأنشأ يقول:

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن في لجة البحر أحوالاً وأحوالاً
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم تحالهم في سواد الليل أجباراً
ما إن رأيت لهم في الناس أمثلاً
أمسى شريدهم في الأرض فللاً
أرسلتأسداً على سود الكلاب فقد
فاسرب هنئاً عليك التاج مرتفقاً
في رأس عُمْدان داراً منك محللاً
ثم اطل بالمسك إذ شالت نعامتهم
وأنسلِ اليوم في بُرْذِيكَ إسبلاً
تلك المكارم لاقْبَانِ من لبن شيباً
بماء فعاذا بعد أبوالا

ولمعد يكرب بن سيف بن ذي يزن كلام كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها في أمر النبي ﷺ وينذر ظهوره، بشّر به عبد المطلب وأخبره عن أحواله، وما يكون من أمره، وحجاً جميع الوفد، وانصرفوا، وقد أتينا على ما كان من أخبارهم في كتابنا «أخبار الزمان» فأغنى عن إعادة ووصفه.

مقتل معد يكرب

قال المسعودي: وأقام معد يكرب بن سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن، واصطنع عبيداً من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب، فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بعمدان بمدينة صنعاء، فلما صار إلى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة، فقتلوه بحرابهم، وكان ملكه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكاً [و] ملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة.

رواية عبيد بن شريّة

قال المسعودي: وأما عبيد بن شريّة الجرهمي حين وفد على معاوية، وسأله عن أخبار اليمن [وملوكها] وتاريخ سينها، فإذا ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدمتنا في هذا الباب سباً بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ملك مائة سنة وأربعين وثمانين سنة.

ثم ملك بعده الحارث بن شداد بن ملظاط بن عمرو، مائة وخمساً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده أبرهة بن الرأيش، وهو [أبرهة] ذو المنار، مائة وثلاثة وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده إفريقيس بن أبرهه، مائة وأربعين وستين سنة.

[ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبيرهة، خمساً وأربعين سنة].

ثم ملك بعده الهدھاد بن شرحبيل بن عمرو، وهو ذو الصرح، سنة .

ثم ملكت [بعده] بلقيس بنت الهدھاد، سبع سنین.

ثم ملك سليمان بن داود عليه السلام، ثلاثة وعشرين سنة، على حسب ما قدمنا من أمر
بلقيس.

ثم ملك بعده رجbum بن سليمان، سنة .

ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن إفريقيس، ثلاثة وخمسين سنة.

[ثم ملك بعده تبع الأقرن بن عمرو، وهو تبع الأكبر، مائة سنة وثلاثة وخمسين سنة].

ثم ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبع [خمساً وثلاثين سنة].

ثم ملك بعده تبع بن ملکيكرب بن تبع [وهو تبع أبو كرب أسعد بن ملکيكرب أربعاء وثمانين سنة].

ثم ملك بعده كلال بن مثوب، أربعاء وسبعين سنة.

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن تبع [ثلاثمائة سنة وستاً وعشرين سنة].

ثم ملك بعده مرثد، سبعاً وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده أبرهه بن الصباح ، ثلاثة وسبعين سنة .
ثم ملك بعد ذوشناتر بن زرعة ، ويقال يوسف ، ويقال : بل اسمه عريب بن قطن ،
تسعاً وثمانين سنة .

ثم ملك بعده لخنيعة ، ويعرف بذى الشناتر ، أربعاً وثمانين سنة .
فذلك ألف [وتسعمائة سنة وسبعين وعشرون سنة ، وإنما ذكرنا ما حكينا عن عبيد
ابن شريعة في ترتيب ملوكهم ، وتبالن تواریخ سنیهم ، لتأتی على جميع ما قبل في ذلك من
التنازع ، والله ولی التوفيق .]

ملك فارس باليمن

ولما قتلت الحبشه معديكرب بن سيف بن ذي يزن - على حسب ما قدمنا - في
الرحبة بحرابهم كان بصنعاء خليفة لهرز في جماعة من العجم ، ممن كان ضمهم وهرز
إلى معديكرب (فركب و) أتى على من كان هنالك من الحبشه ، وضبط البلد ، وكتب
بذلك إلى وهرز وهو بباب أنوشروان الملك ، وذلك بالمدايان من أرض العراق ، فأعلم
وهرز بذلك الملك ، فسيره في البر في أربعة آلاف من الأسورة ، وأمره بإصلاح اليمن ،
وأن لا يقي على أحد من بقایا الحبشه ، ولا على جند قطط قد شرك السودان في نسبه ،
فأتى وهرز اليمن ، ونزل صنعاء فلم يترك بها أحداً من السودان ولا من أنسابهم ، وملك
أنوشروان وهرز على اليمن إلى أن هلك بصنعاء [ثم ملك بعده النوشجان بن وهرز إلى أن
هلك بها] ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سبحان ، ثم ملك بعده خرزاد ستة أشهر ،
ثم ملك بعده ابن سبحان ، ثم ملك بعده المرزيان وكان من أهل بيت مملكة فارس ، ثم
ملك بعده خر خسرو ، وكان مولده باليمن ، ثم ملك بعده باذان بن ساسان .

ملك اليمن في أبناء إبراهيم

قال المسعودي : فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشه والفرس ، وقد
ملك اليمن رجل من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو يدعى من ملوك اليمن واسمها هنية
ابن أميم بن بدل بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان له شأن عظيم في (ملك)
اليمن ، وطالت أيامه ، وذكره امرأ القيس في شعره (فقال :

وهيئية الذي زادت قواه على زيدان إذ حان الزوال
تمكّن قائماً وبنى طريقاً إلى زيدان أُعيط لا ينال).
(ويقال : إنه متبه بن أميم بن بدل بن لسان بن إبراهيم الخليل)

عاصمة اليمن

وقد كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار، مثل آل ذي سحر وآل ذي الكلاع وآل ذي أصبح وآل ذي يزن، إلايسير منهم فإنهم نزلوا غيرها وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود:

يُوْم شِيدَتْ ظفار قِيلَ: لِمَنْ أَنْ ت؟ فَقَالَتْ: لِحَمِيرِ الْأَخِيَارِ
 ثُمَّ سَيَلَتْ: مَنْ بَعْدَ ذَاكَ؟ فَقَالَتْ: إِنْ مَلْكِي لِلْأَخْبُشِ الْأَسْرَارِ
 ثُمَّ سَيَلَتْ: مَنْ بَعْدَ ذَاكَ؟ فَقَالَتْ: إِنْ مَلْكِي لِفَارَسِ الْأَحْرَارِ
 (ثُمَّ سَيَلَتْ: مَا بَعْدَ ذَاكَ؟ فَقَالَتْ: إِنْ مَلْكِي إِلَى قَرِيشِ التُّجَارِ)
 (ثُمَّ سَيَلَتْ: مَا بَعْدَ ذَاكَ؟ فَقَالَتْ: إِنْ مَلْكِي لِحَمِيرِ وَصَحَارِ)
 وَقَلِيلًاً مَا يَلْبِثُ الْقَوْمُ فِيهَا مِنْذَ شِيدَتْ مَشِيدُهَا لِلْبَوَارِ
 مِنْ أَسْوَدِ يَلْقِيَهُمُ الْبَحْرُ فِيهَا تَشْعَلُ النَّارُ فِي أَعْلَى الدِّيَارِ
 وهذا خبر عن ملوك تداولوها، أخبروا عن ملوكهم قبل كونه، فتداولتها (هذه)
 الملوك على حسب ما وصفناه، ويترقب في المستقبل من الزمان ما ذكرنا من وقود النيران
 في أعلى الديار، وعند أهل اليمن أن ديارهم سيغلب عليها الأحابش في آخر الزمان بعد
 هنات وكواتن وأحداث، وبعث النبي ﷺ وعلى اليمن وعمال كسرى، ثم غالب الإسلام
 فظفر بحمد الله.

وقد أتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك، وسيرهم، ومطافاتهم في البلاد
 وحروبيهم، وأبنائهم في سائر مطافاتهم، في الكتاب الأوسط، فأغنى ذلك عن إعادةه في
 هذا الباب.

مساحة اليمن وحدوده

وبلاد اليمن طويل عريض: حده مما يلي مكة إلى الموضع المعروف بطلحة الملك
 سبع مراحل، ومن صنعاء إلى عدن - وهو آخر عمل اليمن - تسعة مراحل، والمرحلة من
 خمسة فراسخ إلى ستة، والحد الثاني من وادي وحا إلى ما بين مقاوز حضرموت وعمان
 عشرون مرحلة، ويلي الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرنا أنه بحر القلزم والصين
 والهند، فجميع ذلك عشرون مرحلة في ست عشرة مرحلة.

وأسماء ملوك اليمن كذبي يزن وذيء نواس وذيء منار وغير ذلك مضافة إلى مواضع

وإلى أفعال لهم وسير وحروب وغير ذلك، وهي سمات لهم تميزهم عن غيرهم، وتبيّن كل واحد منهم عن غيره من ملوكهم.

وإذا قد ذكرنا جوامع من أخبار اليمن وملوكها فلنذكر الآن ملوك الحيرة من بني نَضْر وغيرهم، للحوقهم باليمن، ثم نعقب ذلك بملوك الشام وغيرهم من الملوك، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم

جذيمة الوضاح ومقتله

ولما هلك جذيمة الوضاح وأتت عليه الزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة ابن السميديع بن هوير ، وقد كان ملك من مشارق الشام إلى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيق ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، وقد كانت الزباء تملكت بعد أبيها ، وأطعمت جذيمة في نفسها إلى أن قتلتة ، وأقام جذيمة ملكاً في زمن ملوك الطوائف خمساً وتسعين سنة ، وفي ملك أردشير بن بابك وسابور الجنود بن أردشير ثلاثة وعشرين سنة ؛ فكان ملكه مائة وثمان عشرة سنة ، وكان يكنى بأبيي مالك ، وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سويد بن أبي كاهل اليشكري :

إن أدق حتفي فقبلي ذافة طسم عاد وجديس ذو الشنع
وأبو مالك القليل الذي قتلتة بنت عمرو بالخدع

مالك بن فهم

وكان الملك قبل جذيمة أباه ، وهو أول من ملك الحيرة ، والله أعلم ، وكان يقال له مالك بن فهم بن دوس بن الأزد بن الغوث [بن نبت] بن مالك بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقياء ، فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق فملك على مصر بن نزاراثني عشرة سنة ، ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ما ذكرنا.

عمرو بن عدي

ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك ابن غنم بن نمارة بن لخم ، وهو أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها متزلاً ودار ملك ، وإليه تنسب الملوك النصرانية ، وهم ملوك الحيرة ؛ فكان ملك عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة مائة سنة .

قصة عمرو بن عدي

قال المسعودي وقد ذكر غير واحد ممن عني بأخبار العرب وأيامها أن جذيمة أول من ملك من قصاعة، وهو جذيمة بن مالك بن فهيم الشّوخي، وأنه قال ذات يوم لندمائه: لقد ذكر لي عن غلام من [لخم، في أخواله من] إباد، له طرف وأدب، فلو بعثت إليه فوليه كأسى والقيام على رأسه لكان الرأي، قالوا: الرأي ما رأي الملك، فليبعث إليه، فعل، فلما قدم عليه قال: من أنت؟ قال: أنا عدي بن نصر بن ربيعة، فولاه مجلسه، فعشقته رقاش ابنه مالك أخت الملك، فقالت: يا عدي، إذا سقيت القوم فائزج لهم، وَعَدْقَ للملك، فإذا أخذت الخمر منه فاخطبني منه فإنه يزوجك، فأشهد القوم إن فعل، ففعل الغلام ذلك [وطبعها] وزوجها به، فأشهد عليه، وانصرف الغلام إليها فأنبأها، فقالت: عَرْسُنْ بِأَهْلِكَ، ففعل، فلما أصبح غداً متضرجاً بالخلوق، فقال له جذيمة: ما هذه الآثار يا عدي؟ قال: آثار العرس، وقال: وأي عرس؟ قال: عرس رقاش فتخر وأكب على الأرض، ورفع عدي جراميزه، [وهرب] وأسرع جذيمة في طلبه، فلم يجده، وقال بعضهم: بل قتله، وبعث إليها يقول:

حَدَّثَنِي رَقَاشٌ لَا تَكْذِبُنِي أَبْحِرُ زَنِيتَ أَمْ بِهِجِينَ؟
أَمْ بِعَبْدٍ فَأَنْتَ أَهْلُ لَعْبٍ أَمْ بِدُونَ فَأَنْتَ أَهْلُ لَدُونَ؟

فأجابته رقاش تقول:

أَنْتَ زَوْجِتِي وَمَا كُنْتَ أَدْرِي وَأَتَانِي النِّسَاءُ لِلتَّزِيِّنِ
ذَاكَ مِنْ شُرْبِكَ الْمَدَامَةَ صِرْفًا وَتَمَادِيكَ فِي الصَّبَا وَالْمُجُونِ
فَنَقَلَهَا جذيمة إِلَيْهِ، وَحَصَّنَهَا فِي قَصْرِهِ، فَاشتَمَلَتْ عَلَى حَمْلِهِ، وَوَلَدَتْ غَلَامًا
فَسَمْتَهُ عَمْرًا، وَوَسَحَّتْهُ، حَتَّى إِذَا تَرَعَّعَ حَلَّتْهُ وَعَطَرَتْهُ وَأَلْبَسَتْهُ كَسْوَةَ فَاحِرَةَ.
ثُمَّ أَزَارَتْهُ خَالَةُ، فَأَعْجَبَ بِهِ، وَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِ مِنْهُ مَحْبَةً [وَمُودَّةً] حَتَّى إِذَا خَرَجَ الْمَلِكُ
فِي سَنَةِ مُكْلِيَّةٍ قَدْ أَكْمَأَتْ، فَبَسَطَ لَهُ رَوْضَةً، وَخَرَجَ عَمْرُو فِي غَلْمَةٍ يَجْتَنِونَ الْكَمَاءَ،
فَكَانُوا إِذَا أَصَابَهُمْ كَمَاءً طَيْبَةً أَكْلُوهَا، وَإِذَا أَصَابَهُمْ حَبَّاً، ثُمَّ أَقْبَلُوا يَتَعَادُونَ وَعَمْرُو
يَتَقدِّمُهُمْ، وَيَقُولُ:

هَذَا جَنَّاتِي وَخَيْرِي فِيهِ إِذْ كُلَّ جَانِ يَدُهُ إِلَى فِيهِ

قصة نديمي جذيمة

فَالْتَّزَمَهُ جذيمة وَحْيَاهُ، ثُمَّ إِنَّ الْجِنَّ اسْتَطَارَتْهُ، فَضَرَبَ لَهُ جذيمة فِي الْآفَاقِ زَمَانًا،

فلم يسمع له بخبر [فكف عنه] إذ أقبل رجلان يقال لأحدهما: مالك، وللآخر: عقيل، ابنا فالح، وهم يريدان الملك بهدية، فنزلَا على ماء، ومعهما قينة يقال لها أم عمرو، فنصبَت [لهما] قدرًا، وأصلحت لهما طعاماً، في بينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث أغبر الرأس قد طالت أظفاره وساعت حاله، حتى جلس مزجَ الكلب، ومدَّ يده، فتناولته القينة طعاماً، فأكلَ، فلم يغُن عنه شيئاً، فمدَّ يده، فقالت القينة: إن تعط العبد كُراعاً طلب ذراعاً، فأرسلتها مثلاً، ثم تاولت صاحبيها من شرابها، وأوكت زُفَّها، فقال عمرو بن عدي:

عَدَلْتُ الْكَأْسَ عَنِ امْمَ عمْرُو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا
وَمَا شَرُّ الْثَلَاثَةِ امْمَ عمْرُو بِصَاحْبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحُونَا

فقال له الرجلان: من أنت؟ فقال: إن تنكراني فلن تنكرا حسيبي، أنا عمرو بن عدي، فقاما إليه فلثماه، وَغَسَلا رأسه، وَقَلْمَأاً أظفاره، وَقَصَّرَا من لمته، وألبساه من طرائف ثيابهما، وقالا: ما كنا لنهدى إلى الملك هدية هي نفس عنده ولا هو عليها أحرص من ابن أخيه، قد ردَّه الله إليه، فخرجا به، حتى إذا وقفوا على باب الملك بشّراه به [فسر به] وصرفه إلى أمه، وقال لهم: حُكْمَكُمَا، فقالا: حكمنا منادتك ما بقيت وبقينا، قال: ذلك لكمَا، فهما ندمانا جذيمة المعروفان، وإياهماعني متمم بن نويرة اليربوعي في موريته لأخيه مالك حين قتلته خالد بن الوليد [بن المغيرة] يوم البطاح:

وَكَنَا كَنَدْمَائِي جَذِيمَةَ حَقْبَةَ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قَبْلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقَا كَانَيْ وَمَالِكَا لَطْوَلَ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتِ لَيْلَةَ مَعَا
وَقَالَ أَبُو خَرَاشُ الْهَذَلِي:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنْ قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلَنَا خَلِيلًا صَفَاءَ مَالِكَ وَعَقِيلَ
وَإِنْ امْمَ عمْرُو عَمِدَتْ إِلَيْهِ، فَبَعْثَتْ مَعَهُ حَفَدَةَ يَقْوَمُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَمَامِ، حَتَّى إِذَا
خَرَجَ أَبْسَتَهُ مِنْ طرائف ثياب الملوك، وَجَعَلَتْ فِي عَنْقِهِ طَوْقًا مِنْ ذَهَبٍ لَنَذْرٍ كَانَ عَلَيْهَا،
ثُمَّ أَمْرَتَهُ بِزِيَارَةِ خَالِهِ، فَلَمَّا رَأَى خَالَهُ لَحِيَتِهِ وَالْطَّوقَ فِي عَنْقِهِ قَالَ: شَبَّ عمْرُو عن
الْطَّوقِ، وَأَقَامَ عمْرُو مَعَ جَذِيمَةَ خَالِهِ قَدْ حَمَلَ عَنْهُ عَامَةَ أَمْرِهِ.

بين الزباء وجذيمة

وإن الزباء ابنة عمرو بن طرب بن حسان [بن أذينة بن السميدع بن هوبير] ملكة الشام والجزيرة من أهل بيت عاملة من العمالق كانوا من سليح، وقال بعضهم: بل كانت

رومية، وكانت تتكلّم بالعربية، مدائنها على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي، وهي اليوم خراب، وكانت - فيما ذكر - قد سقطت الفرات [وجعلت من فوقه أبنية رومية] وجعلته أنقاباً بين مدائنها، وكانت تغزو بالجنود [قبائل] فخطبها جذيمة الأبرش، فكتبت إليه: إني فاعلة، ومثلك من يُرْغَبُ فيه، فإذا شئت فاشخص إلي، وكانت بكرة، فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه، فاستشارهم، فأشاروا عليه بالمضي، وخالفهم قصیر بن سعد تابع كان له من لخم، فأمره أن لا يفعل، ويكتب إليها، فإن كانت صادقة أقبلت إليك، وإلا لم تقع في حبالها، فعصاه وأطاعهم [وسار] حتى إذا كان بيقة - من دون هيـت إلى الأنبار - جمعهم وشاورهم فأمروه بالشخصوص إليها لما علموا من رأيه في ذلك، وقال قصیر: تنصرف وَدَمُكَ في وجهك، فقال جذيمة: بيقة قضى الأمر، فأرسلها مثلاً، وقال قصیر بن سعد حين رأه قد عزم: لا يطاع لقصیر أمر، فأرسلها مثلاً، وطعن جذيمة، حتى إذا عاين مديتها - وهي بمكان دون الخانوقة - ونظر إلى الكتائب [من] دونها، فهـالـهـ ما رأـيـ، فقال: أيـ قصـيرـ، ما الرـأـيـ؟ فقال قصـيرـ: إـنـيـ تـرـكـتـ الرـأـيـ بيـقةـ، فـقـالـ عـنـدـ ذـلـكـ: أـشـرـ عـلـيـ، فـقـالـ: إـنـ لـقـيـتـ الـكـتـائـبـ فـحـيـتـ بـتـحـيـةـ الـمـلـكـ وـانـصـرـفـواـ أـمـامـكـ فـالـمـرـأـ صـادـقـةـ، وـإـنـ هـمـ أـخـذـواـ بـجـنـيـكـ وـوـقـفـواـ دـونـكـ فـالـقـوـمـ مـنـعـطـفـونـ عـلـيـكـ فـيـمـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ جـنـوـدـهـ، فـارـكـ الـعـصـاـ إـنـهـ لـاـ تـدـرـكـ وـلـاـ تـسـبـقـ، يـعـنـيـ فـرـسـاـ كـانـتـ جـنـبـتـ مـعـهـ، فـاسـتـقـبـلـهـ الـقـوـمـ وـأـحـاطـوـهـ بـهـ، فـلـمـ يـرـكـ الـعـصـاـ، فـعـمـدـ إـلـيـهـ قـصـيرـ فـرـكـبـهاـ وـحـمـلـ وـانـطـلـقـ، فـالـنـفـتـ جـذـيمـةـ إـذـاـ هوـ بـالـعـصـاـ عـلـيـهـ قـصـيرـ أـمـامـ خـيـلـهـ حـتـىـ تـوـارـتـ بـهـ، فـقـالـ جـذـيمـةـ: مـاـ ضـلـ مـنـ تـجـريـ بـهـ الـعـصـاـ، فـأـدـخـلـ عـلـىـ الزـيـاءـ فـاسـتـقـبـلـهـ وـقـدـ كـشـفـتـ عـنـ كـبـعـاثـاتـهـ (أـيـ عـفـلـهـ) وـتـنـظـفـتـ بـاسـتـهـ، وـقـالـتـ: يـاـ جـذـيمـةـ، أـيـ مـتـاعـ عـرـوـسـ تـرـىـ؟ قـالـ: أـرـىـ مـتـاعـ أـمـةـ لـكـعـاءـ غـيرـ ذـاتـ خـفـرـ، فـقـالـتـ: أـمـاـ وـالـلـهـ مـاـ ذـاكـ مـنـ دـمـ مـوـاسـ، وـلـاـ قـلـةـ أـوـاسـ، وـلـكـنـ شـيـمةـ مـاـ أـنـاسـ، ثـمـ أـجـلـسـتـهـ عـلـىـ نـطـعـ، وـدـعـتـ لـهـ بـطـسـتـ مـنـ عـسـجدـ، فـقـطـعـتـ روـاهـشـ وـاسـتـنـذـفـتـهـ، حـتـىـ إـذـاـ ضـعـفـتـ قـواـهـ ضـرـبـ بـيـدـهـ قـطـرـةـ [مـنـ دـمـهـ] عـلـىـ دـعـامـةـ مـنـ رـخـامـ، وـقـدـ قـيلـ لـهـ: إـنـهـ إـنـ وـقـعـ مـنـ دـمـهـ قـطـرـةـ فـيـ غـيرـ طـنـسـتـ طـلـبـ بـدـمـهـ، فـقـالـتـ: أـيـ جـذـيمـةـ، لـاـ تـضـيـعـنـ مـنـ دـمـكـ شـيـئـاـ، إـنـماـ بـعـثـتـ إـلـيـكـ لـأـنـهـ بـلـغـنـيـ أـنـ دـمـكـ شـفـاءـ مـنـ الـخـبـلـ، فـقـالـ جـذـيمـةـ: وـمـاـ يـحـزـنـكـ مـنـ دـمـ أـضـاعـهـ أـهـلـهـ!!؟ وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ: الـبعـثـ:

من الدارميـنـ الـذـيـنـ دـمـاؤـهـمـ شـفـاءـ مـنـ الدـاءـ الـمـجـنـةـ وـالـخـبـلـ
وـاسـتـصـفـتـ دـمـهـ، وـجـعـلـتـهـ فـيـ بـرـنـيـةـ، وـقـالـ بـعـضـهـمـ: دـخـلـ عـلـيـهـ جـذـيمـةـ فـيـ قـصـرـ لـهـ

ليس فيه إلا الجواري، وهي على سريرها، فقالت للإماء: خذنَ بيد سيدكن، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه [فعرف الشر] وكشفت عن عورتها فإذا هي قد عقدت شعر استها من وراء، فقالت: أشوار عروس ترى؟ فقال: بل شوار أمة بظراء، فقالت: أما والله ما ذاك من عدم مواس، ولا قلة أواس، ولكنها شيمة ما أناس، ثم أمرت برواهشة فقطعت، فجعل دمه يشخب في النطع كراهة أن يفسد مقعدها، قال جذيمة: لا يحزنك دم أراقه أهله.

عمرو بن عدي يأخذ بثأر خاله

ونجا قصير، فأورد الخبر على عمرو بن عبد الجن التنوخي بالحيرة، فأشفق لذلك، فقال له قصير: اطلب بثأر ابن عمك، وإلا سبّتك العرب، فلم يحصل بذلك، فخرج قصير إلى عمرو بن عدي، فقال له: هل لك في أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب ثأر خالك؟ فضمن له ذلك، فصرف وجوه الجنود إليه، ومناهم بالمال والحال، فانصرف إليه منهم بشّر كثير، فالتقى هو والتنوخي، فلما خافوا الفناء تابعه التنوخي، وتم الأمر لعمرو بن عدي، فقال له قصير: انظر ما وعديني به في الزباء، فقال عمرو: وكيف لنا بها وهي أمنع من عقاب الجو؟ فقال: أما إذا أبى إلاني جادع أنفي وأذني ومحتال لقتلها جهدي، فأعنتي وخلات ذم، فقال له عمرو: أنت أبصر، وعلىي معونتك، فجدع أنفه، فقيل: لأمر ما جدع قصير أنفه، ثم انطلق حتى دخل على الزباء، فقالت: من أنت؟ فقال: أنا قصير، لا ورب المشارق ما كان على وجه الأرض بشّر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك مني، حتى جدع عمرو بن عدي أنفي وأذني، فعرفتُ أنني لا أكون مع أحد هو أ neckline عليه مني معك، فقالت: أي قصير، نقبل منزلتك ونصرفك في بضائعنا، فأعطيته مالاً للتجارة، فأتى بيت مال الحيرة، فاستخفَّ ما فيه بأمر عمرو بن عدي، وانصرف به إليها، فلما رأت ما جاءها به فرحت بذلك، وزادته مالاً إلى ما جاء به، وقال: إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون في مداňهم أنقاباً تكون لهم عدداً، فقالت له: أما إنني قد فعلت ذلك، قد نقبت سرّباً وبنية من تحت سريري هذا حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختي رحيلة ففرح بذلك قصير، ثم ظعن حتى أتى عمرأً، فركب عمرو في ألفي رجل على ألف بعير في الصناديق، حتى صار إليها، فتقدم قصير وسبق الأبرعة، قال لها: اصعدني حافظ مدبيتك. وانظري إلى مالك، وتقدمي إلى بوابك فلا يتعرض لشيء من أموالنا، فإني قد جئت بمال صامت. وكانت قد أمنته، فلم تكن تخافه، وصعدت وفعلت ما أمرها، فلما نظرت إلى ثقل مشي الجمال قالت:

ما للجمال مشيّها وئيداً أجيـلـلاً يحملن أم حديداً
أم صـرـفـانـاً بارداً شـدـيدـاً أم الرجال جـثـمـاً قـعـودـاً؟

ودخلت الإبل المدينة، حتى إذا بقي آخرها جملًا عيل صبر البواب، فطعن
بمنخسه كانت في يده خاصرة رجل فضرط، فقال البواب: بشتا بشتا، وهي بالبطية أي:
في الجوالق شر، وثار الرجال من الجوالق ضرباً بأسيافهم، فخرجت الزباء هاربة إلى
سرابها، فأبصرت قصيراً عند نفقها مُضلتاً سيفه، فانصرفت راجعة، وتلقّاها عمرو بن
عدي، فضربها. وقال بعضهم: مَضَتْ خاتمتها، وكان فيه سِمْ ساعة، وقالت: بيدي لا
بيد عمرو، وخربت المدينة، وسببت الذماري، فقالت الشعراء في أمرها وأمر قصير
فأكثرت؛ فمن ذلك قول المتنمسي:

ومن طَلَبَ الأوتارِ مَا حَزَّ أَنفَهُ قَصِيرٌ، وَرَامَ الْمَوْتَ بِالسِيفِ يَنْهَى
[نَعَامَةً لِمَا صَرَعَ الْقَوْمَ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبِسُ]

[ومن ذلك قول عدي بن زيد التميمي يصف ذلك من أمرهم:

ألا يأيها الملك المرجى
دعا بالبقة الأمراء يوماً
وطاوع أمرهم، وعصا قصيراً
لخطبته التي غدرت وخانت

ألم تسمع بخطب الأولينا
جذيمة عام ينحوهم ثبينا
وكان يقول - لو وقع - اليقينا
وھنّ ذوات غائلة، لھينا]

مع أشعار كثيرة قيلت في ذلك.

وكان الزباء لا تأتي حصناً إلا ضفت شعر أستها من خلفه، ثم تقاعست فتقلعه، حتى فعلت ذلك بمارد - حصن دومة الجندي - وبالألق - حصن تيماء - حصينين منيعين، فقالت: تمرد مارد وعز الألق [فذهبت مثلاً]، وهو الحصنان اللذان تذكرهما العرب في أشعارها [كثيراً]، قال الأعشى في ذلك:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلة حصن حصين وجار غير عذار

وجديمة الوضاح الذي يقول فيه:

فَمَنْجِدٌ مِّنْهُمْ وَغَائِرٌ
أَنْ تَاهَ أَخْوَرُ ذُرْعَيْنِ
وَالْمَلِكُ كَانَ لِذِي نُوا
سَحْلَهُ مِنْ ذِي بَحَائِرٍ

بالسابقات وبالقنا والبيض تبرق والمغافر
أزمان عمالق وفيهم منهم باءٍ وحاضر
وإنما سمي جذيمة الأبرش الوضاح لأنه كان به بَرْصٌ، فكني عنه إعظاماً له.
قال المسعودي: هذا بلده خبربني عدي، وقد قدمنا أن مدة ملكه كانت [مائة سنة].

بقيمة ملوك الحيرة

وملك بعده ولده امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ستين سنة .
وملك بعده عمرو بن امرىء القيس ، وهو مُحرّق العرب خمساً وعشرين سنة ،
وكانت أمه مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان .
وملك النعمان بن امرىء القيس قاتل الفرس خمساً وستين سنة ، وكانت أمه
الهيجمانة بنت سلول من مراد ، ويقال : من إياد .
وملك المنذر بن النعمان [بن امرىء القيس خمساً وعشرين سنة ، وكانت أمه
الفراسية بنت مالك بن المنذر ، من آل نصر .
وملك النعمان بن المنذر فارس حليمة ، وهو الذي بني الخورنق وكردس
الكراديس خمساً وثلاثين سنة ، وكانت أمه هند [بنت زيد منة من آل غسان .
وملك الأسود ابن النعمان ؛ عشرين سنة ، وكانت أمه هند] بنت الهيجمانة ، من
آل نصر .

وملك المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر أربعاً وثلاثين سنة، وكانت أمه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن هيت بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربعة بن نزار؛ وإنما سمي ماء السماء لحسنها وجمالها.

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر، أربعين وعشرين سنة، وكانت أمه حليمة بنت الحارث من آل معدية كرب.

وملك المنذر بن عمرو بن المنذر، ستين سنة، وكانت أمه أخت عمرو بن قابوس من آل نصر.

ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة، وكانت أمه هند بنت الحارث، من آل معاوية بن معد يكرب.

وملك النعمان بن المنذر ، وهو الذي يقال له: «أبيت اللعين!» اثنتين وعشرين سنة ، وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب.

بين النابغة والنعمان

وذكر عدة من الأخباريين أن النابغة استأذن على النعمان يوماً، فقال له الحاجب: إن الملك على شرابه، قال [النابغة]: فهو وقت الملك، تقبيله الأفتدة وهو جذل للريحق [والسماع]، فإن تلجم تلق المجد عن غرر مواهبه، فأنت قسيم ما أفتت؛ قال له الحاجب: ما تفني عنيتي بدون شكرك، فكيف أرغب فيما وصفت دون ما طلبت رهبة التعدي؟ [فهل من سبب؟] قال النابغة: ومن عنده؟ قال الحاجب: خالد بن جعفر الكلابي نديمه، فقال النابغة: هل لك إلى أن تؤدي إلى خالد عني ما أقول لك؟ قال: وما هو؟ قال: تقول إن من قدرك وفاء الدرك بك وناحيتي من الشكر ما قد علمت، فلما صار خالد إلى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض، فاعتبرضه الحاجب، فقال: ليهنك [أبا البسام] حادث النعيم، قال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر، وكان خالد رفيقاً، يأتي الأشياء بلطف وحسن بصيرة، فدخل مبتسماً، وهو يقول:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجoward إذا استولى على الأمد

واللات لكتني أنظر إلى [أملاك] ذي رعين، وقد مدت لهم قضبان المعجد إلى [معالم أحسابكم]، ومناقب أنسابكم، في حلبة أنت - أبیت اللعن! - غررتها فجئت سابقاً متمهلاً، وجاؤوا لم يلم لهم سعي، قال النعمان: لأنت في وصفك أبلغ إحساناً من النابغة في نظام قافيته، فقال خالد: ما أبلغ فيك حسناً، إلا وهو دون قدرك استحقاقاً للشرف الباهر، ولو كان النابغة حاضراً لقال وقلنا، فأمر النعمان بإدخاله، فخرج [إليه] الحاجب، [فقال النابغة: ما وراءك] فقال: قد أذن بفتح الباب، ورفع الحجاب، ادخل، فدخل ثم اتصب بين يديه، وحياه بتحية الملك، وقال: أبیت اللعن! أتفاخر وأنت سائس العرب، وغرة الحسب، واللات لأمسك أيمن من يومه، ولقفاك أحسن من وجهه، وليسراك أسمح من يمينه، ولو عدك أصلح من رفده، ولعيديك أكثر من قومه، ولا سُمك أشهر من قدره، ولنفسك أكبر من جده، وليومك أشرف من دهره، ثم قال:

أخلاق مجده جلت ما لها خطط في الجود والبأس بين العلم والخبر
متوّج بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر
فتهلل وجه النعمان بالسرور، ثم أمر فحشى فوه جوهراً، ثم قال: بمثل هذا
فلتمدح الملوك.

بين النعمان وزيد بن عدي وكسرى

وقد كان النعمان قتل عدي بن زيد العبادي، وكان يكتب لكسرى أبرویز بالعربية، ويترجم له إذا وفدي عليه زعماء العرب؛ لموحدة وجدها عليه النعمان، في خبر طويل الشرح، فلما قتل صار زيد بن عدي أئمه مكان أبيه، فذكر لأبرویز جمال نساء آل المنذر، ووصفهن له، فكتب إلى النعمان يأمره أن يبعث إليه بأخته، فلما قرأ النعمان كتابه، قال للرسول - وهو زيد بن عدي - : يا زيد، أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العreibيات؟ فقال زيد: إنما أراد الملك إكرامك - أبیت اللعن! - بصهرك، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله، وأحسن ذلك عنده، وأذرك بما يقبله، فقال له النعمان: فافعل، فقد تعرف ما على العرب في تزويع العجم من الغضاضة والشناعة، [فلما انصرف إلى كسرى أخبره أنه رغب عنه] فأدلى إليه قوله في مها السواد على أبجع الوجوه، وأوجده عليه، وقال: ما المها؟ فقال: البقر، [فأخذ عليه] وقال: رب عبد قد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا، فلما بلغت كلمته [إلى] النعمان تخرّفه، فخرج هارباً حتى صار إلى طيء، لشهر كان له فيه، ثم خرج من عندهم حتى أتى بني رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيبة بن عبس، فقالوا له: أقم معنا فإنما منعك مما نمنع منه أنفسنا، فجزأهم الخير، ورحل عنهم يريد كسرى ليزيد فيه رأيه، وذلك قول زهير بن أبي سلمى:

أَمْ تَر لِلنَّعْمَانَ كَانَ بِنَجْوَةَ
فَغَيَرَ عَنْهُ مَلْكُ عَشْرِينَ حَجَةَ
فِلْمَ أَرْ مَسْلُوبَاً لَهُ مَثْلُ مَلْكِهِ
خَلَا أَنْ حَيَا مِنْ رَوَاحَةَ حَفَظُوا
وَكَانُوا أَنَاسًا يَتَّقُونَ الْمَخَازِيَا
يَسِيرُونَ حَتَّى جِيَشُوا عَنْ ثَارَهُ
فَجِزَاهُمْ خَيْرًا وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ

وأقبل النعمان حتى أتى المدائن، فصفّ له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهم المصبغات صفين، فلما صار النعمان بينهن قلن له: أما فيما للملك غنى عن بقر السواد؟ فعلم النعمان أنه غير ناج منه، ولقيه زيد بن عدي، فقال له النعمان: أنت فعلت هذا بي، لئن تخلصت لأسقينيك بكأس أبيك، فقال له زيد: امض نعيم، فقد أخبت لك أخية لا يقطعها المهر الأرنُون، وأمر كسرى بالنعمان، فحبس بساباط المدائن، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة، وقال بعضهم: بل مات في محبسه بساباط، وقد ذكرت ذلك الشعرا فأكثرت؛ فمن ذلك قول الأعشى وأجاد:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي الصكاك ويرفقه [ويجبى إليه المسلمين، وعنده صريعون في أنهارها والخورنق] ويقسم أمر الناس يوماً وليلة وهم ساكتون والمنية تتنطق فذاك، وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محزرق

وقال هانىء بن مسعود الشيباني :

إن ذا التاج، لا أبا لك، أضحي في الورى رأسه تخوت الفيول إن كسرى عدا على الملك الذي عمان حتى سقاه مر البليل ومما رثى به النعمان :

لم تبكه هند ولا أختها خرقاء، واستعجم ناعيه بين فيول الهند تخبطةً تذمى نواحيه

وقد كان النعمان حين أراد المضي إلى كسرى مستسلماً مر على بنى شيبان فأودعهم سلاحه وعياله عند هانىء بن مسعود (بن هانىء) الشيباني، فلما أتى كسرى على النعمان بعث إلى هانىء بن مسعود، وطالبه بتركته، فامتنع، وأبى أن يخفر الذمة، فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب ذي قار، وقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط فأغنى عن إعادته هنا.

بنت النعمان عند سعد بن أبي وقاص

وقد كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر إذا خرجت إلى بيتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج، مغشى بالخز واللوشي، ثم تقبل في جواريها حتى تصل إلى بيتها، ويرجع إلى منزلها، فلما هلك النعمان نكبتها الزمان، فأنزلتها من الرفعة إلى الذلة، ولما وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميراً عليها لما هزم الله الفرس وقتل رُسْتم، فأتت حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها عليهم المسوح والمقطعات السود، متربهات تطلب صلتها، فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد، فقال: أفيكن حرقة؟ قالت: ها أنا ذه، قال: أنت حرقة؟ قالت: نعم، فما تكرارك في استفهمامي؟ ثم قالت: إن الدنيا دار زوال، ولا تدوم على حال، تنتقل بأهلها انتقالاً، وتعقبهم بعد حال حالاً، كنا ملوك هذا مصر يجيئ لنا خراجه، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة، فلما أدربر الأمر وانقضى صالح بنا صائح الدهر، فصدع عصانا وشئت شملنا، وكذلك الدهر يا سعد، إنه ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسنة، ثم أنشأت تقول:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف
فأَفَ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تاراتِ بنا وتصرف

[فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد، كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إن للدهر صولة فاحذرنها لا تبيئ قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى مُعافٍ فيرمي ولقد كان آمناً مسروراً]

قال: فبينا هي واقفة بين يدي سعد إذ دخل عمرو بن معد يكرب ، وكان زواراً
لأيها في الجاهلية، فلما نظر إليها قال: أنت حرقة؟ قالت: نعم، قال: فما دهمك
فأذهب محمودات شيمك ، وأين تتبع نعمتك وسطوات نعمتك؟ فقالت: يا عمرو، إن
للدهر لسطوات وعثرات وعبرات، تعثر بالملوك وأبنائهم، فتخفضهم بعد رفعه،
وتفردهم بعد منعة، وتذلهم بعد عزة، إن هذا لأمر كنا ننتظره، فلما حل بنا لم ننكره،
قال: فأكرّها سعد، وأحسن جائزتها، فلما أرادت فراقه قالت: حتى أحريك بتحية ملوكنا
بعضهم البعض، لا نزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه! ثم خرجت
من عنده فلقيها نساء المدينة، فقلن لها: ما فعل بك الأمير؟ قالت: حاط لي ذمتى،
وأكرم وجهي، إنما يكرم الكريم الكريم.

و سنذكر خبر هند بنت النعمان مع المغيرة بن شعبة أيام إمرته على الكوفة، فيما يرد
من هذا الكتاب، عند ذكرنا لأخبار معاوية بن أبي سفيان.

قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : فهو لاء ملوك الحيرة إلى أن ظهر
الإسلام ، فأظهره الله ، وأذل الكافرين ، فجميع من سميّنا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو
ابن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش ، على حسب ما قدمنا آنفاً في صدر هذا الباب ، ثم
 جاء الإسلام وملك الفرس كسرى أبوريز بن هرمز ، فليلك على العرب بالحيرة إياس بن
قيصية الطائي ، فكان ملكه تسع سنين ، وثمانية أشهر ، مضت من ملك إياس ، كان مبعث
رسول الله ﷺ ، ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس ، وقد كان قبل عمرو بن عدي ملوك
على الحيرة على حسب ما ذكرنا ، وكان عدّة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكاً من بني
نصر وغيرهم من العرب والفرس ، وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة
وثمانية أشهر ، وقد قيل : إن عمران الحيرة وبدوه إلى أن خربت في وقت بناء الكوفة ،
كان خمسمائة سنة وبضاعاً وثلاثين سنة .

خراب الحيرة

قال المسعودي : ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا إلى صدر من أيام المعتصم ، فإنه استولى عليها الخراب ، وقد كان جماعة من خلفاء بنى العباس - كالسفاح ، والمنصور ، والرشيد ، وغيرهم - ينزلونها ويصلون المقام بها لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلاحتها ، وقرب الخورنق ، والنجف منها ، وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان ، فلحقوا بغيرها من البلاد ، لتداعي الخراب إليها ، وأقفرت من كل أئيس في هذا الوقت ليس بها إلا الصَّدَى والبُومُ ، وعند كثير من أهل الدراسة التامة بما يحدث في المستقبل من الزمان : أن سعادها سيعود بالعمران ، وأن هذا النحس عنها سيزول ؛ وكذلك الكوفة .

قال المسعودي : ولمن سميأنا من ملوك الحيرة أخبار وسير وحروب قد أتينا على ذكرها والغرر من مبوسطها في كتابنا «أخبار الزمان» ، [وفيما بعد من هذا الكتاب] فأغنى ذلك عن إعادةه في هذا الباب .

ذكر ملوك الشام من اليمن، من غسان وغيرهم من الملوك

أول ملوك الشام

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن يغور.

ثم ملك بعده يوتاب، وهو أئوب بن رزاح، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه ما كان من خبره على لسانه نبيه، وما اقتضى من أمره، ثم غلت الروم على ديارها، ففروا في البلاد، وكانت قضاة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام، وانضافوا إلى ملوك الروم، فملكونهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب.

تنوخ ونسبها

وكان أول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان، ولم يملك من تنوخ إلا من ذكرنا، وهو تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم اللات بن الأزد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان [بن عمران] بن إلحااف بن قضاة بن مالك بن حمير.

وقد تنوّزع في قضاة: فمن معد كان أم من قحطان؟ فقضايا تأبى أن تكون من معد، وتزعم أنها من قحطان، على ما ذكرنا.

وقد قيل في نسب قضاة واتصالها بحمير غير ما ذكرنا من النسب.

سلیح ونسبها

ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ، وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام، [وهم ولد سليح بن حلوان بن عمران بن إلحااف بن قضاة، فاستقام ملك سليح بالشام] وتفرق قبائل العرب لما كان بأمر وبقصة عمرو بن عامر مزيقياء؛ فسارت غسان إلى الشام وهم من ولد مازن، وذلك أن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سباً بن مازن يشجب بن يعرب بن قحطان ولد مازن، وإليه ترجع

جميع قبائل غسان، وإنما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك [وهو ما بين زيد ورم، وادي الأشعرين بأرض اليمن] وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الأنباري: إما سألت فإننا عشر نجت الأزد نسبتنا، والماء غسان

وستذكر بعد هذا الموضع خبر عمرو بن عامر مزيقياء، وخبر سيل العرم، وتفرقهم في البلاد، وخبر الماء المعروف بغضان، وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيناً على هذا الماء إلى أن أدركه الموت، وكان عمره ثمانمائة سنة: أربعمائة سوقة، وأربعمائة ملكاً.

ملوك غسان على الشام

وغلبت غسان على من بالشام من العرب، فملكتها الروم على العرب، فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام: الحارث بن عمرو بن عامر بن حرثة بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن، وهو غسان بن الأزد بن الغوث.

ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة [بن جفنة] بن عمرو بن عامر بن حرثة وأمه مارية ذات القرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، وذكر أنها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور وهو كندة، وهي التي ذكرتها الشعراء في أشعارها، وتنسب جماعة من ملوك غسان إليها.

وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو.

[ثم ملك بعده المنذر أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو. ثم ملك بعده عوف بن أبي شمر.]

ثم ملك بعده الحارث بن أبي شمر [فكان ملكه حين بُعث رسول الله ﷺ].

حسان والحارث الغساني

وذكر عدة من الأخباريين أن حسان بن ثابت الأنباري زار الحارث بن أبي شمر الغساني - بالشام - وكان النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة يساميه - فقال له وهو عنده: يا بن الفريعة، لقد نبشت أنك تفضل النعمان عليّ، فقال: وكيف أفضله عليك!! فوالله لقفاك أحسن من وجهه، ولأمك أشرف من أبيه، ولأبوك أشرف من جميع قومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولحرمانك أفع من نداء، ولقليلك أكثر من كثيره، ولشمامتك أمرع من غديره، ولكرسيك أرفع من سريره، ولجداؤك أغور من بحره، ول يومك أطول من شهره، ولشهرك أمد من حوله، ولحولك خير من حقبه، ولزننك أورى من زنده،

ولجندك أعز من جنده، وإنك من غسان وإنه من لخم، فكيف أفضله عليك أو أعدله بك؟؟ فقال: يا بن الفريعة، هذا لا يسمع إلا في شعر، فقال:

ونبئت أن أبا منذر يساميك للحارث الأصغر
قفاؤك أحسن من وجهه وأمك خير من المنذر
ويسرى يديك على عُسرِها كيمنى يديه على المعسر

جبة بن الأبيه

ثم ملك بعده جبلة بن الأبيه بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرء القيس بن ثعلبة بن [مازن، وهو غسان بن] الأزد بن الغوث، وهو الملك الذي امتدحه حسان بن ثابت الأنباري، حيث يقول في شعر طويل:
أشهرنها فإن ملكت بالشام إلى الروم فخر كل يمانى
وفيه يقول أيضاً:

لمن الدار أقفرت بمعان
من قريات من ثلاثين عدت
قد دنا الفصح والولاد ينظم
ذلك مغني لآل جفنة في الده
صلوات المسيح في ذلك الدي
بين أعلى اليرموك والصمان

منازل غسان

وهذه مواضع وقرى من غوطة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك.
وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما، من غوطة دمشق وأعمالها، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام.

وجبلة [بن الأبيه] هو الذي أسلم وارتدى عن دينه خوف العار والقواد من اللطمة، وخبره واضح مشهور، قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتابنا، وسائل أخبار ملوك تنوح وسلیح [وغسان] وغيرهم من ملوك الشام، ودعاء النبي ﷺ الحارث بن أبي شمر الغساني إلى الإسلام وترغيبه في الإيمان، وقد أتينا على خبره وما كان من أمر إسلامه وأخباره مع النبي ﷺ في كتابنا «أخبار الزمان»، وفي أبيه يقول النابغة:

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع الثمام
للحارث الأكبر والحارث الأصغر، والحارث خير الأيام

ثم لـهند ولـهند، وقد أسرع في الخيرات منه أمام وخمسة آباء لهم ما هم أكرم من يشرب صوب الغمام فجميع من ملك من ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكاً، وقد كان بالشام ملوك ببلاد مأدب، من أرض البلقاء من بلاد دمشق، وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وببلاد فلسطين، وكانت خمس مدن، وكانت دار المملكة منها، والمدينة العظمى مدينة سدوم، وكانت سمة كل ملك يملكتها بارعاً، وكذلك ذكر في التوراة، وذكرت أسماء هذه المدن، أعرضنا عنه؛ إذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار.

وقد كان لـكـنـدة وـغـيرـهـاـ منـ العـربـ منـ قـحـطـانـ ومـعـدـ مـلـوكـ كـثـيرـةـ لمـ تـعـرـضـ لـذـكـرـهـ؛ـ إـذـ كـانـ لـاـ أـسـمـاءـ لـهـمـ تـعـمـمـ وـتـشـهـرـهـمـ،ـ كـقـولـنـاـ الـخـلـيـفـةـ وـقـيـصـرـ وـكـسـرـىـ وـالـنـجـاشـيـ،ـ وـلـئـلاـ يـطـوـلـ الـكـتـابـ بـذـكـرـهـمـ.

وقد أتينا على سائر ملوك العرب من معـدـ وـقـحـطـانـ وـغـيرـهـمـ مـمـنـ وـسـمـ بـالـمـلـكـ فـيـ بعضـ المـمـالـكـ فـيـ سـائـرـ الـأـمـمـ الـخـالـيـةـ،ـ وـالـمـمـالـكـ الـبـاقـيـةـ،ـ مـنـ الـبـيـضـانـ وـالـسـوـدـانـ،ـ مـمـنـ أـمـكـنـ ذـكـرـهـ وـتـأـتـيـ لـنـاـ إـلـىـ الـإـخـبـارـ عـنـهـ،ـ وـإـنـماـ ذـكـرـنـاـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـنـ الـمـلـوكـ مـنـ اـشـهـرـ مـلـكـهـ،ـ وـعـرـفـتـ مـلـكـتـهـ مـيـلـاـ إـلـىـ الـإـخـصـارـ،ـ وـطـلـبـاـ لـلـإـيجـازـ،ـ وـتـبـيـهـاـ عـلـىـ مـاـ سـلـفـ مـنـ أـخـبـارـهـمـ فـيـ كـتـبـاـ الـمـتـقـدـمـ ذـكـرـهـاـ مـنـ تـصـنـيفـنـاـ،ـ وـالـلـهـ الـمـوـفـقـ.

**ذكر البوادي من العرب، وغيرها من الأمم
وعلة سكناها البدو وجمل من أخبار العرب
وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى**

قد تقدم ذكرنا لولد قحطان، وأن مَنْ عداهم من العرب العاربة دَثَرَتْ من عاد وطسم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعييل ووبار، وسائر من سمينا، وأن مَنْ بقي مِنْ ذكرنا دخلوا في العرب الباقيَة إلى هذا الوقت، وهم قحطان، ومعد، ولا نعلم أن قبلياً بقي يشار إليه في الأرض من العرب الأولى غير معد وقحطان، وذكرنا من طاف البلاد من ملوكهم، مثل التابعة والأدواء، ومن شيد البنيان في الشرق والغرب، ومصر الأمصار، وبني المدن الكبار، كإفريقيس من أبرهة، وما بني بال المغرب من المدن كمدينة إفريقية وصقلية، وما كُورَ من الكُورَ هنالك، وما اتَّخذَ من العمائر وكمسير شمر إلى أرض المشرق، وبنائه سمرقند، ومن خلف هنالك من حمير بها، وببلاد التبت والصين، وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف.

بين دعبدل والكميت

وقد افتخر دعبدل بن علي الخزاعي في قصيده التي يرد فيها على الكُميَّة، وفخر دعبدل بمن سلف من ملوكهم ومسيرهم في الأرض، [وأن لهم من الفضل ما ليس لمعد ابن عدنان، فقال في شعره:

هُمُو كتبوا الكتاب بباب مَرْءِ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا]

وقد كان لليمين ملوك لا يدعون بالتابعة، ممن تقدم وتَأَخَّرَ منهم، حتى ينقاد إلى ملكه أهل الشَّجَر وحضرموت، فحيثُنَدِ يستحق أن يسمى تبعاً، ومن تخلف عن ملكه من ذكرنا سمي ملكاً، ولم يطلق عليه اسم تبع، وقد قال الله عز وجل في قصة قريش وتفاخرها بقوتها وعددها: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبْعَ» [الدخان: ٣٧] حين دخل الحرم فبعث الله عليه الظللة، وإنما سمي تبعاً بمن تبعه، وكذلك حكى عن عبد الله بن العباس.

بين تبع وقباذ ملك الطوائف

وقد كان تبع أبو كرب سار في الأرض، ووطئ الممالك وذلّلها، ووطئ أرض العراق في مُلك الطوائف، وعميد الطوائف حيثُنَد جوزر بن سابور، فلقي أبو كرب ملكاً من الطوائف يقال له قباذ، وليس بقباذ بن فيروز من الساسانية، فانهزم قباذ، وأتى تبع أبو كرب على ملكه، وملك العراق والشام والحجاز وكثيراً من الشرق.

وفي ذلك يقول تبع ويدرك ما صنع:

[وَرَدَ الْمَلِكُ ثُبَّعَ وَبَنُوهُ
وَرَثُوهُمْ جَدُودُهُمْ وَالْجَدُودُ]
إذ جئننا جيادنا من ظفار
ثم سرنا بها مسيراً بعيداً
فاستبينا بالخيل ملك قباذ
وابن أفلود قائماً مصفوداً
فكسونا البيت الذي حرّم الله
مُلَأَهُ مُقْضَبَاً وَبُرُودَا
وأقمنا به من الشهر عشرةً
وجعلنا لبابه إقليداً
[ثم طفتنا بالبيت سبعاً وسبعاً
وسجدنا عند المقام سجوداً]

وقال أيضاً فيه:

لَسْتُ بِالثُّبَّعِ الْيَمَانِيِّ إِنْ لَمْ تَرْكُضْ الْخَيْلَ فِي سُوَادِ الْعَرَاقِ
وَتَؤْدِي رِبِيعَةَ الْخَرْجِ قَسْرًا أَوْ تَعْقِنِي عَوَاقِقَ الْعَوَاقِ

وقد كانت لزار بن معد معه وقائع وحروب كثيرة، واجتمعت عليه معد بن ربعة ومضر وإياد وأنمار، وتداعت بجدها نزار، وتواهبت ما كان بينها من الدماء والثار، فكانت لهم عليه؛ ففي ذلك يقول أبو دواد الإيادي:

ضَرَبَنَا عَلَى ثُبَّعَ جَزِيَّةَ جِيَادَ الْبَرُودِ وَخَرْجَ الْذَّهَبِ
وَوَلَى أَبُو كَرْبَ هَارِبًا وَكَانَ جَبَانًا كَثِيرَ الرَّهَبِ
[وَأَتَبَعَهُ فَهُوَ لِلْجَبَيْنِ وَكَانَ الْعَزِيزُ بِهَا مِنْ غَلَبِ]
وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط بدء النسب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام وولد إسماعيل وتفرق النسب إلى نزار بن معد وتشعب الناس من نزار بن معد بن عدنان، فلنذكر، الآن في هذا الموضوع خبر ولد نزار الأربعـة مع الأفعى ابن الأفعى الجرهـمي، ثم نعقب ذلك بما إليه قصدنا في هذا الباب من هذا الكتاب، من علة سكنى البوادي من العرب الـبدو وغيرـهم مـمن سـكنـ العـجـالـ والأـوـدـيةـ وـسـائـرـ الـبـرـاريـ وـالـقـفارـ.

أولاد نزار بن معد

ذكر عدة من [رواية] أخبار العرب أن نزار بن معد ولد أربعة أولاد: إياداً، وبه كان يكفي، وأنماراً - ويجلية وخشم من ولده على ما قيل، إذ كان فيما ذكرنا تنازع لأن من الناس من الحقهم باليمن، ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد أنمار بن نزار - وربيعة، ومضر، فلما حضرت نزاراً الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شمطاء، فقال لإياد: هذه الجارية وما أشبهها من مالي فلك، ثم أخذ بيده مضر فأدخله قبة له حمراء من أدم، ثم قال: هذه القبة وما أشبهها من مالي فلك، ثم أخذ بيده ربيعة وقال له: هذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبههما من مالي فلك، ثم أخذ بيده أنمار وقال له: هذه البدرة والمجلس وما أشبههما من مالي فلك، فإن أشكلت عليكم هذه القسمة فأتوا الأفعى ابن الأفعى الجرهمي - وكان ملك نجران - حتى يقسم بينكم وتراضوا بقسمته، فلم يلبث نزار إلا قليلاً حتى هلك.

قصتهم مع الأفعى الجرهمي

وأشكلت القسمة على ولده، فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الأفعى، حتى إذا كانوا منه على يوم وليلة من أرض نجران، وهم في مفازة، إذا هم بأثر بعيير فقال إياد: إن هذا البعير الذي ترون أثره أبور، فقال أنمار: وإنه لأبتر، قال ربيعة: وإنه لأرور، قال مضر: وإنه لشروع، فلم يلبثوا أن رفع إليهم راكب توضع به راحلته، فلما غشيمهم قال لهم: هل رأيتم من بعيير ضال في وجوهكم؟ قال إياد [أكان] بعييرك أبور؟ قال: فإنه لأبور، قال أنمار: [أكان] بعييرك أبتر؟ قال: فإنه لأبتر، قال ربيعة: أكان بعييرك أزور؟ قال: فإنه لأزور، قال مضر: أكان بعييرك شروعاً، قال: إنه لشروع، ثم قال لهم: فain بعييري؟ دلوني عليه، قالوا: والله ما أحمسنا لك بعيير ولا رأينا، قال: أنت أصحاب بعييري وما أخطأتم من نعته شيئاً، قالوا: ما رأينا [لك] بعييراً، فتبعهم حتى قدموا نجران، فلما أناخوا بباب الأفعى استأندوا عليه، فأذن لهم، فدخلوا، وصاح الرجل من وراء الباب: أيها الملك، هؤلاء أخذدوا بعييري ثم حلفوا أنهم ما رأوه، فدعا به الأفعى فقال: ما تقول؟ فقال: أيها الملك، هؤلاء ذهبوا بعييري وهم أصحابه، فقال لهم الأفعى: ما تقولون؟ قالوا: رأينا في سفرينا هذا إليك أثر بعيير، فقال إياد: إنه لأبور، قال: وما يدركك أنه أبور؟ قال: رأيته مجتهداً في رعي الكلأ من شق قد لحسه والشق الآخر رافِي كثير الالتفاف لم يمسه فقلت: إنه أبور، وقال أنمار: رأيته يرمي بعيره مجتمعاً ولو كان أهلب لم يتصع به فعلمته أنه أبتر، وقال ربيعة: رأيت أثر إحدى يديه ثابتَا والآخر فاسداً

تعلمت أنه أزور، وقال مصر: رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا ينهاش منه حتى يأتي ما هو أرق منه، فيرعى فيه، فعلمته أنه شرود، فقال الأفعى: صدقوا، قد أصابوا أثر بعيك وليسوا بأصحابه، التمس بعيك ثم قال الأفعى للقوم: من أنتم؟ فأخبروه بحالهم، وانتسبوا إليه فرحب بهم وحياتهم ثم قال: ما خطبكم؟ فقصوا عليه قصة أبيهم، قال الأفعى: وكيف تحتاجون إلى وأنتم على ما أرى؟ قالوا: أمرنا بذلك أبونا، ثم أمر بهم فأنزلوا، وأمر خادماً له على دار الضيافة أن يحسن إليهم ويكرم مثواهم إلطافهم بأفضل ما يقدر عليه ثم أمر وصيفاً له من بعض خدمه ظريفاً أديباً، فقال له: انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فأنتي بها، فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم الدهر مان بقرص من شهد فأكلوا وقالوا: ما رأينا شهداً أعزب ولا أحسن ولا أشد حلاوة منه، فقال إياك: صدقتم لو لا أن نحله ألقاه في هامة جبار، فوعاها الغلام، فلما حضر غداوهم وجيء بالشواء فإذا بشاة مشوية فأكلوها وقالوا: ما رأينا شواء أجود شيئاً ولا أرخص لحاماً ولا أسمن منه، فقال أنمار: صدقتم لو لا أنه عذبي بلبن كلبة. ثم جاءهم بالشراب فلما شربوا قالوا: ما رأينا خمراً أرق ولا أعزب ولا أصنفي ولا أطيب رائحة منه، فقال ربيعة: صدقتم لو لا أن كرمها نبت على قبر. ثم قالوا: ما رأينا متزاً أكرم قري ولا أخصب رحلاً من هذا الملك. قال مصر: صدقتم لو لا أنه لغير أبيه. فذهب الغلام إلى الأفعى فأخبره بما كان منهم، فدخل الأفعى على أمه، فقال: أقسمت عليك إلا ما أخبرتني من أنا ومن أبي، فقالت: يابني، وما دعاك إلى هذا؟ أنت ابن الأفعى الملك الأكبر، قال: حقاً لتصدقني، فلما ألح عليها قالت: يابني إن أباك الأفعى الذي تدعى له كان شيئاً قد أثقل، فخشيت أن يخرج هذا الملك عنا أهل البيت، وقد كان قدم إلينا شاب من أبناء الملوك، فدعوته إلى نفسي، فعلقت بك منه، ثم بعث إلى الدهرمان، فقال: أخبرني، عن الشهد الذي بعثت به إلى هؤلاء النفر ما خطبه؟ قال: إنا أخبرنا بدب في طف.

بعثت إليه من يشوره، فأخبروني أنهم هجموا على عظام نخرة منكرة في ذلك الطف، فإذا النحل قد عسلت في جمجمة من تلك العظام، فأتوا بعسل لم أر مثله قدمته إلى القوم لجودته، ثم بعث إلى صاحب مائذته فقال: ما هذه الشاة التي شويتها لهؤلاء القوم؟ قال: إني بعثت إلى الراعي أن أبعث إلى بأحسن شاة عندك، فبعث بها إلى، وما سألته عنها، فبعث إلى الراعي أن أعلمكني خبر هذه الشاة، قال: إنها أول ما ولدت من غنمي عام أول، فماتت أمها، فبقيت، وكانت كلبة لي قد وضعت فأئست السُّخْلة بجراء الكلبة، فكانت ترضع من الكلبة من جرائها، فلم أجده في غنمي مثلها، فبعثت بها إليك،

ثم بعث إلى صاحب الشراب ، فقال : ما هذا الخمر الذي سقيت لهؤلاء القوم؟ قال : من حبة كرم نبتت غرستها على قبر أبيك ، فليس في العرب مثل شرابها ، فقال الأفعى : ما هؤلاء القوم؟ إنهم إلا شياطين ، ثم أحضرهم فقال : ما خطبكم؟ قُصُوا علىي قصتكم ، فقال إِياد : إن أبي جعل لي خادماً شمطاً وما أشبهها من ماله ، فقال : إن أباك ترك غماماً يرشاء فهي لك ورئاؤها مع الخادم ، قال أَنْمَار : إن أبي جعل لي بدراً ومجلسه وما أشبههما من ماله ، قال : فلك ما ترك أبوك من الرقة والحرث والأرض ، فقال ربيعة : إن أبي جعل لي فرساً أدهم وبيتاً أسود وما أشبههما من ماله ، قال : فإن أباك ترك خيلاً دهاماً وسلاماً فهي لك وما فيها من عبيد ، فسمى ربيعة الفرس ، فقال مصر : إن أبي جعل لي قبة حمراء من أدم وما أشبههما من ماله ، فقال : إن أباك ترك إبلًا حمراء فهي لك وما أشبهها من ماله ، فصارت لمضر الإبل والقبة الحمراء ، والذهب ، فسمى مصر الحمراء ، وكانوا على ذلك مع أحوالهم جرهم بمكة فأصابتهم سنة أهلقت الشاء وعامة الإبل ، وبقيت الخيل ، وكان ربيعة يغزو عليها ويصل إخوته ، وذهب ما كان لأنمار من شاء في تلك السنين ، ثم عاود الناس الخصب والغيث ، فرجعت الإبل وثبتت إليها أنفسها ومشت ، فتناسلت وكثرت وقام مصر بأمر إخوته ، في بينما هم كذلك وقد قدم الرعاء يابلهم فتشعوا ليلاً وعشوا رعاهم فقام مصر يوصي الرعاء وفي يد أنمار عظم بتعرقه فرمى به ظلمة الليل وهو لا يبصر فأولده في عين مصر وفقأها فتأوه مصر وصاح : عيني ، عيني ، وتشاغل به إخوته ، فركب أنمار بعيراً من كرائم إبله ، فلحق بديار اليمن ، وكان بين إخوته ما ذكرنا من التنازع .

فهؤلاء ولد نزار الأربعة : إليهم يرجع سائر ولد نزار على حسب ما قدمنا أن مصر الحمراء لما ذكرنا من أمر القبة ، وبذلك تفتخر مصر في كلامها من المثور والمنظوم ، وربيعة الفرس وربيعة القشعم من الفروسيّة والشجاعة والتجلدة والعز وشن الغارات لما ذكرنا من أمر الفرس ، وإياد وقد ذكرنا ما لحق عقبه ، وأنمار وقد ديننا الخلاف في تفرع نسله وما قاله النسابون في عقبه .

ولكل واحد من هؤلاء ومن أعقب أخبار كثيرة يطول ذكرها ، ويتسع شرحها : من ذكر ما حلوا به من الديار ، وتشعب أنسابهم وتسلسلها ، قد أتى الناس على ذكرها ، وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا البسيير من مسوطها؛ فمنعنا ذلك من إعادةه في هذا الكتاب .

فلنذكر الآن الغرض من هذا الباب الذي به ترجم ، وإليه نسب ، من سكني من حل البدو من العرب وغيرها من الأمم المتواحشة كالترك والكرد والبجنة والبربر ، ومن تقطن بالبراري وقطن الجبال ، والعلة الموجبة لذلك من فعلهم .

علة سكنى البدو

تباعين الناس في السبب الموجب لما وصفنا، فذهب كثير من الناس إلى أن الجبل الأول من سكن الأرض مكتوا حيناً من الزمان لم يبنوا بناء، ولا شيدوا مُدُنَا، وكان سكناهم في شبه الأكواخ والمظال، ثم إن تفرأ منها أخذوا في ابتناء المساكن، وخلفَ من بعدهم خلف فابتدا الأبنية، وثبتت فرقة منهم على سجيتها الأولى في البيوت والأظلال يتبعون الأماكن الرفهة الخصبة، ويترقّلُون عنها إذا أجدت، فمضت هذه الطائفة على نهج الأقدمين.

وذكرت طائفة أن أول ذلك أن الناس لما نصبَ عنهم الطوفان الذي أهلك الله به الأرض في زمن نوح على نبينا عليه السلام تفرق من نجا في طلب البقاء الخصبة المتاخرة، وانفرد من انفرد بانتجاع الأرضين وحلول البيداء، [واستوطن] آخرُون بقاعاً تخرواها، كمن ابْتَى إقليم بابل من النبط، ومن حلَّه من ولد حام بن نوح عليه السلام مع نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن نمرود الأول بن كوش بن حام بن نوح، وذلك حين تملك على إقليم بابل من قبل الضحاك، وهو بيوراسف وكمن حلَّ بلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا في باب مصر وأخبارها [في هذا الكتاب] وكمن عمر الشام من الكنعانيين، وكمن حلَّ بوادي البربر لهم هوارة وزناتة وضريسة ومغلية وورفجومة ونفزة وكتامة ولواته ومزانة ونفوسه ولقطة وصدينة ومصمودة وزنارة وغمارة وقالمة ووارقة وأتيته وبابه وبني سبخون وأركنة وهي من زناتة وبني كلان وبني مصدريان وبني أقباس وزبيجن وبني منهوسا وصنهاجة، ومن سكن من أنواع الأحابيش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة العافريين سون ورعوين والعرفة ويكسوم، ومنهم من سكن غير الغابة واتسع في هذه البلاد من المغرب.

وقد ذكرنا أن أرض البربر خاصة كانت أرض فلسطين من بلاد الشام، وأن ملكهم كان جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داود عليه الصلاة والسلام ملكهم جالوت، فلم يتملك عليهم بعده ملك، وأنهم انتهوا إلى ديار المغرب إلى موضع يعرف بلوبيه [ومراقيه]، فانتشروا هنالك، فنزلت منهم زناتة ومغلية وضريسة العجال من تلك الديار وتبطنوا الأودية، ونزلوا أرض برقة، ونزلت هوارة بلاد إياس وهي بلاد طرابلس المغرب أي الثلاث المدن، وقد كانت هذه الديار للإفرنجة والروم، فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم إلى جزائر البحر الرومي فسكن الأكثر منهم جزيرة صقلية، وتفرق البربر ببلاد إفريقيَّة وأفاصي بلاد المغرب من نحو من مسافة ألفي ميل، وانتهوا إلى موضع يعرف بقبوسة، على أكثر من ألفي ميل من بلاد القيروان، وتراجعت الروم

وإفرنجة إلى مدنهم وعمائرهم وذلك على موادعة وصلاح من البربر، واختار البربر سكنا العجال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البراري والقفار.

ومن بحر إفريقيا وصقلية يخرج المرجان، وهو المتصل ببحر الظلمات المعروف ببحر أقيانس، وغير هؤلاء من ذكرنا (من الأمم) ممن سكن قطع الأرض وابتني المدائن شرقاً وغرباً.

ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بأولي العز وأليق بذوي الأنفة، وقالوا: لنكون محكمين في الأرض ونسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك، فاختاروا سكنا البدو، من أجل ذلك وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار، ونيل الهمم والأقدار، وشدة الأنفة، والحمية من المعرة، والهرب من العار، بدأوا بالتفكير في المنازل، والتقدير للمواطن، فتأملوا شأن المدن والأبنية، فوجدوا فيها معرفة ونقاً، وقال ذو المعرفة والتمييز [منهم]: إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام، وتلتحقها الآفات. والواجب تخير الموضع بحسب أحوالها من الصلاح. إذ الهواء ربما قوي فأضر بأجسام سكانه، وأحال أمزجة قطّانه، وقال ذوو الآراء منهم: إن الأبنية والتحويط حضر عن التصرف في الأرض، ومقطعة عن الجولان، وتقييد لهم، وحبس لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير في اللبث على هذه الحالة. وزعموا أيضاً أن الأبنية والأطلال تحصر العذاء وتمعن اتساع الهواء، وتسد سروجه عن المرور وقداه عن السلوك، فسكنوا البر الأفيح الذي لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقدار، وسماحة الأهواء، واعتزال الوباء، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن، مع صحة الأمزجة، وقوة الفطنة، وصفاء الألوان وصيانة الأجسام. فإن العقول والأراء تتولد من حيث تولد الهواء، وطبع الهواء الفضاء وفي هذا الأمان من العاهات والأسقام والعلل والآلام، فاثرت العرب سكنا البوادي والحلول في البيداء، فهم أقوى الناس همماً، وأشدتهم أحلاماً، وأصحهم أجساماً، وأعزهم جاراً، وأحتمهم ذماراً، وأفضلهم جواراً، وأجودهم فطناً؛ لما أكسبهم إيه صفاء الجو ونقاء الفضاء؛ لأن الأبدان تحتوي أجزاؤها على متكاثف الأقدار [وعناء الأقدار] مما يرتفع إليه، ويتلاظم في عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات، والمستنقعات من المياه، ففي أكتافه جميع ما يتضاعد إليه، ولذلك تراكت الأقداء والأدواء والعاهات في أهل المدن، وتركت في أجسامهم، وتضاعفت في أشعارهم وأبصارهم، ففضلت العرب على سائر من عداتها من بوادي الأمم المختلفة لما ذكرنا من تخيرها الأماكن وارتياحها المواطن.

قال المسعودي: ولذلك جانبياً فظاظة الأكراد وسكان الجبال من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم خُزُون الأرض ودهاً، وذلك أن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها في انخفاضها وارتفاعها؛ لعدم استقامة الاعتدال في أرضها، فلذلك أخلاق قطّانها على ما هي عليه من الجفاء والغليظ.

خطيب العرب عند كسرى يعلل اختيار قومه البداوة

وذكر الهيثم بن عدي والشّرقي بن القطامي وغيرهما من الأخباريين أنه وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب، فسألته كسرى عن شأن العرب وسكنها البر واختيارها البدو، فقال: أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكونهم، وأمنوا عن التحصن بالأسوار، واعتمدوا على المرهفات الباترة، والرماح الشارعة جُنَاحاً وحصوناً، فمن ملك قطعة من الأرض فكانها كلها له، يردون منها خيارها، ويقصدون ألطافها، قال: فأين حظوظهم من الفلك؟ قال: من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدي مشرقين في البر بحسب ذلك، قال: فما رياحها؟ قال: أكثرها التكاء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس، قال: فكم الرياح؟ قال: أربع، فإذا انحرفت واحدة منهن قيل: نكباء، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب، وما بإزارهما مما يستقبلهما من المغرب شمال، وما جاء من وراء الكعبة فهي دبور، وما جاء من قبل ذلك فهي صبا، قال: فما أكثر غذائهم؟ قال: اللحم واللبن والنبيذ والتمر، قال: فما خلائقهم؟ قال: العز، والشرف، والمكارم، وقرى الضيف، وإذمام الجار، وإجارة الخائف، وأداء الحمالات، وبذل المهج في المكرمات، وهم سُرّة الليل، ولزيث الغيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألغوا القناعة، وشنفوا الضراوة، لهم الأخذ بالثار، والألفة من العار، والحماية للدمار، قال كسرى: لقد وصفت [عن] هذا الجيل كرماً ونبلاً؛ وما أولاًنا بإنجاح وفادتك فيهم.

فتخيرت العرب في البر انزاً منها مشاً ومتناً مصايف؛ فمنهم المنجد والمُتهم [فالمنجد منهم هم الذين سكنوا أرض نجد والمُتهم هم الذين سكنوا أرض تهامة، ومنهم من] سكن أغوار الأرض كغور بيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكته من لجم وجذام، ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وملكيّة يرجعون إليها، كالدهماء والسماءة والتهائم وأنجاد الأرض والباقع والقيعان والوهاد، ولست تقاد ترى قبيلًا من العرب توغل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم، كماء ضارج وماء العقيق والهباءة وما أشبه ذلك من المياه.

الأكراد ونسبهم ومساكنهم

وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس في بدمتهم؛ فمنهم من رأى أنهم من ربعة بن نزار بن عدنان، انفردوا في قديم الزمان، وانضافوا إلى الجبال والأودية، دعتهم إلى ذلك الأنفة، وجاوروا من هنالك من الأمم الساكنة المدن والعمائر من الأعجم والفرس، فحالوا عن لسانهم، وصارت لغتهم أعممية؛ ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكريدية، ومن الناس من رأى أنهم من مصر بن نزار، وأنهم من ولد كرد بن مرد ابن صعصعة بن هوزان، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع [ودماء] كانت بينهم وبين غسان، ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومصر، وقد اعتمدوا في الجبال طلباً للمياه والمراعي حالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم.

ومن الناس من أحقهم أيام سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ووقع على إمائه المنافقات الشيطان المعروف بالجسد، وعصم الله منه المؤمنات أن يقع عليهم، فعلق منه المنافقات، فلما رَدَ الله على سليمان مُلْكَه وضع تلك الإمام العوامل من الشيطان قال: أكردوهن إلى الجبال والأودية، فربّتهم أمهاطهم، وتناكحوا، وتناسلوا، فذلك بداء نسب الأكراد.

ومن الناس من رأى الضحاك ذا الأفواه المقدم ذكره في هذا الكتاب الذي تنازعت فيه الفرس والعرب من أي الفريقين هو، أنه خرج بكفيه حيتان فكانت لا تُغذّيان إلا بأدمغة الناس، فأفني خلقاً كثيراً من فارس، واجتمعت إلى حربه جماعة كبيرة وافاه أفريدون بهم وقد شالوا راية من الجلود تسميتها الفرس درفش كاوان، فأخذ أفريدون الضحاك وقيده في جبل دنباند على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلًا ويخلط أدمغتهما، ويطعم تينك الحيتين اللتين كانتا في كتفي الضحاك، ويطرد من تخلص إلى الجبال، فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال فهم بداء الأكراد، وهؤلاء من نسلهم، وتشعبوا أخذاً، وما ذكرنا من خبر الضحاك فالفرس لا يتناكرونه، ولا أصحاب التواريخ القديمة ولا الحديثة.

للفرس في أخبار الضحاك مع إبليس أخبار عجيبة، وهي موجودة في كتبهم، وتزعم الفرس أن طهورث المقدم ذكره في ملوك الفرس الأولى هو نوح النبي عليهما السلام، وتفسير درفش بالفارسية الفهلوية - وهي الأولى - الراية والمطرد والعلم.

وأما الترك وأجناسها فقد قدمنا كثيراً من أخبارها، وقد غلط قوم فزعموا أن الترك من ولد طوح بن أفريدون، وهذا غلط [بين؛ لأن طوح ولد أفريدون] على الترك فسلم على الروم، وكيف توليه عليهم وهم ولده؟ وما قلنا يدل على أن الترك من غير ولد طوح

ابن أفريدون، بل لطوح في الترك عقب مشهور، والمعظم في أجناس الترك هم التبت، وهم من حمير على حسب ما ذكرنا أن بعض التابعة ربتهم هناك.

وما قلنا من الأكراد فالأشهر عند الناس؛ والأصح من أنسابهم؛ أنهم من ولد ربيعة ابن نزار؛ فأما نوع من الأكراد - وهم الشوهجان ببلاد ما بين الكوفة والبصرة، وهي أرض الدينور وهمدان - فلا تناكر بينهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار بن معد، والمادردان - وهم من الكنكور ببلاد أذربيجان والهلبانية والسراء وما حوى بلاد العجال من الشاذنجان واللزبة والمادنجان والمزنكان والبارسان والخالية والجابارقية والجاوانية والمستakan ومن حل بلاد الشام من الدبابلة وغيرهم - فالمشهور فيهم أنهم من مصر بن نزار، ومنهم اليعقوبية والجورقان وهم نصارى، وديارهم مما يلي بلاد الموصل وجبل الجودي.

وفي الأكراد من رأيهم رأي الخوارج والبراءة من عثمان وعلى رضي الله عنهم فهذه جمل من أخبار بوادي العالم، وقد أعرضنا عن ذكر الغوز والخزلج وهم أنواع من الترك نحو بلاد غرش ويسطام وبُشت مما يلي بلاد سجستان وكذلك من ببلاد كرمان من أرض القفص والبلوج والجت.

بعض أيام العرب

قال المسعودي : فأما أيام العرب ووقائعها وحروبها فقد ذكرناها فيما سلف منكتينا، وما كان منها في الجاهلية والإسلام، كيوم الهباء، وحروب ذبيان وغطفان، [وما كان بين عبس وسائر العرب من نزار واليمين] وحرب داحس والغبراء، وحرب بكر بن وائل وتغلب، وهي حرب البَسوس، ويوم الكلاب، ويوم خزار، ومقتل شاس بن زهير، ويوم ذي قار، ويوم شعب جَبَّلة، وما كان من بني عامر وغيرهم، وحرب الأوس والخررج، وما كان بين غسان وعلَّك .

وستورد بعد هذا الباب جملًاً من أخبار العرب الدائرة وغيرها وتفرقها في البلاد، ونذكر جملًاً من آرائها ودياناتها في الجاهلية، وما ذهبت إليه في الغilan والهواطف والقيافة والكهانة والتفس والصدى والهام، وغير ذلك من شيمها، وبالله التوفيق .

ذكر ديانات العرب وأرائهم في الجاهلية وتفرقها في البلاد،
وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب
وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

ديانات العرب في الجاهلية

قال المسعودي: كانت العرب في جاهليتها فرقاً: منهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجل وتبَّأ [أقوامه] على آياته في الفترة، كُفُّسْ بن ساعدة [الإيادي] ورئاب الشَّنَّيْ، وبحيراً الراهب، وكأنما من عبد القيس.

وكان من العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم [وأقر] بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام، وهو الذين حكى الله عز وجل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ رَّبِّنَا﴾ [الزمر: ٣] وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها، ونحرروا [لها] البدن، ونسكوا لها النسائك، وأحلوا لها وحرموا.

ومنهم من أقر بالخالق، وكذَّب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبَّر عن كفرهم، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوذَجَةٌ وَمَا يَهْلِكُكُمْ إِلَّا الْدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] [فرد الله عليهم بقول]: ﴿وَمَا هُمْ بِذَلِكَ عَلَيْنَا إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْهُرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية.

ومنهم المارُّ على عنجهيته، الرَّاكِب لهجمته.

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة، ويزعمون أنها بنات الله؛ فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله، وهو الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَجَّالُوْنَ لِلَّهِ الْأَنْبَتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّهَ وَالْعَزَّى وَمَنْوَةً أَثَالِثَةَ الْأَخْرَى أَكْمَ الْذَّكَرِ وَلَهُ الْأَنْتَ تِلَّكَ إِذَا قِسْمَةً ضَيْرَى﴾ [النجم: ١٩ - ٢٢].

عبد المطلب بن هاشم

فمن كان مقرأً بالتوحيد، مثبتاً للوعيد، تاركاً للتقليد: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقد كان حفر بئر زمم، وكانت مطوية، وذلك في ملك كسرى قباد، فاستخرج منها غزالاً ذهب عليهما الدر والجوهر، وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف قلعية، وسبعة أدرع سواعي؛ فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل إحدى الغزالتين صفائح [ذهب في الباب]، وجعل الأخرى في الكعبة، وكان عبد المطلب أول من أقام الرُّفادة والسُّقاية [للحجاج، وكان أول من سقي الماء] بمكة عذباً، وجعل باب الكعبة مذهبًا، وفي ذلك يقول عبد المطلب:

أعطى بلا شُحٍ ولا مشاحح سقياً على رغم العدو الكاشف
بعد كنوز الحلي والصفائح حلياً لبيت الله ذي المسارح

وكان قد نذر إن رزقه الله عز وجل عشرة أولاد ذكور أن يقرب أحدهم الله تعالى فكان أمره - حين رزقه الله إياهم - أن قرب أحبهم إليه وهو عبد الله أبو النبي ﷺ، فضرب عليه بالقداح حتى افتداه بمائة من الإبل، في خبر طويل.

أصحاب الفيل

وقد كان أبرهة حين سار بالجيشة وأتى أنصاب الحرم، فنزل بالموضع المعروف بحب المحصب، فأتى بعد المطلب بن هاشم فأخبر أنه سيد مكة، فعظموه وهابه لاستدارة نور النبي ﷺ في جينيه، فقال له: سلني يا عبد المطلب فأبى أن يسأله إلا إيلاً له، فأمر بردها [عليه] وقال له: ألا تسألني الرجوع؟ فقال: أنا رب هذه الإبل، ولليت رب سيمنعه [منك] وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول:

يا أهل مكة قد وفاكم ملك مع الفيول على أنি�ابها الزَّرد
[هذا النجاشي قد سارت كتائب مع الليوث عليها البيض تتقد]
[يريد كعبتكم، والله مانعه كمنع ثبع لما جاءها حرد]

وأمر قريشاً أن تلحق بيطون الأودية ورؤوس الجبال من مرأة الجيشة، وقلد الإبل النعال وخلالها في الحرم [ووقف بباب الكعبة] وهو يقول:

[يا رب لا أرجو لهم سواكما يا رب فامنعوا منهم حماكما]
[إن عدو البيت من عاداكا فامنعواهم أن يخربوا قراكما]

ويقول:

يا رب إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبَنْ صليبهم ومحالهم أبداً محالك
فأرسل الله عليهم الطير الأبايل، أشباء العيسيب، ترميمهم بحجارة من سجيل،
وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر، مع كل طير ثلاثة أحجار فأهلتهم الله عز
وجل.

وقد ذكرنا خبر أبي رغال فيما سلف من هذا الكتاب حين دلهم [على الطريق،] وهلاكه في الطريق، وجعلت الحبشة يومئذ تسأل عن نُفِيل بن حبيب الجثعمي يدلها على الطريق، ونُفِيل يسمع كلام الحبشة وسؤالها عنه وقد ربع لما عهم من البلاء، وانفرد من جملتهم يؤمل الخلاص، وقد تاهوا، فأشأ يقول:

ألا رُدِّي جمالك يا رُدِّينا نعمناكم مع الإاصباح عينا
فإنك لو رأيت ولن تريه لدى جنب الممحصب ما رأينا
حمدت الله إذ عاينت طيراً وحصب حجارة ثلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نُفِيل كان على للحبيشان دِيننا

وقد ذكرنا ما كان منهم في هلك عمدهم فيما سلف من هذا الكتاب، فلما صَدَّهُمْ
الله عز وجل عن الكعبة أنشأ عبد المطلب يقول:

أيها الداعي لقد أسمعني ثم ما بي عن ندائم من صَدَّهُمْ
إن للبيت لربّا مانعاً مَنْ يُرْدُهُ بأشام يُصطلِّم
رامه تبع فيمن جَسَدَ حمير والحي من آل قدم
فانشني عنه وفي أوداجه جارخ أمسك منه بالكَظَم
قلت والأشرم تردي خيله إن ذا الأشرم غر بالحرم
نحن آل الله فيما قد مضى لم يزل ذاك على عهد آبَرَهُمْ
نحن دَمَرْنا ثموداً عنوة ثم عاداً قبلها ذات الإرم
نعبد الله وفيينا سُنة صلة القربي وإيفاء الذمم
لم تزل الله فينا حجة يدفع الله بها عنا النَّقْمُ

القول بتناسخ الأرواح

قال المسعودي: وقد استدل قوم من ذهب إلى الغلو في بعض المذاهب

والخروج عما أوجبته قضية العقل وضرورات الحواس بهذا الشعر وقول عبد المطلب فيما كان منهم في قديم الزمان، وأيدوا ذلك الشعر بـشـعر العباس بن عبد المطلب في مدحه النبي ﷺ وهو ما ذكره قريم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي أنه هاجر إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه مُنصرفة من تبوك فأسلم، قال: سمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله، إني أريد أن أمدحك، فقال رسول الله ﷺ: «قل لا يفحضر الله فاك [يا عمي،]» فأنشاً يقول:

من قبلها طبَّت في الظلال وفي
ثم هبَّت البلاد، لا بشر
بل حجة تركب السفين، وقد
تنقل من صالب إلى رحم
وأنت لما ولدت أشرقت الـ^إ
[حتى احتوى بيتك المهيمن من
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ^{هـ}
ور وسبيل الرشاد نخترق
الجم نسراً وأهله الغرق
إذا ماضى عالم بدا طبئـ^أ
أرض، وضاءات بنورك الأفق
خندف عليهـ^أ تحتها النطقـ^أ
أنت، ولا مضغة، ولا علقـ^أ
مستودع حيث يُخْصَفُ الورقـ^أ

قالوا: وهو الخبر قد ذكره أصحاب السير والأخبار والمغازي، ونقلوا هذا المديح من قول العباس، وما كان من سرور النبي ﷺ بذلك واستبشاره به فجعلت هذه الطائفة من الغلة ما ذكرنا من الشعرين - شعر عبد المطلب، وشعر العباس - دلالة لهم على مواطن دعوها، وتغلغلوا إلى شبه بعيدة استخرجوها، يمنع منها ما تقدم من أوائل العقول، وموجبات الفحص، ذكر ذلك جماعة من مصنفي كتبهم، ومن حذاق مبرزיהם؛ من فرق المحمدية والعلبانية، وغيرهم [من فرق الغلة:] منهم إسحاق بن محمد النخعي المعروف بالأحمر في كتابه المعروف بكتاب الصراط، وقد ذكر ذلك الفياض بن علي [ابن محمد بن الفياض في كتابه المعروف بالقسطاس] في نقضه لكتاب الصراط وذكره المعروف بالنهكيني في نقضه هذا الكتاب المترجم بالصراط، وهؤلاء محمدية نقضوا هذا الكتاب، وهو على مذهب [العلبانية]، وقد أتينا على ذكر هؤلاء المحمدية والعلبانية والمغيرة والقدرة وسائر فرق الغلة وأصحاب التفويض والوسائل، واستقصينا النقض عليهم وعلى سائر من ذهب إلى القول بتناصح الأرواح في أنواع أشلاء الحيوان من ادعى الإسلام وغيرهم ممن سلف من اليونانيين والهنود والثنوية والمجوس واليهود والنصارى، وذكرنا قول أحمد بن حافظ وابن يافوس وجعفر القاضي، إلى من نجم في وقتنا من تقدم وتأخر إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - من أحد ثقلاء ثغريعاً

على ما سلف من أصولهم، وأبدى شبهًا أيدَ بها ما تقدم من مذاهبهم، مثل الحسين ابن منصور المعروف بالحلاج، وأصحاب أبي يعقوب المزاليي، ثم أصحاب السوق ومن تأخر عنهم وفارقهم في أصولهم، مثل أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي الغراير وغيرهم ممن أمم نهجهم، وذكروا الفرق بينهم وبين غيرهم من أصحاب الدور في هذا الوقت ممن يراعي وقت الظهور، وأصحاب حجج الليل والنهار؛ إذ كان هؤلاء قد أثبتو القول بالتناسخ، وأن الأرواح تتنقل في شيء من الأجسام الحيوانية، وأحالوا على القديم عز وجل أن يجوز عليه شيء مما تقدم، فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه آنفًا، وما تغلغل بنا الكلام عنه من ذكر عبد المطلب.

الاختلاف في إيمان عبد المطلب

تنازع الناس في عبد المطلب: فمنهم من رأى أنه كان مؤمناً موحداً، وأنه لم يشرك بالله عزَّ وجلَّ، ولا أحد من آباء النبي ﷺ، وأنه نقل في الأصلاب الظاهرة، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لا من سفاح، ومنهم من رأى أن عبد المطلب كان مشركاً، وغيره من آباء النبي ﷺ إلا من صح إيمانه، وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق في النص والاختيار، وليس كتابنا هذا موسوماً للحجاج فنذكر حجاج كل فريق منهم.

وقد أتينا على قول كل فريق منهم وما أيد به قوله في كتابنا «المقالات في أصول الديانات» وفي كتاب «الاستبصار» ووصف أقاويل الناس في الإمامة وفي كتاب «الصفوة» أيضاً.

وكان عبد المطلب يوصي ولده بصلة الأرحام، وإطعام الطعام، ويرغبهم [ويرهبون] فعل من يراعي في المتعقب معاداً وبعثاً ونشروراً، وجعل السقاية والرفادة إلى ابنه عبد مناف - وهو أبو طالب - وأوصاه بالنبي ﷺ.

أبو طالب

وقد تنوزع في اسم أبي طالب: فمنهم من رأى أن اسمه عبد مناف، على ما وصفنا، ومنهم من رأى أن كنيته اسمه، وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتب في كتاب النبي ﷺ ليهود خير بإملاء النبي ﷺ «وكتب علي بن أبي طالب» [بإسقاط الألف] وقد ذكر عبد المطلب في شعر له وصية أبي طالب بالنبي ﷺ، فقال:

أوصيتك مَنْ كنيته بطالب يا بن الذي قد غاب ليس بائب وقد كان أكثر العرب من بقي ودثر يقر بالصانع، ويستدل على الخالق.

اختلاط الألسنة

وقد كان في ملك النمرود بن كوش بن حام بن نوح هيجان الريح التي نسفت صرح النمرود ببابل من أرض العراق، فبات الناس ولسانهم سرياني، وأصبحوا [و] قد تفرقوا لغاتهم على اثنين وسبعين لساناً، فسمى الموضع من ذلك الوقت بابل، فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعه عشر لساناً [وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لساناً] وفي ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لساناً على حسب ما ذكرنا في صدر هذا الكتاب، وكان مَنْ تكلم بالعربية يعرب وجرهم وعاد وعييل وجديس وثمود وعملاق وطسم، ووبار وعبد ضخم.

مسير يعرب وسكناه اليمن

فسار يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وغيرهم وهو يقول:

أنا ابن قحطان الهمام الأفضل [الأيمن المعرف ذو المهلل]
يا قوم سيروا في الرعيل الأول أنا الْبَدِئي باللسان المسهل
الأبين المنطق غير المشكّل [حثوت والأمة في تبلبل]
[يا قوم سيروا في الرعيل الأول] نحو يمين الشمس في تمهل
فحل باليمين على ما وصفنا آنفاً من هذا الكتاب.

مسير عاد إلى الأحقاف

وسار بعده عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول:
إني أنا عاد الطويل البدائي وسام جدي ابن نوح الهدادي
فقد رأيتم يعرب الزيادي وسَوْقَه الطارف والتلاد

إرم ذات العمام

فحل بالأحقاف [وأداني الرمل] بين عمان وحضرموت واليمين، وتفرق هؤلاء في الأرض، فانتشر منهم ناس كثير: منهم جيرون بن سعد بن عاد حلّ بدمشق فمضّر مصراها، وجمع عمد الرخام والممرمر إليها، وشيد بنيانها، وسمّاها إرم ذات العمام، وقد

روي عن كعب الأحبار في إرم ذات العماد غير هذا، وهذا الموضع بدمشق في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - سوق من أسواقها عند باب المسجد الجامع، يعرف بجيرون، وجিرون: هو بنيان عظيم، كان قصر هذا الملك، عليه أبواب من نحاس عجيبة: بعضها على ما كانت عليه، والبعض من مسجد الجامع، وقد ذكرنا فيما مر خبر نبي الله هود.

نزول ثمود الحجر

وسار بعد عاد بن عوص ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه.

وهو يقول:

أنا الفتى الذي دعا ثمودا يا قوم سيروا ودعوا التردیدا
لعلنا أن ندرك الوفودا فنلحق البدی لنا العدیدا
إنا أبینا الیعرب الحمیدا وعاد ما عاد الفتی الجلیدا
فنزل هؤلاء الحجر إلى فرع، وقد تقدم ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب، وخبر
نبیهم صالح عليه السلام، وأنهم نحو وادي القرى، بين الشام والحجاز.

مسير جديس إلى اليمامة

وسار بعد ثمود جديس بن عابر بن إرم بن سام بن نوح بولده، ومن تبعه [وهو يقول:]

أنا جديس وانمسير المسلكا فَذِكْرَ نفسي يا ثمود المهلکا
دعوتني فقد قصدت نحوکا إذ سارت العیس وأبیت شخصکا
وقد قلنا فيما سلف: إن هؤلاء الذين نزلوا اليمامة.

مسير عملاق إلى موضع مختلفة

وسار بعد جديس عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح [بولده] ومن تبعه: وهو يقول:

تبعه: وهو يقول:

لما رأيت الناس ذا تبلبل وسار منا ذو اللسان الأول
[وحدثتنا في اللحاق الأول] فسرت حثا بالسوان المهممل

فنزل هؤلاء أكناf الحرم والتهائم، ومنهم من سار إلى بلاد مصر والمغرب، وقيل: إن هؤلاء بعض فراعنة مصر، وقد ذكرنا قول من الحق العماليق وغيرهم ممن ذكرنا بعيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وزعم أنهم من ولد العيسى على حسب ما ذكرنا فيما تقدم.

وقد كانت للعماليق ملوك كثيرة سلفت في مواضع من الأرض بالشام وغيرها، وقد أتينا على أخبارهم وذكر ممالكهم وحروبهم في كتابنا «أخبار الزمان»، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب قصة يوشع بن نون مع ملك العماليق ببلاد أيلة، وهو السميدع بن هوير، وقد كان من بقى من العماليق انضافوا إلى ملوك الروم؛ فملكتهم الروم على مشارق الشام والغرب والجزيرة من ثغور الشام فيما بينهم وبين فارس.

أذينة بن السميدع العمالقي

فممن ملك الروم من العماليق: أذينة بن السميدع، الذي ذكره الأعشى في قوله:
 أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن ملكه ذا يزن
 وقد كان ملك بعد العماليق حسان بن أذينة بن طرب [بن حسان] ويقال: هو الذي
 يعرف بأمه [زياء].

ثم ملك عمرو بن طرب، ويقال: هو الذي كان يعرف بأمه [زياء]، وقد كان بينه وبين جذيمة الأبرش الأزدي أبي مالك حروب كثيرة، فقتله جذيمة على ما ذكرنا، وما كان من قتل الزباء الجذيمة [وقول الشاعر]:

كأن عمرو بن زياد لم يعش ملكاً ولم يكن حوله الرياحات تختنق
 لاءم جذيمة من ضرساء مشعلة فيها خرافش بالنيران ترتشق]

مسير طسم إلى البحرين

ثم سار طسم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح بعد عملقاً بن لاوذ بولده؛ ومن تبعه [وهو يقول]:

إني أنا طسم وجدي سام سام بن نوح وهو الإمام
 لما رأيت الأخ والأعلاما قلت لنفسي: الحقي السواما
 أخاك عملقاً وذا الإقدام يافت لا كان ولسي حام]

فنزل هؤلاء البحرين.

وقد كان جميع من ذكرنا [بَدْنَا]، وانتشروا في الأرض، على حسب ما ذكرنا من مساكنهم، وكثرت جديس، فملكت عليها الأسود بن غفار، وكثرت طسم، فملكت عليها عمiloc، بن جديس، وقد ذكر عبيد بن شريعة الجرهمي حين وفد على معاوية [وأخبره] أن طسم بن لاوذ [بن إرم بن سام بن نوح، وجديس بن عابر بن سام بن نوح، هم العرب العاربة، وقد كان متزلاً لهم جميعاً باليمامنة، واسمها إذ ذاك جَوْ.]

عمiloc الظالم ملك طسم

وكان لطسم ملك يقال له عمiloc، وكان ظلوماً غشوماً، لا ينهاه شيء عن هواه، مع إصراره وإقدامه على جديس، وتعديه عليهم، وقهره إياهم، فلبثوا في ذلك دهراً، وهم أهل مظالم، قد غمطوا النعمة، وانتهكوا الحرمة، وبلادهم أفضل البلاد، وأكثرها خيراً، فيها صنوف الشجر والأعناب، وهي حدائق ملتفة، وقصور مصطفة، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس، يقال لها هُزيلة بنت مازن، وزوج لها قد فارقتها، يقال له ماشق، فأراد قبض ولده منها، فأبأط عليه، فارتفعوا إلى الملك عمiloc ليحكم بينهما، فقالت المرأة: أيها الملك، هذا الذي حملته تسعأ، ووضعته دفعاً، وأرضعته شفعاً، ولم أنل منه نفعاً، حتى إذا تمت أوصاله، واستوفت خصاله، أراد أن يأخذني قسراً، ويسلبني قهراً، ويتركني منه صفرأ، قال زوجها: قد أخذت المهر كاماً، ولم أنل منه نائلاً، إلا ولداً خاماً، فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهمما ويجعل في غلمانه، فقالت هُزيلة في ذلك:

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكماً في هُزيلة ظالماً
لعمري لقد حُكِّمت لا متورعاً ولا فهماً عند الحكومة عالماً
ندمت فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادماً

بلغ الملك قول هُزيلة، فغضب، وأمر أن لا تتزوج امرأة من جديس فترفت إلى زوجها حتى تحمل إليه، فيفترعها قبل زوجها، فلقوا من ذلك ذلاً طويلاً، ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت عفيرة، وقيل: الشموس، بنت غفار الجديسي أخت الأسود بن غفار، فلما كانت ليلة هديها إلى زوجها انطلق بها إلى عمiloc الملك ليطأها على عادته، ومعها القينات يعنين ويللن في غنائهن:

إبدي بعملوق وقومي فاركبي وبادرى الصبح بأمر معجب
فمالبكر بعدكم من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها وخلى سيلها، فخرّجت عفيرة على قومها
في دمائها شاقة جيئها عن قبلها ودبرها، وهي تقول:

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروض؟
وقالت أيضاً تحرض [قومها] جديس على طسم، وأبأت أن تمضي إلى زوجها من
كلمة:

وأنتم رجال فيكم عدد الرمل
صبيحة زفت في النساء إلى البعل
فكونوا نساء لا تفروا من الكحل
خلقتم لأنوثاب العروس وللغسل
ويختال يمشي بينما مشية الفحل
نساء لكننا لا نقر على الذل
بحرب تلظى في القرام من الجزل
تقوم بأقوام كرام على رجل
ويسلم فيها كل نكسٍ مواكل
أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم
أيصلح تمشي في الدما فتياتكم
إإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه
ودونكم طيب العروض؛ فإنما
فقبحاً وشيكأً للذى ليس دافعاً
فلو أننا كنا الرجال وكنتم
فموتوا كراماً، واصبروا لعدوكم
ولا تجزعوا للحرب يا قوم، إنما
فيهملك فيها كل نكسٍ مواكل
[وفي ذلك يقول أخوها:

جائت تمشي طسم في خميس
كالريح في هشهشة اليبيس
يا طسم ما لقيت من جديس حقاً لك الويل فهيسى هيسي]

التفكير في الانتقام

قال: فلما سمعت جديس بذلك وغيره من قوله اجتمع غضباً لذلك، فقال لهم الأسود بن غفار - وكان فيهم سيداً مطاعاً - : يا جديس، أطيعوني فيما أمركم به، وأدعوكم إليه، ففي ذلك عز الدهر، وذهب الذل، قالوا: وما ذلك؟ قال: قد علمتم أن هؤلاء - يعني طسمـاً - ليسوا بأعز منكم، ولكن ملوك صاحبهم عليكم وعليهم هو الذي يذعننا إليه بالطاعة، ولو لا ذلك ما كان له علينا من فضل، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف، فقالوا: قد قبلنا قولك، ولكن القوم أقرانا، وأكثر عدداً وعدداً ميناً، فنخاف إن ظفروا بنا أن لا يقيلونا، فقال: والله يا جديس لتطيعتني فيما أمركم به وأدعوكم إليه أو

لأنكثن على سيفي فأقتل [به] نفسي، قالوا: فإننا نطيك فيما قد عزمت عليه، قال: إنني صانع لعموق وقومه من طسم طعاماً وداعيهم إليه، فإذا جاؤوا إليه متفضلين في الحل والنعمال نهضنا إليهم بأسيافنا، فانفرد أنا بالملك، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم، قالوا له: فافعل ما بدا لك، واجتمع رأيهم عليه، فقالت عفيرة لأخيها الأسود: لا تفعل هذا؛ فإن الغدر فيه ذلة وعار، ولكن كابدوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً، قال: لا، ولكن نمكر بهم، فيكون ذلك أمنكَ لنا من نواصيهم، وأبلغ في الانتقام منهم، فقللت عفيرة في ذلك أشعاراً قد ذكرناها فيما سلف من كتابنا.

ثم إن الأسود صنع طعاماً كثيراً، وأمر قومه فاخترطوا سيفهم ودفنوها في الرمل حيث أعدوا الطعام، ثم قال لهم: إذا أتاكم القوم يرفلون في حليهم فخذلوا أسيافكم ثم شدوا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم، وابدوا بالرؤساء؛ فإنكم إذا قتلتموه لم تبالوا بالسفالة، ولم تكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها، قالوا: نفعل ما قلت.

ثم دعا الأسود بعموق الطسمى ومن معه من رؤساء طسم باليمامه، فأسرعوا إجابة دعوة الأسود، فلما توافوا إلى المدعاه وتَبَّعَ جديس، فاستشاروا سيفهم من الرمل، وشدوا على عموق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم، ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها، وقال الأسود بن غفار في ذلك أشعاراً يرثى بها طسماً، ويذكر بغتها و فعل عميق بأخته، يطول بذكرها الكتاب، وقد تقدمت فيما سلف من كتابنا.

رباح الطسمى يستنجد حمير على جديس

قال: وهرب رجل من طسم، وكان اسمه رباح بن مرة الطسمى، فأتى إلى حسان ابن تَبَّعَ [الحميري ملك اليمن يومئذ] فاستغاث به، وقد كان عمد إلى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طيناً رطباً، وحملها معه وأخرج معه كلبة، فلما ورد على حسان كسر يَدَ كلبته، ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ودخل إلى حسان واستعاد به، وأخبره بالذى صنعت جديس بقومه، فقال له الملك: الله أبوك، فمن أين مَبْدَاك؟ قال: جئتكم، أبىت اللعن من أرض قريبة وقوم انتهك منهم ما لم يتنهك من أحد، أنا رباح بن مرة الطسمى، دعونا جديس إلى مَدْعَاه لهم فأجبناهم متفضلين في الحل والسلاح عند جِفانهم، فما ذُفتنا الطعام حتى صرنا حُطاماً، بلا طلب دم ولا ترة سلفت، فدونك - أبىت اللعن! - قوماً قطعوا أرحامنا، وسفكوا دماءنا، قال الملك حسان: أمعك خرجت هذه الجريدة وهذه الكلبة؟ قال: نعم، فقال الملك: إن كنت صادقاً لقد خرجت من أرض قريبة، ووَعَده بالنصرة، ثم نادى في حمير بالمسير، وأعلمهم بما فعل بطعم، قالوا: من فعل هذا أبىت اللعن؟ قال: عبيدهم، قالوا: ما لنا في هذا من أَرْبَ، هم

إخواننا فلا نعين بعضاً على بعض، وهم عيبيك أيها الملك فدعهم، فقال حسان: ما هذا بحسن، أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حسناً لملككم أن يهدر دماءكم؟ وما علينا في الحكم إلا أنا ننصف بعضاً من بعض، فقام فرسانهم فقالوا: أبى اللعن الأمر أمرك، فمرنا بما أحبت، فأمرهم بالمسير، فساروا وسار بهم رياح بن مرة حتى إذا صاروا من اليمامة على ثلات قال رياح بن مرة للملك حسان: أبى اللعن، إن لي اختاً متزوجة في جديس ليس في الأرض أبصر منها، إنها تبصرراكب على مسيرة ثلاثة ليال، وأنا أخاف أن تنذر القوم بك، فتأمر كل واحد من أصحابك أن يقتل شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير، فأمرهم حسان بذلك، ففعلوا ثم ساروا، وكان اسم اخت رياح «يمامة» [بنت مرة] فأشرفت من منظرها فقالت: يا جديس لقد سارت إليكم الشجر، قالوا لها: وما ذاك؟ قالت: أرى أشجاراً تسير [و] وراءها شيء، وإنني لأرى رجلاً من وراء شجرة ينهش كتفاً أو يخصف نعلاً، فكذبواها، وكان ذلك كما ذكرت فعلوا عنأخذ أهبة الحرب، ففي ذلك تقول اليمامة الجديس [تحذرهم]:

إنِي أَرِي شَجَرًا مِنْ خَلْفِهَا بَشَرٌ فَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الْأَشْجَارُ وَالْبَشَرُ؟
ثُورُوا بِأَجْمَعِكُمْ فِي وَجْهِ أُولَئِمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَاعْلَمُوا طَفْرُ

وأقبل الملك حسان بحمير، حتى إذا كان من جَوْ على مسيرة ليلة عَبَأً جيشه ثم صَبَّحَها فاستباح أهلها من جديس قتلاً، فأفناهم وسبى نساءهم وصبيانهم، وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بدار طيء فأجاؤوه من الملك وغيره، من غير أن يعرفوه؛ فيذكر أن نسله اليوم في طيء مذكور.

زرقاء اليمامة

فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة، وكانت امرأة زرقاء، فأمر فترعت عينها فإذا في داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك، فقالت: حجر أسود يقال له الإثمد كنت أكتحل به [فنشب إلى بصرى] وكانت [هي] أول من اكتحل به، فاتخذوه بعد ذلك كحلاً، وأمر الملك باليمامة، فصلبت على باب جو، وقال: سموا جواً باليمامة؛ فسميت بها إلى اليوم.

مسير وبار بن أميم

قال المسعودي: ثم سار - بعد طسم بن لاوذ - وبيار بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام ابن نوح بولده ومن تبعه من قومه، فنزل بأرض وبيار بالأرض المعروفة برملي عالج، فأصابهم نسمة من الله فهلكوا لما كان من بغיהם في الأرض، وقد قدمنا فصلاً من ذلك

فيما سلف من هذا الكتاب على ما زعم الأخباريون من العرب، وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد من الأمر المفهوم، بزعمهم أن الله عز وجل حين أهلك هذه الأمة العظيمة، المعروفة بوبار، كما أهلك طسماً وجديساً وداسماً، وكانت ديار داسم بأرض السماوة فأهلكوا بالريح السوداء الحارة، وداسم كانت ديارهم بالجولان وجازر من أرض نوى من بلاد حوران والشنية، وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام، وعملاق وعد وشمد، وأن الجن كانت تسكن في ديار وبار، وحثتها من كل من أرادها وقصد إليها من الإنس، وأنها كانت أخصب بلاد الله عز وجل وأكثرها شجراً وأطبيها ثمراً وعنباً ونخلاً وموزاً، وإن دنا أحد من الناس إلى تلك البلاد غالطاً أو متعمداً حتى الجن في وجهه التراب، وسفت عليه سوافي الرمل، وأثارت عليه الزوابع، فإن أراد الرجوع عنها خبلوه وتيهوه، وربما قتلوه، وهذا الموضع عند كثير من ذوي الحجا باطل، فإذا قيل لهم: دلونا على جهته، وقفونا على حده، زعموا أنها من أرادها ألقى على قلبه الضرفة، حتى كأنهم بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى في التي فصدهم الله تعالى عن الخروج، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى أن تم فيهم مراده، وانتهى فيهم حكمه، وقد قال في ذلك شاعرهم يخبر بمثل ما وصفنا من قولهم في هذه الأرض المجهولة.

دعا جحفلأ لا يهتدى لمقيمه من اللؤم حتى يهتدى لوبار
[وَدَاعِ دُعَا وَاللَّيلِ مُرْخِ سَدُولِه رَجَاءَ الْقَرِيِّ يَا مُسْلِمَ بْنَ جَبَارَ]
وأقوالهم في مثل هذا كثيرة.

والعرب من سلف وخلف في الجاهلية والإسلام يخبرون عن هذه الأرض كإ Barbar عن وادي القرى والصمآن والدنهاء والرمل الذي بيرين وغيرها من الأرضين التي نزلوا فيها، ويختيمون عليها طلباً للماء والكلأ، وزعموا أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجن والإبل الوحشية، وهي عندهم من الإبل التي قد ضربت فيها فحول الجن، فالوحشية من نسل إبل الجن، والعبدية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيها الوحشية، وفي ذلك يقول أبو هريم:

كَائِنَى عَلَى وَحْشِيَّةِ أَوْ تَعَامِةِ لَهَا نَسْبٌ فِي الطَّيْرِ وَهُوَ ظَلِيمٌ
وَالأشعار في ذلك كثيرة.

وفي بسطنا لجواب أخبار العرب فيما نقلته عن أسلافها - مما أمكن كونه وخرج عن حد الوجوب والجواز - خروج عن حد الإيجاز والاختصار، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتابنا.

مسير عبد ضخم للطائف

وسائل بعد وبار بن أميم عبد ضخم بن إرم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف، فهلك هؤلاء ببعض غواصي الدهر، فدثروا وذكروا الشعراء، [وفيهم يقول الأزدي: عبد ضخم إذا نسبتهم أبيض أهل الحي بالنسب ابتدعوا منطبقاً يجمعهم فبين الخط قحة العرب]

بدء الكتابة بالعربية

وذكروا أن هؤلاء أول من كتب بالعربية، ووضع حروف المعجم وهي حروب أب ت ث، وهي التسعة والعشرون حرفاً، وقد قيل غير ذلك، على حسب تنازع [الناس في بدء] الكتابة.

مسير جرهم إلى مكة

وسائل بعد عبد ضخم بن إرم جُرْهُم بن قحطان بولده ومن تبعه، وطافوا البلاد، حتى أتوا مكة فنزلوها [وفي ذلك يقول مضاض بن عمرو الجرهمي: هذا سبيل كسبيل يعرب البداء القول المبين المغرب يا قوم سيروا عن فعال الأجنبي جرهم جدي وقحطان أبي]

مسير أميم إلى فارس

وسائل بعد أميم بن لاوذ بن إرم بعد جرهم بن قحطان فحلَّ بأرض فارس؛ فالفرس - على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب، في باب تنازع الناس في أنساب فارس - من ولد كيورث بن أميم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وفي ذلك يقول بعض من تقدم من أهل الحكمة من شعراء فارس في الإسلام:

أبونا أميم الخير من قبل فارس وفارس أرباب الملوك؛ بهم فخري [وما عد قوم من حديث وحدث من المجد إلا ذِكْرُنا أَفْضَلُ الذِّكْر]

أول أمراء بنى البيوت أميم بن لاوذ

وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار أن جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خيم وبدوا مجتمعين في مساكنهم في الأرض، وأن أميمًا أول من ابنيتى البيتان، ورفع الحيطان، وقطع الأشجار، وسقف السقوف، واتخذ السطوح، وأن ولد حام [بن نوح حلوا ببلاد الجنوب، وأن ولد كوش بن كنعان خاصة هم التوبة، على حسب ما قدمنا

آنفًا في باب السودان من هذا الكتاب، وأن فخذًا من ولد كنعان بن حام] ساروا نحو بلاد إفريقيا وطنجة من أرض المغرب، فنزلوها، وزعم هذا القائل أن البرير من ولد كنعان بن حام.

أنساب البرير

وقد تنازع الناس في بدء أنساب البرير؛ فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من اليمن، وأنهم تفرقوا حول تلك الديار حين تفرق الناس من بلاد مأرب عندما كان من سيل العَرِمِ، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان، ومنهم من رأى غير ذلك، وقد ذكرناه فيما سلف من كتابنا.

الشام بلاد كنعان

ونزل ولد كنعان بن حام - وهو الأغلب من ولد كنعان - بلاد الشام، فهم الكتاعيون، وبهم تعرف تلك الديار، فقيل: بلاد كنعان.

مسير نوفير إلى الهند

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أخبار مصر بن حام وبيصر والأنباط.

وسار نوفير بن فوط بن حام بولده ومن تبعه إلى أرض الهند والسندي، وبالسند أتم لهم أجسام طوال، وهو على بلاد المنصورة من أرض السندي؛ فعلى هذا القول أن الهند والسند من ولد نوفير [بن فوط] بن حام بن نوح، فولد حام في الجنوب من الأرض الأكثر منهم، ولد يافث في الشمال فيما بين الشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من الأمم وتفرقها في الشرق وغيره مما يلي جبل القبّح والباب والأبواب.

عبادة عاد، وبغيهم

وبعثت عاد في الأرض وملكتها الخلجان بن الوهم؛ فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام، وهي: صمود، وصداء، والهباء، فأبعث الله إليهم هوداً على حسب ما قدمنا، فكذبوه، وهو هود بن عبد الله بن رياح بن خالد بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقد قدمنا أن قوم عاد كانوا عشرة قبائل، وقد تقدم ذكر أسمائهم، فدعوا عليهم هود؛ فمنعوا المطر ثلاث سنين، وأجدبت الأرض فلم ينذر عليهم ضرر.

أصل الشرك

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع جل وعز، ويعلمون أن نوحًا عليه السلام كان نبياً، وأنه وفي لقومه بما وعدهم من العذاب، إلا أن القوم دخلت عليهم شبه بعد

ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر، ومالت نفوسهم إلى الدّعَةِ، وما تدعو إليه الطبائع من المَلَائِكَةِ والتَّقْليدِ، وكان في نفوسهم هيبة الصانع، والتَّقْرِبُ إِلَيْهِ بالتماثيل وعبادتها، لظنهم أنها مقربة لهم إليه، وكانوا مع ذلك يعظمون موضع الكعبة، وكان موضعها على ما ذكرنا ربيعة حمراء.

وفود عاد على مكة

فوفدت عاد إلى مكة يستسقون لهم ، وكان بمكة يومئذ العماليق ، فأتى الوفد مكة ، فأقبلوا على الشرب واللهو ، حتى غَتَّبُوهُمُ الْجَرَادَتَانِ قَيْنَاتَا معاوية بن بكر بـشـعـرـ فـيـهـ حـثـ لـهـمـ عـلـىـ ماـ وـرـدـواـ مـنـ أـجـلـهـ ، وـهـوـ :

أَلَا يَا قَيْلَ وَيْحَكَ قَمْ فَهَيْنِمْ لَعَلَّ اللَّهَ يَمْطَرُنَا غَمَامًا
فِي سَقِيِّ أَرْضِ عَادٍ، إِنَّ عَادًا
فَدَ افْسَنُوا لَا يَبْيَنُونَ الْكَلَامًا
مِنَ الْعَطْشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو
بِهِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَلَا الْغَلامُ
فَلَا تَخْشِي لِرَامِيهِمْ سَهَاماً
وَإِنَّ الْوَحْشَ تَأْتِي أَرْضَ عَادٍ
نَهَارَكُمْ وَلِيَلَكُمُ التَّمَامَا
فَقَبَّحْ وَفَدَكُمْ مِنْ وَفَدِ قَوْمٍ
وَلَا لَقُوا النَّحْيَةَ وَالسَّلَامَا

[ثم إن معاوية بن بكر دعا إحدى الجرادتين فغنست:

أَلَا يَا قَيْلَ مِنْ عُرُوصِ
وَعَادَ كَالشَّمَارِيخِ
مِنَ الظَّوْلِ الْكَرَامِ
سَقَى اللَّهُ بَنْيَ عَادَ مَعًا صَرْبَ الْغَمَامِ]

فاستيقظ القوم من غفلتهم، ويا دروا إلى الاستسقاء لقومهم؛ فكان من أمرهم في مجيء السحاب واختيارهم لما اختاروه منها ما قد اتضح، وفيهم يقول مَرْثُنَ بنَ سَعْدَ مِنْ كَلْمَةِ :

عَصَثْ عَادَ رَسُولَهُمْ فَأَمْسَوَا^{عَطَاشًا لَا تَبْلَهُمُ السَّمَاء}
أَلَا قَبَّحَ إِلَهُهُ حُلُومَ عَادَ^{فِيَنْ قُلُوبَهُمْ قَفْرٌ هَوَاء}
[لَهُمْ صَنْمَ يَقَالُ لَهُ صَمْدَ^{يَقَابِلُهُ صَدَاءُ وَالْهَبَاءُ}]
[فَبَصَرَنَا الْهَدِي وَنَأَيَ الْعَمَاءُ^{بَأَنَّ إِلَهَ هُودٍ هُوَ الْعَلَاءُ}]
[وَأَنَّ إِلَهَ هُودٍ هُوَ إِلَهِي^{عَلَى اللَّهِ التَّوْكِلُ وَالرَّجَاءُ}]

[وأنني لاحق بالأمس هوداً وإخوته إذا حق المساء]

مهملاً عاد

فأرسل الله عز وجل على عاد الريح العقيم، فخرجت الريح عليهم من واد لهم، فلما رأوا ذلك قالوا: «هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنًا» [الأحقاف: ٢٤] وتبashروا بذلك، فلما سمع هود ذلك من قولهم قال: «بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْتُ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» [الأحقاف: ٢٤] فأتتهم الريح يوم الأربعاء، فلم تأت الأربعاء الثانية ومنهم حيٌّ، فمن أجل ذلك كره الناس يوم الأربعاء.

وقد بينما فيما يرد من هذا الكتاب كيفية، ذلك، وكيف وقوعه من أيام الشهر في باب [ذكر] الشهور، فلما شاهد هود النبي ﷺ ما نال قومه انفرد هو ومن معه من المؤمنين، وفي ذلك يقول الهليل بن الخليل:

لو أن عاداً سمعت من هود واتبعت طريقة الرشيد
وقد أتى بالسوء والوعيد
ما أصبحت عاثرة الجدود
ساقطة الأجساد بالوصيد
ماذا جنى الوفد من الوفود؟
أحدوثة في الأبد الأبد

[وقال مهد بن سعد في شعر له:]

دعاهم خيبة الله هود فما نفع النذير ولا أجابوا
فلما أن أبوا إلا عتواً أصابهم ببغיהם العذاب

وقد كان الآخر من ملوكهم الخلجان، وقد تقدم ذكرنا في هذا الباب لملك عاد وثمود وغيرهم، وقيل: إن أول من ملك عاداً من الملوك عاد بن عوص [ثلاثمائة سنة، ثم ملك بن عاد بن عوص].

الجحفة

قال: ولما ثارت هذه الأمم من العرب والقبائل خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس، فنزل قوم من بني حنيفة اليمامة واستوطنوها، وقد كانوا نزلوا بلاد الجحفة بين مكة والمدينة [وقطنوها؛ فقال شاعرهم يرثي من كان في تلك الديار:
إن طسماً وجراهماً وجديساً والعماليق في السنين الخواли

عمرروا البيت حِفْبةَ ثُمَّ وَلَوْا واستمرت بهم صروف الليلالي
وأراكَ الزمانَ منهم، وأضحيَ غيرهم ساكناً بتلكِ الخواли
ورماهم رَيْبُ الزمانِ فأمسوا دورهم بلقَع لِمَرِ الشَّمال]

وقد كان نزل بلاد الجحفة بين مكة والمدينة عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح هو وولده ومن تبعه، فهلکوا بالسیل، فسمى ذلك الموضع بالجحفة لإنجاحها عليهم.

يشرب

وكان يشرب بن قاتمة بن مهليل بن إرم بن عبيل نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه فسميت به يشرب، فهلك هؤلاء أيضاً بعض غواص الدهر وأفاته، فقال شاعرهم:
عَيْنُ جُودِي عَلَى عَبِيلٍ، وَهَلْ يَرْ جَعْ ما فَاتَ فَيَضْهَا بِالسِّجَامِ؟
عَمَرُوا يَشْرِبًا وَلَيْسَ بِهَا سَفْرٌ وَلَا صَارِخٌ وَلَا ذُو سَنَامٍ
غَرَسُوا لِيَنْهَا بِمَجْرِيِّ مَعِينٍ ثُمَّ حَفَوا الْفَسِيلَ بِالْأَجَامِ
وقد أخبر الله جلت قدرته عنهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ نَمُودَ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَامَّا نَمُودٌ فَأُنْهِيَ كُثُراً
بِالظَّاغِيَّةِ وَامَّا عَادٌ فَأُنْهِيَ كُثُراً بِرِيحِ صَرَصِيرٍ عَائِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٤ - ٦].

قوم شعيب

وقد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نوبل بن رعوييل بن مر بن عنقاء بن مذين بن إبراهيم الخليل عليه السلام وكان لسانه العربية: فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة، والأمم البائدة، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية، ومنهم من رأى أنهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم، وأن شعيباً أخوهם في النسب، وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة [ومنفصلة] فمنهم المسمى بأبي جاد وهو ز وخطي وكلمن وسعفص وقرشت، وهم على ما ذكرنا بني المحض بن جندل.

حروف الجمل

وأحرف الجمل على أسماء هؤلاء الملوك، وهي التسعة والعشرون حرفاً التي [يدور] عليها حساب الجمل، وقد قيل في هذه الأحرف غير ما ذكرنا من الوجوه، على حسب ما قدمتنا في هذا الكتاب، وليس كتابنا هنا موضعًا لما قاله الناس فيها، وتنازعوا في تأويلها والمراد بها، وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوز وخطي ملكيين ببلاد وجّ، وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد، وكلمن وسعفص

وفرضت ملوكاً بمدنين، وقيل: ببلاد مصر، وكان كلمن على ملك مدين، ومن الناس من رأى أنه كان ملكاً على جميع من سميها مشاعاً متصلةً على ما ذكرنا.

عذاب يوم الظلة

وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم، وأن شعيباً دعاهم فكذبواه، فوعدهم بعذاب يوم الظلة، ففتح عليهم باب من السماء من نار، وانحاز شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بالأيكة، وهي غِيبة نحو مدين، فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبو شعيباً ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسم والهواء لا يجدون فيها ألم العذاب، فأخرجوا شعيباً ومن آمن معه من موضعهم وأزالوه عن أماكنهم وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم، فجعلها الله عليهم ناراً، فأتت عليهم فرثت حرارة بنت كلمن أباها فقالت وكانت بالحجاج:

كَلْمَنْ هَدَمْ رَكْنِيْ هُلْكَهْ وَسْطَ الْمَخَلَةْ
سِيدَ الْقَوْمِ أَتَاهَا الْحَثْفُ نَارًا تَحْتَ ظَلَّةَ
كَوْنَتْ نَارًا، وَأَضْحَتْ دَارَ قَوْمِيْ مَضْمَحَلَهْ
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْمُتَصَرِّ بْنُ الْمَنْذَرِ الْمَدِينِيِّ

ألا يا شعيب قد نَظَفْتَ مقالة أتيت بها عمراً وحَيَّ بني عمرو
وهم ملوكوا أرض الحجاز وأوجها كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حُطْيٍ وسَعْفَصَ ذي الندى وهَوْزَ أرباب البنية والحجر
وهمقطنوا البيت الحرام وربوا خطوراً وساموا في المكارم والفرح
ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك
وتملكتهم عليها، وإيادتهم من كان فيها وعليها [قبيلهم] من الأمم، قد أتينا على ذكرها فيما
تقدمنا كتبنا هذا المعنى مما كتبناهذا منبه عليها وباعتث على درسها.

حضوراً تنافز الناس في أنسابهم

وأما بنو حضوراً وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة، فغلبت على كثير من الأرض والمالك، وقد تنافز الناس فيهم: فمنهم من أحقهم بمن ذكرنا من العرب البايدة ومن سميها، ومنهم من رأى أنهم من ولد يافث بن نوح، وقيل في أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجه، وقد كان الله عز وجل بعث إليهم شعيب بن مهدم بن حضوراً بن عدي نبياً ناهياً عما كانوا عليه، وهذا غير شعيب بن نوبل بن رعوبيل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم الخليل صاحب مدين المتزوج ابنته موسى بن عمران المقدم ذكره، وبينهما مثون من

السنين، وقد و كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف نبي، ولما بُعث إلى حضوراً، واشتد كفرهم جدّ نبيهم شعيب بن مهдум في دعائهما و خوفهما و توعدهم، فقتلواه من بعد ظهور معجزات كانت له و دلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه و تثبت حجته على قومه، فلم يضيع الله دمه، ولم يكذب وعديه، فأوحى الله تعالى إلى نبي كان في عصره - وهو برخيا بن أخيها بن رزنائيل بن شالتان - وكان من سبط يهودا ابن إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ﷺ - أن يأتي بختنصر - وكان بالشام - وقيل: غيره من الملوك، فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم، فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك: صدقت، لي سبع ليال أوّمْر في نومي بما ذكرت، وأنادي بمجيئك إلى وأبشر بخطابك، ويقال لي ما أمرتني به، وأن انتصر للنبي المقتول الفريد المظلوم فسار إليهم في جنوده وغشي دارهم في عساكره، وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عَمَ الصوت جميعهم، وهو يقول:

سَيُغْلِبُ قومٌ غَالَبُوا اللَّهَ جَهَرَةً
إِنْ كَانُوا أَقْوَى وَأَكْيَا
كَذَّاكَ يَضْلِلُ اللَّهَ مِنْ كَانَ قَلْبَهُ
مَرِيضًا وَمَنْ وَالَّى النَّفَاقَ وَالْحَدَا

فلما سمعوا ذلك علموا أن الأمر قد نزل بهم، فانفضت جنودهم، وتفرقوا
جموّهم، وولّت كتائبهم يتراكمون، وأخذهم السيف، فَحُصِدوا أجمعين.
وقد ذكر أن في قصة هلكتهم قال الله عز وجل من قائل: «فَلَمَّا آتَاهُمْ
مِنْهَا يَرْكُضُونَ» [الأنباء: ١٢].

منازل حضورا

وقد تنوزع في ديارهم والموضع الذي كانوا فيه: فمن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السماوة، وأنها كانت عماير متصلة ذات جنان و مياه متداقة، و ذلك بين العراق والشام إلى حد الحجاز، وهي الآن ديار خراب برارى و قفار، ومنهم من رأى أن ديارهم كانت [بلاد جند قنسرين إلى تل ماسح إلى خناصرة] إلى بلاد سوريا، وهذه المدن في هذا الوقت مضافة إلى أعمال حلب من بلاد قنسرين من أرض الشام.

قال المسعودي: وقد أتينا على جمل من أخبار العرب الماضية والباقية، وقد كان قبل ظهور الإسلام للباقي منهم مذاهب وآراء في النفوس وتغول الغilan والهواتف والجن، وسنورد جملًا منها منفردة على حسب ما يقتضيه شرط الاختصار في هذا الكتاب، وعلى حسب ما نمّي إلينا من أخبارهم، واتصل بنا من آثارهم، وذكره الناس من آرائهم، عن الفاني والباقي منهم، إن شاء الله تعالى.

**ذكر ما ذهب إليه العرب في النفوس والهام والصفر
وغير ذلك (من مذاهب الجاهلية في النفوس والمريء)**

الاختلاف في النفس

كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس، وآراء ينazuون في كيفياتها: فمنهم من زعم أن النفس هي الدم [لا غير] وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه، ولذلك سمو المرأة منه نساء، لما يخرج منها من الدم، ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة إذا سقط في الماء: هل ينجسه أم لا؟ وقال تابط شرّا لخاله الشنيري الأكير [وقد سأله عن قتيل قتله - كيف] كانت قصته؟ فقال: ألمجته عضباً فسألت نفسه سكباً، وقالوا: إن الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه، بدأ في حال الحياة، وطبيعته [طبيعة الحياة] والنمو مع الحرارة والرطوبة؛ لأن كل حي في حرارة ورطوبة، فإذا مات بقي الييس والبرد، ونفيت الحرارة، وقال ابن براق من كلمة:

وكم لاقت ذا نجباً شديداً تسيل به النفوس على الصدور
[إذا الحرب العوان به استهامت وحال، فذاك يوم قمطريز]

وطائفتهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا مات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً، وفي ذلك يقول بعض الشعراء ذكر أصحاب الفيل:

سلط الطير والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هأم

الهام

لأن هذا الطائر يسمونه الهام، والواحدة هامة، وجاء الإسلام وهم على ذلك حتى قال النبي ﷺ «لا هام ولا صفر».

ويزعمون أنَّ هذا الطائر يكون صغيراً، ثم يكبر حتى يصير كضرب من اليوم وهي أبداً تتوحش وتتصدح، وتوجد أبداً في الديار المعطلة والنواoيس، وحيث مصارع [القتلى وأجداث] الموتى.

ويزعمون أن الهمامة لا تزال [على ذلك] عند ولد الميت في محلته بفنائهم؛ لتعلم ما يكون بعده فتخبره به، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه:

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنبوا الشناء والمكروها
وفي ذلك يقول في الإسلام توبه في ليلي الأخيلية:
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح
سلمت تسليم البشاشة، أو زقا إليها صدّى من جانب القبر صائح
وهذا من قولهم يدل على أن الصدّى [قد] ينزل إلى قبورهم ويصعد [ومن ذلك ما روی عن حاتم طيء مما سنورد خبره في هذا الكتاب].
أتيت لصحابك تبغي القرى لدى حُفَر صدحُت هامها

وستذكر هذا الشعر في أخبار الحجاج بن يوسف مع ليلى الأخيلية من هذا الكتاب، وقد قيل: إن هذه الأبيات لغير توبة في [غير ليلى]، وهذا كثير في أشعارهم ومتلئ كلامهم وسجعهم وخطبهم، وغير ذلك من محاوراتهم.

تنقل الأرواح

وللعرب وغيرهم من أهل الملل من سلف وخلفَ كلام كثير في تنقل الأرواح وقد أتينا على [مبسط] ذلك في كتابنا المترجم بـ«سر الحياة» وكتاب «الداعوى» وبالله التوفيق.

ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول وما لحق بهذا الباب

للعرب في الغيلان وتغولها أخبار طريفة .

رأيهم في الغول

العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور فيخاطبونها، وربما ضيقوها، وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم: فمنها قول تأبط شرّاً:

وأدهم قد جُبْت جلبابه
كم أجيابت الكاعب الخيلا
[على إثر نارٍ يَثُور بها
فبُثٌ لها مدبراً مقبلاً]
 فأصبحتُ والغول لي جارة
فيما جاري أنت ما أهؤلا
 وطالبتها بُضْعها فاللتوت
 بوجهه تغول فاستغولا
 فمن كان يسأل عن جاري
 فإن لها باللؤى منزا
 ويزعمون أن رجليها رجلاً عتر، وكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون
 ويقولون:

يا رجل عنز ألهقي نهيتاً لن نترك السبب والطريقا

الغول تتلون وتضلل

وذلك أنها كانت تراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتوهمون أنها إنسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها، وتبهيمهم. وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد فإذا صبح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

وقد ذكر جماعة من الصحابة [ذلك]: منهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه! أنه

شاهد ذلك في بعض أسفاره إلى الشام، وأن الغول كانت تتغول له، وأنه ضربها بسيفه، وذلك قبل ظهور الإسلام، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم.

رأي الفلسفة

وقد حكي عن بعض المتكلسين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان [مشوه] لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً في نفسه وهبته توحش من مسكنه، فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمي في الشكل، وقد ذهبت طائفة من الهند إلى أن ذلك إنما يظهر من فعل ما كان غالباً من الكواكب عند طلوعها، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار، وهي: الشُّعْرَى الْعَبُورُ، وأن ذلك يحدث داء في الكلاب، وسهيل في الحمل والذئب في الدب وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر في الصحراء، وغيرها من العامر والخرائب، فتسميه عوام الناس غولاً، وهي ثمانية وأربعون كوكباً، وقد ذكرها بطليموس وغيره من تقدم وتأخر، وقد وصف ذلك أبو معشر في كتابه المعروف بـ«المدخل الكبير إلى علم النجوم» وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره في أنواع مختلفة.

[وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل] شيء يعرض للسفر، ويتمثل في ضروب من الصور، ذكراً كان أو أنثى، إلا أن أكثرهم كلامهم على أنه أنثى، وقد قال أبو المطراب [أبيد بن أبي العنيري]:

أو حالوني الوحوش على الوفاء وتحت عهودهن وبأباد

غولاً قفزة ذكراً وأنثى كأن عليهما قطع النجاد

وقال آخر [وهو كعب بن زهير الصحابي]:

إنما تدوم على حان تكون بها كما تلؤن في أشوابها الغول

وقد قدمنا ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى، وأن كل كوكب من هذه يظهر في صورة مخالفه لما تقدمه من الصور يحدث في هذا العالم نوعاً من الأفعال لم ينفرد يفعله غيره من الكواكب.

[وكانت العرب قبل الإسلام ترعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل، واحتلال السابلة، قال أبو المطراب:

فلله در الغول، أي رفيقة لصاحب قبر حالف وهو معبر

أرئت بلحن بعد نحن وأوقدت حوالئ نيراناً تلوح وتزهر]

قولهم في السعلاة

وقد فرقوا بين السُّعْلَةِ والغول، قال عبيد [بن أيوب]:

وساحرة مني، ولو أن عينها رأت ما رأي من الهول جُنَاحَتِ
أبَيْت بسَعْلَةَ وغُولَ بقُفْرَةَ إِذَا اللَّيلَ وارَى الجَنَّ فِيهِ أَرَيْتِ
وقد وصفها بعضهم، فقال:

وَحَافِرُ العَنْزِ فِي سَاقِ مُدَمْلَجَةٍ وَجَفَنْ عَيْنَ خَلَافِ الإِنْسِ بِالْطُولِ

قولهم في الشياطين ونحوهم

وللناس كلام كثير في الغilan، والشياطين، والمردة، والجن، والقطرب، والغدار، وهو نوع من الأنواع المتشيطة، يعرف بهذا الاسم، يظهر في أكتاف اليمن والتهائم، وأعلى صعيد مصر، وأنه ربما يلحق الإنسان فينكحه فيتدود ذبره فيموت، وربما يتوارى للإنسان فيذعره، فإذا أصاب الإنسان ذلك منه يقول له أهل تلك التواحي التي سميها: أمنكوح هو أم مذعور؟ فإن قالوا منكوح يُئس منه، وإن كان مذعوراً أسكن روعه، وشجع مما ناله، وذلك أن الإنسان إذا عاين ذلك سقط مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له ذلك فلا يكتثر [به] لشهامة قلبه، وشجاعه نفسه، وما ذكرنا مشهور في البلاد التي سميها، ويمكن جميع ما قلنا مما حكيناه عما ذكرنا من أهل هذه البقاع أن يكون ضرباً من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة، أو غير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين [وغيرهم]، والله أعلم بكيفية ذلك.

ولم نذكر في هذا الكتاب ما ذكره أهل الشرائع، وما ذكره أهل التوارييخ والمصنفوون لكتب البدو، كوهب بن منبه، وابن إسحاق، وغيرهما أن الله تعالى خلق الجن من نار السموم، وخلق منه زوجته، كما خلق حواء من آدم، وأن الجن غشياها، فحملت منه، وأنها باضت بإحدى وثلاثين بيضة، وأن بيضة من تلك البيض تغلقت عن قطرية، وهي: أم القطارب، وأن القطربة على صورة الهرة، وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم العارث أبو مرة، وأن مسكنهم [البحور]، وأن المردة من بيضة أخرى مسكنهم [الجزائر]، وأن الغilan من بيضة أخرى، مسكنهم الخلوات والفلووات، وأن السعالى من بيضة أخرى، سكنتها الحمامات والمزايل، وأن الهوام من بيضة أخرى، سكنتها الهواء في صورة الحيات ذات أجنحة يطيرون هنالك، وأن من بيضة أخرى [الدواستق]، وأن من بيضة أخرى] الحماميص - لأن قد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا، وتقدم من تصنيفنا،

وأتينا على ذكر [ما تشعب] من أنسابهم والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض والبحار، وإن كان ما ذكره أهل الشرع مما وصفنا ممكناً غير ممتنع ولا واجب، وإن كان أهل النظر والبحث والمستعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرناه، ويأبون ما وصفنا، والمصنف حاطب ليل، فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم؛ إذ كان الواجب على كل ذي تصنيف أن يورد جميع ما قاله أهل الفرق في معنى ما ذكرناه، وأتينا أيضاً على سائر ما خبرنا من الأشخاص التي هي غير مرئية من الجن والشياطين وما قالوه في سلوك الجن [في الناس] في كتابنا المترجم بكتاب «المقالات، في أصول الديانات» وبالله التوفيق.

ذكر قول العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي : فأما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب ، واتصلت بديارهم ، وكان أكثرها أيام مولد النبي ﷺ ، وفي أولية مبعثه ، ومن حكم الهاتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي .

قولهم في الهواتف والجان

قال المسعودي : وقد تنازع الناس في الهواتف والجان : فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتُتبَّع به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد في القفار ، والتفرد في الأودية ، والسلوك في المهامات والمَرْفَزَة المُوحشة ؛ لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد تفكيره ، وإذا هو تفكّر وجّل وجهه ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية [الفاشدة] ، فصورت له الأصوات ، ومثلث له الأشخاص ، وأوهنته المحال ، بنحو ما يعرض لذوي الوسوس ، وقطب ذلك وأشهه سوء التفكير ، وخروجه على غير نظام قوي ، أو طريق [مستقيم] سليم ؛ لأن المفترد في القفار والمتوحد في المرفزة مستشعر للمخاوف ، متوجه للمخالف ، متوقع للحثُوف ؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وإنغراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكىه من هتف الهاتف به واعتراض الجن له .

وقد كانت العرب قبل ظهور الإسلام تقول : إن من الجن مَنْ هو على صورة نصف الإنسان ، وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شِقًا .

بين شق وعلقمة بن صفوان

وذكروا عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرب الكناني جد مروان بن الحكم لأمه أنه خرج في بعض الليالي يريد مالاً له بمكة ، فانتهى إلى الموضع المعروف إلى هذا الوقت بحائط حرمان ؛ فإذا هو بشق قد ظهر له في أوصاف ذكرها فقال شق :

علقم إني مقتول وإن لحمي مأكل
أضربهم بالمسلول ضرب غلام مشمول
رخب الذراع به ملول

قال علقة:

شق، ما لي ولك اغمد عنِي مُنْضَلْ
تقتل من لا يقتلك؟

قال شق:

علقم، غنيت لك كيما أبيح معنك
فاصبر لما قد حم لك

فضرب كل منهما صاحبه، فخرَا ميتين، وهذا مشهور عندهم، وأن علقة بن صفوان قتله الجن.

الجن تقتل حرب بن أمية

وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما في حرب بن أمية حين قتله الجن وهما:
وفبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر
واستدلوا على أن هذا [الشعر] من قول الجن بأن أحداً من الناس لا يتأنى له أن
ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متوالياً لا يتعتنق في إنشادهما؛ لأن الإنسان قد ينشد
العشرين بيتاً والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأقل منه ولا يتعتنق فيه.

ممن قتلت الجن

وممن قتلت الجن مرداس [بن أبي عامر] السُّلَمِيُّ، وهو أبو عباس [بن مرداس]
السلمي، ومنهم الغريض المعنى، بعد أن ظهر غنازه [وحمل عنه]، وقد كانت الجن نتها
أن يعني بأبيات من الشعر، فغنها فقتلته.

قبر حاتم طيء يقرى الضيف

وحدث يحيى بن عقب، عن علي بن حرب، عن أبي عبيدة معمر بن المثنى عن
منصور بن يزيد الطائي [ثم الصامتى] قال: رأيت قبر حاتم طيء بيقة، وهو [أعلى] جبل
له واد يقال له الخابل، وإذا قدر عظيمة من بقايا قدور حجر مكافأة في ناحية من القبر من

القدور التي كان يطعم فيها الناس، وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة، وعلى يساره أربع جوار من حجارة، كلهن صاحبة شَغْرٍ منشور متحجرات على قبره كالنائحات عليه، لم ير مثل بياض أجسامهن وجمال وجوهن، مِثْلُهن الجن على قبره، ولم يكن قبل ذلك، والجواري بالنهار كما وصفنا، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه، ونحن في منازلنا نسمع ذلك، إلى أن يطلع الفجر [إذا طلع الفجر] سكتن وهدان، وربما مر المار فيراهن فيفتن بهن فيميل إليهن عجبًا بهن؟ فإذا دنا منهن وجدهن حجارة.

وحدث يحيى بن عقاب الجوهري [قال: حدثنا علي] قال: أبأني عبد الرحمن ابن يحيى المندري، عن أبي المندر هشام الكلبي، قال: حدثنا أبو مسكين بن جعفر بن محرز بن الوليد، عن أبيه، وكان مولى لأبي هريرة [قال: سمعت محمد بن أبي هريرة] يحدث قال: كان رجل يكفي أبا البختري مر في نفر من قومه بغير حاتم طيء، فنزلوا قريباً منه، فبات أبو البختري يناديه: يا أبا الجعد، أُفِرْنَا، فقال قومه له: مهلاً ما تكلم رمة بالية؟ قال: إن طيئاً تزعم أنه لم يتزل به أحد قط إلّا قرَاه، وناموا، [فلما أن كان في آخر الليل قام أبو البختري مذعوراً فزعَا ينادي]: واراحتاه، فقال له أصحابه: ما بدا لك؟ قال: خرج حاتم من قبره بالسيف، وأنا أنظر، حتى عقر ناقتي، قالوا له: كذبت، ثم نظروا إلى ناقته بين نوقيهم مجذلة لا تبنت، فقالوا له: قَدْ وَالله قَرَاك، فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخاً حتى أصبحوا، ثم أردفوه، وانطلقوا سائرين، فإذا راكتب بغير يقود آخر قد لحقهم فقال: أيكم أبو البختري؟ فقال أبو البختري: أنا ذلك، قال: أنا عدي بن حاتم، وإن حاتماً جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل، فذكر شتمك إيه، وأنه قرَى أصحابك براحتك، وأنشد [ني يقول في شعره]:

أبا البحترى، لأنت امرؤ
أتيت بصحابك تبغي القرى
أتبغي لي الذم عند المبيت
فإنا سنشبع أضيافنا

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك، فدونكه.

وقد ذكر هذا سالم بن زرارة الغطفاني في مدحه عدي بن حاتم حيث يقول:
أبوك أبو سفانة الخير لم يزل لدن شَبَّ حتى مات في الخير راغباً
[به تضرب الأمثال في الشعر ميتاً]
وكان له إذ ذاك حيَاً مصاحباً
ولم يقر قبر الأضياف إذ نزلوا به فَرِي قبره الأضياف إذ نزلوا به

وحدث أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد عن أبي حاتم السجستاني، عن أبي عبيدة مغمر بن المثنى، قال: سمعت شيخاً من العرب قد أناف على المائة يقول: إنه خرج وافداً على بعض ملوكبني أمية، قال: فسرت في ليلة صهاكية حالكة كأن السماء قد برقت نجومها بطرائق السحاب، وضلت الطريق، فولجت وادياً لا أعرفه، فأهمني نفسي [بطرحها حتى الصباح] فلم آمن عريف الجن، فقلت: أعود برب هذا الوادي من شره، وأستجيره في طريقي هذا، وأسترشه، فسمعت قائلاً يقول من بطن الوادي:

تيمان تجاهك تلق الكلا تسير وتأمن في المسلك
 قال: فتوجهت حيث أشار إلي وقد أمنت بعض الأمان فإذا أنا بأقباس نار تلمع
 أمامي في خللها كالوجوه على قamat كالنخيل السحرية، فسرت وأصبحت بأوشال - وهو
 ماء ل الكلب - بقرب بريه دمشق.

وقد ذكر الله عز وجل ذلك من فعلهم [في كتابه] فقال: ﴿وَأَنْتَ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسَانِ
 يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْمَعْنَى فَرَأَوْهُمْ رَهْقًا﴾ [الجن: ٦].

ذكر ما ذهبت إليه العرب من القيافة، والزجر (والعيافة) والسانح، والبارح، وغير ذلك

الخلاف في القيافة وجوازها

تنازع الناس في العيافة والقيافة وغيرها مما ذكر: فذهب طائفة إلى تحقيق القيافة والأخذ بها؛ لأن الأشباه تنسع، وغير جائز أن يكون الولد غير مشبه لأبيه، أو أحد من أهله من جهة من الجهات، ومنهم من ذهب إلى أن في الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها من الأعضاء مما لم يحلها الشبه، ولا توافق بينهما بحد مشترك، وأبى آخرون ما وصفنا؛ إذ كان الناس قد يتشابهون في حد الإنسانية [وغير ذلك] من الحدود، ويفترقون في غيرها من الصور، وليس وجود الأغلب من الأشباه مما يوجب إلحاق الشبه بشبهه، دون أن يخالف من حيث أوجبت قضية [العقل] الاختلاف بالتبان.

اختصاص العرب بذلك

وهذه المعاني من خواص ما للعرب، وما تفردت به، دون سائر الأمم في الأغلب منها، وإن كانت الكهانة قد وجدت في غيرها، فإن القيافة والزجر والتفاؤل والتظير ليس لغيرها في الأغلب من الأمور، وليس هو موجوداً في سائر العرب، وإنما هو للخاص منها **الفطن والمتدرب** **الظنن**، وإن وجد ذلك في بعض الأمم، كوجود ذلك في الإفرنجية، وما جانسها ممن هنالك من الأمم، فيمكن أن يكون ذلك موروثاً عن العرب، وأخذاً منها في سالف الدهر، لأن العرب قد تنقلت في البلاد، وتغيرت لغاتها، فنسب ذلك إلى الجنس الذي قطنت بينهم العرب، ويمكن أن تكون الإفرنجية، ومن وجد فيها ذلك من الأمم، وأخذوه بعد ظهور الإسلام عن جاورهم من أمم العرب، ومن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة، وإن كان ذلك قبل ظهور الإسلام فهو ما ذكرنا آنفاً، ويمكن أن يكون الله عز وجل خص بذلك أمما غير العرب كما خص العرب به؛ إذ كان ذلك داخلاً في الإمكاني، خارجاً من باب الممتنع [والواجب]، فيكون الزجر والفال شاملًا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم كوجود النقط للبربر، والنظر في الكتف، وغير ذلك مما خص به كل جنس من الناس.

منشأ القيافة

وقد ذهبت طائفة ممن سلف، من أهل البحث والتقرير إلى أن القيافة: اسم مشتق من القَفْوِ، وهو معنى استدلالٍ، وأصل ذلك: أن الأشكال انفصلت في صورة أنسابها بأشياء تخص الأنواع بالتشكيل وخواص وجدت لما به ضربت الفواصل أضرابها في وحدات الأشخاص، وكان التناسل على وساعه وقدر من الغير لما توجبه الطبيعة من اتفاق كل شيء في حوزته، وصرفه إلى وجهه، كما خصت الطبيعة كل نوع من الجنس بفصل أبنته من أغياره، وفرقت بينه وبين أشكاله، فكذلك أيضاً خصت أوحاد الأشخاص المنفصلة في الهيئة، بتغير الغير من أغياره. وكذلك لا تكاد فنون الصور تتراءى في المرائي لغير من أغياره؛ وكذلك لا تكاد وإن ضمها النوع وشملتها المادة فالقائفي يقارب بين الهيئات، فيحكم للأقرب صورة؛ لأن تشبيه النسل أقرب من تشبيه النوع. وكذلك تشبيه الشخص إلى النوع أقرب منه إلى الجنس؛ لأن النوع والشخص ضمهمما حدان مشتركان، وإنما ضم الجنس واحد فهو أصل القيافة عند هذه الطائفة، وهو ضرب من ضروب البحث، وإلحاد النظير في الأغلب بنظيره، ومن حيث تساويهما من حيث ذكرنا في قضية العقل، وهو القياس بعينه، وليس هذا الاستدلال من كلام أحد من فقهاء القائسين ولا غيرهم من المسلمين، وإنما هذا [الكلام] انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين؛ فيجب أن يكون نظر القائم على قول هذا الطائفة إلى القَدَم؛ لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة، والولد لو خالف صورة أبيه في كنه أفعاله، وبابنه في سائر شكله في الأغلب يوافقه في القَدَم؛ لأن النسل لا بد له من تخصيص قوته بشيء يميزه من غيره بُيّنته من سواه، ولذلك وجدوا الطول في أزيد شُنُوأة، ولذلك صار الجفاء والغليظ في الروم، وأصحاب الأجبال، والأكثر من أهل الشام وأوباش مصر، واللؤم في الخزر وأهل حران من بلاد ديار بكر، والشح بفارس، واللؤم على الطعام بأصفهان، وصار تفرط الرجلين وفطس الأنوف في السودان، والطرب في الزنج خاصة.

وهذا الذي وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة، وخواص تأثير الأشخاص العلوية، والأجسام السماوية، وقد تقضينا هذا الشأن على كماله [في كتابنا في الأسرار الطبيعية وخواص تأثير الأشخاص العلوية والغرائب الفلسفية في كتابنا في الرؤوس السبعية] في أنواع السياسات المدنية وملكتها الطبيعية وفي كتاب الاسترجاع في الكلام على من زعم أن العالم متغير جوهره إلى الظلمة، وأن النور فيه غريب مختار، وأن ستة أنفس كانوا نوراً بلا أجساد: شيث بن آدم، وزرادشت، والمسيح، ويونس، واثنان لا يمكن ذكرهما، وأن النور والظلمة قديمان، وأنهما لا يُريان إلا غير ممتزجين وأن

الأشياء لا تعمل إلا في جوهرهما ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما، من غير داخل عليهما ولا مكره أكرهما، وهذا الخلف من الكلام وال fasid من المقال، وأعجب من هذا القول قول زرادشت نبي الماجوس: إن القديم تعالى ذكره طالت وحدته فطالت فكرته، فلما أن طالت فكرته، واشتدت وحشته، توالي اللهم منه، وهو الشيطان، من تلك الوحشة التي ولدتها تلك الفكرة، ونتجتها الوحدة، وأن الله عز وجل لو كان قادراً على إفقاء لهم منه لما ضرب له أجلاً، ولا أجَّل له أمراً يغوي عباده، ويفسد بلاده. وهذا هو المحال بعينه، والتناقض بنفسه، وعجب آخر من الآراء من قول بولص: إن المسيح ﷺ هو الذي أرسله، وإن المسيح إنسان وإله؛ لأنه إله صار إنساناً، وإنسان صار إليها، وقد أتينا على جمل من متناقضات أهل الآراء، في أثناء ما تقدم من كتبنا، وإنما تشعبت بنا الكلام إلى هذا النوع، وتغلغل بنا القول إلى هذا المعنى، لأنه من جنس ما كنا فيه، لكن عند ذكرنا لما أودعناه كتاب الاسترجاع والإبانة عن غرض فيه.

الزجر

فلنرجع الآن إلى ما كنا فيه من هذا الكتاب:

وحدث المنقري عن العتبى، قال: وقف عَيْنَدُ الرَّاعِي ذات يوم مع ركب بقِيَاءَ قَفْرَ، وكانوا يريدون استقصاد رجل من تميم؛ إذ سنتحت ظباء سود منكرة، ثم اعترضت الركب مقصرة في حُضُرها، واقفة على شأنها، فأنكر ذلك عَيْنَدُ الرَّاعِي، ولم يتبه له أصحابه، فقال عبيد:

ألم تَذَرِ ما قال الظباء السوانح؟ أطْفَنَ أمام الركب والركب رائح؟
فكَرَ الذي لم يعرف الزَّجْرَ منهم وأيقن قلبي أنهن نوائح
ثم شارفو مقصدhem، فأَلْفَوُ الرئيس قد نهشته أفعى، فأتت عليه.

قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى: وهذا من غريب الزجر، وذلك أن السانح مَرْجُوٌ عند العرب، والبارح: هو المخوف، وأظن عَيْنَدًا إنما زجر الظباء في حالة رجوعها، ووصف الحال الأول في شعره، كما أن من شرط الواصف أن يبدأ بهوادي الأسباب فيوضوح عنها، وهذا وجه زجر عبيد الراعي في شعره.

اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور

ويقال: إن الكهانة لليمين، والزجر لبني أسد، والقيافة لبني مُذْلِج وأحياء مصر ابن نزار بن مَعْدَد، لما كان من فعل بني نزار الأربع في مسيرهم نحو الأفعى الجرهمي،

ووصفهم الجمل الشارد، على ما ذكرنا، وذلك منهم قيافة؛ فمن هنالك تفرقت القيافة من أحياه مضر على حسب ما تغلغل في العروق ونزع، وأهل المياه أكْهُنْ، وأهل البر الفائح أَقْوَفُ، وبأرض الجفار - وهي بلاد الرمل بين بلاد مصر وأرض الشام - أناسٌ من العرب في تلك الجفار يتناول الإِنسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه، فإن رأوه بعد مدة علموا أنه الأَخْذ لتمرهم، ولا يكادون يخطئون وهذا من فعلهم مشهور، ولا يكاد تخفي عليهم أقدام أي الناس هم.

ورأيت بهذه الأرض أناساً قد رتبهم ولأة المنازل يطوفون في هذا الرمل، يُعرفون بالقصاصين، يقصون آثار الناس وغيرهم، فيخبرون ولأة المنازل أي الناس هم ممن طرق تلك البلاد، وهم لم يروهم، بل رأوا آثار أقدامهم، وهذا معنى لطيف وحس دقيق.

القيافة

وقد فَقَتَ القافية بقريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، حتى أتت بباب الغار على حجر صلد وصخر صم وجبال لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تبين عليه الأقدام، فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ وسلم بما كان من نسج العنكبوت، وما سَفَتْ عليه الرياح، وما لحق القائف من الحيرة، وقوله: إلى هنا انتهت الأقدام، ومعه الجماعة من قريش، لا يرون على الصلد ما يرى ولا على الصّفوان ما يشاهد، وأبصارهم سليمة، والأفات عنها مرتفعة، والموانع زائلة، ولو لا أن هنالك لطيفة لا يتساوى الناس في علمها، ولا يتفقون بالأبصار إحصاء إدراكيها، لَمَا استأثر بذلك طائفة دون أخرى، وأهل الجبال والغار والدهاس أَرْجَرْ وأعرف.

القيافة عند أهل الشرع

وقد ذهب قوم من أهل الشريعة، من فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف إلى الحكم بالقيافة؛ استدلاً على شرف القيافة، وعظم خطرها، وكبر محلها، وتحقيق فضلها؛ لتعجب النبي ﷺ، منها وتصديقه مُحرز المدلجي.

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار، ممن سلف وخلف، الحكم بالقيافة، والدليل على فساد الحكم بها إلحاقي النبي ﷺ الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه، فقال: يا رسول الله، إن امرأتي وضعفت غلاماً وإنه لأسود فقال النبي ﷺ مقرباً إلى فهمه وقصدأ منه لفساد علته التي قصدتها وشك [من أجلها في ولده] «فهل لك من إيل؟» قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حُمْز، قال: «فهل فيها من أُورَق؟» قال: نعم، قال النبي ﷺ: «فمن أين ذلك؟ لعل عرقاً نزع» وقوله ﷺ في قصة شريك بن سخماء «إن جاءت به على النعت

المكروه، فهو للذى رميته به» فلما جاءت به على النعت المكره وجد التشابه بينه وبين من رميته به، فقال النبي ﷺ : «الولا حكم الله لكان لي ولك شأن» فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك، ولم يلحق بالشبة هاهنا، ولم يجعله حكماً، وقضى بوجود الفراش وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه .

وهذا باب قَصَدْنَا فيه الكلام ، وإنما ذكرنا هذا الفصل لنذكر الحكم بضده من القيافة ، وهذا باب يطول فيه الخطب ، ويكثر في معانيه الشرح؛ لغموضه وأطْفُه ، وقد ذكرنا وجه الكلام في ذلك وما ذهبت إليه كل فرقة من الناس ممن سلف وحلف في كتابنا المترجم بـ«كتاب الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره» [وهو كتاب مشهور مستوعب].

ذكر الكهانة، وما قيل في ذلك
وما اتصل بهذا الباب مما يراه الناس
وحد النفس الناطقة

أصل ادعاء علم الغيب

تنزع الناس في الكهانة: فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم إلى التكهن، وكانتوا يدعون العلوم من الغيوب، فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة، وعلى ما تريد أن يكون منها؛ لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية، وصنف منهم ادعى أن الأرواح المترفة - وهي الجن - تخبرهم بالأشياء قبل كونها، وأن أرواحهم كانت قد صفت، حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة.

وذهب قوم من النصارى أن السيد المسيح إنما كان يعلم الغائبات من الأمور، ويخبر من الأشياء قبل كونها؛ لأنه كانت فيه نفس عالمية بالغيب، ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب، ولا أمة خلت إلا [وقد] كان فيها كهانة، ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات، وشهر فيهم أن فيثاغورس كان يعلم علوماً من الغيب ضرورياً من الوحي؛ لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم، والصابة تذهب إلى أن أورياس الأول وأورياس الثاني - وهما: هرمُس، وأغاثيمون - كانوا يعلمون الغيب؛ ولذلك كانوا أنبياء عند الصابة، ومنعوا أن تكون الجن أخربت من ذكرنا بشيء من ضروب الغيب، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على ما استر عن غيرهم من جنسهم.

وطائفة ذهبت إلى أن التكهن سبب نفسياني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطابع، وقوه النفس، ولطافة الحس.

وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون إلى الناس الأخبار، بحسب ما يرد إليهم، وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه فقال: «وَإِنَّ لَسَانَةَ شَيْطَانَهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهِيدًا» [الجن: ٨] إلى آخر القصة، وقوله تعالى: «يُوحَى بَعْضُهُمُ إِلَى بَعْضٍ رُّخْرُقَ الْقَوْلَ غَرَوْرًا» [الأنعام: ١٢١] وقوله تعالى: «وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُؤْخُذُ إِلَى

أَوْلَكِيهَا مُتَجَيِّلُوكُمْ [الأنعام: ١٢١] الآية والشياطين والجن لا تعلم الغيب، وإنما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة بظاهر قوله عز وجل: «فَلَمَّا حَرَّ نَيْنَتِ لِهِنْ أَنَّ لَوْ كَافُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَيْثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» [سبأ: ١٤].

وطائفة ذهبت إلى أن وجه سبب الكهانة من الوحي الفلكي، وأن ذلك يكون في المولد عند ثبوت عطارد على شرفه، وأما ما عداه من الكواكب المدبرات من النيرين والخمسة إذا كانت في عقد متساوية وأرباع متكافئة ومناظر متوازية وجب لصاحب المولد التكهن والإخبار بالكتائن قبل حدوثها؛ لإشراف هذه الأشراف الكوكبية، ومن هؤلاء من أوجب كون ذلك في القراءات الكبار.

وذهب كثير من تقدم [وتأخر] أن علة ذلك علل نفسانية، وأن النفس إذا قويت وزادت قهرت الطبيعة، وأبانت للإنسان كل سر لطيف، وخبرته بكل معنى شريف، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة فاقتتصتها وأبرزتها على الكمال، وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا؛ فإنهم قالوا: رأينا الإنسان يتسبّب إلى قسمين، وهما النفس والجسد، ووجدنا الجسد مَوَاتاً لا حرفة له ولا حس إلا بالنفس، وكان الميت لا يعلم شيئاً ولا يؤدّيه؛ فوجب أن يكون العلم للنفس، والآنفوس طبقات: منها الصافي وهي النفس الناطقة، ومنها الكدر، وهي النفس الحسية والتزاعية والنفس المتخيلة، ومنها ما قوته في الإنسان أزيد [من قوة الجسم، ومنها ما قوة الجسم أزيد] منه، فلما كانت النسبة التورية للإنسان إلى النفس كانت تهدي الإنسان إلى استخراج الغيب وعلم الآتي، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم؛ فإذا كانت النفس في غاية البرور ونهاية الخلوص وكانت تامة النور وكاملة الشعاع كان تولجها في دراية الغائب بحسب ما عليه آنفونس الكهنة، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام وتشويه الخلق، كما اتصل بنا عن شق وسطريح وسملقة وزروبعة وسديف بن هوماس وطريقة الكاهنة وعمران أخي مُزَيقياء، وحارثة وجهينة وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان.

العرفة وبعض العرافين

وأما العراف - وهو دون الكاهن - فمثل الأبلق الأزدي، والأجلح الدهري، وعروة بن زيد الأزدي، ورباح بن عجلة عراف اليمامة الذي قال فيه عزوه:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شَفَيَانِي
وكهند صاحب المستnier، وكان في نهاية التقدم في العرافه.

الكهانة في العرب

والكهانة أصلها نفسيٌّ؛ لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة، وهي تكون في العرب على الأكثر وفي غيرهم على وجه الندرة؛ لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي، وقوة مادة نور النفس، وإذا أنت اعتبرت أوطنانها رأيتها متعلقة بعفة النفس وقمع شرها بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم، وذلك أن النفس إذا هي تفردت فكرت، وإذا هي فكرت تعدد [وإذا تعدد] هطل عليها سحبُ العلم النفسي، فنظرت بالعين النورية، ولحظت بالنور الثاقب، ومضت على الشريعة المستوية، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به [وعليه] وربما قويت النفس في الإنسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها. وكان كبراء اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية، ويقولون: إن النفس إذا هي زادت وكانت أكبر جزء في الإنسان تهدئ إلى استخراج البدائع والأخبار المستترات، واستدلوا على ذلك أن الإنسان إذا قوي فكره وزادت مواد نفسه وخارطه فكر في الطارئ قبل وروده فعلم صورته فيكون وروده إلى حال على ما تصوره وهكذا النفس أيضاً إذا تهدئت كانت الرؤيا في النوم صادقة وفي الزمان موجودة.

الرؤيا وأسبابها

وقد تنازع الناس في الرؤيا، والسبب الموقع لها وما هي وكيفية وقوعها، فقال فريق: إن النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقيه حوادث باطنة فيها، وذلك على وجهين: أحدهما معروف بالعين قائم بالصفة في خواطر تحدث في النفس معاني عبرها وتفرق بينها، فتشغل به عن استعمال الظاهر، والباطن فيه يؤدي إليه الحواس الخمس فتبطل الحواس عن الإدراك إلى الحاس أعني الروح لاشتغال الروح عن استعمالها، وإذا وجب بطلانها سمي نوماً عرضياً، لأنه ليس النوم الكلي الذي يعم الأطفال والعجائز والشيخ الذين خرجوا من موقع السرور أو مخافة الشر. وكذلك نوم الليل على ما وصفنا، والوجه الآخر - وهو النوم الكلي الذي يعم الأطفال والعجائز والطبقات الحيوانية ذات الفكر وغيرها - وهي طبيعة توجبها الخلقة في وقته ضرورة كما يوجب الجوع في وقته ضرورة؛ لأن الجوع عند أهل صناعة الطب علة، وهي الموجبة تحديد الكبد من الفراغ من الأغذية.

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صورة الأشياء على ضربين: أحدهما حس والآخر فكر؛ فالصورة المحسوسa لا تدركها إلا في هيئتها؛ فإذا تخلص علمها عندها كان

إدراكها مفرداً من طبعها؛ فيكون فكر الإنسان ما لم يتم تابعاً للحسن، حتى إذا نام فعدمت النفس الحواس كلها كانت تلك الصورة التي أخذتها من أعيان الأشياء فيها قائمة كأنها محسوسة؛ لأن الحسن بها في أعيانها كان قبل استيلانها بالفكر ضعيفاً، فلما ارتفع الحسن قوي الفكر فصار يصور الأشياء كأنها محسوسة يخطر على بال النائم منها كما يخطر على باله إذا كان يقطن الشيء الذي قد كان أنيسه، وليس لذلك نظام، وإنما هو ما اتفق؛ فلذلك يرى الإنسان كأنه يطير وليس بطائر، وإنما [يرى] صورة الطيران مفردة كما يعلمها إذا غابت؛ ولكن فكرته فيها تقوى حتى كأنها معاينة له، فأما ما يراه النائم من الأشياء التي تدل على ما يريد فإنما ذلك لأن النفس عالمة بالصور، فإذا خلصت في المنام من شوائب الأجسام أشرفت على ما [تريد أن] ينالها، وهي عالمة أنها في حال اليقظة لا يمكنها معرفة ذلك فتخيل خيالات تدل على تلك الأشياء التي تريد أن تكون، حتى إذا [انتبهت] تذكرة تلك الخيالات وتلك الأشياء؛ فمن كانت نفسه صافية لم تَكُنْ رؤياه تكذب [ومن كانت نفسه كدرة كانت تكذب] كثيراً، ثم ما بين الكدرة والصافية وسائط على حسب مرآتها من الصفاء والكدر يكون صدق ما تخيلته وكذبه.

وقال فريق آخر: إذا بطل استعمال النفس للحواس ظاهراً لم يبطل استعمالها في نفسها، ولم يبطل استعمال قواها؛ فتنقل في الأماكن، وتشاهد الأشخاص بالقوة الروحانية التي ليست بجسم، لا بالقوة الجسمانية الغليظة، وذلك أن القوة الجسدانية لا تدرك إلا بمشاركة وملائسة الأشياء: إما باتصال كاتصال اللون [من الملون] وإما باتصال كاتصال الجسم من الأماكن، والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعاً، لا بمشاركة الجسد الذي يجب الحاجة إلى قرب المدرك.

ومنهم من رأى أن النوم هو اجتماع الدم وجريانه إلى الكبد.

ومنهم من رأى ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح.

ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من عمل الأغذية والأطعمة والطباتع.

ومنهم من رأى أن بعض الرؤيا من الملك وبعضها من الشيطان، واعتَل هؤلاء بقوله تعالى: «إِنَّمَا تَنَجَّوُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ أَمَّنُوا» [المجادلة: ١٠].

ومنهم من رأى أنها جزء من إحدى وستين جزءاً من النبوة، وتنازع هؤلاء في كيفية ذلك الجزء وما هي ماهيته.

ومنهم من ذهب إلى أن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم [المرثي] وأنه يخرج عن البدن في حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملائكة، على حسب صفاتهم، واعتَل

هؤلاء وغيرهم - من ذهب إلى نحو هذا المعنى - بقوله عز وجل : ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ أَجْلَ مُسَمًّ﴾ [الزمر : ٤٢].

وذهب الجمهور من المتبنيين في ذلك إلى أن الأحلام من الأخلاط ، وترى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته ، وذلك أن الذين تشتعل أجسادهم من المرة الصفراء يرثون في منامهم النيران والنوايس ودخاناً ومصابيح وبيوتاً تحرق ومدائن تلتهب بالنار ونحو ذلك وما أشبهه ، والغالب على من كان مزاجه البلغم أن يرى بحوراً وأنهاراً وعيوناً وأحواضاً وعدراًاناً وميهاً كثيرة وأمواجاً ، ويرى كأنه يسبح أو يصيد سمكاً ونحو ذلك وما قاربه ، والغالب على من كان مزاجه السوداء أن يرى في منامه أجاداثاً وقبوراً وأمواتاً [مكفين بسوداء] وبكاء ونوحًا ورنيناً وصراخاً وأشياء مفزعه وأموراً مفظعة وفيلة وأسوداً ، والغالب على من كان مزاجه الدم أن يرى خمراً ونبيذاً ورياحين ولعباً وقصفاً وعزفاً وأنواع الملاهي والرقص والسكر والفرح والسرور والثياب المصبعات من الحمرة وغيرها وما لحق بهذا الباب مما وصفنا من أنواع السرور .

ولا خلاف بين المتبنيين في أن الضحك واللعب - على ما ذكرناه - من أنواع السرور من الدم ، وأن كل حزن وخوف وإن اختفت معانيه فإن ذلك من المرة السوداء ، واحتجوا بضرورب من الاحتجاجات ؛ فهذه جملتها ، وقد أوضحنا هذا في كتابنا « الرؤيا والكمال » وفي كتاب « طب النفوس » فلا وجه لإطنابنا في هذا الموضوع من كتابنا هذا ؛ إذ كان هذا الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر .

وإنما تغلغل بنا الكلام لما شعب من مذاهفهم في إخبارنا عنهم ، ولم نعرض في هذا الكتاب لما ذهبت إليه الناس في تحديد النفس ، وما قاله أفلاطون في تحديده للنفس إن النفس جوهر محرك للبدن ، وما حَدَّهُ صاحب المنطق أن حد النفس كمال الجسم الطبيعي ، وحدها من وجہ آخر أنه حَيٌّ بالقوة ، ولا للفرق بين النفس والروح ؛ لأن الفرق بينهما أن الروح جسم والنفس لا جسم ، وأن الروح يحيي البدن ، وأن النفس لا يحييها البدن ، وأن الروح إذا فارق البدن بطل والنفس تبطل أفعالها في البدن ، ولا تبطل هي في ذاتها ، والنفس تحرك البدن وتنيله الحس ، وقد ذكر أفلاطون في كتاب السياسة المدنية نهر البستان وما يلحق الإنسان من صفات النفس الداخلية على النفس الناطقة ، وذكر أفلاطون في كتابه إلى طيماؤس ، وفي كتاب فاردون ، وكيفية مقتل سُقُّرطاط الحكيم وما تكلم في ذلك في النفس والصورة .

وقد تكلم الناس في طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الاثنين وغيرهم من الفلاسفة ، ثم تنازع أهل الإسلام في ماهية الإنسان الحساس الدرّاك المأمور المنهي ، وما

قالته المتصوفة وأصحاب المعارف والداعوى في طبقات النفوس من النفس المطمئنة والنفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء، وغير ذلك مما ذهب إليه اليهود [والنصارى] والمجوس والصابئة، وغير ذلك مما قد أتينا على إيضاحه في كتاب «سر الحياة» وغيره من كتبنا.

سطيح وشق الكاهنات

وقد كان سطِّيْحُ الكاهن - وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان - يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب، لا عظم فيه إلا جمجمة الرأس، وكانت إذا لمست باليدي يلين عظمها، وكان شق بن [مصعب بن شكران بن أترك بين قيس بن] عنتر بن أنمار بن ربيعة بن نزار معه في عصر واحد، وكان فيهما جمرة الكهانة، وكذلك سملقة وزوجة كانا في عصر واحد، والله أعلم.

ذكر جمل من أخبار الكهان، وسائل العزم وتفرق الأزد في البلدان

قال المسعودي: قد ذكرنا جملًا من الكهانة والقيافة والزجر والبارح والسانح فلنذكر الآن لمعاً من أخبار الكهان، وتفرق ولد سبا في البلدان.

السد وبانيه ومكانه

ولم يزل ولد قحطان في أطيب عيش إلى أن هلك سبا، وكان القوم بعد مضي سبأ تداولتهم الأعصار قرناً بعد قرن إلى أن أرسل الله عليهم سيل العرم وذلك أن الرياسة اتتهت فيهم إلى عمرو بن [عمرو مزيقياء - وهو عمرو بن] عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان بن سبا - وذلك ببلاد مازن من أرض اليمن، وهي بلاد سبا التي ذكر الله في القرآن أنه أرسل على أهلها سيل العرم، وهو السد، وكان فرسخاً في فرسخ، بناه لقمان الأكبر العادي - وهو لقمان ابن عاد بن عاد - وقد ذكرنا خبره وخبر غيره من كان عمرُ منهم عمر النسور، وهذا السد هو الذي كان يرددُ عنهم السيل فيما سلف من الدهر إذا حان أن يغشى أموالهم، فمزقهم الله كل ممزق، وباعده بين أسفارهم، والناس في قصة هلكهم يختلفون، وفي سياقة أخبارهم يتباينون.

وصف بلاد سبا

وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبا كانت من أخصب أرض اليمن، وأثرها، وأغدقها، وأكثرها جناناً وغيطاناً، وأفسحها مُرْجأً، مع بنيان حسن وشجر مصنفو، ومساكب للماء متكافئة، وأنهار [وأنهار] متفرقة، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة، وفي العرض مثل ذلك، وأن الراكب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه؛ لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية، واستيلائها عليها، وإحاطتها بها، وكان أهلها في أطيب عيش وأرفه وأهناً حال، وأرغم قرى، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء، وصفاء الفضاء،

وتتدفق الماء، وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة وكانت بلادهم في الأرض مثلاً، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الأخلاق، وطلاب الأفضال على القاصد والسفر بحسب الإمكان وما توجبه القدرة من الحال؛ فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار، لا يعاندهم ملك إلا قَصَمَوه، ولا يوافيهم جَيْرَ في جيش إلا كسروه، فذلت لهم البلاد، وأذعن لطاعتهم العباد، فصاروا تاج الأرض، وكانت المياه التي هي أكثر ما يرد إلى أرض سبا تظهر من مخرائق من الحجر الصَّلْد والحديد من [ذلك] السد والجبال، طول المخرائق فيما وصفنا فرسخ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام، وكان [في] هذا المخرائق الآخذ من تلك الأنهار ثلاثة ثلاثون نَقْبَا مستديرة في استدارة الذراع طولاً وعرضًا مدورة على أحسن هندسة وأكمل تقدير، وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتى تأتي الجنان فترويها سَقِيَاً، وتعمر شرب القوم، وقد كانت أرض سبا قبل ما وصفنا من العمارة والخشب يركبها السيل من تلك المياه، وكان ملك القوم في ذلك الزمان يقرب الحكماء، ويدينهم، ويؤثرهم، ويحسن إليهم، فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء إلى رأيهم، والأخذ من محض عقولهم، فشاورهم في دفع ذلك السيل وحصره، وذلك أنه كان ينحدر من أعلى الجبل هابطاً على رأسه [حتى] يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء، فأجمع القوم رأيهم على عمل مصارف [له] إلى براري تقدُّف به إلى البحر، وأخبروا الملك أن الماء إذا حفرت المصارف الهابطة طلبها، وانحدر فيها، ولم يتراكم حتى يعلو الجبال؛ لأن في طباع الماء طلاب الحفاض فحفر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع إلى تلك الجهة واتخذوا السد في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء من الجبل إلى الجبل، وجعلوا فيه المخرائق على ما وصفنا آنفًا، ثم اجتذبوا من تلك المياه نهرًا مرسلاً [و] مقداراً معلوماً ينتهي في جريانه إلى المخرائق، ثم ينبع الماء منه إلى تلك الأنقاب، وهي الثلاثون مخرائقاً الصغار التي قدمنا ذكرها، وكانت البلاد عامرة على ما وصفنا [آنفًا].

مبدأ التهدم

ثم إن تلك الأمم بادت ومرت عليها السنون، وضررها الدهر بضرباته وطَحَنَها بكلكله، وعمل الماء في أصول ذلك المخرائق، وأضعفه مَئُورُ السنين عليه وتدافع الماء حوله، وقد قيل في المثل: إذا أثر توادر الماء على الحجر الصَّلْد فما ظنك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع؟

فلما سكنت أبناء قحطان ما وصفنا من هذه الديار وتغلبت على من كان فيها منقطان لم تعلم الآفة من انحطام السد والمخرائق [وضعفه، فغلب الماء عند تناهى السد

والبنيان في الضعف عنه على السد والمخراق] والبنيان، فقذف به في جريه ورمي به في تياره، وذلك إبان زيادة الماء، واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان، حتى انقرض سكان تلك الأرض، وزالوا عن تلك المواطن، فهذه جملة من أخبار سيل العرم وبلاط سباً.

العرم

ولا خلاف بين ذوي الدرية منهم أن العرم هو المسنة التي قد أحكموا عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل، ففجّرته فأرة، ليكون ذلك أظهر في الأعوجوبة، كما أفار الله تعالى [ماء] الطوفان من جوف ثور ليكون أثبات في العبرة وأونكَد في الحجة، ولا يتناكر أحلاف قحطان من أهل تلك الديار إلى هذا الوقت ما كان من العرم؛ لاستفاضته فيهم، وشهرته عندهم.

مفاخرة عند السفاح بين قحطاني وعدناني

وقد فخر بعض أولاد قحطان في مجلس السفاح بمناقب قحطان من حمير وكهلان على ولد نزار، وخالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد منصتون هيبة للسفاح؛ لأن أخواه من قحطان، فقال السفاح لخالد بن صفوان: ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها؟ فقال خالد: ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا داينج جلد، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عَزْد، أغرقتهم فأرة، وملكهم امرأة، ودل عليهم هدهد، ثم مر في ذمهم إلى أن انتهى إلى ما كان من قصتهم وتملك العحبشة وما كان من استنقاذ الفرس إياهم على حسب ما قدمنا آنفاً.

العرم في شعر العرب

وقد ذكرنا في أشعارهم العرم، وما كان لسباً وأرض مأرب، وأن مأرب سمة للملك الذي [كان] يتملك على هذه البلدة، وأن هذا الاسم وقع على هذا البلد فاشتهر به وصار سمة له، وقال الشاعر:

من سبا الحاضرين مأرب إذا يبنون من دون سيله العرم
وقد قيل: إن مأرب سمة لقصر هذا الملك في صدر الزمن، قال أبو الطمحان في ذلك:

ألم تروا مأرباً ما كان أخصئه وما حواليه من سور وبنيان؟

[ظل العبادى يُسقى فوق قُلْتَه ولم يهب رَبِّ دهر جَدُّ خَوَان]
[حتى تناوله من بعدهما هجعوا يرقى إليه على أسباب كتان]

وقد ذكر الأعشى [في شعره] ما وصفنا [هـ] حيث يقول في كلمته:

ففي ذاك للمؤتسي أَسْوَةً بمأرب عَفَّى عليها الْعَرَم
رخام بناء لهم حمير إذا جاء ماؤهُم لم يَرِم
فأغنى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤهم قد قسم
فطار الفيول وفَيَالها بها في فيافي سَرَاب يطْم
وكانوا بذلُكْم حقبةً فمال بهم جارف منهدم
فطاروا سراعاً وما يقدمو ن منه لشرب صبي فطم

طول العمر وعمر النسور

وقد ذكرنا في كتابنا «أخبار الزمان» الملك الذي طال عمره وحسنت سيرته، وأنه بنى هذا السد الذي هو المسنة، وأن عمره انتهى على عمر النسور، عند ذكرنا لطول الأعمار، وقد أكدت العرب في صفة طول عمر النسر، وضررت به الأمثال، وبليد، وبصحة بدن الغراب؛ فمن ذلك ما ذكره الخزرجي في شعره عند ذكره لطول عمر معاذ ابن مسلم بن رجاء مولى القعقاع بن حكيم من قوله فيه عند ذكره سنة وهرمه، وهو:

إِنَّ معاذَ بْنَ مُسْلِمَ رَجُلَ قد ضَجَّ مِنْ طُولِ عُمْرِ الْأَبْدُ
[قد شاب رأس الزمان واختضب الدهر وأشوابُ عمره جَدُّه]
يا نسر لقمان كم تعيش؟ وكم تلبس ثوب الحياة يا لَبْدُ؟
قد أصبحت دار حمير خَرِبتَ
وأنت فيها كأنك الوَتَدُ
تسأل غربانها إذا حجلت كيف يكون الصُّدَاعُ والرمد

علة طول الأعمال ونقصها

وقد قدمنا فيما سلف في مواضع من هذا الكتاب ما قالت الأوائل في علة طول الأعمار وقصرها، وعظم الأجسام في بذء الأمر، وتناقضها على مرور الأعصار ومضي الدهور، وأن الله تبارك وتعالى لما بدأ الخلق كانت الطبيعة التي جعلها الله جبلة للأجسام في تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال، والطبيعة إذا كانت تامة القوة كانت الأعمار أطول، والأجسام أقوى؛ لأن طرق الموت الطارئ يكون بانحلال قوى الطبيعة، فلما كانت القوة أتم كانت الأعمار أزيد، وكان العالم في أولية شأنه تأم العمر، ثم لم يزل ينقص أولاً

فأولاً لنقصان المادة فتنقص الأجسام والأعمار مع نقصان المادة حتى يكون آخر مائة الطبيعة في تناهي النقص في الأجسام والأعمار.

وقد أبي ما ذكرنا من عظم أجسام الناطقين في صدور الزمان كثير من أهل النظر والبحث من تأخر، وزعموا أن تأثيرهم في بنيائهم وما ظهر في الأرض من أعمالهم يدل على صغر أجسامهم، وأنها كانت ك أجسامنا، لما شاهدوه من مساكنهم وأبوابهم وممراتهم فيما أحذثوه من البنيان والهيكل والديار والمساكن في سائر الأرض، كديار ثمود ونحتها المساكن في الجبال وحفرها في الصخر الصل بيوتاً صغاراً وأبواباً لطافاً، وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض في الشرق والغرب، وهذا [باب] إن أكثرنا القول فيه طال، وإن أطنبنا في صفتة كثراً، فلنرجع الآن إلى ما عنه عدلتنا ومن صفتة خرجنا من ذكر سبأ ومارب، وما كان من الملك في ذلك الوقت وهو عمرو بن عامر.

عود لذكر سبأ

وكان للملك عمرو بن عامر المقدم ذكره في هذا الباب أخ كاهن عقيم، يقال له عمران، وكان لعمرو كاهنة من أهله من حمير يقال لها طريقة الخير فكان أول شيء وقع بمارب وعرف من سيل العرم أن عمران الكاهن أخا عمرو رأى في كهانته أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ويياعد بين أسفارهم، فذكر ذلك لأخيه عمرو، وهو الملك مزيقياء الذي كانت محنـة القوم في أيام ملـكه، والله أعلم بكيفية ذلك.

طريقة الكاهنة

وبينا طريقة الكاهنة ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم وأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت ما وقعت عليه، ووّقعت إلى الأرض، فلم تقع على شيء إلا أحرقته، ففزعـت طريقة لذلك، وذعرت ذعراً شديداً، وانتهـت وهي تقول: ما رأيت مثل اليوم، قد أذهبـ عنـيـ النـومـ، رأـيـتـ غـيـماـ أـبـرقـ، وأـرـعـدـ طـوـيـلاـ ثمـ أـصـعـقـ، فـماـ وـقـعـ عـلـىـ شـيـءـ إـلـاـ أـحـرـقـ، فـمـاـ بـعـدـ هـذـاـ إـلـاـ الـغـرـقـ، فـلـمـ رـأـوـاـ مـاـ دـخـلـهـاـ مـنـ الرـعـبـ خـفـضـوـهـاـ وـسـكـنـوـهـاـ مـنـ جـاـشـهـاـ حـتـىـ سـكـنـتـ، ثـمـ إـنـ عـمـرـوـ بـنـ عـاـمـرـ دـخـلـ حـدـيـقـةـ مـنـ حـدـائـقـهـ وـمـعـهـ جـارـيـاتـ لـهـ فـبـلـغـ ذـلـكـ طـرـيـقـةـ، فـأـسـرـعـتـ نـحـوـهـ، وـأـمـرـتـ وـصـيـفـاـ لـهـ يـقـالـ لـهـ سـنـانـ أـنـ يـتـبعـهـ، فـلـمـ بـرـزـتـ مـنـ [بـابـ] بـيـتهاـ عـارـضـهـاـ ثـلـاثـ [مـنـاجـدـ] مـنـتصـبـاتـ عـلـىـ أـرـجـلـهـنـ وـاضـعـاتـ أـيـدـيـهـنـ عـلـىـ أـعـيـنـهـنـ، وـهـيـ دـوـابـ تـشـبـهـ الـبـرـاعـ يـكـنـ بـأـرـضـ الـيـمـنـ، فـلـمـ رـأـيـهـنـ طـرـيـقـةـ وـضـعـتـ يـدـهـاـ عـلـىـ عـيـنـهـاـ وـقـدـتـ، وـقـالـتـ لـوـصـيـفـهـاـ: إـذـاـ ذـهـبـتـ هـذـهـ الـمنـاجـدـ عـنـاـ فـأـعـلـمـنـيـ، فـلـمـ ذـهـبـتـ أـعـلـمـهـاـ، فـانـطـلـقـتـ مـسـرـعـةـ، فـلـمـ عـارـضـهـاـ خـلـيـجـ الـحـدـيـقـةـ التـيـ فـيـهـاـ

عمرو وثبت من الماء سلحفاة، فوَقعت على الطريق على ظهرها وجعلت ترید الانقلاب فلا تستطيع، فتسعن بذنبها وتحشو التراب على بطنهما وجنبها وتقذف بالبول، فلما رأتها طريقة جلست إلى الأرض، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت [طريقة] إلى أن دخلت على عمرو الحديقة حين اتصف النهار في ساعة شديد حرها، فإذا الشجر يتكتفاً من غير ريح، فنفت حتى دخلت على عمرو ومعه جاريتان [له] على الفراش، فلما رأها استحضا منها، وأمر الجاريتين فنزلتا عن الفراش، ثم قال لها: هلمي يا طريقة إلى الفراش، فتكهنت، وقالت: والنور والظلماء، والأرض والسماء، إن الشجر لتالف، وسيعود الماء لما كان في الدهر السالف، قال عمرو: من خبرك بهذا؟ قالت: أخبرني المناجد، بسنين شدائد، يقطع فيها الولد والوالد، قال: ما تقولين؟ قالت: أقول: قول التدمان لهفأ، قد رأيت سلحفاة تجرف التراب جرفاً، وتقذف بالبول قذفاً، فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكتفاً، قال عمرو: وما ترين ذلك؟ قالت: هي داهية ركيمة، ومصائب عظيمة، لأمور جسيمة، قال: وما هي؟ ويلك! قالت: أجل إن لي الويل، وما لك فيها من نيل، فلي ولك الويل، مما يجيء به السينل، فالقى عمرو نفسه على الفراش وقال: ما هذا يا طريقة؟ قالت: هو خطب جليل، وحزن طويل، وخلف قليل، والقليل خير من تركه، قال عمرو: وما علامة ذلك؟ قالت: تذهب إلى السد فإذا رأيت جُزداً يكثُر [بديه] في السد الحفر، ويقلب برجليه من الجبل الصخر؛ فاعلم أن التقر عقر، وأنه وقع الأمر، قال: وما هذا الأمر الذي يقع؟ قالت: وعد من الله نزل، وباطل بطل، ونكال بنا نزل، فغيرك يا عمرو فليكن الثكل، فانطلق عمرو إلى السد يحرسه، فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلها خمسون رجلاً فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر وهو يقول:

أبصرت أمراً عادني منه ألم وهاج لي من هوله بزُرُّ السقْم
من جرَذٍ كفَحْلٍ خنزير الأَجْنَمْ أو ثَنَسٍ مرم من أفاريق الغَنَمْ
يسحب صخراً من جلاميد العَرِمْ له مخالفٌ وأنىاب قضم
ما فاته سحلاً من الصخر قضم كأنما يرعى حظيرأً من سَلَمْ

فقالت له طريقة: إن من علامة ما ذكرت لك أن تجلس في مجلسك بين الجتتين، ثم تأمر بزجاجة فتووضع بين يديك، فإنها ستمتلئ بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادي ورمله، وقد علمت أن الجنان مُظلة ما يدخلها شمس ولا ريح، فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه، فلم يمكث إلا قليلاً حتى امتلأت من تراب البطحاء، فذهب عمرو إلى طريقة فأخبرها بذلك، وقال: متى ترين هلاك السد؟ قالت: فيما بينك وبين السبع السنين، قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، ولو علمه أحد

لعلمه، ولا يأتي عليك ليلة فيما بينك وبين السبع السنين إلا ظنت هلاكه في غداها أو في تلك الليلة.

عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده

ورأى عمرو في النوم سيل العرم، وقيل له: إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل، فذهب إلى كَرَب النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أن ذلك واقع بهم، وأن بلادهم ستخرُب، فكتم ذلك وأخفاه، وأجمع أن يبيع كل شيء له بأرض سباء، ويخرج منها هو وولده، ثم خشي أن يستنكر [الناس] ذلك، فصنع طعاماً وأمر ببابل فنحرت، وبعث فذبحت، وصنع طعاماً واسعاً، ثم بعث إلى أهل مأرب أن عمراً صنع يوم مجد ذكر فاحضُروا طعامه، ثم دعا ابنَاه له يقال له مالك، ويقال: بل كان يتيمًا في حجره، فقال: إذا جلست أطعم الطعام الناس فاجلس عندي ونازعني الحديث، واردده عليّ، وافعل بي مثل ما أفعله بك، وجاء أهل مأرب، فلما جلسوا أطعم الناس وجلس عنده الذي أمره [بما أمره به]، فجعل ينزع الحديث، ويرد عليه، فضرَب عمرو وجهه وشتمه، فصنع الصبي بعمرو مثل ما صنع [به] فقام عمرو وصاح: وادلأه!! يوم فخر عمرو ومجله يضرِب وجهه صبيّ، وحلف ليقتلَّه، فلم يزالوا بعمرو حتى تركه [ففي ذلك قال حاجر الأزدي]:

يا رب لطمة غَدو قد سخت بها بکف عمرو التي بالغدر قد غرفت

ثم قال: والله لا أقيم بيلد صنع هذا بي فيه، ولأبین عقاري فيه وأموالي، فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غضبة عمرو، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى، فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم، فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم، فلما أكثروا البيع استنكر ذلك الناس، فأمسكوا بأيديهم [عن الشراء]، فلما اجتمعوا إلى عمرو بن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم، فقال أخوه عمران الكاهن: قد رأيت أنكم ستُمزقون كل مُمْزَق، ويباعدُ بين أسفاركم، وإنني أصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم، فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر إليها، من كان منكم ذا هَمْ بعيد وحمل شديد [ومزاد جديد] فليلحق بقصر عمان المشيد، [فكان الذين نزلواه أزد عمان] قال: ومن كان منكم ذا هم غير بعيد، وحمل غير شديد [ومزاد غير جديد] فليلحق بالشعب من كرود، قال: وهي أرض همدان، فللحق به وادعة بن عمرو، فانتسبوا إليهم، وقال الكاهن، ومن كان منكم ذا حاجة ووطر [وسياحة] ونظر، وصبر على أزمات الدهر، فليلحق ببطن مَرَّ، وكان الذين سكنوه خزانة [سميت

بذلك] لأنخزاعها في ذلك الموضع عنـ كـان معـها منـ الناس ، وـهم بـنـو عـمـرو بـنـ لـحـيـ ، فـتـخـزـعـتـ هـنـالـكـ إـلـىـ هـذـهـ الغـاـيـةـ ، وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ :

ولـماـ هـبـطـنـاـ بـطـنـ مـرـ تـخـزـعـتـ خـزـاعـةـ مـنـاـ فـيـ مـلـوـكـ كـراـكـرـ

[في شـعـرـ لـهـ طـوـيـلـ] وـمـالـكـ وـأـسـلـمـ وـمـلـكـانـ بـنـوـ قـصـيـ بـنـ حـارـثـةـ بـنـ عـمـروـ مـزـيقـيـاءـ ، وـقـالـ الـكـاهـنـ : وـمـنـ كـانـ يـرـيدـ الرـاسـيـاتـ فـيـ الرـحـلـ ، الـمـطـعـمـاتـ فـيـ الـمـخـلـ ، فـلـيـلـحـقـ بـيـشـرـ ذاتـ النـخلـ ، وـهـيـ الـمـدـيـنـةـ ، وـكـانـ الـذـيـنـ سـكـنـوـهـاـ الـأـوـسـ وـالـخـزـرـجـ اـبـنـ حـارـثـةـ بـنـ ثـلـعـةـ بـنـ عـمـروـ مـزـيقـيـاءـ ، قـالـ الـكـاهـنـ : وـمـنـ كـانـ يـرـيدـ مـنـكـمـ الـخـمـرـ وـالـخـمـيرـ ، وـالـدـيـبـاجـ وـالـحـرـيرـ ، وـالـأـمـرـ وـالـتـدـبـيرـ ، فـلـيـلـحـقـ يـصـرـىـ وـحـفـيرـ ، وـهـيـ أـرـضـ الشـامـ [فـكـانـ الـذـيـنـ سـكـنـوـهـاـ غـسـانـ] قـالـ الـكـاهـنـ : وـمـنـ كـانـ مـنـكـمـ يـرـيدـ الشـيـابـ الرـقـاقـ وـالـخـيـولـ الـعـتـاقـ ، وـالـكـنـوزـ وـالـأـرـزـاقـ ، فـلـيـلـحـقـ بـالـعـرـاقـ ، وـكـانـ الـذـيـنـ لـحـقـواـ بـالـعـرـاقـ مـنـهـمـ مـالـكـ بـنـ فـهـمـ الـأـزـدـيـ وـوـلـدـهـ ، وـمـنـ كـانـ بـالـحـيـرـةـ مـنـ غـسـانـ ، عـلـىـ حـسـبـ مـاـ قـدـمـنـاـ آـنـفـاـ فـيـمـاـ سـلـفـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ .

وقـالـ هـشـامـ بـنـ الـكـلـبـيـ : وـأـمـاـ أـبـيـ فـكـانـ يـقـولـ : إـنـمـاـ نـزـلـ بـالـحـيـرـةـ مـنـ غـسـانـ مـعـ تـبعـ بـعـدـ هـذـاـ بـزـمانـ .

ثـمـ خـرـجـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ مـزـيقـيـاءـ وـوـلـدـهـ ، مـنـ مـأـربـ ، وـخـرـجـ مـنـ كـانـ بـمـأـربـ مـنـ الـأـزـدـيـ يـرـيدـونـ أـرـضاـ تـجـمـعـهـمـ يـقـيمـونـ بـهـاـ ، فـقـارـقـهـمـ وـادـعـةـ بـنـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ مـزـيقـيـاءـ فـسـكـنـوـهـمـدـانـ ، وـتـخـلـفـ مـالـكـ بـنـ الـيـمـانـ بـنـ فـهـمـ بـنـ عـدـيـ بـنـ مـازـنـ بـنـ الـأـزـدـ ، وـكـانـ بـعـدـهـمـ بـمـأـربـ مـلـكـاـ إـلـىـ أـنـ كـانـ مـنـ أـمـرـهـمـ مـاـ كـانـ فـيـ الـهـلـالـ ، ثـمـ سـارـوـاـ حـتـىـ إـذـاـ كـانـوـ بـنـجـرـانـ تـخـلـفـ أـبـوـ حـارـثـةـ بـنـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ مـزـيقـيـاءـ وـدـعـبـلـ بـنـ كـعبـ بـنـ أـبـيـ حـارـثـةـ فـاـنـتـسـبـواـ فـيـ مـذـحـجـ ، قـالـ أـبـوـ المـنـذـرـ : وـيـقـالـ : إـنـ أـبـاـ حـارـثـةـ هـوـ جـدـ الـحـارـثـ بـنـ كـعبـ بـنـ كـعبـ أـبـيـ حـذـيفـةـ الـذـيـ بـنـجـرـانـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

ثـمـ سـارـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ حـتـىـ إـذـاـ كـانـ بـيـنـ السـرـاـةـ وـمـكـةـ أـقـامـ هـنـالـكـ أـنـاسـ مـنـ بـنـيـ نـصـرـ مـنـ الـأـزـدـ ، وـأـقـامـ مـعـهـمـ عـمـرـانـ بـنـ عـامـرـ الـكـاهـنـ أـخـوـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ مـزـيقـيـاءـ ، وـعـدـيـ بـنـ حـارـثـةـ بـنـ عـمـروـ مـزـيقـيـاءـ ، وـسـارـ عـمـروـ بـنـ عـامـرـ وـبـنـوـ مـازـنـ حـتـىـ نـزـلـوـ بـيـنـ بـلـادـ الـأـشـعـرـيـنـ وـعـكـ عـلـىـ مـاءـ يـقـالـ لـهـ غـسـانـ بـيـنـ وـادـيـنـ ، يـقـالـ لـهـمـاـ زـيـدـ وـرـمـعـ ، وـهـمـاـ مـاـ يـلـيـ صـدـورـهـمـ بـيـنـ صـعـيدـ يـقـالـ لـهـ : صـعـيدـ الـحـسـكـ ، وـبـيـنـ الـجـبـالـ الـتـيـ تـدـفـعـ بـهـ فـيـ زـيـدـ وـرـمـعـ ، فـأـقـامـوـاـ عـلـىـ غـسـانـ ، وـشـرـبـوـاـ مـنـهـ ، فـسـمـوـاـ غـسـانـ ، وـغـلـبـ عـلـىـ أـسـمـائـهـمـ ، فـلـاـ يـعـرـفـوـنـ إـلـاـ بـهـ ، قـالـ شـاعـرـهـمـ :

إِمَا سَأَلْتَ فِي إِنَّا مَعْشِرَ نَجْبٍ الْأَزْدَ نَسْبَتْنَا وَالْمَاء غَسَان
وَالَّذِينَ سَمَوا غَسَانًا مِنْ بَنِي مَازِنَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، ابْنَاهَا [حَارِثَةُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنُ عَمْرَو
مُزِيقَيَّةَ، وَجَفْنَةَ بْنُ عَمْرَو مُزِيقَيَّةَ، وَالْحَارِثُ وَعُوفُ وَكَعْبُ وَمَالِكُ بْنُو عَمْرَو مُزِيقَيَّةَ،
وَالنُّومُ وَعُدَى ابْنَاهَا حَارِثَةَ بْنَ امْرَىءِ الْقَيْسِ بْنَ مَازِنَ الْأَزْدَ.

وَلِلْقَوْمِ أَخْبَارٌ فِي تَفْرِقَتِهِمْ، وَمِنْ دَخْلِهِمْ فِي مَعْدَ بْنِ عَدْنَانَ وَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنْ
الْحَرُوبِ إِلَّا أَنْ ظَفَرْتَ بِهِمْ بْنُ مَعْدٍ، فَأَخْرَجْتَهُمْ إِلَى أَنْ لَحِقُوكُمْ بِالسَّرَّاوةِ وَالسَّرَّاوةِ جَبَلُ الْأَزْدِ
الَّذِي هُمْ بِهِ يَقَالُ لَهُ السَّرَّاوةُ، وَيَقَالُ لَهُ: الْحَجَازُ، وَإِنَّمَا سُمِيَ السَّرَّاوةُ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ ظَهُورُهُ،
فَيَقَالُ لَظَهُورِهِ السَّرَّاوةُ كَمَا يَقَالُ لَظَهُورِ الدَّابَّةِ السَّرَّاوةُ، فَأَقَامُوا بِهِ وَكَانُوا فِي سَهْلِهِ وَجَبَلِهِ وَمَا
قَارِبُهُ، وَهُوَ جَبَلٌ عَلَى تَخُومِ الشَّامِ، وَفَرَزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَجَازِ مَا يَلِي أَعْمَالَ دَمْشَقَ وَالْأَرْدَنَ
وَبِلَادِ فَلَسْطِينِ وَيَلَاقِي جَبَلَ مُوسَىَ.

عبادة أهل مأرب وصنعمهم مع رسليهم

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَأْرِبَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَدْعُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ،
وَيَزْجُرُونَهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُونَهُمْ آلاءَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، فَجَحَدُوا قَوْلَهُمْ، وَرَدُوا
كَلَامَهُمْ، وَأَنْكَرُوا أَنْ [يَكُونُ] اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً، وَقَالُوا لَهُمْ: إِنْ كُنْتُمْ رَسُولًا فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ
يُسْلِبَنَا مَا أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيْنَا، وَيَذْهَبَ عَنَّا مَا أَعْطَانَا، وَفِي ذَلِكَ تَقُولُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ [كَافِرَةً]:
إِنْ كَانَ مَا تُضَيِّخُ فِي ظَلَالِهِ مِنْ رِبْكُمْ فَلَيُنْطَلِقْ بِمَا لَهُ
إِلَيْهِ عَنَا وَإِلَى عِيَالِهِ

[فَأَجَابَتْهَا امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ، فَقَالَتْ:

لَوْلَا إِلَهٌ لَمْ يَكُنْ عِيَالُنَا وَلَمْ يَسْعُ عِيَالُنَا أَمْوَالُنَا
هُوَ الَّذِي يَجِيبُنَا سُؤَالُنَا وَيَكْشِفُ الْغُمَّ إِذَا مَا هَالَنَا
[فَدَعَتْ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ] فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ، فَهَدَمَ سُدُّهُمْ وَغَشَّيَ الْمَاءَ
أَرْضَهُمْ، فَأَهْلَكَ شَجَرَهُمْ وَأَبَادَ حَضْرَاءَهُمْ، وَأَزَالَ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ، فَأَتَوْا رَسْلَهُمْ
فَقَالُوا: ادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَخْلُفَ عَلَيْنَا نِعْمَتَنَا، وَيُخْصِبَ بِلَادَنَا، وَيُرِدَ عَلَيْنَا مَا شَرَدَ مِنْ أَنْعَامِنَا،
وَنَعْطِيكُمْ مَوْتَنَا أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، فَسَأَلَتِ الرَّسُولُ رَبِّهَا، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَاهُمْ
مَا سَأَلُوا، فَأَخْصَبَتِ بِلَادَهُمْ، وَاتَّسَعَ عَمَائِرُهُمْ إِلَى أَرْضِ فَلَسْطِينِ وَالشَّامِ: قُرَى وَمَنَازِلَ
وَأَسْوَاقًا فَأَتَتْهُمْ رَسْلَهُمْ، فَقَالُوا: مَوْعِدُكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، فَأَبْرَأُوا إِلَّا طَغَيَانًا وَكُفَّارًا، فَمَزَقُوهُمْ
اللَّهُ كُلُّ مَزْقٍ، وَبَاعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ.

قال المسعودي: وإذا قد ذكرنا جملًا من أخبار السد وبلاط مأرب، وعمرو بن عامر، وغير ذلك مما تقدم ذكره في هذا الباب، فلنرجع الآن إلى أخبار الكهان.

أول كهانة سطح الغساني

وكان أول ما تكهن به سطح الغساني أنه كان نائماً في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوه في لحاف، والحي خلوف، إذ زعن من بينهم ورَنَّ وتأوه، وقال: والضياء والشفق، والظلام والغسق، ليطرقنكم ما طرق، قالوا: ما طرق يا سطح؟ قال: ما طرق إلا الأجلح، حين سرى الليل البهيم الأفلح، وولاهم بسردح، قالوا: وما علامه ذلك يا سطح؟ قال: أمر يسد النقرة، ذو حبسة في الوجرة، وحرة بعد حرة، في ليلة قرة، فانصرفوا عن قوله، واستهانوا بأمره، وتعاصفت مدوة من أودية هناك، ففاجأتهم في ليلة باردة قرة كما ذكر، فساقت الأنعام والمواشي، وكادت أن تذهب بعامتهم.

ولسطح الكاهن ولشق بن صعب أخبار كثيرة [عجبية]: منها رؤيا تُبع الحميري في أن جَمْرَة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تَهَمَّة، أكلت منها كل ذات جمجمة، وما فَسَرَاه له في ذلك، وكذلك خبر سطح، [وعبد المسيح] في رؤيا المويدان، وارتجاج الإيوان، وخبر سملقة وزوبعة، وما كان من أمرهما، وخبر شأن الظليم والشجرة، وما كان بين عك وغضان من الحرب في رقة اللبن وحلوته وثخنه، ونزل غسان أعلى الوادي، وعلك في أسفله، وما كان في ذلك من القيافة بينهم في طلوع الشمس وغروبها على إيلهم، وخبر المسؤول بن حسان بن عadiاء، وما كان من أمره، وأمر خازن الكاهن، وما قاله حين طرَقَه ليلاً، وانقياده إلى ذمته، وما كان من العير الأقمر، والظليم الأحمر، والفرس الأشقر، والجمل الأزرور، والشيخ الأحرر، وغير ذلك مما ذكرناه فيما سلف من كتبنا، في «أخبار الزمان» والكتاب الأوسط، والله أعلم.

ذكر سني العرب والعجم وشهورها وما اتفق منها، وما اختلف

قال المسعودي: عدة الشهور عند العرب وسائر العجماثنا عشر شهرأ، فلتذكر الآن سني وشهور وأيام ما اشتهر أهله من جل الأمم، وهم العرب والفرس والروم والسريانيون والقبط؛ إذ كان قول اليونانيين في ذلك [هو ما ذهبت إليه الروم، ولم نعرض لوصف قول الهند في السنين والشهور والأيام وما ذهبوا إليه في ذلك] من حسابهم، ومن تعهم على ذلك من أهل الصين وكثير من الممالك والأمم؛ إذ كان في ذلك خروج عما عليه الجمهور والمعهود بين الناس، ونجعل المبتدأ بذكر سني وشهور القبط؛ لموافقتها السريانيين ثم نعقب بعد ذلك بذكر شهور السريانيين وموافقتها لشهور الروم. ثم نتبع ذلك بذكر سني العرب وشهورها وأيامها، [ثم نعقب بعد ذلك بذكر سني الفرس وشهورها وأيامها] ولأية علة استحق عندها تسمية كل شهر منها، وكل يوم، وما قالته العرب في تسمية الليالي، وجمل من ذكر أفعال الشمس والقمر وتأثيرها في هذا العالم في الجماد والنبات والحيوان، وغير ذلك مما يقف عليه المتأمل عند قراءته - إن شاء الله تعالى - على ما يريد، والله تعالى ولي التوفيق.

ذكر شهور القبط والسريانيين والخلاف في أسمائها وحمل من التاريخ

شهر القبط و مقابلها من شهور السريان

أول شهور القبط: توت، وهو أيلول، وبابه، وهو تشنين الأول، وهاتور وهو تشنين الثاني، وكهيك، وهو كانون الأول، وطوبه، وهو كانون الثاني، وأمشير، وهو شباط، ويرمهات، وهو آذار، وبرموده، وهو نيسان، وبشنس وهو أيار، وبؤونة، وهو حزيران، وأبيب، وهو تموز، ومسري، وهو آب.

وللقطب بعد هذا خمسة أيام لواحق، تدعى العماء، تزيدها على ما سمينا من شهورها، وهي ثلاثة أيام وستون يوماً؛ فتصير السنة ثلاثة وخمسة وستين يوماً.

سنة القبط

وأول يوم من السنة عند القبط هو اليوم التاسع والعشرون من شهر آب، وعدة كل شهر منها ثلاثون يوماً، وكانت أيام السنة ثلاثة وخمسة وستين يوماً كعدة أيام سنة الفرس [وكانت شهور القبط فيما مضى توافق أوائلها شهور الفرس] فكان أول توت أول آذريماه، ثم كل شهر كذلك على هذا الوصف إلى آخر سنة القبط آخر آذريماه، وهذا الحساب بعينه موجود في كتب الزيجات في النجوم، وأهل مصر وسائر القبط في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - يستعملون في حسابهم في الشهور غير ما قدمنا، وذلك أنهم زادوا في أيام السنة ربع يوم على مذهب السريانيين والروم [فصارات شهورهم مخالفة لشهور الفرس وموافقة لشهور السريانيين والروم] في عدد أيام السنة، [وتاريخ القبط في كتاب الماجستي من أول السنة] التي ملك فيها البخت نصر وكان أولها يوم الأربعاء.

مبدأ التوارث

وأما تاريخ القبط في كتاب زيج بطليموس، فمن أول سنة ملك فيليقوس وكان أولها يوم الأحد، [والتبان] الذي بين تاريخ البخت نصر وتاريخ يزدجرد ألف وثلاثمائة وتسع

وتسعون سنة فارسية وثلاثة أشهر، والذي بين تاريخ فيلقوس وتاريخ يزدجرد [تسعمائة وخمس وخمسمون سنة وثلاثة أشهر، وبين تاريخ الإسكندر، وتاريخ يزدجرد] تسعمائة وخمس واثنتان وأربعون سنة من سني الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوماً، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وعشرون يوماً، فأول هذه التواريχ تاريخ البعث نصر، ثم تاريخ فيلقوس، ثم تاريخ ابنه الإسكندر، ثم تاريخ الهجرة، ثم تاريخ يزدجرد.

أوائل كل تاريχ

وتاريخ العرب من أول السنة التي هاجر فيها النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أولها يوم الخميس.

وتاريخ الفرس من أول السنة التي ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرویز، وكان أولها يوم الثلاثاء.

وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة [من] ملك الإسكندر، وكان أولها يوم الاثنين، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

ذكر شهور التريانتين

ووصف موافقتها الشهور العرب وعدة أيام السنة ومعرفة الأنواء

شهور وأيام كل شهر

فأول ذلك أن أيام السنة ثلاثة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، وهي مختلفة في العدد: فنيسان ثلاثون يوماً، وأيّار أحد وثلاثون يوماً، وحزيران ثلاثون يوماً، ولثمان عشرة ليلة منذ رجوع الشمس هابطة من الشمال [على ما أوجبه حساب الهند] وهو أطول يوم في السنة [وليلته] أقصر ليلة، وتتموز أحد وثلاثون يوماً، وآب أحد وثلاثون ويوماً، فإذا انسلاخ [آب] ذهب الحر، قال محمد بن عبد الملك الزيات:

بَرَدَ الْمَاءُ وَطَلَبَ الْـ لِـيـلَـ وَالـتـأـذـ الشـرـابـ
وَمَضـىـ عـنـكـ حـزـيـراـ نـ وـتـمـمـ مـوـزـ وـآبـ

وأيلول ثلاثون يوماً، والخمس منه عيد زكرياء، والعشر منه تطلع الصرفة فينصرف الحر، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب، وهو اليوم الرابع عشر منه، وفي هذا اليوم تفتح الترع بمصر على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب، ول تمام عشرين منه، يستوي الليل والنهار، وقال أبو ثؤوس:

مَضَىِ أَيْلُولَ وَارْتَفَعَ الْخَرُورُ وَأَخْبَثَ نَارَهَا الشَّعْرِيُّ الْغَبُورُ

سر تسمية المهرجان

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوماً، وفيه يكون المهرجان، وبين النيروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوماً، وعند الفرس في معنى المهرجان أنه كان لهم ملك في قديم الزمان من ملوك الفرس قد عم ظلمه خواص الناس وعواهم، وكان يسمى مهر، وكانت الشهور تسمى بأسماء الملوك، فقيل مهرماه، ومعنى ماه: هو الشهر، وأن ذلك الملك طال عمره واستدنت وطأته؛ فمات في النصف من هذا الشهر، وهو مهرماه، فسمى ذلك اليوم الذي مات فيه «مهرجان» وتفسirه نفس مهر ذهبت؛ لأن الفرس تقدم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها، وهذه اللغة الفهلوية، وهي الفارسية الأولى، وأهل المروآت

بالعراق وغيرها من مدن العجم يجعلون هذا اليوم أول يوم من الشتاء؛ فتغير فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس، ولخمس منه - وهو تشرين الأول - عيد كنيسة القمامنة بيت المقدس، وفي هذا اليوم تجتمع النصارى من سائر الأرض، وتنزل عليهم نار من السماء، فيسرج هناك الشمع، ويجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر إلى العيد، ويقتلع فيه ورق الزيتون، ويكون للنصارى فيه أقصاص، ولهذه النار حيلة لطيفة وست عظيم، وقد ذكرنا وجه الحيلة في ذلك في كتابنا المترجم بـ «كتاب القضايا والتجارب» وتشرين الثاني ثلاثون يوماً، وكانون الأول ثلاثون يوماً، ولتسع عشرة منه يكون النهار متتهي طوله، وليلة الخامس والعشرين منه ميلاد المسيح عليه السلام، وكانون الثاني أحد وثلاثون يوماً، وأول يوم منه القلنديس، فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون في ليته النيران، ويظهرون الأفراح، لا سيما بمدينة أنطاكية، وما يكون في كنيسة القسيان بها من القدس عندهم، وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها، وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكية من الفرح والسرور وإيقاد النيران والمأكل والمشارب، ويساعدهم على ذلك عوام الناس وكثير من خواصهم، وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسى البطرى المعظم عندهم في دياتهم، وأن النصرانية تسمى أنطاكية مدينة الله، ويسمونها أيضاً مدينة الملك، وأم المدن، لأن بُدُّ ظهور النصرانية كان فيها.

بطارقة النصارى

والبطارقة عند النصرانية أربعة: أولهم صاحب مدينة رومية، ثم الثاني وهو صاحب مدينة قسطنطينية، وهي أقسى، واسمها القديم بوزنطيا، ثم الثالث وهو صاحب الإسكندرية من أرض مصر، ثم الرابع وهو صاحب أنطاكية، ورومية أنطاكية بطرس، فبدؤوا برومية لأنها بطرس، ثم ختموا بأنطاكية لأنها له، وتعظيمًا [لبولس]، وقد أحدثوا كرسياً بيت المقدس، ولم يكن هذا متقدماً؛ وإنما هو محدث، وكان لإيليا وهو بيت المقدس أسقف [ولكورة لد من أرض فلسطين].

مشهور كنانسهم

وبأنطاكية أيضاً كنيسة [بولس]، وتعرف بأنطاكية بدير البراغيث وهي مما يلي باب فارس، وبها أيضاً كنيسة أخرى تدعى أشمونيت، وبها عيد عظيم للنصرانية وكذلك بها كنيسة [بربارا، وكنيسة مريم] وهي كنيسة مدورة، وبنيانها من إحدى عجائب العالم في التشييد والرقة، وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان اقتلع من هذه الكنيسة عمداً عجيبة

من الممر والرخام لمسجد دمشق [حملت في البحر إلى ساحل دمشق،] وبقي الأكثرون من هذه الكنيسة إلى هذا الوقت.

وقد كان لملك من ملوك الروم [مع اليهود] بأنطاكية خبر عجيب في كنيسة أشمونيت وكانت خارج السور من أنطاكية، وهي في أيدي اليهود، فعوضت اليهود دار الملك بأنطاكية [بدلًا من كنيسة أشمونيت، وهذه الدار التي كانت دار الملك] وتعرف في هذا الوقت بدار اليهود، ولليهود حيلة احتالوها حين خرجت الكنيسة من أيديهم حتى قتلوا من النصرانية خلقاً عظيماً من نشر خشب فيها وغير ذلك.

وقدمنا أخبار بطرس وبولس وما كان من أمرهما بمدينة رومية وغيرهما من تلاميذ المسيح وتفرقهم في البلاد، وذكرنا قصة الملك الذي بنى مدينة أنطاكية، وهو المعروف بأنطيخش، وتفسير ذلك محظوظ الحوائط، وكان اسم أنطاكية بالرومية على اسمه أنطيخش، فلما ورد المسلمين وافتتحوها حذفت الأحرف إلا الألف والنون والطاء.

وفي تاريخ النصارى الملكية وغيرها من أهل دين النصرانية يكون لمولد المسيح إلى وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - تسعمائة سنة وأربعون سنة، وتكون سنتو الإسكندر ألفاً ومائتين وخمساً وثمانين، ويكون من الإسكندر إلى المسيح ثلاثة مائة سنة وتسعة وستون.

هذا ما وجد[ت] في تاريخ الملكية في كنيسة القسيان بمدينة أنطاكية، وسنذكر بعد هذا الموضع جملًاً من التاريخ في باب نفرده لذلك، إن شاء الله تعالى.

عود إلى الشهور وأيامها

فلنرجع الآن إلى وصف حساب الشهور: شباط ثمانية وعشرون يوماً وربع ثلاث سنين متالية، والرابعة كبيسة فيكون تسعاً وعشرين يوماً، وتكون السنة ثلاثة وستة وستين يوماً، ولسبعة منه تسقط الجمرة الأولى، وهي الجبهة والأربع عشرة منه تسقط الجمرة الثانية، وهي [الزبرة، والإحدى وعشرين منه تسقط الجمرة الثالثة، وهي] الصرفة، وينصرف البرد، وثلاثة أيام من آخره أيام العجوز، وأذار أحد وثلاثون يوماً، والأربعة من أوله تتم أيام العجوز، والعرب تسمى هذه السبعة الأيام: صيّا، وصيّرا، ووزيراً، وأمراً، ومؤتمراً، ومعللاً، ومطفىء الجمر.

أيام العجوز

قال بعض العرب في أسماء أيام العجوز:

كسع الشتاء يسبعة غُبْرِ صِنْ وصَبَرِ وبالوبر
وبآمر وأخيه مُؤتمر ومعل، وبمطفيء الجمرا
فإذا انقضت أيام شَوَّئنا أيام صادرة عن القر
كسع الشتاء مُولِيًّا هرباً وأنتك واقدة من الحر
ولخمس عشرة من آذار يستوي الليل والنهار، وتحل الشمس الحمل، وهذا اليوم
تحويل سنة العالم، قال أبو نواس:

أما ترى الشمس حلَّتِ الحملا
وطاب وزُنُّ الزمان واعتدلَ
واستوفت الخمر حولها كَمَلاً
وغثَّتِ الطير بعد عجمتها
واكتست الأرض من زخارفها
فأشرب على جدَّةِ الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلاً
وليس بحلول الشمس الحمل تستوفي الخمر سنة، وإنما أراد بحلولها قربها من
الحول والقوة.

شهور الروم

قال المسعودي : وأما شهور الروم فهي موافقة لشهور السريانيين في العدد وذلك أن أول شهور الروم يواريوس، وهو كانون الثاني، وقد قدمنا أن في أول يوم منه يكون القنيلدس، وشباط فبراريوس، وأذار مارتيوس، ونيسان إبريليس، وأيار مايوس، وحزيران يونيو، وتموز يوليوس، وآب أغسطوس، وأيلول سبتمبر، وتشرين الأول أكتوبر، وتشرين الثاني نوفمبر، وكانون الأول ديسمبر.

ذكر شهور الفرس

أسماء الشهور وعدة أيامها

شهور الفرس كلها ثلاثة وثلاثون يوماً، فأولها فروردینماه، وأول يوم منه النیروز، وبينه وبين المهرجان مائة وأربعة وسبعون يوماً، والثاني أردیبهشت ماه، وخردادماه، وتیرماه، وتیمروز عید المهرجان، ومردادماه، وشهریرماه، ومهرماه، ويوم السادس عشر منه المهرجان، وأبنا نماه فيه أبان روز عید أبان کاه، وفي آخره خمسة أيام: الفرودجان، وأذرماه، وأول يوم منه يخرج الكوسج فيه راكباً بغاله بالعراق وأرض فارس، ولا يعرف ما وصفنا إلا بالعراق وأرض العجم، وأهل الشام والجزيرة ومصر والیمن لا يعرفون ذلك، ويطعم مدة من الأيام الجوز والثوم واللحم السمين، وما عدا ذلك من الأطعمة الحارة والأشربة المسخنة الدافعة للبرد، فيظهر طارداً للبرد، فيصب عليه الماء البارد؛ فلا يجد لذلك شيئاً من ألمه، ويصبح بالفارسية كرما، [يعني الحر الحر،] وهذا وقت عید الأعاجم: يطربون فيه، ويظهرون السرور، وكذلك في أوقات كثيرة من فصول السنة ودوران الأذرخش، ودینماه، وبهمناه، وإسفندار مزماده؛ فذلك ثلاثة وثمانين وخمسة وستون يوماً، والله أعلم.

ذكر أيام الفُرس

أسماء الأيام

وهي هرمز وبهمن وأردبیهشت وشهریر وإسفندارمز وخرداد ومرداد ودیبادر وآذر وأبان وخرورمه وتیر وجوش ودیر ومهر ودمل وأسروش وفروردين وبهرام، وفيه يقول الشاعر:

باکر بنا لذة المُدام في يوم سَبْتٍ ويوم رام
شريطتي فيه أن ترانی وفتضحي فاتر الكلام
وباد ودیادین وآذر وأشتاد وأسمان وداماد ومار وسفند وأنیران.
فاما أيامهم المعروفة بالفرووجان فهي أهندکاه أسمیهاه مشرکاه کاساه.
وكانت العرب تسمی هذه الأيام الخمسة: الهریر، والهییر، و قالب الفهر، و حافل
الضرع، ومدرج البعر.

كبس الفرس

وكانت الفرس تكبس في كل مائة وعشرين سنة شهراً، وإنما أخروا ذلك إلى مائة وعشرين سنة، لأن أيامهم كانت سعدواً ونحوها - فكرهوا أن يكسروا في كل أربع سنين يوماً، فتنتقل بذلك أيام السعود إلى أيام التحوس، ولا يكون النیروز أول يوم من الشهر، والله تعالى أعلم.

ذكر سنى العرب وشهرها وتسمية أيامها ولبياليها

أسماء الشهور

شهور الأهلة: أولها المحرم، وأيامها ثلاثة وأربعة وخمسون يوماً، تنقص عن السرياني أحد عشر يوماً وربع يوم فتفرق في كل ثلات وثلاثين سنة؛ فتنسلخ تلك السنة العربية، ولا يكون فيها نيروز.

أيماء إلى النسيء

وقد كانت العرب في الجاهلية تكتب في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء [وهو التأخير] وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله: «إِنَّمَا الْسَّيِّئَةُ زِيَادَةُ فِي الْكُثُرِ» [التوبه: ٣٧] ورسمت العرب الشهور فبدأت بالمحرم؛ لأنها أول السنة، وإنما سمته المحرم لتحريرها الحرب والغارات فيه، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية، وكانوا يمتازون منها، ومن تخلف عنها هلك جوعاً، وقال نابغة ذبيان:

إني نهيت ببني ذبيان عن أفق وعن ترفةهم في كل أسفار

وقيل: إنما سمي الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم إلى الحرب، وهو مأخوذ من قولهم: صَفَرَتِ الدَّارُ مِنْهُمْ، إذا خلت، وربيع، وربيع؛ لارتفاع الناس والدواب فيهما، فإن قيل: قد توجد الدواب تربيع في غير هذا الوقت، قيل: قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه، وجمادي؛ وجمادي؛ لجمود الماء فيهما في الزمان الذي سميت به هذه الشهور؛ لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك، ورجب؛ لخوفهم إياه، يقال: رَجَبُ الشَّيْءِ، إذا حفته، وأنشد:

فَلَا تَهَيَّبْنَاهَا وَلَا تَرْجِبْنَاهَا

وشعبان؛ لتشعبهم إلى مياههم وطلب الغارات، ورمضان؛ لشدة حر الرّمضان فيه

ذلك الوقت، والوجه الآخر أنه اسم من أسماء الله تعالى ذكره، ولا يجوز أن يقال رمضان، وإنما يقال: شهر رمضان، وشوال؛ لأن الإبل كانت تُشَوَّل في ذلك الوقت بأذنابها [من شَهْوَةِ الضَّرَاب]، تشاءمت به العرب، ولذلك كرهت التزويج فيه، وذو القعدة؛ لقعودهم فيه عن الحرب والغارات، وذو الحجة لأن الحج فيه.

الأشهر الحرم

والأشهر الحرم هي: المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

شهور الحج

وأشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، والأيام المعلمات العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق، والتعجيل باتفاق غير جائز إلا في اليوم الثالث من يوم النحر، فدل ذلك على أن أولها ثاني يوم النحر، ولو كان يوم النحر من المعدودات كان يوم التعجيل في ثلاثة أيام، وهذا خلاف القرآن؛ لإخبار الله تعالى أن التعجيل في يومين من المعدودات وإذا كانت المعدودات ما وصفنا صح أن المعلومات منها، والذبح في يوم النحر ذبح في المعلومات لكونه منها.

ولا تمانع بين العرب أن يقول القائل «أتيتك في الشهر»، والإيتان إنما كان في بعضه. و«جئتكم في اليوم» والمجيء في بعض أوقاته، ولا يُصَام يوم النحر، ولا يوم الفطر، ولا أيام مني، لفرضه ولا تطوع؛ لنهي النبي ﷺ عن ذلك؛ ولم يخص فرضاً من تطوع بالنهي، فالواجب الامتناع على وصفنا.

وقد ذكر عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ: «نهى عن صيام ثلاثة أيام التشريق» وفي جميع ما ذكرنا من المعلومات والمعدودات والصيام في أيام التشريق خلاف بين الناس، وأيام التشريق أولها ثاني النحر، وأخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة [إلى العصر].

تسمية أيام التشريق

قال المسعودي: وقد اختلفت الناس في علة [تسميتها] أيام التشريق، وهي أيام متى ولاليهها، فقالت طائفه: إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح [بمنى] ويشرّقون اللحم في الشمس، وقال آخرون: إنما سميت أيام التشريق لأن أهل مكة وغيرهم يتشرّقون من صفين إلى أوطانهم، وفيه قول آخر، وهو أنها إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يخرجون وغيرها كالمزدلفة إلى مصليات لهم في فضاء من الأرض

فيسمونها المشارق، واحدتها مشراق، يسبحون ويدعون، فسميت بذلك أيام التشريق، وفيه قول آخر، وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم، وهو التشريق، وقالوا: إن النبي ﷺ نهى عن الصبحية بالشرقية، يعني المشقوقة الأذنين بالطول، فهي أيام التشريق، وللناس في التشريق من أهل الآراء والتحل كلام كثير لا يحتمله كتابنا هذا وإنما ذكرنا ما أوردناه لتغفل الكلام بنا إليه واتصاله بما قدمناه، وإن كان كلاماً يلحق بالفقه.

الأيام النحسات

والأيام النحسات: كل أربعاء يوافق أربعاً من الشهر، مثل أربع خلون [وأربع عشرة خلت، وأربع عشرة بقيت] وأربع وعشرين، وأربع بقين.

أسماء الأيام عند العرب قديماً

وأما أسماء الأيام فأولها الأحد، وإنما سمي بذلك لأنه أول يوم خلقه الله من الزمان، وبذلك نطقت التوراة، وقد قدمتنا في صدر هذا الكتاب ما في الأيام من بدء الخلق، والاثنين، وسمى لأنه ثان، والثلاثاء، وسمى لأنه ثالث، والأربعاء لأنه رابع، والخميس لأنه خامس، والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه، والسبت لأن الخلق انقطع فيه [وخلق في آخره آدم:] وهو مأخوذ من قولهم: نعل سبتية، إذا كانت مقطوعة الشعر، ويقال: سبت شعره، إذا قطعه، وكانت العرب تسميه في الجاهلية: الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء جبار، والأربعاء دبار، والخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شيار [قال شاعرهم:

أومل أن أعيش وأن يومي بآول أو بآهون أو جبار
أو المردى دبار، فإن أفتته فمؤنس أو عروبة أو شيار]

أسماء الشهور عند العرب

وكانوا يسمون الشهور: المحرم ناتق، وصفر ثقيل، ثم طليق، ناجر، أسلخ أميج، أحلك، كسع، زاهر، برك، حرف، نعس، وهو ذو الحجة.

الأزمنة الأربع

وقد اختلف العرب في أسماء الأزمنة [الأربعة]: فرعمت طائفة منها أن أولها الوسمى، وهو الخريف، ثم الشتاء، ثم الصيف، ثم القيظ، ومنهم [من] يعد الأول من

فصول السنة الربع، وهو الأشهر والأعم، والعرب تقول: خَرَفْنَا في بلد كذا، وشَتَّنَا في بلد كذا، وتربيتنا في بلد كذا، وصِفْنَا في بلد كذا.

شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب

وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة [ولا على حساب سنة الشمس] بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربع وتارة في غيره من فصول السنة. وشهور الروم مرسومة على ما يوافق فصول السنة التي تقطع فيها الشمس بروج الفلك على آخرها، ومقادير أيام كل شهر منها ولاليه في الطول والقصر وظهور ما يظهر فيه من النجوم الثابتة للأبصار واستثار ما يستمر منها على ممر الدهور والستين وهياثنا عشر شهراً على حسب ما ذكرنا أن أولها تشرين إلى أيلول؛ فكل فصل من السنة أربعة شهور معلومة من هذه الاثني عشر شهراً غير حائلة ولا متقللة انتقال الشهور العربية، ولكل برج منها شهر، فأيلول وتشرين وسلطان السوداء، وكانون وكتافون وشباط سلطان البلغم، وأذار ونيسان وأيار سلطان الدم، وحزيران وتموز وأب سلطان الصفراء، فأيلول لبرج السبنلة وتشرين الأول لبرج الميزان، وتشرين الآخر لبرج العقرب، وكانون الأول برج القوس، وكانون الآخر برج الجدبي، وشباط برج الدلو، وأذار برج الحوت، ونيسان برج الحمل، وأيار برج الثور، وحزيران برج الجوزاء، وتموز برج السرطان، وأب برج الأسد.

قال المسعودي: وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملأً من الكلام في الطائفة وفصول السنة، وما يلائم ذلك من المأكل والمشارب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب، إن شاء الله تعالى، والله ولي التوفيق.

ذكر قول العرب في ليالي الشهور القمرية وغيرها

كانت العرب تخبر عن القمر في كل ليلة [من الشهور] على حسب ما هو به من الضياء، وغيره على طريق المسألة والجواب؛ فتقول: قيل للقمر: ما أنت ابن ليلة؟ قال: رضاع سخيلة، حل أهلها برميلة، قيل: فما أنت لليلتين؟ قال: حديث أمتين، ذواتي إفك ومين، قيل: فما أنت لثلاث؟ قال: حديث فتيات، يجتمعن من شتات وقيل: قليل الثبات، قيل: فما أنت لأربع؟ قال: غنمة رتع، غير جائع ولا مرضع قيل: فما أنت لخمس؟ قال: حديث وأنس، قيل: فيما أنت لست؟ قال: سر وبت، قيل: فما أنت لسبع؟ قال: تصفر في الشفع، وقيل: دلجة الضبع قيل: فما أنت لثمان؟ قال: قمر أصبحان، وقيل: رغيف اقسمه أخوان، قيل: فما أنت لتسع؟ قال: تلقط في الجرع، قيل: فما أنت لعشر؟ قال: محق للفجر، قيل: فما أنت لإحدى عشرة؟ قال: أرى مساء وأرى بكرة، قيل: فما أنت لاثنتي عشرة؟ قال: موقف للسير في البدو والحضر، قيل: فما أنت لثلاث عشرة؟ قال: قمر باهر، يغشى عين الناظر، قيل: فما أنت لأربع عشرة؟ قال: مقتبل الشباب، أضيء بين السحاب، قيل: فما أنت لخمس عشرة؟ قال: تم التمام ونفذت الأيام، قيل: فما أنت لست عشرة؟ قال: ناقص الخلق، في الغرب والشرق، قيل: فما أنت لسبع عشرة؟ قال: ناقص الخلق، في الغرب والشرق، قيل: فما أنت لسبعين عشراً؟ قال: ركب الفقير الفقر، قيل: فما أنت لثمان عشرة؟ قال: قليل البقاء، سريع الفناء، قيل: فما أنت لتسع عشرة؟ قال: بطيء الطلوع، من الخشوع، قيل: فما أنت لعشرين؟ قال: أطلع سحرة، وأرى بكرة، قيل: فما أنت لإحدى وعشرين؟ قال: لا أطيل السرى، إلا ريشما أرى، قيل: فما أنت لاثنتين وعشرين؟ قال: مسع خطب، وليث حرب، قيل: فما أنت لثلاث وعشرين؟ قال: كالقبس، أطلع في الغلس، قيل: فما أنت ولأربع وعشرين؟ قال: أطلع في قسمة، ولا أجلي ظلمة، قيل: فما أنت لخمس وعشرين؟ قال: أنا في تلك الليل، لا قمر ولا هلال، قيل: فما أنت لست وعشرين؟ قال: دنا الأجل، وانقطع الأمل، قيل: فما أنت لسبعين وعشرين؟ قال: دنا ما دنا، فليس في من ستاً، قيل: فما أنت لثمان وعشرين؟ قال: أطلع بكرأ، ولا أرى ظهراً قيل: فما

أنت لتسع وعشرين؟ قال: أسبق شعاع الشمس، ولا أطيل الجلس، قيل فما أنت لثلاثين؟ قال: هلال مستقبل سريع الأفل.

تقسيم الليالي ثلاثةً وثلاثةً واسم كل ثلاثة

وكانت العرب تسعى الثلاث الأولى من ليالي الشهر، فتقول: ثلاثة غرر، والثلاث التي تليها ثلاثة سَمَر، والثلاث التي تليها ثلاثة زهر، والثلاث التي تليها ثلاثة درر، والثلاث التي تليها ثلاثة قمر، وثلاث بيض، وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول: ثلاثة درع، وفي الثلاث التي تليها ثلاثة ظلم، وفي الثلاث التي تليها ثلاثة جناديس، وفي الثلاث التي تليها ثلاثة دواري، وفي الثلاث التي تليها ثلاثة محقق، وقيل في وجه آخر من الروايات: إنه يقال لليالي الشهر: ثلاثة هلل، وثلاث قمر، وست نقل [وثلاث بيض،] وثلاث درع، وثلاث بهم، وست حناديس، وليلتان داريتان، وليلة محقق.

أسماء الهلال والليالي

قال المسعودي: فأما ما ذهب إليه العرب في تسمية القمر فإنها تسميه في ليلة طلوعه هلالاً، وما لم يستدر فهو هلال، ثم تسميه قمراً إذا ما استدار، وإذا ما حجر وأضاء فهو قمير، قال شاعرهم:

وقمير بَدَا ابن خمس وعشرين ن له قالت الفتايات قوما
ثم يستوي لثلاث عشرة منه، وهي ليلة السواء، ثم ليلة البدر لأربع عشرة، ويقال:
غلام بدر، إذا امتلأ شباباً قبل أن يحتمل، ويقال: عين حدرة بدرة، إذا كانت حديدة كعين
الفرس، والليالي البيض ليلة ثلاثة عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، والليالي الْدُّنْعَ هي
التي تسوؤ صدورها وتبيض سائرها، والمتحقق إذا ما طلعت عليه الشمس، والسود حين
يستتر فيكون خلف الشمس، ويقال: قد حجر القمر، إذا استدار بخط رقيق من غير أن
يغلوظ، ويقال: أفقق [القمر] إذا أصابته فرجة من السحاب فخرج [وأفقق علينا فأبصربنا
الطريق]، وكل سواد من الليل جنديس، والليالي الرُّزْهُرُ الليالي البيض [والزهرة:
البياض]، والله الموفق للصواب.

ذكر القول في تأثير النترين في هذا العالم
وجمل مما قيل في ذلك
وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

[قال المسعودي :] ذهب الحكماء جميعاً من اليونانيين وغيرهم إلى أن أفعال القمر في الجوادر التي قلنا عظيمة، إلا أنها أقصر من أفعال الشمس، وهو الثاني بعدها، وذلك أن الشهور به تكون، وعلى حسب حركته يجري أمرها، وأفعاله ترى أعظم وألين في حيوان البحر خاصة، وهو ينمي النبات وغيره، ويعظم البحار، ويسمن الحيوان، ويلزم النساء الطمث أرماناً محدودة.

تصور الجنين في الرحم

قال المسعودي رحمة الله : وقد تنازع الناس في كيفية تصوّر الجنين في الرحم .
فذهب إلى قوم من أهل الْقَدْمِ إلى أن في المني قوة تصوّر الجنين إما منه ، وإما من دم الطمث .

وذهب قوم إلى أن في الرحم قالباً يتصور فيه الجنين ، وقد ذكر جالينوس في كتابه عن بقراط أن مقام المني مقام الفاعل والمفعول في تصوّر الجنين .

وقال صاحب المنطق : إن ذلك بمنزلة الفاعل ، وإن الجنين يتصور في دم الطمث من المني ، قال : والمني يعطي الدم مثل الحركة ، ثم يستحيل ريشاً فيخرج من الرحم ، وزعم جالينوس أن الجنين يكون من المني ، وقد يجذب إليه الدم الذي هو الطمث ، والروح من العروق والشريانات فيكون من المني ، ومن ذلك الدم الذي يجذبه ، ومن الريح الذي تصير إليه من الشريانات . قال : وكون الجنين بمنزلة كون النبات ، والطبيعة تصوّره من المني والدم ، وتُفعّل الطبيعة في الجنين ما تفعله في النبات .

لأن بذر النبات يحتاج إلى أرض لينال منها ما يغتنى به ، فالجنين إلى الرحم ، والنبات يرسل عروقه من الأصول ليجذب بها [من الأرض غذاءه ، وللجنين في المشيمة شريانات ، والعروق نظير لذلك] وهي أصول الجنين ، وبذر النبات ينبع منه سوق ، ومن

السوق أغصان كبار، ثم من هذه الأغصان أغصان أخرى تتفرع أولاً حتى تنتهي إلى الأفاسي، ونظير ذلك يوجد في الجنين؛ فتجد السوق في بدئه ثلاثة من كل واحد من الأغصان الأصول وهي: الشريان الأعظم، والعرق الأجوف، والنخاع، ثم تجد كل واحد من هذه تشعب منه شعب كالاغصان الم分成ة إلى أغصان آخر حتى ينتهي إلى الأطراف، ثم قال بعد ذلك: إن المني هو المحرك لنفسه، وإن الجنين يكون من الرجل والمرأة ودم الطمث.

وحكى جالينوس عن أبديقلس أن أجزاء الولد منقسمة في مني الذكر والأณى وأن شهوة الجماع تسوق هذه الأجزاء إلى الالتمام، وهذا موجود في كتاب أبديقلس الكبير وفيما ذكره من مذهبة في كيفية تركيب العالم واتصال النفس بعالمها وغير ذلك.

وقد ذهب قوم من أهل القدم إلى أن ذلك هو أجزاء تخرج من أعضاء الإنسان لطيفة من جنس سائر أعضاء الإنسان، فتنصب في الرحم، فيتغذى منه وينمو، فيكون من ذلك الجنين.

يشبه الولد أباه وأهل بيته أبيه

ومنهم من رأى أن هذه الأجزاء الواردة من سائر أعضاء الذكر تقاربها مواد من الرحم ومن ماء المرأة عند اجتماعهما فيكون الجنين من ذلك؛ فمن ذلك صار الولد يشبه أباه في الأغلب من سائر الأعضاء ويشاكله وأهل بيته أبيه، ولهذا وقع الشبه بين البنين والآباء في الأغلب من تشابه الأعضاء، ومن هنا أدركت القافية إلحاق النسب عند الشبه والشك في النسب، وذلك على قول من رأى إلحاق النسب بالقيافة من الفقهاء، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى فيما سلف من هذا الكتاب في باب القيافة.

وللناس في كيفية تصور الجنين في الرحم وما بدؤه وما عنصره وكيفية تقلبه من النطفة إلى العلقة إلى المضعة إلى استكمال شكله كلام كثير: منهم أصحاب الاثنين وغيرهم من تقدم وتأخر، أعرضنا عن ذكر ذلك؛ إذ كان فيه خروج عما إليه قصدنا في هذا الباب.

قال المسعودي رحمة الله: والذي يقضي على سائر ما تقدم وصفه وينقطع علم العقول عنده، وهو ما أخبر به الباري عز وجل في كتابه بقوله: «**هُوَ الَّذِي يَسْوِرُ كُلَّمَا** **إِلَّا** **مَا** **كَانَ** **لِلْحَكِيمِ**» [عمran: ٦] ولم يخبر عن كيفية [وقوع] ذلك وما سبب مواده، بل استؤثر [بعلمه، وأبدى] الدلالة بظهور حكمته [دالة على توحيده وإنقاذه لما أظهر لعباده من حكمته] ثم أخبر عن المبدأ الذي خلقهم منه فقال:

﴿يَتَأْيَاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَأَهُمْ﴾ [الحج: ١٣] وقال عز وجل: «يَتَأْيَاهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِئَذْبَانِكُمْ وَقُرَرُ فِي الْأَرْجَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ شَسَعٍ لَمْ يُخْرِجُكُمْ طَفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَادَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرْدَى إِلَى أَرْذِلِ الْعُمُرِ» [الحج: ٥].

الاختلاف في تأثير النيرين

قال المسعودي: وللناس ممن سلف من الأوائل وخلف من الشرعين كلام كثير في كيفية أفعال النيرين وتأثيرهما في هذا العالم، وما قالوه في ذلك، وما خصوا به كل واحد منها وأفراده، وما ذهبوا إليه من فعل الثاني منها وهو القمر وما يظهر من تأثيره في الجزر والمد في بحر الصين [والهند] والجيش واليمين على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب، وكذلك فعله في المعادن وأدمغة الحيوان [والبيض] وسائل النبات، وما يظهر من الزيادات فيه عند امتلاكه، والنقص عند نقصانه، وما يكون من بحرانات المرض في اليوم السابع من العلة، والرابع عشر والحادي والعشرين [والثامن والعشرين] لأن للقمر أربعة أشكال هي أثبت صورة، فيه شكل التنصيف، وشكل التمام، وشكل التنصيف عن التمام، وشكل المحاق، ولكل شكل من هذه سبعة أيام؛ لأنه في سبع ليالي يتتصف، وفي الرابعة عشرة يتم، وفي الحادية والعشرين يتنصف، وفي الثامنة والعشرين ينمحق، فكذلك البحranات، وعند هذه الطائفة يصح في السابع والرابع عشر والحادي والعشرين [والثامن والعشرين] ويصح أيضاً في تنصيفات هذه؛ إذ كانت هذه الأشكال أثبت أشكال الشيء المنقسم، وقد خالف هؤلاء خلق [كثير] من ذهب إلى غير هذا القول، وأن ذلك من قبل الأخلاط، وغير ذلك من الطبائع الأربع، وغيرها مما قد أتينا على إيضاحه في كتابنا المترجم بكتاب «الزلف» وفي كتاب «المبادئ والتراث» وغير ذلك في كيفية تأثير الشمس والقمر.

كروية السماء والأرض

وأما الدليل على أن السماء على مثال الكرة وتدويرها بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة، وأن الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة، وأن كرة الأرض مثبتة في وسط السماء كالمراكز، وقدرها عند قدر السماء قدر النقطة في الدائرة صغيراً، ووصف الربع المسكنون من الأرض، وما يعرض فيه من دور الفلك، واختلاف الليل والنهار [ووصف خواص هذا الربع المسكنون من الأرض] ووصف المواقع التي تطلع الشمس فيها شهوراً لا تغرب، وتغرب شهوراً لا تطلع، فقد أتينا على وصف جميع

ذلك، وما اتضح عليه وانتصب من البراهين، وما قاله الناس في ذلك في كتابنا المترجم بكتاب «أخبار الزمان» وما أوضحتنا فيه من هيئة الأفلاك والكواكب، وأن الأرض مع ما وصفنا تدويرها موضوعة في جوف الفلك كالمُحَمَّة في البيضة، والنسيم جاذب أيضاً لما في أجdan الخلق من الخفة، والأرض جاذبة لما في أجدانهم من الثقل؛ إذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب بطشه الحديد، وأن الأرض مقسمة نصفين، وبينهما خط الاستواء، وهو [بين] المشرق إلى المغرب [وهذا عندهم هو طول الأرض؛ لأنَّه أكبر خط في كره الأرض] كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك، وعرض الأرض من القطب الجنوبي [إلى القطب الشمالي] الذي تدور حوله بناة نعش، وأن استداررة الأرض في خط الاستواء ست وثلاثون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع اثنان وأربعون أصبعاً، والأصبع ست جبات [وتسعإن] مصفوفة بعضها إلى بعض، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ.

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الأرض والبحار ومبادئ الأنهر مقدار الميل والذراع الأسود، وإنما ذكر في كل موضع من هذا الكتاب ما يسع لنا ونجد له في كتب الناس؛ فتنقل ذلك عنهم على ما وجدناه في كتبهم، لا أنا نقطع على صحته؛ إذ كان ما يذهب إليه في مقدار الميل من الأذرع، والذراع من الأصبع، هو ما بيناه آنفاً في باب ذكر الأرض والبحار.

وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة، واستدارتها عرضاً مثل ذلك، وزعم هؤلاء أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة، وأنباقي قد عمه البحر الكبير، وأن الخلق على الريع الشمالي من الأرض، والريع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه، والنصف الباقي من الأرض لا ساكن فيه، وكل ربع من الشمال والجنوب سبعة أقاليم، وقد ذكرناها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الأرض والأقاليم السبعة، وأن عدد المدن عند صاحب كتاب الجغرافيا أربعة آلاف مدينة ومائتا مدينة، فاما قبلة [أهل] المشرق والمغرب والتين والجنوبي، فقد ذكرنا جملأً من ذلك في كتابنا «أخبار الزمان».

وقد حرر ذلك في كتابه أبو حنيفة الدِّينوري، وقد سلب ذلك ابن قتيبة ونقله إلى كتبه نقاً، وجعله عن نفسه، وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبي حنيفة الدينوري. هذا، وكان أبو حنيفة هذا ذا محل من العلم كبير، ولبطليموس في كتاب الماجسطي، وغيره من تقدم ثم لمن طرأ بعد ظهور الإسلام - مثل الكندي، وابن المنجم، وأحمد بن الطيب، وما شاء الله، وأبي معشر، والخوارزمي، ومحمد بن كثير الفرغاني، فيما ذكره

في كتابه الفصول الثلاثين، وثابت بن قرءة، والبريزي، ومحمد بن جابر البشّاني، وغير هؤلاء من قد عني بعلوم الهيئة - علوم كثيرة في هذا المعنى، وإنما نقل من ذلك إلى هذا الكتاب لمعاً؛ طلباً للاختصار والإيجاز، وبالله التوفيق.

ذكر أرباع العالم، والطبائع وما خص به كل جزء منه
من الشرق والغرب والتيمن والجنوبي والأجوبة، وغير ذلك
من سلطان الكواكب وما لحق بهذا الباب (واتصل بهذا المعنى)

الطبائع الأربع

قال المسعودي : فأما الطبائع الأربع : الأرض ، فالنار حارة يابسة [وهي الطبيعة الأولى] والطبيعة الثانية : باردة رطبة ، وهي الماء ، والطبيعة الثالثة : الهواء ، وهو حار رطب ، والطبيعة الرابعة : وهي باردة يابسة ، فاثنتان [منها] تذهبان الصُّدَعَاء ، وهما : النار والهواء ، وأثنتان ترسخان سُفلاً ، وهما : الأرض ، والماء والعالم أربعة أجزاء ؛ فالشرق الرابع الأول ، وجميع ما فيه حار رطب [مثل] الهواء والدم ، وهذا الرابع ريحه الجنوب ، ومن المذاقات حظه الحلاوة ، وله من الكواكب : القمر ، والزهرة ، وله من البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء . وللحكماء [في هذا] خطب طويل في وصف هذه الأربع منها جمل فيما مضى وما يأتي . والمغرب : وهو الرابع الثاني ، وجميع ما فيه بارد رطب [مثل] الماء والبلغم ، والشتاء ، ورياحه : الدُّبُورُ ، وله من الساعات العاشرة والعادية عشرة والثانية عشرة ، وله من المذاقات : المالح ، وما شابه ذلك ، وله من القوى : القوة الدافعة ، وله من الكواكب : المشتري ، وعطارد ، ومن البروج : الجدي ، والدلو ، والحوت . والجزء الثالث : التيمن ، وجميع ما فيه حار يابس [مثل] المرأة الصفراء . والصيف ، ورياحه : الصباً ، وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار . وله من قوى البدن القوة النفسانية والحيوانية ، وله من المذاقات : المرارة ، وله من الكواكب : المريخ ، والشمس ، ومن البروج : السرطان ، والسبنبلة ، والميزان ، والجزء الرابع هو الجنوبي ، وجميع ما فيه بارد يابس ، مثل الأرض [والمرة السوداء ، والخريف] ورياحه الشمال وله من الساعات : السابعة والثامنة والتاسعة ، وله من قوى البدن القوة الماسكة ، ومن [الطعم] والمذاقات : العُفُضُ ، وله من الكواكب : زُحل ، وله من البروج : الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والأرض بعد ما وصفناه [تتهاياً] في الهيئة ، وتختلف في التأثير على مقدار الخطوط ، فإذا بعد الخط كان التأثير بخلاف ما هو إذا قرب ؛ لموجبات متنافية متغيرة ، وأفضل الموضع

من المسكون ما تطرح الشمس ضوء شعاعها إليه، وإلى الإقليم الرابع يتنهى عند هذه الطائفة شعاعها في صفوه وارتفاع كدره؛ لأن شعاع الشمس يهبط متساوياً إلى هذا الموضع وهو العراق.

علة عدم سكن بعض الأرض

قال المسعودي : والمواقع التي لا تسكن عند هذه الطائفة عدمت السكناً لعلتين : إحداهما إفراط الحر وإحراق الشمس وكثرة توادر شعاعها على تلك الأرضين [حتى قد] جعلتها كلسية وأغاضت مياهها لكثره التتشيف ، والعلة الأخرى بُعد الشمس عن الإقليم ، وارتفاعها عن حوزاته ، فاكتفت تلك الأرضين البرد ، واستولى عليها القر والجند ، فزاد إفراط البرد في الجو حتى أزال حسن الاعتدال ورفع فضيلة النشف ، فلم تلبث الحرارة في الأجسام ، ولم تظهر الرطوبة في إنماء الحيوان هنالك ؛ فصارت تلك البلاد قاعاً صفصفاً من الحيوان والنبات ، وهذه البلدان التي تراها مفرطة الحرارة والبرودة هي تناسب ما ذكرنا من هذه الديار البلاع .

ولهذه الطائفة كلام كثير في فناء العالم ونقشه وعوده جديداً ، وذكروا أن السلطان في هذا الوقت السبلة [وهو سبعة آلاف سنة ، وذلك عمر هذا العالم البشري ، وقد ساعدَ السبلة] المشتري في التدبير ، وأن نهاية العالم في كثرة قطع الكواكب المدبر المسافة التامة بالقوى ، فإذا استكمل قطع المسافة التي ذكروها [في الفلك] فهناك يقع النفاد ويكون الدور بالعالم ، والكواكب إذا كملت ما لها من كرّ ودور وعاد التدبير إلى الأول منها ، وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التي كانت له في حال حركة تأثير الكوكب الذي كان التدبير إليه ، وهكذا عند هؤلاء يجري شأن العالم سرداً .

مدة سلطان الكوكب

وزعموا أن سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة [وسلطان الثور إحدى عشرة ألف سنة ، وسلطان الجوزاء عشرة آلاف سنة ، وسلطان السرطان تسعة آلاف سنة ، وسلطان الأسد ثمانية آلاف سنة ، وسلطان السبلة سبعة آلاف سنة وسلطان الميزان ستة آلاف سنة] وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة وسلطان القوس أربعة آلاف سنة وسلطان الجدي ثلاثة آلاف سنة ، وسلطان الدلو ألفاً سنة [وسلطان الحوت ألف سنة ، فجميع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة] وعند ذلك هو انقضاء العالم ونقض ما فيه ورجوعه إلى كونه .

وتكلم هؤلاء في الجن الذين كانوا في الأرض قبل خلق [الله] آدم واستخلافه في الأرض ، وأن المتولى لهم كوكب من الكواكب النارية .

وتكلم كلا الفريقين في أوج الشمس عند انفصالها إلى البروج الجنوبية وما يحدث في العالم في كون الشمال جنوباً والجنوب شمالاً وتحول العامر غامراً والعامر عامراً، على حسب ما ذكرنا في كتابنا المترجم بكتاب «الزلف».

أجناس الأجسام

وقد ذهب [غير] هؤلاء ممن تقدم من الأولئ [إلى] أن التي وجد بها سائر الموجودات كالأول والثواني والثالث على قدر مراتبها [في العقل] النفس والصورة والهيلولى، وأنها المبادئ على حسب ما رتبناه وقدمناه في كتاب «الزلف» فما عدا ما وصفنا فهي الأجسام، وأجناسها ستة: الجسم السماوى [والجسم الأرضي] والحيوان الناطق، والحيوان غير الناطق، والنبات، والأجسام الحجرية وهي المعدنية، والاستقصات الأربع وهي النار والهواء والماء والأرض.

وتكلم هؤلاء فيما يخص كل واحد مما ذكرنا مما لا يحتمله كتابنا هذا؛ إذ كان فيه خروج عن الغرض الميمم فيه، وقد أتينا على بسط ذلك في كتاب «الرؤوس السبعية»، في باب السياسة المدنية، وعدد أجزائها وعللها الطبيعية» وهل ملك تلك المدينة جزء من أجزائها أو من غيرها؟ وإليه نهاية أجزائها على حسب ما ذكره فرفوريوس في كتابه في وصف منازعة أفلاطون وأرسطاطاليس في ذلك.

فأما علة كون الشتاء بأرض الهند في الحالة التي يكون الصيف بها عندنا، والحالة التي يكون فيها عندنا الشتاء يكون الصيف عندهم فقد ذكرنا علة ذلك ووجه البرهان عليه، وأن ذلك للشمس في قربها وبعدها، وكذلك علة تكون السودان في بعض البقاع من الأرض دون بعض [وتفلغل شعورهم، وغير ذلك من مشهور أوصافهم، وعلة تكون البيضان في بعض البقاع دون بعض] وتفترأ ألوان الصقالبة وشقرتهم وصهوة شعورهم، وما لحق الترك من استرخاء مفاصيلهم وتتعوج أساقفهم ولين عظامهم حتى إن أحدهم ليرمي بالنشاب من خلف كرميه من قدام فيصير وجهه قفاه ووجهه؛ ومطاوعة فقارات الظهور لهم على ذلك، وكون الحمرة في وجوههم عند تكامل الحرارة في الوجه على الأغلب من كونها وارتفاعها؛ لغلبة البرد على أجسامهم، وقد أتينا بحمد الله على شرح ذلك؛ وما انتظم من الدلائل الدالة على مصداق ما ذكرنا فيما سلف من كتابنا في هذه المعاني المقدم ذكرها. ولم ن تعرض لذكر ما لم يصح عندنا في العالم وجوده حسأ ولا خبراً قاطعاً للعذر ولا دافعاً للريب ومزيلاً للشك كأخبار العامة في كون الننسناس، وأن وجوههم على نصف وجوه الناس، وأنهم ذوو أنبياء، وقولهم في عنقاء المغرب. وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس: ناس، ونسناس، ونسانس وهذا

محال من القول؛ لأن النسناس إنما وقع هذا الاسم على السفلة من الناس والرذال وقد قال الحسن: ذهب الناس وبقي النسناس، وقال الشاعر:

ذهب الناس فاستقلوا، وصرنا خلفاً في أراذل النسناس
أراد به ما وصفنا: أي ذهب الناس وبقي مَنْ لا خير فيه.

الجن وأنواعها

وقد ذهب كثير من الناس إلى أن الجن نوعان: أعلاهم وأشدhem الجن، [وأخفضهم] وأضعفهم الجن، وأنشد الراجز:

مختلف ئجرُهُمْ جِنٌ وَجِنٌ

وهذا التفصيل بين الجنسين من الجن لم يرد به خبر، ولا صح به أثر، وإنما ذلك من توهם الأعراب على حسب ما بيناه آنفاً.

النسناس

وقد غالب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في العالم كالإخبار عن وجود [هـ في] الصين وغيرها من الممالك النائية والأمصار القاصية ببعضهم يخبر عن وجودهم في المشرق، وبعضهم في المغرب، فأهل المشرق يذكرون كونها بال المغرب، وأهل المغرب يذكرون أنها بالشرق، وكذلك كل صقع من البلاد يشير سكانه إلى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونائي من الديار.

وقدر رروا في ذلك خبراً مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك في بلاد حضرموت من [أرض] **الشّخّر**، وهو ما ذكره عبد الله بن [سعيد بن] كثير بن عفیر المصري، عن أبيه عن يعقوب بن الحارث بن نجيم، عن شبيب بن شيبة بن الحارث التميمي، قال: قدمت **الشّخّر** فنزلت على رأسها، فنذاكرنا النسناس، فقال: صيدوا لنا منها، فلما أن رجعت إليه [مع بعض أعوانه المهربيين] إذ أنا بنسناس منها، فقال لي النسناس: أنا بالله وبك، فقلت لهم: خلوه، فخلوه، فلما حضر الغداء قال: هل اصطدمتم منها شيئاً؟ قالوا: نعم، ولكن خلاه ضيفك، قال: استعدوا فإنما خارجون في قتنه، فلما خرجنا إلى ذلك في السحر خرج منها واحد يدعوه وجهه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه، ومثل الثدي في صدره، ومثل رجلي الإنسان رجاله، وقد ألطأ به كلبان، وهو يقول:

الويل لي مما به دهاني دهري من الهموم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان واستمعا قولي وصدقاني

إنكما حين تحارياني
ألفيتمانى حضرا عناني
لولا سباتي ما ملكتمانى
حتى تموتا أو تفارقانى
لست بخوار ولا جبان
ولا بنكس رعش الجنان
لكن قضاء الملك الرحمن يذل ذا القوة والسلطان

قال: فالتقى به فأخذاه، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نساناً، فقال قائل منها: سبحان الله، ما أشد حمرة دمه! فذبحوه أيضاً، فقال ننسناس آخر من شجرة: كان يأكل السماق، قال: فقالوا ننسناس آخر خذوه، فأخذوه وذبحوه، فقالوا: لو سكت هذا لم يعلم بمكانه، فقال ننسناس من شجرة أخرى: أنا صمت [قالوا: ننسناس، خذوه] فأخذوه [فذبحوه] فقال ننسناس من شجرة أخرى: يا لسان احفظ رأسك، فقالوا: ننسناس خذوه، فأخذوه، وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها [في بلادها] وتأكلها.

قال المسعودي: ووُجِدَتْ أَهْلُ الشَّحْرِ مِنْ بَلَادِ حَضْرَمَوْتِ وَسَاحِلِهَا - وَهِيَ الْأَحْسَاءُ مَدِينَةٌ عَلَى الشَّاطِئِ مِنْ أَرْضِ الْأَحْقَافِ، وَهِيَ أَرْضُ الرَّمْلِ وَغَيْرِهَا مَا اتَّصَلَ بِهَذِهِ الدِّيَارِ مِنْ أَرْضِ الْيَمْنِ وَغَيْرِهَا مِنْ عَمَانِ وَأَرْضِ الْمَهْرَةِ - يَسْتَطِرُفُونَ أَخْبَارَ النَّسَنَاسِ إِذَا مَا حَدَثُوهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ وَصْفِهِ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَعْصِي بَقَاعَ الْأَرْضِ مَا قَدْ نَأَى عَنْهُمْ وَبَعْدَ، كَسْمَاعُ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَادِ بِذَلِكِ عَنْهُمْ، وَهَذَا يَدْلِي عَلَى عَدْمِ كُونِهِ فِي الْعَالَمِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ هَوَسِ الْعَامَةِ وَاحْتِلَاطِهَا، كَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي خَبْرِ عَنْقَاءِ مُغْرِبٍ وَهَذَا يَدْلِي عَلَى عَدْمِ كُونِهِ فِي الْعَالَمِ وَرَوَوْهَا فِيهِ حَدِيثًا عَزَّزَهُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَنَحْنُ لَمْ نَحْلِ وَجْدَ النَّسَنَاسِ وَالْعَنْقَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكِ مَا اتَّصَلَ بِهِ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْحَيْوَانِ الْغَرِيبِ النَّادِرِ فِي الْعَالَمِ مِنْ طَرِيقِ الْعُقْلِ: إِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْتَنَعٍ فِي الْقَدْرَةِ، وَلَكِنَّ أَحَلَّنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَبْرَ الْقَاطِعَ لِلْعَذْرِ لَمْ يَرِدْ بِصَحَّةٍ وَجُودُ ذَلِكَ فِي الْعَالَمِ، وَهَذَا بَابٌ دَاخِلٌ فِي حِيزِ الْمُمْكِنِ الْجَائِزِ خَارِجٌ عَنْ بَابِ الْمُمْتَنَعِ وَالْوَاجِبِ، وَيَحْتَمِلُ هَذِهِ الْأَنْوَاعُ مِنَ الْحَيْوَانِ النَّادِرِ ذَكْرَهَا كَالنَّسَنَاسِ وَالْعَنْقَاءِ وَالْعَرَابِدِ وَمَا اتَّصَلَ بِهِذَا الْمَعْنَى أَنْ تَكُونَ أَنْوَاعًا مِنَ الْحَيْوَانِ أَخْرَجَتْهَا الطَّبِيعَةُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِ وَلَمْ تَحْكِمْهُ وَلَمْ يَتَأَتَّ فِيهِ الصُّنْعُ كَتَائِيَّهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْحَيْوَانِ، فَبِقِيَ شَادًا فَرِيدًا مَتْوَحِشًا نَادِرًا فِي الْعَالَمِ طَالِبًا لِلْبَقَاعِ النَّاثِيَّةِ مِنَ الْبَرِّ مَبَايِنًا لِسَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيْوَانِ مِنَ النَّاطِقِينَ وَغَيْرِهِمْ؛ لِلضَّدِّيَّةِ الَّتِي فِيهِ لَغِيرِهِ مَا قَدْ أَحْكَمَتْهُ الطَّبِيعَةُ، وَعَدْمِ الْمَشَاكِلَةِ وَالْمَنَاسِبَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنِ غَيْرِهِ مِنْ أَجْنَاسِ الْحَيْوَانِ وَأَنْوَاعِهِ، عَلَى حَسْبِ مَا قَدَّمْنَا فِي بَابِ الْغَيْلَانِ فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَفِي الإِكْثَارِ مِنْ هَذَا خَرْجَ عنِ الْغَرْضِ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ.

وقد قدمتنا فيما سلف من هذا الكتاب من الأخبار عمن زعم أن المتكول أمر حُسين
ابن إسحاق - أو غيره من أهل عصره ممن عنى بهذا الشأن من الحكماء - أن يتأتى له
ويتحтал في حمل النسناس والغَرْبَدَ من أرض اليَمَامَة، وأن حُسْنَيَاً حمل له شيئاً من ذلك،
وقد أتينا على شرح هذا الخبر فيمِن أرسل إلى اليمامة في حمل العَرَبَدَ وإلى بلاد الشَّجَرَ
في حمل النسناس في كتابنا «أخبار الزَّمَانَ» والله تعالى أعلم بصحَّة هذا الخبر، وليس لنا
في ذلك إلا النقل، وأن نعزوه إلى راويه، وهو المقلد بعلم ذلك فيما حكاه ورواه؛
فتنتظمه على حسب ما يتأتى لنا نظممه في الموضع المستحق له، والله ولي التوفيق برحمته.
وأما ما ذكره عن ابن عباس فهو خبر يتصل بخبر خالد بن سنان العَبَسيَّ، وقد
قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب خبر خالد بن سنان العَبَسيَّ، وأنه ذكر أنه كان في الفترة
بين عيسى ومحمد ، وذكرنا خبره مع النار وإطفائه لها.

العنقاء

فلنذكر الآن خبر العنقاء على حسب ما رواه، فلا بد من إعادة خبر خالد لذكر [نا] العنقاء واتصال الخبرين، ومخرج هذه الأخبار كلها عن ابن عفیر.

حدث الحسن بن إبراهيم قال: حدثنا محمد بن عبد الله المروزي، قال: حدثنا أسد بن سعيد بن كثير بن عفیر عن أبيه عن جده كثیر، عن جد أبيه عفیر عن عکرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ إن الله خلق طائراً في الزمان الأول من أحسن الطير، وجعل فيه من كل حسن قسطاً، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس، وكان في أحنته كل لون حُسْنٍ من الريش، وخلق له أربعة أحجنة من كل جانب منه، وخلق له يدين فيهما مخالف، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الأصل، وجعل له أثني عشر على مثاله، وسماهما بالعنقاء، وأوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: إني خلقت طائراً عجيبة خلقته ذكراً وأثني، وجعلت رزقه في وحش بيت المقدس، وأنستك بهما؛ ليكونا مما فضلت به بني إسرائيل، فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما، وأدخل الله موسى وبيني إسرائيل في التيه فمكثوا فيه أربعين سنة حتى مات موسى وهارون في التيه وجميع من كان مع موسى من بني إسرائيل، وكانوا ستمائة ألف، وخلفهم نسلهم في التيه، ثم أخرجهم الله تعالى من التيه مع يوشع بن نون تلميذ موسى ووصيه، فانتقل ذلك الطائر فوق بنجد والمحجاز في بلاد قيس عيلان، ولم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك من البهائم إلى أن ظهر النبي من بني عبس بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم يقال له خالد بن سنان، فشكى إليه الناس ما كانت العنتاء تفعل بالصبيان، فدعا الله عليها [أن يقطع نسلها فقطع الله نسلها] فبقيت صورتها تحكى في البُسْطِ وغير ذلك.

وقد ذهب جماعة من ذوي الروايات إلى أن قول الناس في أمثالهم «عنقاء مغرب» إنما هو للأمر العجيب النادر وقوعه، وقولهم «جاء فلان عنقاء مغرب» يريدون أنه جاء بأمر عجيب، قال شاعرهم:

وَصَبَّحُهُمْ بِالجَيْشِ عَنْ قَاءِ مَغْرِبٍ

وَالْعَنْقُ: السرعة.

خالد بن سنان العبسى

قال ابن عباس: وكان خالد بن سنان نبي بنى عبس يشرّ برسول الله ﷺ، فلما حضرته الوفاة قال لقومه: إذا أنا مت فادفنوني في حُقْفٍ من هذه الأحِقافِ، وهي تلول عظام من الرمل، واحرسوا قبري أيامًا، فإذا رأيتم حماراً أشهب أبتر يدور حول الحُقْف الذي فيه قبرى أيامًا فاجتمعوا ثم انبشوا قبرى وأخرجوه إلى شفير القبر، وأحضروا لي كتاباً ومعه ما يكتب فيه حتى أملئ عليكم ما يكون وما يحدث إلى يوم القيمة، قال: فرَصَدوا قبره [بعد وفاته ثلاثة ثم ثلاثة ثم ثلاثة، فإذا الحمار يرعى حول الحُقْف قريباً من قبره] واجتمعوا عليه لينبشوه، كما أمرهم، فحضر ولده وشهروا سيفهم، وقالوا: والله لا تركنا أحداً ينشه، أتريدون أن تُعْيِّر بذلك غداً وتقول لنا العرب: هؤلاء ولد المنبوش؟ فانصرفوا عنه وتركوه، قال ابن عباس: ووردت ابنة له عجوز قد عمرت على النبي ﷺ، فتلقاها بخير وأكرمتها وأسلمتها، وقال لها: «مرحباً بابنة نبي ضييعه أهله» قال شاعر بنى عيسى:

بني خالد لو أنكم إذ حضرتم نبشت عن الميت المغيب في القبر
لأبقي عليكم آل عبس ذخيرة من العلم لا تبلى على سالف الدهر
وقد رویت عن ابن عفیر أخبار كثيرة في هذا المعنى وأشباهه من فنون الأخبار من
أخبار بني إسرائيل وغيرها.

الخيل

منها خبر خلق الخيل، وهو ما حدث به الحسن بن إبراهيم الشعبي القاضي، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله المروزى قال: حدثنا أبو الحارث أسد بن سعيد بن كثير بن عفیر، عن أبيه، عن جده کثیر، عن [جد] أبيه عفیر قال: قال عکرمة: أخبرني [مولاي] ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَا أَرَادَ أَنْ يُخْلِقَ الْخَيْلَ أَوْحَى إِلَى الرِّيحِ الْجَنُوبيِّ: إِنِّي خالقُ مِنْكُمْ خَلْقًا فَاجْتَمِعُوا» فاجتمعت، فامر جبريل فأخذ منها

[قبضة] ثم قال الله: هذه قبضتي، قال: ثم خلق الله منها فرساً كُميتاً، ثم قال الله: خلقتك فرساً، وجعلتك عربياً، وفضلتك على سائر ما خلقته من البهائم بسعة الرزق، والغنايم تقاد على ظهرك، والخير معقود بناصيتك، ثم أرسله، فصَهَلَ، فقال الله: باركت فيك، بشهيلك أربع المشركين، وأملاً مسامعهم، وأزلزل أندامهم، ثم وسمه بغرة وتحجيل، فلما خلق الله آدم قال: يا آدم، أخبرني أي الدابتين أحب إليك الفرس أو البراق؟ قال: وصورة البراق على صورة البغل، لا ذكر ولا أثني، فقال آدم: يا رب، اخترت أحسنهما وجهها، فاختار الفرس، فقال الله: يا آدم اخترت عزك وعز ولدك باقياً ما بقوا وخلدوا» قال ابن عباس: فذلك الوَسْمُ فيه وفي ولده إلى يوم القيمة، يعني الغرة والتحجيل.

قال المسعودي رحمه الله: وقد ذكر عيسى بن لهيعة المصري في كتابه المترجم بكتاب «الحلائب والجلائب» وذكره لكل حلبية أجريت فيها الخيل في الجاهلية والإسلام: أن سليمان بن داود رَوَّدَ أنساً من الأزد فرساً يصيدون عليه، فسمي زاد الراكب، وكذلك ذكر ابن دريد في كتاب الخيل وغيره.

وللناس في الخيل أخبار [عظيمة] كثيرة قد أتينا على ذكرها في السالف من كتبنا. [ولولا أن المصنف حاطب ليل لذكره في تصنيفه من كل نوع لما ذكرنا هذه الأخبار؛ إذ الناس من أهل العلم والدرأة في قبول الأخبار على وجوهه].

الكلام على الأخبار

وقد ذهبت طائفة إلى أن الأخبار التي تقطع العذر وتوجب العلم والعمل هي أخبار الاستفاضة: ما رواه الكافة عن الكافة، وأن ما عدا ذلك غير واجب قبوله.

وذهب الجمهور من فقهاء الأمصار إلى قبول خبر الاستفاضة، وهو خبر التواتر، وأنه يوجب العلم والعمل، وأوجبوا العمل بخبر الواحد، وزعموا أنه موجب للعمل دون العلم بأوصاف ذكروها.

ومن الناس من ذهب إلى غير هذه الوجوه في قبول الأخبار من الضرورية وغيرها.

وما ذكرناه من حديث النسناس والعنقاء وخلق الخيل غير داخل في أخبار التواتر الموجبة للعمل واللاحقة بما أوجب العمل دون العلم، ولا بالأخبار المضطرة لسامعها إلى قبولها عند ورودها واعتقاد صحتها عن مُخبرها، وهذا النوع من الأخبار قد قدمنا [أنها] في حَيْزِ الجائز الممكن الذي ليس بواجب ولا ممتنع، وهي لاحقة بالإسرائيليات من الأخبار والأخبار عن عجائب البحار. ولو لا ما قدمنا آنفاً من اشتراطنا على أنفسنا

الاختصار والإيجاز لذكرنا ما اتصل بهذا المعنى من الأخبار مما رواه أصحاب الحديث عن النبي ﷺ، وهم حملة السنن ونقلة الآثار، مما لا يتناكرونه، ويعرفونه ولا يدفعونه.

أمثلة من الأخبار

مثل حديث القرد الذي كان في السفينة في عهد بني إسرائيل مع رجل كان يبيع الخمر لأهل السفينة ويُشوبُ الخمر بالماء، وأنه جمع من ذلك دراهم كثيرة، وأن القرد قبض على الكيس الذي كانت فيه الدراهم وصعد على الدقل، وهو صاري المركب ويُدعى بالعرق الدقل، فخل الكيس ولم يزل يرمي درهماً إلى الماء ودرهماً إلى السفينة، حتى قسم ذلك نصفين.

ومثل ما روى الشعبي عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ، وكذلك قد رواه عن فاطمة بنت قيس عدة من الصحابة، وهو خبر تميم الداري، أن النبي ﷺ أخبر عنه أنه أخبره أنه ركب البحر في جماعة من بني عمه في سفينة، فأفضلَ بهم البحر وألقاهما إلى جزيرة [فخرجوها من السفينة إلى الجزيرة] فنظروا إلى دابة عظيمة قد نشرت شعرها، فقالوا لها: أيتها الدابة، ما أنت؟ فقالت: أنا الجَسَّاسَةُ التي أخرج آخر الزمان، وذكروا عنها كلاماً غير هذا، وأنها قالت: عليكم بصاحب القصر، فنظروا فإذا هم [يقصر من حاله ووصفه كذا، وإذا هم] برجل بالحديد والقيود مُسلسل إلى عمود من حديد وصفة وجهه كذا، وأنه خطبهم وسائلهم، وإنه الدجال، وأنه أخبرهم بحمل من الملاحم، وأنه لا يدخل مدينة النبي ﷺ، وغير ذلك مما ذكر في هذا الحديث وغيره مما ورد من الأخبار في معناه، وهذا باب كبير يتسع وصفه ويعظم شرحه.

عود إلى ذكر أرباع العالم والطباخ

ثم رجع بنا القول إلى ما كنا فيه آنفاً من ذكر أرباع العالم والطباخ، وما اتصل بهذا المعنى، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الكلام في الطباخ وغيرها مما ينبع على عظم هذا الباب ومبسوطه، وقد زعم جماعة ممن تقدم وتأخر من الأطباء ومصنفي الكتب في الطبيعتيات.

للطعام انهضamas ثلاثة

وغيرها أن للطعام ثلاثة انهضamas: أما الأول فهي المعدة [فإن المعدة] تهضم الطعام فتأخذ قوته فيصير مثل ماء الشكك، ثم تدفعه إلى الكبد [ثم يدفعه الكبد] في العروق إلى جميع الجسم كاندفاع الماء من النهر إلى السوق والمشارب، فنهضمه

أعضاء الجسد التالية، فتصيره إلى شبهها اللحم لحماً والشحم شحاماً، وكذلك العروق والعصب وما سوى ذلك [وأن أقتارها إذا استوت أقدار القوى] وإذا استوت القوى استوى الجسد واعتدل ويصح بإذن الله تعالى.

فصول السنة وأثر كل منها

وأن الزمان أربعة فصول: الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع؛ فالصيف يقوى المرة الصفراء ويكثر احتياجها، والخريف يقوى السوداء. والشتاء يقوى البلغم، والربيع يقوى الدم.

ثم ينقسم عمر الإنسان أربعة أقسام: الصبا وفيه يقوى الدم، والشباب وفيه تقوى المرة الصفراء، والكهولة وفيها تقوى السوداء، والشيخوخة وفيها يقوى البلغم.

وأن البلدان أيضاً تنقسم على أربعة أقسام: المشرق وطبيعته الحرارة والرطوبة، وفيه يقوى الدم، والجنوب وطبيعته البرودة والبيس، وفيه تقوى المرة [السوداء، والغرب وطبيعته البرودة والرطوبة وفيه يقوى البلغم، والتيمن وطبيعته الحرارة والبيس، وفيه تقوى المرة] الصفراء، وأن بنية الأصول من الجسد ربما كان مستوية معتدلة الأخلاط، وربما كان أحد الأخلال أغلب في البنية فتظهر قوته بأعلامه حتى يكون مقوياً لذلك الخلط إذا هاج.

وقد قال أبقراط: ينبغي أن يكون كل شيء في هذا العالم مقدراً على سبعة أجزاء، فالنجوم سبعة، والأقاليم سبعة [وال أيام سبعة] وأسنان الناس سبعة: أولها طفل، ثم صبي إلى أربع عشرة سنة، ثم غلام إلى إحدى وعشرين سنة، ثم شاب ما دام يشب ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة، ثم كهل إلى الأربعين، ثمشيخ إلى سبع وأربعين سنة، ثم هرم إلى آخر العمر.

وجميع تغير أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم من الهواء يكون ذلك.

الهواء وأثره في الإنسان والحيوان

وقد قال الحكم أبقراط: إن تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس: مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهم والسرور وغير ذلك، وإذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم.

وقال: إن قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان، ومزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء: إذا برد مرة وسخن أخرى خرج الزرع نضيجاً ومرة غير نضيج، ومرة قليلاً ومرة

كثيراً، ومرة حاراً ومرة بارداً، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم، وإذا اعتدل الهواء واستوى خرج الزرع معتدلاً، فاعتدل بذلك الصور والمزاجات.

الاستدلال بالأقاليم على تأثير الهواء

فأما علة تشابه صور الترك فإنه لما استوى هواء ببلدانهم في البرد استوت صورهم وتشابهت، وكذلك أهل مصر لما استوت أهواؤهم تشابهت صورهم، ولما كان الغالب على هواء الترك البرد وعجزت الحرارة عن تنشيف رطوبات أجسادهم كثرة شحومهم، ولانت أجسادهم، وتشبهوا بالنساء في كثير من أخلاقهم، فضعف شهوة الجماع فيهم، وقل ولدهم؛ لبرد مزاجهم، وللرطوبة الغالية عليهم، وقد يكون ضعف الشهوة أيضاً لكثرة ركوب الخيل، وكذلك نساؤهم: لما سمنت أجسادهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع إليها.

وأما حمرة ألوانهم فللبرد كما ذكرنا؛ لأن البياض إذا ألحت عليه البرودة صار إلى الحمرة، وبيان ذلك أن أطراف الأصابع والشفة والأنف إذا أصابها برد شديد احمررت. وذكر الحكيم أبقراط أن في بعض البلدان من الجنوب بلدة كثيرة الأمطار كثيرة النبات والغصبة، وأن أشجارها ذاتية في الهواء، ومياهها عذبة ودوابها عظيمة، وهي مخصوصة؛ لأن تلك البلاد لم يلحقها حر الشمس، ولم يليق بها بيس البرد، فأجسام أهلها عظيمة، وصورهم جميلة، وأخلاقهم كريمة؛ فهم - في صورهم وقاماتهم و اعتدال طبائعهم - يشبهون باعتدال زمان الربيع، غير أنهم أصحاب دعوة لا يحتملون الشدائدين والكد.

وقال أبقراط في معنى ما وصفنا وما إليه قصدنا، من بيان الأهوية وتأثيرها في الحيوان والنبات: إن الروح المطبوعة فيها هي التي تجذب الهواء إلينا، وإن الرياح تقلب الحيوان من حال إلى حال، وتصرفة من حر إلى برد، ومن بيس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن، وكما تغير ما في البيوت من بزر أو عسل أو فضة أو شراب أو سمن فتسخنها مرة وتبردها أخرى [وترطبها مرة وتيسسها أخرى]، وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها، وإذا تغير الهواء تغير بتغييره كل شيء، فمن تقدم وعرف أحوال الأزمنة وتغييرها والدلائل التي فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العلم وتقدم في حفظ صحة الأبدان.

أثر الجنوب

وقال أيضاً: إن الجنوب إذا هبت أذابت الهواء وبردته، وسخنت البحار والأنهار، وكل شيء فيه رطوبة، وتغير لون كل شيء وحالاته، وهي ترخي الأبدان والعصب،

وتورث الكسل، وتحدث ثقلًا في السمع، وغشاوة في البصر؛ لأنها تحلل المرة، وتنزل الرطوبة إلى أصل العصب الذي يكون فيه الحس.

أثر الشمال

وأما الشمال فإنها تصلب الأبدان، وتصح الأدمغة، وتحس اللون، وتصفى الحواس، وتقوي الشهوة والحركة، غير أنها تحرك السعال ووجع الصدر.

وقد زعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء أن الجنوب إذا هب بأرض العراق تغير الورد، وتناثر الورق [وتشقق القنبيط] وسخن الماء، واسترخت الأبدان، وتکدر الهواء، قال: وذلك شبه ما قاله أبقراط: إن الصيف أؤياً من الشتاء؛ لأنه يسخن الأبدان فيريخها ويضعف قواها، وإن أهل العراق يكون الرجل منهم نائماً في فراشه فيحس بهبوبها، وإن وإذا هبت الشمال برد الخاتم في إصبعه واتسع لانضمام البدن بها، وإذا هبت الجنوب سخن الخاتم وضاق، واسترخى البدن، وحدث فيه الكسل، وهذا يجده سائر من بالعراق من له حس، إذا صرف همته إلى تأمل ذلك، وكذلك يجده من تأمل ما وصفناه في سائر الأمصار في بقاع الأرض والبلدان، وإن كان ذلك بالعراق أظهر لعموم الاعتدال.

الرياح الأربع

ثم قال الحكيم أبقراط في معنى ما ذكرناه: إن الرياح العامة أربعة: إحداها تهب من جهة المشرق، وهي القبول، والثانية تهب من المغرب، وهي الدبور، والثالثة من التيمن، وهي الجنوب، والرابعة من التيسير، وهي الشمال.

[فأما الريح التي تهب في بلد دون بلد فإنها تسمى الريح البلدية].

قال المسعودي: وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الأخبار عن [الأرض والبحار، وكثير من الممالك والبلدان، وذكرنا في هذا الباب جوامع من الأخبار] عن الطبائع والأهوية والبلدان وأرباع الأرض من العامر والفارم، وغير ذلك مما تقدم ذكره وانتظم تصنيفه وأثَّسَ بحمد الله إيراده؛ فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحات الممالك، وما بينها من البعد والقرب، على حسب ما حكاه الفرازي صاحب كتاب الزيج والقصيدة في هيئة النجوم والفقـلـك:

مساحات الممالك وما بينها من المسافة

زعم الفرازي أن عمل أمير المؤمنين من فرغاته وأقصى خراسان إلى طنجة

بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ، والعرض من باب الأبواب إلى جدة ستمائة فرسخ، ومن الباب إلى بغداد ثلاثة فرسخ، ومن مكة إلى جدة اثنان وثلاثون ميلاً. عمل الصين من المشرق أحد وثلاثون ألف فرسخ في أحد عشر ألف فرسخ.

عمل الهند في المشرق أحد عشر ألف فرسخ في سبعة آلاف فرسخ.

عمل التبت خسمائة فرسخ في مائتين وثلاثين فرسخاً.

عمل كابلشاه أربعين ألف فرسخ في ستين فرسخاً.

عمل التغزغز بالترك ألف فرسخ في خسمائة فرسخ.

عمل الترك لخاقان سبعين ألف فرسخ في خسمائة فرسخ.

[عمل الخزر واللان سبعين ألف فرسخ في خسمائة فرسخ].

عمل برجان ألف وخمسمائة فرسخ في ثلاثة فرسخ.

عمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ في أربعين ألف فرسخ وعشرين فرسخاً.

عمل الروم [بقيسارية خمسة آلاف فرسخ في أربعين ألف فرسخ وعشرين فرسخاً عمل رومية الروم] ثلاثة آلاف فرسخ في سبعين ألف فرسخ.

عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثلاثة فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل إدريس الفاطمي ألف ومائتا فرسخ في مائة وعشرين فرسخاً.

عمل ساحل سجلماطة لبني المنتصر أربعين ألف فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل أنبيه ألفان وخمسمائة فرسخ في ستمائة فرسخ.

عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل ورام مائتا فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل نخلة مائة فرسخ وعشرون فرسخاً في ستين فرسخاً.

عمل واح ستون فرسخاً في أربعين فرسخاً.

عمل البجة مائتا فرسخ في ثمانين فرسخاً.

عمل النجاشي ألف وخمسمائة فرسخ في أربعين ألف فرسخ.

عمل الزنج بالشرق سبعة آلاف وستمائة فرسخ في خسمائة فرسخ.

[عمل أسطولاً لأحمد بن المنصور أربعين ألف فرسخ في مائتين وخمسين فرسخاً].

فذلك الطول اثنان وسبعون ألفاً وأربعينائة وثمانون فرسخاً، والعرض خمسة وعشرون ألفاً وماتنان وخمسون فرسخاً.

أصول الطب

وأما الكلام في وصف أصول الطب، وهل ذلك، مأخوذه من طريق الرياضة والقياس أم من غيره، ووصف تنازع الناس في ذلك؛ فلم نتعرض لإيراده في هذا الباب، وإن كان متعلقاً ومتصلةً بالكلام في الطبايع وجمل المعاني المذكورة في هذا الباب؛ لأننا قد أوردناه فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار الواقع على إيضاح جرى بحضرته، وقد حضر مجلسه حنين بن إسحاق وابن ماسويه [ويختيشعو وبيخائيل] وغيرهم من الفلاسفة والمتطبيين، فأغنى ذلك عن إيراده في هذا الباب، ولو لا أن الكتاب يردد على أغراض مختلفة من الناس لما هم عليه من اختلاف الطبايع والتباين في المراد لما ذكرنا بعض ما نورد فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار، وقد يلحق الإنسان الملل لقراءته ما لا تهوى نفسه فيتقلل منه إلى غيره، فجمعنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة إلى علمه، ولما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدم ذكره، وقد أتينا على مبسوط سائر ما ذكرناه على الاتساع والإيضاح في كتابنا «أخبار الزمان» وفي الكتاب الأوسط، والله تعالى أعلم.

**ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة
وبيوت النّيران والأصنام وذكر الكواكب،
وغير ذلك من عجائب العالم**

عبادة الهند واتخاذهم الأصنام

[قال المسعودي] : كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عز وجل جسم ، وأن الملائكة أجسام لها أقدار ، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، قد عاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري عز وجل ، وبعضها على صورة الملائكة : مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور ، يعبدونها ، وقربوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور؛ لشبهها عندهم بالباري وقربها منه ، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار .

عبادتهم الكواكب واتخاذهم أصناماً لها

حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية ناطقة ، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله ، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله ، فعظموها وقربوا لها القرابين لتفعهم ، فمكثوا على ذلك دهراً ، فلما رأوا الكواكب تخفي بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً [وتماثيل على صورها وأشكالها] ، فجعلوا لها أصناماً وتماثيل] بعدد الكواكب الكبار المشهورة ، وكل صنف منهم يعظم كوكباً منها ، ويقرب لها نوعاً من القرابان خلاف ما للآخر ، على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لها الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون ، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً ، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب .

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام [هو بيت زُحل] ، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت [على مرور الدهور معظماً في سائر الأعصار لأنه بيت زُحل] ، وأن زحل تولاه ، لأن

زحل من شأنه البقاء والثبوت، فما كان له غير زائل ولا دائِر، وعن التعظيم غير حائل، وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها.

بوداسف أول الصابئة

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله، وألفوا عبادة الكواكب، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر بوداسف بأرض الهند، وكان هندياً [وقد كان بوداسف] خرج من أرض الهند إلى السند، ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زابلستان، وهي بلاد فيروز بن كبك، ثم دخل السند [ثم] إلى كرمان، فتبأ وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه، وأتى أرض فارس، وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس، وقيل: ذلك في ملك جم، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ما قدمنا آنفاً فيما سلف من هذا الكتاب، وقد كان بوداسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم؛ إذ كان من هنالك بدء التفوس، وإليها يقع الصدر من هذا العالم.

وجدد بوداسف عند الناس عبادة الأصنام، والسجود لها، لشبيه ذكرها، وقربَ لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع.

جم أول من دعا إلى عبادة النار

وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم أن جم الملك أول من عَظَم النار، ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب؛ لأن النور عنده أفضل من الظلمة، وجعل للنور مراتب.

ثم تنازع هؤلاء بعده، فعظَّم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء تقرباً إلى الله بذلك [ثم تنازعوا برهة من الزمان].

عمرو بن لحي أظهر الأصنام بمكة

ونشأ عمرو بن لحي فساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت، ثم سار إلى مدينة البلقاء من عمل دمشق من أرض الشام، فرأى قوماً يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب نتخذها: نستنصر بها فنتنصر، ونستسقي بها فنسقى، وكل ما نسائلهم نعطي، فطلب منهم صنماً يدعونه هبل، فسار به إلى مكة، ونصبه على الكعبة ومعه إساف ونائلة، ودعا الناس إلى تعظيمها وعبادتها، ففعلوا ذلك، إلى أن أظهر الله الإسلام وبعث محمداً عليه الصلاة والسلام؛ فطهر البلاد، وأنقذ العباد.

البيت الحرام

وقد قال هؤلاء: إن البيت الحرام من البيوت السبعة المعمظمة المتخذة على أسماء الكواكب من التيرين والخمسة.

بيت للمجوس بأصبهان

وبيت ثان معمظ على رأس جبل بأصبهان يقال له مارس، وكانت فيه أصنام، إلى أن أخرجها منه يستاسف الملك لما تمجّس وجعله بيت ناره، وذلك على ثلاثة فراسخ من أصبهان، وهذا البيت معمظ عند المجوس إلى هذه الغاية.

بيت بالهند

والبيت الثالث يدعى مندوسان ببلاد الهند [وهذا البيت تعظمه الهند] وله قرابين تقرب، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والدافعة والمنفرة من أوصاف لا يسعنا الإخبار عنها؛ فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث، فإنه بيت مشهور ببلاد الهند.

بيت البرامكة ببلغ

والبيت الرابع هو النوبهار الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر، وكان من يلي سداته تعظمه الملوك في ذلك الصقع، وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه، وتحمل إليه الأموال، وكانت عليه وقوف، وكان الموكل بسداته يدعى البرمك، وهو سمة عامة لكل [من يلي] سداته، ومن أجل ذلك سميت البرامكة؛ لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت، وكان بنيان هذا البيت من أعلى البناء تشييداً، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طول الشقة مائة ذراع فيما دونها قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير، فيقال والله أعلم: إن الريح خطفت يوماً بعض تلك الشقاق ورمته به، فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً، وقيل: أكثر من تلك المسافة، وهذا يدل على زيادة في الجو وتشييد بنيانه، وكان الحيز المحيط بهذا البناء أميالاً لم نذكرها؛ إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علو السور وعرضه.

قال المسعودي: وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على [باب] النوبهار بلخ كتاباً بالفارسية ترجمته «قال بوداسف: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة خصال: عقل، وصبر، ومال» وإذا تحته بالعربية «كذب بوداسف، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من [هذه الثلاث] الخصال أن لا يلزم باب السلطان».

غمدان بصنعاء

والبيت الخامس بيت غمدان الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن، وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة، وخرقه عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فهو في وقتنا هذا - [وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة] - خراب قد هدم فصار تلًا عظيمًا، وقد كان الوزير علي بن عيسى بن الجراح - حين نفي إلى اليمن وصار إلى صنعاء - بَنَّ في سقاية وحَفَرَ فيه بئرًا. ورأيت غمدان ردمًا وتلًا عظيمًا قد انهدم بنيانه، وصار جبل تراب كأنه لم يكن، وقد كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان النازل بها وصاحب مخالفات اليمن في هذا الوقت، وهو معظم في اليمن، أراد أن يبني غمدان، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني أن لا يتعرض لشيء من ذلك؛ إذ كان بناه على يدي غلام يخرج من أرض سباء وأرض مأرب يؤثر في صفع [من] هذا العالم تأثيراً عظيمًا.

وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبي الصلت [وقيل: هو أبو الصلت] أمية، واسمه ربعة في مدحه لسيف بن ذي يزن، وقيل: إن المدح بهذا الشعر معد يكرب بن سيف حيث يقول:

اشرب هنيئاً عليك التاج مُرْتَفِقاً برأس غمدان داراً منك مِخلالاً
وكان أبو أمية جاهلياً، وهو القائل في أصحاب الفيل:

[إن آيات رَبُّنا بِيَنَاتٍ ما يُمَارِي بِهِنَّ إِلَّا كُفُورٌ]
غلب الفيل بالْمُعْمَسِ حتى ظَلَّ يَحْبُّو كأنه معقور
حوله من شبابِ كِنْدَه فتيا نَّمَلَوِيَث في الحروب صُقور
[وأضاعاً خلفه الجرار كما قُطْر صُخْرٌ من جانبِ مَحْدُوزٍ]

[وقد] قيل: إن ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا في [أعلى] هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام.

بيت بقرغاغنة بخراسان

والبيت السادس كاوسان، بناء كاووس الملك بناء عجيبة على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس، بمدينة فرغاغنة من مداňن خراسان، وخرقه المعتصم بالله، ولهمه هذا البيت خير طريف قد أتينا على ذكره في كتاب «أخبار الزمان».

بيت بالصين

والبيت السابع بأعلى بلاد الصين، بناه ولد عامور بن سوبل بن يافث بن نوح، وأفرده للعلة الأولى؛ إذ كان منشأ هذا الملك ومبدأه وباعت الأنوار إليه، وقيل: إنما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان وجعله سبعة أبيات في كل بيت منها سبع كُوئي يقابل كل كوة صورة منصوبة على صورة [كوكب] من الخمسة والنيرين من أنواع الجوادر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب، من ياقوت [أو عقيق] أو زمرد على اختلاف ألوان الجوادر، ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين، بما قد رَخَّفَ لهم فيه القول وزينه لهم الشيطان، ولهم في هذا الهيكل علوم في اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذي تحدثه، وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية؛ [وقد قرب ذلك إلى عقولهم: بأن جعل لهم مثلاً من الشاهد يدل على ما غاب عنهم من فعل الأجسام السماوية] في هذا العالم، وهو خشب الديباج الذي ينسج به؛ فبضرب من حركات الصانع بذلك الخشب والخيوط الإبريسم تحدث ضروب من الحركات، فإذا اتصلت أفعاله وتواترت حركاته من النسج للثوب الديباج تمت الصورة فيه؛ فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر، وبآخر رأسه، وبآخر رجله؛ فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع لها؛ فجعلوا هذا المثال واتصال الإبريسم بالنسج وما يحدثه الصانع في ذلك من الأفعال مثلاً لما ذكرنا من الكواكب العلوية، وهي الأجسام السماوية، فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر [ويضرب آخر بيضة] ويضرب آخر فرخ، وكذلك سائر ما يحدث في العالم، ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم، ويحصل وينفصل، ويجتمع ويفترق، ويزيد وينقص، من جماد أو نبات أو حيوان ناطق أو غير ناطق، فإنما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ما وصفنا من نسج الديباج وغيره من الصنائع، وأهل صناعة النجوم لا يتناكرون أن يقولوا: [أعطيته الزهرة كذا، وأعطيه المريخ كذا، كالشقرة وصهوة الشعر وأعطيه رُخل حفة العارضين وجحوظ العينين] وأعطيه عطارد دقة الصنعة، وأعطيه المشتري الحياة والعلم والدين، وأعطيه الشمس كذا، وأعطيه القمر كذا، وهذا باب يكثر القول فيه ويتسع وصف مذاهب الناس فيه، وما قالوه في بابه.

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين

البيوت المضاف بناؤها إلى مَنْ سلف من اليونانيين ثلاثة بيوت:

بيت أنطاكية

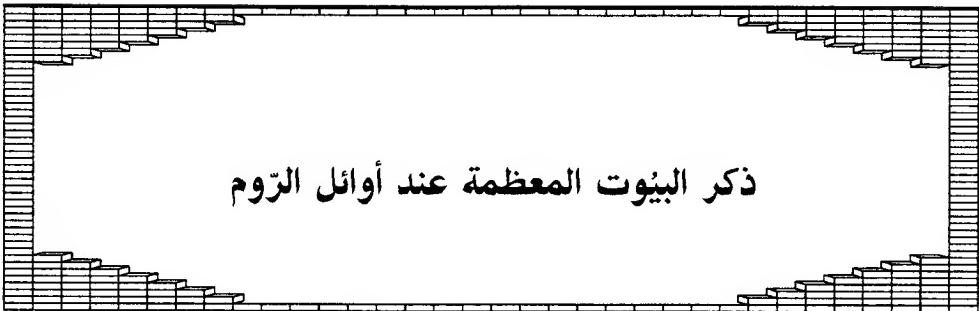
فييت منها كان بأنطاكية من أرض الشام، على جبل بها داخل المدينة، والسور محيط بها، وقد جعل المسلمون في موضعه مَرْقَباً ليتذرّهم مَنْ قد رُتب فيه من الرجال بالروم إذا وردوا من البر والبحر، وكانوا يعظمونه، ويقربون فيه القرابين؛ فخرّب عند مجيء الإسلام، وقد قيل: إن قسطنطين الأكبر ابن هيلاني الملكة المُظْهرة لدين النصرانية هو المخرب لهذا البيت، وكانت فيه الأصنام والتماثيل من الذهب [والفضة] وأنواع الجوافر، وقد قيل: إن هذا البيت هو بيت بمدينة أنطاكية على يَسْرَة الجامع اليوم، وكان هيكلاً عظيماً، والصابئة تزعم أن الذي بناه سقلابيوس، وهو في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - [سوق] يعرف بسوق الجزارين، وقد كان ثابت بن قرة بن كرانى الصابئي الحراني - حين وافى المعتضد بالله في سنة تسع وثمانين ومائتين في طلب وصيف الخادم - أتى هذا الهيكل وعَظَمه، وأخبر من شأنه ما وصفنا.

الأهرام بمصر

والبيت الثاني من بيوت اليونانيين هو بعض تلك التي ببلاد الأهرام مصر وهو يرى من القسطاط على أميال منها.

بيت المقدس

والبيت الثالث هو بيت المقدس، على ما زعم القوم، و[أهل] الشريعة إنما تخبر أن داود عليه السلام؟ بناء وأتمه سليمان بعد وفاة أبيه، والمجوس تزعم أن الذي بناء الضحاك، وأنه سيكون له في المستقبل من الزمان خطب طويل، ويقعده فيه ملك عظيم، وذلك عند ظهور شوبيان على بقرة من صفتها كذا، ومعه من الناس كذا من العدد، وأفاصيص تدعيعها المجوس في هذا المعنى، واختلاط طويل نزه كتابنا عن ذكره، والله تعالى ولِي التوفيق.



ذكر البيوت المعمظمة عند أوائل الروم

بيت قرطاجنة

[كانت] البيوت المعمظمة عند أوائل الروم قبل ظهور [دين] النصرانية بيت بلاد المغرب بمدينة قرطاجنة - وهي تونس - من وراء بلاد القيروان، وهي من أرض الإفرنجية، وبني على اسم الزهرة بأنواع من الرخام.

بيت يافرنجة

والبيت الثاني يافرنجة، وهو بيت عظيم عندهم.

بيت مقدونية

والبيت الثالث [عندهم] ب Macedonia ، [وأمره مشهور في التشييد، وما كان من خبره ب Macedonia]، وقد أتينا على أخباره وأخبار غيره فيما سلف من كتبنا، والله تعالى أعلم.

ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة

البيت الأول

كانت في ديار الصقالبة بيوت تعظمها: منها بيت كان لهم في الجبل الذي ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم العالية، وهذا البيت له خبر في كيفية بنائه، وترتيب [أنواع] أحجاره، واختلاف ألوانه، والمخاريق المصنوعة له، [فيه على أعلاه، وما من مطلع الشمس في تلك المخاريق المصنوعة] وما أودع فيه من الجوادر والأثار المرسومة فيه الدالة على الكائنات المستقبلة، وما تُنذر به تلك الجوادر والأثار من الأحداث قبل كونها، وظهور أصوات من أعلى الله لهم، وما كان يلتحقهم عند سماع ذلك.

البيت الثاني

وبيت اتخذه بعض ملوكهم على الجبل الأسود، تحيط به مياه عجيبة ذوات ألوان وطعوم مختلفة عامة المنافع، وكان لهم فيه صنم عظيم على صورة رجل قد انحنى على نفسه، وهو شيخ بيده عصا يحرك به عظام الموتى من التوابيس، وتحت رجله اليمنى صور أنواع من النمل، وتحت الأخرى غرائب سود من صور العذاف وغيرها، وصور عجيبة لأنواع من الأحابيش والزنج.

البيت الثالث

وبيت آخر على جبل لهم يحيط به خليج من البحر قد بني بأحجار المرجان الأحمر، وأحجار الزمرد الأخضر، في وسطه قبة عظيمة، تحتها صنم [عظيم] [أعضاؤه] من جواهر أربعة: زمرد أخضر، وياقوت أحمر، وعقيق أصفر، ويلور أبيض، ورأسه من الذهب الأحمر، وبإزاره صنم آخر على صورة جارية، وكان يقرب له قرابين ودخن، وكان ينسب هذا البيت إلى حكيم كان لهم في قديم الزمان، وقد أتينا على خبره، وما كان من أمره بأرض الصقالبة، وما أحدث فيهم من الدكوك والجبل والمخاريق المصطنعة التي اجتذب بها قلوبهم وملك نفوسهم واسترق بها عقولهم مع شراسة أخلاق الصقالبة واختلاف طبائعهم، فيما سلف من كتبنا، والله تعالى ولِي التوفيق.

**ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة للصابئة وغيرها
(وغير ذلك) مما لحق بهذا الباب واتصل بهذا المعنى**

هيكل العقل والعلة الأولى

للصابئة من الحرّانيين هياكل على أسماء الجوادر العقلية والكواكب؛ فمن ذلك هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وما أدرى أشاروا إلى العقل الأول أم الثاني، وقد ذكر صاحب المنطق في كتابه في المقالة الثالثة من كتاب النفس العقل الأول الفعال، والعقل الثاني، وذكر ذلك تامسطيس في كتابه في شرح كتاب النفس الذي عمله صاحب المنطق، وقد ذكر العقل الأول والثاني الإسكندر الأفرودوسي في مقالة أفردها في ذلك قد ترجمها إسحاق بن حُسين.

جملة من هياكلهم

ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة، وهيكل الصورة، وهيكل النفس، وهذه مُدّورات الشكل، وهيكل رُحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ [مربع] مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل عطارد مثلث الشكل، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن الشكل وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخونها].

وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حَرَان يعرف بالحارث بن سبات للصابئة الحرّانيين أشياء ذكرها من قربain يقربونها من الحيوان ودخن للكواكب يخرجون بها وغيرها مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل.

والذي بقي من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - بيت لهم بمدينة حَرَان في باب الرقة يعرف بمع吉利تيا، وهو هيكل آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم، وللقوم في آزر وابنه إبراهيم كلام كثير ليس كتابنا هذا موضعًا له، ولابن عيشون الحرّاني القاضي - وكان ذا فَهْمٍ ومعرفة، وتوفي بعد الثلاثمائة - قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرّانيين المعروفين بالصابئة، ذكر فيها هذا البيت وما تحته من

السراديب الأربع المتخذة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية، وأسرار هذه الأصنام، وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام، وما يحدث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصفرة وغيرها لما يسمعون [من] ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص، بحيل قد اتخذت ومنافيخ قد عملت: تقف السيدة من وراء جذر فتكلم بأنواع من الكلام، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجنونة والأصنام المشخصة، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان، فيصطادون به العقول، وتسترق بها الرقاب، ويقام بها الملك والممالك [ومما ذكر في هذه القصيدة قوله:

إن نفيس العجائب بيت لهم في سرادب
تعبد فيه الكواكب أصنامهم خلف غائب]

ولهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة، إلا أنهم من حشوية الفلاسفة، وعوامهم مباینون لخواص حكمائهم [في مذاهبهم، وإنما أضفناهم إلى الفلاسفة] إضافة سبب لا إضافه حكمة، لأنهم يونانية، وليس كل اليونانيين فلاسفة، إنما الفلاسفة حكماؤهم.

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوباً [على مدقعة الباب] بالسريانية قولًا لأفلاطون فسره مالك بن عقبون [وغيره] منهم وهو «من عرف ذاته تأله» وقد قال أفلاطون «الإنسان نبات سماوي، والدليل على هذا أنه شبيه شجرة منكوبة أصلها إلى السماء وفروعها في الأرض» وأفلاطون [وغيره] من سلك طريقه في النفس الناطقة كلام كثير في هل النفس في البدن أو البدن في النفس، كالشمس أهي في الدار أو الدار في الشمس، وهذا قول يتغلغل بنا الكلام فيه إلى الكلام في تنقل الأرواح في أنواع الصور.

القول في تنقل الأرواح

وقد تنازع أهل هذه الآراء من قصد هذه المقالة في النقلة على وجهين، فطائفة من الفلاسفة القدماء اليونانيين والهندي - ومن لم يثبت كلاماً متزلاً ولا نبياً مرسلًا منهم أفلاطون ومن يمم طريقهم - حكى عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليست بجسم، وأنها حية عالمية مميزة لأجل ذاتها وجوهرها، وأنها هي المدببة للأجسام المركبة من طبائع الأرض المتضادة، وغرضها في ذلك أن تقييمها على العدل وما تتم به السياسة المستقيمة والنظام المتتسق وتردّها من الحركة المضطربة إلى المنتظمة.

وزعموا أنها تلذ وتالم وتموت، وموتها عندهم انتقالها من جسد إلى جسد بتدبير، وبطلاز ذلك الشخص الذي فسد ووصف بالموت، لأن شخصها يفسد، ولأن جوهرها يتبدل.

وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها [عالمة بالمعقولات من ذاتها وجوهرها] وفيها قبول علم المحسوسات من جهة الحس.

ولأفلاطون وغيره في هذه المعاني كلام يطول ذكره، ويعجز عن وصفه وإظهاره لاعتراضه وغموضه، وكذلك صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممن تقدم وتأخر؛ لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والإحاطة بفهمها وبلغ غايتها لا يدرك ذلك لما نصبووا من الكتب، ورتبوا من التصنيف للعلوم المؤدية إلى معرفة [علومهم وأغراضهم التي إليها قصدوا في كتبهم وهي معرفة] الألفاظ الخمس، وهي: الجنس، والفصل، والنوع، والخاصة، والعرض.

المقولات

ثم معرفة المقولات، وهي عشرة: الجوهر، والكمية، والكيفية، والإضافة - وهي النسبة - وهذه أربع بسائط، والست الآخر مركبات، وهي: الزمان، والمكان، والجدة - وهي الملك - والوضع، والفاعل، والمنفعل، ثم ما بعد ذلك مما يترقى فيه الطالب إلى أن ينتهي إلى علم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثاني.

عود إلى الكلام عن الصابية

ثم رجع بنا الإخبار عن مذاهب الصابية من الحرانيين، وذكر من أخبر عن مذاهبهم وكشف عن أحوالهم.

فمن ذلك كتاب رأيته لأبي بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب «المنصورى» في الطب وغيره، ذكر فيه مذاهب الصابية الحرانيين منهم، دون من خالفهم من الصابية، وهم الكيماريون، وذكر أشياء يطول ذكرها ويصبح عند كثير من الناس وصفها، أعرضنا عن حكايتها، إذ كان في ذلك خروج عن حد الغرض من كتابنا إلى وصف الآراء والديانات.

وقد خاطبت مالك بن عقبون وغيره منهم بشيء مما ذكرنا وغيره مما عنه كتبنا، فمنهم من اعترف بيضنه، وأنكر بعضاً من ذكر القرابين وغيره [من الآراء]، مثل فعلهم بالثور الأسود، فإنه يضرب وجهه بالملح إذا شدت عيناه ثم يذبح، ويراعي كل عضو من

أعضائه وما يظهر منه من الحركات والاختلاج على ما يدل ذلك من أحوال السنة وغير ذلك من أسرارهم ومحالاتهم وأحوال قرابينهم.

قال المسعودي : وقد ذكر جماعة - ممن له تأمل بشأن أمور هذا العالم والبحث عن أخباره - أن بأقصى بلاد الصين هيكلًا مدوراً له سبعة أبواب ، في داخله قبة مسيرة عظيمة الشأن عالية السمك ، في أعلى القبة شبه الجوهرة [ة] يزيد على رأس العجل تضيء منه جميع أقطار ذلك الهيكل ، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يذن أحد منها على مقدار عشرة أذرع [إلا خرّ ميتاً] وإن حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت إلى هذا المقدار من الدفع انعكست وتعطلت ، وإن رمي بشيء كان كذلك ، فليس شيء من الحيل يؤدي إلى تناولها [بوجهه] ولا بسبب ، وإن تعرض لشيء من هدم هذا الهيكل مات من يروم ذلك [وهذا عند جماعة] من أهل الخبرة لقوية دافعة منفردة قد عملت من أنواع الأحجار المعنطيسية ، وفي هذا هيكل بئر مسيرة الرأس متى أكبَّ الإنسان على رأس البئر إكباباً متمكناً تهور في البئر فصار في أسفلها على أم رأسه ، وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم أراه بقلم المستند «هذه بئر تؤدي إلى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه ، وتؤدي هذه البئر أيضاً إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلا من وازت قدرته قدرتنا ، واتصل علمه بعلمنا ، وصارت حكمتنا ، فمن قدر على الوصول إلى هذا المخزن فليعلم أنه قد وازانا ، ومن عجز عن الوصول إلى ما وصفنا فليعلم أنا أشد منه بأساً ، وأقوى حكمة ، وأكثر علماً ، وأنقُب دراية ، وأتم عنایة» ، والأرض التي عليها هذا الهيكل والقبة وفيها البئر أرض حجرية صلبة عالية من الأرض كالجبل الشامخ لا تُرَأَ قلعته ولا يتأنى نقب ما تحته ، فإذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبة والبئر وقع للرأي عند رؤيته ذلك جَرَّعَ وحزن واجتذاب للقلب إليه وحنين على إفساده وتأسف على إفساد شيء منه أو هدمه ، والله أعلم بذلك .

ذكر الأخبار عن بيوت النيران، وغيرها

رأيهم في النار والنور

فأما بيوت النيران ومن رسماها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول ما يحكى ذلك عنه أفريدون الملك، وذلك أنه وجد ناراً يعظمها أهلها، وهم معتكرون على عبادتها، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها، فأخبروه [بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها، و] أنها واسطة بين الله وبين خلقه، وأنها من جنس الآلهة التورية، وأشياء ذكروها أعرضنا عن ذكرها لاعتراضها، وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب، وفرقوا بين طبع النار والنور، وأن الحيوان يجذب فيحرق نفسه كالفراش الطائر بالليل، فما لطف يطرح نفسه في السراج فيحرقها، وغير ذلك مما يقع في صيد الليلي من الغزلان والطير والوحش، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق، كما يصطاد بلاد البصرة السمك في الليل يظهر من الماء طافياً حتى يقع في جوف المركب والسرج قد جعلت حواليه، وأن النور صلاح هذا العالم، وشرف النار على الظلمة ومضادته لها، ومرتبة الماء وزيادته على النار ياطفأه ومضادته لها وأنه أصل لكل حي ومبدأ لكل نام.

أماكن بيوت النيران

فلما أخبر أفريدون بما ذكرنا أمر بحمل جزء منها إلى خراسان، [فاتخذ لها بيتاً بطوس واتخذ بيتاً آخر بمدينة بخارى يقال له برد سورة] وبني آخر من بيوت النار بسجستان يقال له كراكر كان اتخذ بهمن بن إسفنديار بن يستاسف، وبيت آخر ببلاد الشيز والران، وكان فيه أصنام فأخرجها أنوشروان، وقيل: إن أنوشروان صادف هذا البيت وفيه نار معظمة فقللها إلى الموضع المعروف بالبركة، وبيت آخر للنار يقال له كوسجة بناء كيخسرو الملك، وقد كان بقومس بيت للنار معظم لا يدرى من بناء يقال له جريش، ويقال: إن الإسكندر لما غالب عليها تركها ولم يطفئها ويقال: إنه كان في ذلك الموضع فيما مضى مدينة عظيمة عجيبة البناء فيها بيت كبير عجيب الهيئة فيه أصنام فأخرجت تلك المدينة بما فيها من البيوت، ثم بني بعد ذلك بيت وجعلت فيه تلك النار،

وبيت آخر [يسمي كنجلة] بناه سياوخس بن كاووس الجبار، وذلك في زمان لبته بمشرق الصين مما يلي البركند، وبيت نار بمدينة أرجان من أرض فارس اتخذ في أيام بهراسف.

زرادشت والبيوت التي اتخذها

وهذه البيوت العشرة كانت قبل ظهور زرادشت بن أسييمان النبي المجنوس، ثم اتخذ زرادشت بن أسييمان بعد ذلك بيت النيران، وكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان، وبيت آخر بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس، وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك أن يطلب ناراً كان يعظمهما جمّ الملك، فطلبت فوجدت بمدينة خوارزم، فنقلها بعد ذلك يستاسف إلى مدينة درابجرذ من أرض فارس وكورها بهذا البيت، وهذه النار تسمى في وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - آزر جوى، وتفسير ذلك نار النهر، وذلك أن آزر أحد أسماء النار [وجوى أحد أسماء النهر] بالفارسية الأولى، والمجنوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت.

وذكرت الفرس أن كيخسرو لما خرج غازياً إلى الترك سار إلى خوارزم، فمر على تلك النار، فلما وجدها عظمها وسجد لها، ويقال: إن أنوشروان هو الذي نقلها إلى الكاريان، فلما ظهر الإسلام تخوفت المجنوس أن يطفئها المسلمين فتركوا بعضها بالكاريان، ونقلوا بعضها إلى نسا والبيضاء من كورة فارس؛ لتبقى إحداهما إن طفت الأخرى.

بيت بإصطخر

وللفرس بيت نار بإصطخر فارس تعظم المجنوس، وكان في قديم الزمان فأخرجه حمایة بنت بهمن بن اسفندیار وجعلته بيت نار، ثم نقلت عنه النار فتخرّب.

وصف يصف بيته بإصطخر والناس

في وقتنا هذا يذكرون أنه مسجد سليمان بن داود، وبه يعرف وقد دخلته، وهو على نحو فرسخ من مدينة إصطخر، فرأيت بنياناً عجيبة، وهيكلاً عظيماً، وأساطين صخر عجيبة، على أعلىها صور من الصخر طريقة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حيز عظيم وسور منيع من الحجر، وفيه صور لأشخاص قد تشكلت وأتقنت صورها، يزعم منجاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء، وهو في سفح جبل والريح غير خارجة من ذلك الهيكل في ليل ولا نهار، ولها هبوب ودوىٌ، يذكر من هنالك [من المسلمين] أن سليمان بن داود حبس الريح في ذلك الموضع، وأنه

كان يتغدى بيعליך من أرض الشام، ويتعشى في هذا المسجد، وينزل بينهما بمدينة تدمر ولعلها المتخذ فيها، ومدينة تدمر في البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشام يكون منها إلى الشام نحو خمسة أيام أو ستة، وهي بنيان عجيب من الحجر، وكذلك الملعب الذي فيها، وفيها حلق من الناس من العرب من قحطان.

بيت سابور

وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت للنار معظم عندهم، اتخذه دارا بن دارا.

بيت بجور

وفي مدينة جور من أرض فارس - وهو البلد الذي يحمل منه ماء الورد الجوري وإليه يضاف - بيت للنار، بناء أردشير بن بابك، وقد رأيته، وهو على ساعة منها على عين هناك عجيبة، وله عيد، وهو أحد متزهات فارس، وفي وسط مدينة جور بنيان كان تعظمه الفرس يقال له الطربال أخربه المسلمين، وبين جور ومدينة كوار عشرة فراسخ، وبها يعمل ماء الورد الكواري وإليها يضاف، وهذا الماء الورد المعتمول بجور وكوار أطيب ماء ورد يعمل في العالم، لصحة التربة وصفاء الهواء، وفي ألوان سكان هذه البلاد حمرة في بياض ليست لغيرهم من أهل الأمصار، ومن كوار إلى مدينة شيراز - وهي قصبة فارس - عشرة فراسخ، ولجور وكوار وشيراز وغيرها من كور فارس أخبار، ولما فيها من البناء أقصاص يطول ذكرها قد دونتها الفرس، وكذلك ما كان بأرض فارس من الموضع المعروف بماء النار، وقد بني عليه هيكل .

وكان كورش الملك - حين ولد المسيح ﷺ - بعث ثلاثة أنفس: دفع إلى أحدهم صرة من لبان، وإلى آخر صرة من مر، وإلى آخر صرة من تبر، وسَيِّرُهم يهتدون بنجم وَضَفَه لهم، فساروا حتى انتهوا إلى السيد المسيح وأمه [مريم] بأرض الشام، والنصارى تغلوا في قصة هؤلاء النفر، وهذا الخبر موجود في الإنجيل، وإن هذا الملك كورش نظر إلى نجم قد طلع بمولد المسيح عيسى، فكانوا إذا ساروا سار معهم ذلك النجم، وإذا وقفوا وقف بوقوفهم، وقد أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» على شرح هذا الخبر، وما قالـت فيه المجوس والنصارى، وخبر الرُّعْفَان التي دفعتها إليهم مريم، وما كان من الرسل وجعلهم الخيز تحت الصخرة وغَرَصَها في الأرض، وذلك بفارس، وكيف حفر عليها إلى الماء وأنها وجدت وقد صارت شعلتي نار على وجه الأرض تتقدان، وغير ذلك مما قيل في هذا الخبر.

بيوت أخرى

وقد كان أردشير بنى بيته آخر يقال له بارنوا، وفي اليوم الثاني من غلبه على فارس، وبيت نار على خليج القسطنطينية [من بلاد الروم، بناء سابور بن أردشير بن بابك - وهو سابور الجنود - حين نزل على هذا الخليج، وحاصر القسطنطينية] في عساكره، فلم يزل هذا البيت هنالك إلى خلافة المهدى، فخراب وله خبر عجيب، وكان سابور الجنود اشترط على الروم بناء هذا البيت وعمارته عند حصاره القسطنطينية، وكان مسيرة في جيوش فارس وغيرها من الترك وملوك الأمم، فسمى سابور الجنود؛ لكثرة من تبعه من الجنود.

حصن الحضر

وقد كان سابور لما سار إلى بلاد الجزيرة عَدَّلَ عن طريقه فنزل الحصن المعروف بالحضر، وقد كان هذا الحصن للساطرون بن أسيطرون ملك السريانيين في رستاق يقال له أيام من بلاد الموصل، وقد ذكرته الشعرا؛ لعظم ملكه، وكثرة جيشه وحسن بنائه لهذا الحصن المعروف بالحضر، فمن ذكره منهم أبو دُواه جارية ابن حاجج الإيادي بقوله:

وأرى الموت قد تدلّى من الحضـر على ربـ أهله الساطرون
ولقد كان آمناً لـلدواهيـي ذـ ثـراء وجـوهـرـ مـكـنـونـ

قول في نسب النعمان بن المنذر

وقد قيل: إن النعمان بن المنذر من ولد الساطرون بن أسيطرون [يقال: هو النعمان ابن المنذر بن أمرىء القيس بن عمرو بن عدي بن نصر بن الساطرون بن أسيطرون] والساطرون وأسيطرون هذه ألقاب، وهم ملوك ملوكاً على السريانيين.

ثم تملك تلك الديار بعد من ذكرنا من ذفناهم الدهر الضيزن بن جبالة، وجبالة أمة [هو الضيزن بن معاوية ملكاً على قومه من تئوخ بن مالك بن فهم بن تميم اللات بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة] وهو الضيزن بن معاوية ابن العبيد بن حرام بن سعد بن [سلیح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وكان كثير الجنود، مهادناً للروم، متخيزاً إليهم، بغير رجاله على العراق والسوداد، وكان في نفس سابور عليهم ذلك، فلما نزل على حصنه تحصن الضيزن في الحصن، فأقام سابور

عليه شهراً لا يجد سبيلاً إلى فتحه، ولا يتأتي له حيلة في دخوله، فنظرت النصيرة بنت الضيزن يوماً وقد أشرفت من الحصن إلى سابور فهو بيته وأعجبها جماله، وكان من أجمل الناس وأمدهم قامة، فأرسلت إليه: إن أنت ضمنت لي أن تتزوجني وتفضلي على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن، فضمن لها ذلك، فأرسلت إليه: أئن الشثار - وهو نهر في أعلى - فانثر فيه تبنا ثم اتبعه فانظر أين يدخل فأدخل الرجال منه، فإن ذلك المكان يفضي إلى الحصن، ففعل ذلك سابور، فلم يشعر أهل الحصن إلا وأصحاب سابور معهم في الحصن، وقد عمدت النصيرة فَسَقَتْ أباها [الخمر] حتى أسكرته طمعاً في تزويج سابور إياها، وأمر سابور بهدم الحصن بعد أن قتل الضيزن ومن معه، وعَرَّسَ [سابور] بالنصيرة بنت الضيزن فباتت مُسْهَدَة، فقال لها سابور: ما لك لا تنامين؟ قالت: إن جنبي يتغافى عن فراشك، قال: ولم فوالله ما نامت الملوك على ألين منه وأوطا وإن حشوة لزغب النعام؟! فلما أصبح سابور نظر فإذا ورقة آس بين عُكْنَها، فتناولها فكاد يطعنها أن يَذْمِنَها، فقال لها: ويبحك!! بم كان أبواك يغذيانك؟ قالت: بالزبد والمُحَمَّ والثلج والشهد وصفو الخمر، فقال لها سابور: إني لجدير أن لا أستبقيك بعد إهلاك أبيك وقومك، وكانت حالتك عندهم الحالة التي تصفين، فأمر بها فربطت بعذارها إلى فرسين جموحين، ثم خلَّى سبيلهما، فقطعاها؛ ففي هذا [الملك] المقتول ومن كان معه [في الحصن] يقول حري بن الدهماء العبسي:

أَلْمَ يَحْزُنُكَ وَالْأَنْبَاءَ تَنْمِي
بِمَا لَاقَتْ سَرَّاً بْنِي الْعَبِيدِ
وَمَصْرَعَ ضِيزَنَ وَبْنِي أَبِيهِ
وَأَحْلَافَ الْكَتَائِبِ مِنْ تَزِيدِ
أَتَاهُمْ بِالْفُؤُولِ مَجْلَلَاتِ
وَبِالْأَبْطَالِ سَابُورِ الْجَنُودِ
[فَهَدَمَ] مِنْ بَرْوَجِ الْحَصْنِ صَخْرَأً
كَانَ بِنَاءَهُ رُبُّ الْحَدِيدِ

وفي قتل سابور للنصيرة بنت الضيزن وما كان منها من الغدر بأبيها وقومها وإرشاد سابور إلى دخول الحصن يقول عدي بن زيد العادي:

وَالْحَضْرُ صُبَّثُ عَلَيْهِ دَاهِيَةٌ
مِنْ قَصْرِهِ قَدْ أَبْدَى سَاكِنَهَا
رَبِيبَةٌ لَمْ تُوقَّنْ وَالدَّهَا
لَحِينَهَا إِذْ أَضَاعَ رَاقِبَهَا
وَأَسْلَمَتْ أَهْلَهَا لِلْيَلَتِهَا
وَكَانَ حَظُّ الْعَرُوسِ إِذْ جَسَرَ الصَّبَعُ
دَمَاءَ تَجْرِي سَائِبَهَا
وَالشِّعْرُ فِي هَذِهِ الْقَصَّةِ كَثِيرٌ.

جملة من بيوت النار

وبارض العراق بيت للنار بالقرب من مدينة السلام، بنته بوران بنت كسرى أبرويز الملكة في الموضع المعروف بأسنانيا.

وبيوت النيران كثيرة مما بنته المجروس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربيجان والران، وفي الهند والسندي والصين، أعرضنا عن ذكرها، وإنما ذكرنا ما اشتهر منها.

بيت بعل

والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة: مثل بيت بَعْلَ، وهو الصنم الذي ذكره الله عز وجل بقوله: «أَنَّذْعُونَ بَعْلًا وَنَذْرُوكَ أَحْسَنَ الْخَلِقِينَ» [الصفات: ١٢٥] وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورة سنير، وقد كانت اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير فاتخذته موضعًا للأصنام، وهمما يبتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر، فيما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأنى حفر مثله في الخشب مع علو سموكهما وعظم أحجارهما؛ وطول أساطينهما، وواسع فتحهما، وعجب بنائيهما، وقد أتينا على خبر هذه الهياكل وما كان من خبر القتل على رأس ابنة الملك وما نال أهل هذه المدينة من سفك الدماء.

جيرون بدمشق

وهيكل عظيم البناء في مدينة دمشق، وهو المعروف بجيرون، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب وأن بانيه جيرون بن سعد العادي، ونقل إليه عمد الرخام، وأنه إرم ذات العماد المذكورة في القرآن، إلا ما ذكر عن كعب الأحبار حين دخل على معاوية بن أبي سفيان وسأله عن خبرها وذكر عجيب بنائها من الذهب والفضة والمسلك والزعفران وأنه يدخلها رجل من العرب يتنه له جملان فيخرج في طلبهما فيقع إليها، وذكر حلية الرجل، ثم التفت في مجلس معاوية فقال: هذا هو الرجل، وكان الأعرابي قد دخلها يطلب ما نَدَّ من إبله؛ فأجاز معاوية كعباً، وتبيّن صدق مقالته وإياضه برهانه، فإن كان هذا الخبر عن كعب حقاً في هذه المدينة فهو حسن، وهو خبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره، وهو من صنعة الفُصّاص.

وقد تنازع الناس في هذه المدينة، وأين هي؟ ولم يصح عند كثير من الأخباريين ممن وفدت على معاوية من أهل الدرية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم

من المتقدمين [فيها، إلا خبر عبيد بن شرية وإخباره إيهما عما سلف من الأيام] وما كان فيها من الكواهن والحوادث وتشعب الأنساب، وكتاب عبيد بن شرية متداول في أيدي الناس مشهور.

وقد ذكر كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم أن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة، نظمها من تقرب للملوك بروايتها، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها، وأن سبيلها سبيل الكتب المنشورة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب هزار أفسانة، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية [ألف خرافة، والخرافة بالفارسية] يقال لها أفسانة.

كتاب ألف ليلة وليلة

والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد ودينا زاد، ومثل كتاب فرزة وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب السنديباد، وغيرها من الكتب في هذا المعنى.

أصل مسجد دمشق

وقد كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلًا عظيماً فيه التماثيل والأصنام على رأس منارته تماثيل منصوبة، وقد كانبني على اسم المشتري وطالع سعد، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة، وظهر الإسلام [فجعل مسجداً] وأحکم بناءه الوليد بن عبد الملك، والصوماع منه لم تغير، وهي مئاثر الأذان إلى هذا الوقت.

البريص بدمشق

وقد كان بدمشق أيضاً بناء عجيب يقال له البريص، وهو مبقى إلى هذا الوقت في وسطها، وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان، وقد ذكرته الشعرا في مدحها لملوك غسان من مأرب وغيرهم.

الديماس بأنطاكية

وهيكل أنطاكية يعرف بالديماس، على يمين مسجدها الجامع، مبني بالأجر العادي والحجر، عظيم البناء، وفي كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه ومن أعلىه في بعض الأهلة الصيفية، وقد ذكر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية، وأنه بيت نار لها.

بعض عجائب الدنيا

قال المسعودي : وقد ذكر أبو معشر المنجم في كتابه المترجم بـ «كتاب الألوف» الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث بناؤه في العالم في كل ألف عام ، وكذلك ذكره ابن المازيار تلميذ أبي معشر في كتابه «الم منتخب من كتاب الألوف» وقد ذكر غيرهما من تقدم عصرهما وممن تأخر عنهم كثيراً من البنيان والعجائب في الأرض ، وقد أعرضنا عن ذكرها ، وذكر السد الأعظم - وهو سد يأجوج وأموج - وقد تنازع الناس في كيفية بنائه كتنازعهم في إرم ذات العماد على ما ذكرنا آنفًا ، وكيفية بناء الأهرام الذي بأرض مصر وما عليها من الكتابة المرسومة ، وما بصعيد مصر من البرابي المصنوعة ، وبغير أرض الصعيد من بلاد مصر ، وأخبار مدينة العقاب ، وما ذكر الناس فيها ، وكونها في وهاد مصر وأنها في جهة الواحات مما يلي المغرب والحبشة ، وخبر العمود الذي ينزل منه الماء في فصل من السنة بأرض عاد ، وأخبار النمل الذي على قدر الذئاب والكلاب ، وقصة أرض الذهب التي حداء سجلماسة من أرض المغرب ، ومن هنالك من وراء النهر العظيم ، ومباعتهم من غير مشاهدتهم ولا مخاطبتهم ، وتركهم المتع ، وغدو الناس إلى أمتعتهم فيجدون أعمدة الذهب وقد تركت إلى جنب كل متاع من تلك الأمتعة ، فإن شاء مالك المتاع اختار الذهب وترك المتع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب ، وإن أحبت الزيادة ترك الذهب والمتع ، وهذا مشهور بأرض المغرب بسجلماسة ، ومنها يحمل التجار الأمتعة إلى ساحل هذا النهر ، وهو نهر عظيم واسع الماء ، وكذلك بأقصى خراسان مما يلي بلاد الترك من أقصى ديارهم أمة تتبع على [مثل] هذا الوصف من غير مخاطبة ولا مشاهدة ، وهم هنالك على نهر عظيم أيضاً ، وخبر البئر المُعطلة والقصر المشيد ، وذلك ببلاد الشحر من بلاد الأحقاف بين اليمن وحضرموت ، والبئر وما فيها من الخرق واتصالها بالقرى والفضاء من أعلىها [وأسفلها] وما قاله الناس في تأويل هذه الآية فيها ، وهل المراد بالقصر والبئر هذا القصر والبناء أم غيره؟ وأخبار مخالفين اليمن ، وهي القلاع والحسون كقلعة نحل وغيرها ، وأخبار مدينة رومية وكيفية بنائها وما حوتة من عجيب الهياكل والكنائس ، والعمود الذي عليه السودانية من النحاس وما يحمل إليها من الزيتون في أيامه بالشام وغيره ، ويحمل ذلك الطائر المعروف بالسودانية في مخالفاته ومنقاره؟ فيطرحوه في تلك السودانية النحاس ، فيكثر زيتون رومية وزيتها من ذلك ، على حسب ما ذكرنا في أخبار الطلسات عن بلينوس وغيره في كتابنا «أخبار الزمان» ثم أخبار البيوت السبعة التي ببلاد الأندلس وخبر مدينة الصُّفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس ، وما

كان من خبر الملوك السالفة فيها وتعذر الوصول إليها، ثم ما كان من أمر صاحب عبد الملك بن مروان في نزوله عليها، وما تهافت فيه المسلمين عند الطلوع على سورها، وإخبارهم عن أنفسهم أنهم وصلوا إلى نعيم الدنيا والآخرة، وخبر المدينة التي أسوارها من الصفر على ساحل البحر الحبشي في أطراف مفاوز الهند، وما كان من أخبار ملوك الهند وعدم وصولهم إليها، وما يجري من وادي الرمل نحوها، وما ببلاد الهند من الهياكل المستخدمة للأصنام التي على صورة البدرة المتقدم ظهورها في قديم الزمان بأرض الهند، وخبر الهيكل المعظم الذي ببلاد الهند المعروف بالآدرى، وهذا عند الهند يقصد من البلدان الشاسعة، وله بلد قد وقف عليه وحوله ألف مقصورة فيها جَوَارِ لم تنظر لعظيم هذا الصنم من الهند، وخبر الهيكل الذي فيه الصنم ببلاد المولتان على نهر مهران من أرض السند، وخبر سندان كسرى ببلاد قرماسين من أعمال الدينور من ماه الكوفة، وكثير من أخبار العالم وخصوص بقاعه وأبنيته وجباله وبدائع ما فيه من الخلق [من الحيوان] وغيره مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتابنا، وكذلك ما خص به كل بلد [من أنواع الفواكه] دون غيره من البلدان، في الإسلام وغيره من الممالك، وما بان به أهل كل بلد] من اللباس والأخلاق دون غيرهم، وما انفردوا به من أنواع الأغذية والمأكولات والمشابر والشيم، وعجائب كل بلد، وذكرنا أخبار البحار وما قيل في اتصال بعضها بعض وتغلغل مياهها، وما يحدث في كل بحر منها من الآفات وما فيه من الجوادر دون غيره من البحار، تكون المرجان ببحر المغرب، وعدمه من غيره، وجود اللؤلؤ في البحر الحبشي دون غيره.

محاولات قديمة لوصول بحر الروم بالبحر الأحمر

وقد كان بعض من ملك من الروم حَفَرَ بين القلزم وبحر الروم طريقاً فلم يتأت له ذلك؛ لارتفاع القلزم، وانخفاض بحر الروم، وأن الله عز وجل قد جعل ذلك حاجزاً على حسب ما أخبر في كتابه، والموضع الذي حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها من يريد العج من مصر، وأجري خليجاً من هذا البحر إلى موضع يعرف بالهامة ضيعة لمحمد بن علي الماذرياني من أرض مصر في هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - فلم يتأت له اتصال [ما] بين بحر الروم وببحر القلزم.

وحفر خليجاً آخر مما يلي بلاد تنيس ودمياط وبحيرتهما، ويعرف هذا الخليج بالزير والخيبة، واستمر الماء في هذا الخليج من بحر الروم [وبحيرة تنيس إلى موضع يعرف بنعنان حتى اتصل بنحو بلاد الهمة، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم] إلى

نحو من هذه القرية، ومن بحر القلزم في خليج ذنب التمساح فيتابع أرباب المراكب، ويقرب حمل ما في كل بحر إلى آخر، ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور، وملأته السّوافي من الرمل وغيره.

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعلى مصبه من نحو بلاد الجبعة وأقصى صعيد مصر؛ فلم تتأتّ له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلي بلاد الفرمـا نحو بلاد تيسـ، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي، فقال يحيى بن خالد: يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطوفـ، وذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز، فتطرح سرايـها مما يلي جدة، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا، فامتنع من ذلك.

وقد حكـي عن عمرو بن العاص - حين كان بمصر - أنه رام ذلك؛ فمنعه منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسرايـهم، وذلك في حال ما افتتحـها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب وآثار الحفر بين هذين البحرين - فيما ذكرـنا من المواقع والخلجان - [بينـة] على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلباً لعمارة الأرض، وخصبـ البلاد، وعيشـ الناس بالأقوـات، وأن يحملـ إلى كل بلدـ ما ليس فيه من الأقوـات وغيرها من ضروبـ المنافـع وضروبـ المرافقـ، والله تعالى أعلم.

ذكر جامع التاريخ
من بدء العالم إلى مولد رسول الله ﷺ
وما لحق بهذا الباب

بعض قول الطبيعيين

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا جملًاً من تباين الناس في بدء العالم، ممن أثبت حدوثه ونفاه، وما جرت الآراء بهم فيه إلى جهات شتى، وقد أخبرنا أنهم طوائف [الهند] وفرق من اليونانيين، ومن وافقهم على القول بالقدم من الفلكيين والطبيعيين، وما أوردهم الفلكية من قولها: إن الحركة الصانعة للأشخاص المجلأة فيها الأرواح متى قطعت المسافة التي بين العقدة التي ابتدأت منها، حتى تنتهي إليها راجعة، ثم تنفصل عنها - أعادت كل ما بدأت به أولًا كهيته وأشخاصه وصورة وضروب أشكاله؛ إذ كانت العلة والسبب اللذان بوجودهما توجد الأشياء قد وجدا عزودًا كما وجدا بدءًا، فوجب ظهور الأشياء متى عادت إلى المبدأ الذي كان عنه الصدر، ثم ما تعقب هذا القول من قول الطبيعيين: إن علة كون الأشياء الجسمانية والنفسانية من قبل حركات الطبائع واختلاطها؛ لأن الطبيعة عندهم تحركت في بدؤها واختلطت فأظهرت الحيوان والنبات وسائر الموجودات في العالم، وجعلت لها أصلًاً من التناسل، لما عجزت عن تبقي الأشخاص وعدلت إلى النسل، وإن الطبائع تتنقل من مركب إلى بسيط، ومن بسيط إلى مركب، حتى إذا أدى المركب كنه ما فيه عادت الأشياء إلى البسيط إلى، وابتدا الكون [مارا] على طريقه؛ لأن الذي أوجبه [أولاً] قد وجد، فتحقق أن يوجد منه بوجود المعنى الذي أوجده، فظهر ذلك الظهور، كالنبات في الربيع، وتحرك قوته تحت الشري، وذلك أن الشمس تبلغ في الربيع إلى رأس الحمل، بادئًا في شرفها، آخرًا في ممرها، وهي العلة الكبرى في إحياء النبات وتأخذ التمر في الظهور من الشجر بادئًا كما كان ظاهرًا بالمثال الأول الذي قد باد في الشتاء وبيسه وبرده؛ لأن علة الكون الحرارة والرطوبة وعلة الفساد البرد واليأس، فإذا انتقلت الأشياء من الحرارة والرطوبة إلى البرد واليأس فارقت الكون المتمم ودخلت الفساد، فإذا انتهت بها الفساد إلى غايتها وأوصلتها إلى نهايتها عاقبها الكون بوصول الشمس إلى رأس الحمل، فبدأ بها كعادته في إنشائها، وأبرزها من خراسة

الفساد إلى نفاسة الكون، ولو كانت الحواس تضبط شأن الأجسام وتحيط بانتفالها من حال إلى حال لشاهدت ممرها في دائرة الزمان، مبتدئة من رتبة، راجعة إليها، مشكلة في محيط الدائرة بأشكال. توافق بعضها، والشكوك مختلفة باختلاف العلل، متفرقة كاختلاف الأسباب، وفي هذا القول من هذه الطائفة ما صرخ بالقول بالقدم وأبان عنه.

دليل على حدوث العالم

وقضية الفحص توجب أن الأشياء الموجودة غير خالية من إحدى المترلتين: إما أن يكون بدء وانتهاء، وإما أن يكون بلا بدء ولا انتهاء، فإن [كان] بلا بدء ولا انتهاء فواجب أن تكون أجزاؤها وأبعاضها غير متناهية، وواجب أن يكون الزمان غير عاد لها ولا حاصر لجميعها، وقد وجدنا التناهي والابتداء في أجزائها وأبعاضها على الدوام، وأنا في كل يوم جديد نعاين خلقاً جديداً، وصوراً في العالم لم تكن وصوراً بادئة قد كانت متأثلاً، وفي هذا ما يدل على حصر الأشياء ووقوعها في غاية انتهاء صورها، وواجب أن للأشياء بدءاً وانتهاءً، وبطل وهم المتشمهم أن الأشياء بلا نهاية؛ وأن ليس لها ابتداء ولا نهاية، وذلك باطل ومحال فاسد، [ولو] وجب أن تكون الأشياء الموجودة بلا بدء ولا نهاية لوجب أن لا يزول شيء من مركزه، ولا يتحول عن رتبته، ولبطلت الاستحاللة، وسقطت المضادة، وهذا مستحيل، ولو وجب أن تكون الأشياء على غير نهاية، لما كان لقولنا اليوم وأمس وغداً معنى؛ لأن هذه الأزمان تعد ما هو بالنهاية، ويوجد في حوزتها إيجاد ما لم يكن وإدخالها في حوزتها ما هو كائن.

وفيمما ذكرنا ما أوضح عن تنقل شأن المعاني، ودل على حدوث الأجسام، وهذه الدلالة مأخوذة من الحس، ومستظهرة للعقول والبحث.

المحدث للعال

وإذ قد وضح أن الأشياء مُحدَّثة لكونها بعد أن لم تكن فلا بد لها من محدث هو بخلافها لا شكل له ولا مثل؛ لأن العقل لا يقيم لشيء مثلاً حتى يعلم له قدرأ وزناً، ويعادله بمثله وشكله، وتعالى جل وعز من لا تُعَبِّر عن ذاته اللغات، وتعجز العقول أن تحصره بالصفات، وتدركه بالإشارات، أو يكون ذا غایات ونهایات.

قال المسعودي: فلنرجع الآن إلى الكلام في حصر تاريخ العالم [ووصف أقاويل الطوائف في ذلك المعنى؛ لأنما ذكرنا الكلام في حدوث العالم] لما ذكرنا قول من قال بقدمه ودل على أزليته، وقد تقدم ذكرنا لقول الهند في ذلك فيما سلف من هذا الكتاب.

عمر الدنيا

وأما اليهود فإنهم زعموا أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة وأخذوا في ذلك مأخذًا شرعياً، وذهب النصارى إلى أن عمر العالم ما ذهبت إليه اليهود، وأما الصابئة من الحرانيين والكماريين فقد ذكرنا قولهم في ذلك في جملة قول اليونانيين، وأما المجوس فإنهم ذهبوا في ذلك إلى حد غير معلوم من نفاذ قوة الهرمند وكيده، وهو الشيطان، ومنهم من ذهب في ذلك إلى نحو ما ذهب إليه أصحاب الاثنين في المزاج والخلاص، وأن العالم سيعود بدهاً مخلصاً من الشرور والآفات.

وزعمت المجوس أن من وقت زرادشت بن أسييمان نبيهم إلى الإسكندر مائتين وثمانين سنة، وملك الإسكندر ست سنين، ومن ملك الإسكندر إلى ملك أردشير خمسمائة [سنة وسبعين عشرة سنة، ومن ملك أردشير إلى الهجرة خمسمائة] سنة وأربع وستون سنة؛ فذلك من هبوط آدم إلى هجرة النبي ﷺ ستة آلاف سنة ومائة سنة وست وعشرون سنة: منها من هبوط آدم عليه السلام إلى الطوفان ألفان ومائتان وست وخمسون سنة، ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم الخليل عليه السلام ألف وتسعة وسبعين سنة، ومن مولد إبراهيم إلى ظهور موسى بعد ثمانين سنة خلت من عمر موسى بن عمران - وهو وقت خروجه يعني إسرائيل، من مصر إلى التيه - خمسمائة وخمس وستون سنة، ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان بن داود عليه السلام! وذلك وقت ابتدائه في بناء بيت المقدس ستمائة وست وثلاثون سنة، ومن بناء بيت المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة وسبعين عشرة سنة، ومن ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثة وثلاثمائة سنة وتسعة وستون سنة، ومن مولد المسيح إلى مولد النبي ﷺ خمسمائة [سنة وإحدى وعشرون سنة، وبين أن رفع الله المسيح، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، إلى وفاة النبي ﷺ خمسمائة سنة] وست وأربعون سنة، وبين مبعث المسيح وهجرة النبي ﷺ خمسمائة سنة وأربع وتسعون سنة، وكانت وفاة نبينا ﷺ في سنة تسعمائة وخمس وثلاثين سنة من [سني] ذي القرنين، ومن داود إلى محمد عليهما السلام ألف سنة وسبعمائة سنة وستة وستون سنة وستة أشهر وعشرة أيام، ومن إبراهيم إلى محمد عليهما السلام ألفاً سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وستة أشهر وعشرة أيام [ومن نوح إلى محمد عليهما السلام ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وعشرة أيام] فعلى هذا القول جميع جملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى مبعث النبي ﷺ أربعة آلاف سنة [وسبعمائة سنة] وإحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام، فجملة التاريخ من هبوط آدم إلى الأرض إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، من خلافة المتنبي بالله ونزوله الرقة من ديار مصر - خمسة آلاف سنة ومائة وست وخمسون سنة.

وقد ذكرنا جملًا من التاريخ فيما سلف من هذا الكتاب فلم نعد منه ما تقدم . وللمجوس في التواريخ أقصاص يطول ذكرها ، وعود الملك إليهم وإلى غيرهم من الطوائف السالفة في بدء العالم وفنائه ، ومن قال منهم ببقاءه ، وأن لا بقاء له ولا نهاية ، ومن ذهب منهم إلى أن له انتهاء ولا بد له ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتابنا فأغنى ذلك عن الإعادة في هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز والتبسيه على ما سلف لنا من الكتب .

رأي أهل النظر من المسلمين

وقد ذهب جماعة من أهل البحث والنظر من أهل الإسلام [إلى] أن الدلالة قد قameت على حدوث العالم وكونه بعد أن لم يكن ، وأن المحدث له الخالق الباري جل وعز ، أحده لا من شيء ، وبيته لا من شيء في الآخرة ليصح بذلك وعده ووعيده : إذ كان الصادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته ، وأن أول العالم من لدن آدم ، وقد غاب عنا حصر السنين وإحصاؤها ، وتنازع الناس في بدء التاريخ ، والكتاب لم يخبر بحصر أوقاته ولا بينَ عن كيفيةه ولا أعداد سنينه فيما مضى ، وليس علم ذلك مما تهجم عليه الآراء ، ولا تحصره أفضليات العقول ومبررات الفحص وضرورات العواسن عند مذاكرتها لمحسوساتها ، فكيف توجب أن يوقت عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة ، والله عز وجل يقول : وقد ذكر الأجيال ومن ضمه الهلاك : ﴿وَعَادَا وَثَمُودًا وَأَمْحَنَ الرَّئِسَ وَفَرُونَيَّا وَذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٨] والله تعالى ذكره لا يقول الكثير إلا في شيء حقيقي الكبير ، وأعلمنا في كتابه خلقه آدم ، وما كان من أمره وأمر الأنبياء بعده ، وأخبر عن شأن بذء الخلق ، ولم يخبرنا بمقدار ذلك فتفق عليه كوقفنا عندما أخبرنا به ، ولا سيما مع علمنا أن المدى بيننا وبينه متفاوت ، وأن الأرض كثرت بها المدن والملوك والعجائب ، فلا يحصر ما لم يحضره الله عز وجل ، ولا تقبل من اليهود ما أوردته ؛ لنطق القرآن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتمون الحق وهم يعلمون ، ونفيهم النبوات وتحجدهم ما أتوا به من الآيات مما أظهره الله عز وجل على يدي عيسى ابن مريم من المعجزات ، وعلى يدي نبينا محمد ﷺ من البراهين الباهرات والدلائل والعلامات ، والله عز وجل يخبرنا بما أهلك من الأمم لما كان من فعلهم وكفرهم بربهم ، قال الله عز وجل : ﴿الْحَقَّةُ مَا لَحَقَّةٌ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَحَقَّةٌ كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ يَالْقَارِعَةِ فَمَا تَمُودُ فَأَقْلِكُوا يَالْطَّاغِيَةِ وَمَا عَادُ فَأَقْلِكُوا يَرِيجُ صَرَصِيرَ عَانِيَةِ﴾ [الحاقة : ٨] ثم قال النبي ﷺ : «كذب النسابون» وأمر أن ينسب إلى معد ، ونهى أن يتتجاوز بالنسبة إلى ما فوق ذلك ؛ لعلمه بما مضى من الأعصار الخالية والأمم الفانية ، ولو لا أن النفوس إلى الطارف

أَحَنْ، وبالنواود أَشَعَّفُ، وإِلَى قصار الأَحَادِيثِ أَمْيَلْ وبها أَكْلَفُ، لذكْرنا من أَخْبَارِ الْمُتَقْدِمِينَ وسِيرِ الْمُلُوكِ الْغَابِرِينَ مَا لَمْ نذَكِّرْهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَلَكِنْ ذكْرُنَا فِيهِ مَا قَرَبَ تَنَاوِلُهُ تَلْوِيحاً بِالْقُولِ دُونَ الإِيْضَاحِ وَالشَّرْحِ؛ إِذَا كَانَ مُعَوَّلُنَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ كِتَابِنَا وَتَقْدِيمِنَا، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ مَوْقِعَ النِّيَةِ وَوَجْهَ الْقَصْدِ أَعْانَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مُخُوفٍ.

وَقَدْ ذكْرُنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ كُلِّ فَنٍ مِنَ الْعِلُومِ وَكُلِّ بَابٍ مِنَ الْآدَابِ - عَلَى حَسْبِ الطَّاقَةِ وَمَبْلَغِ الْاجْتِهَادِ وَالْاَخْتَصَارِ وَالْإِيْجَازِ - لِمَعَانِي سِيَرِهِ مِنْ تَأْمُلٍ، وَيَنْبَهُ بِهَا مَنْ رَأَهَا.

وَإِذْ قَدْ ذكْرُنَا جَوَامِعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُبَتدِيُّ وَالْمُتَهَيِّيُّ مِنْ عِلُومِ الْعَالَمِ وَأَخْبَارِهِ؛ فَلِنَذَكِّرْ إِلَآنَ نَسْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَوْلَدَهُ، وَمِبْعَثَتِهِ، وَهَجْرَتِهِ، وَوَفَاتِهِ، وَأَيَّامِ الْخَلْفَاءِ وَالْمُلُوكِ؛ عَصْرًا فَعْصَرًا، إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، وَلَمْ نُعْرِضْ فِي كِتَابِنَا هَذَا لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، بَلْ لَوْخَنَا بِالْقُولِ بِهَا تَخْوِفَا مِنِ الْإِطَالَةِ وَوَقْعِ الْمَلَلِ؛ إِذَا لَمْ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْمِلَ الْبَنِيةَ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَاقَتِهِ، وَيَسُومَ النَّفْسَ مَا لَيْسَ فِي جِيلَتِهِ، وَإِنَّمَا الْأَلْفَاظَ عَلَى قَدْرِ الْمَعْانِي [فَكَثِيرُهَا لَكَثِيرُهَا]، وَقَلِيلُهَا لَقَلِيلُهَا، وَهَذَا بَابٌ كَبِيرٌ، وَبَعْضُهُ يَنْوِبُ عَنْ بَعْضٍ، وَالْجُزْءُ مِنْهُ يَوْهِمُكَ الْكُلُّ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِي التَّوْفِيقِ.

ذكر مولد النبي ﷺ، ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

تقديم

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا بدء التاريخ في أخبار العالم وأخبار الأنبياء والملوك، وعجائب البر والبحر، وجوامع التاريخ للفرس والروم والقبط، وشهور الروم والقبط، وما كان من مولد النبي ﷺ إلى مبعثه، ومنْ آمن به قبل رسالته، وقد قدمنا في هذا الكتاب مَنْ كان بينه وبين المسيح من أهل الفتنة، فلنذكر الآن مولده؛ إذ كان الطاهر المظہر الأغر الأزهر، الذي اتسعت أعلام نبوته، وتواترت دلائل رسالته، ونطقت الشهادات له قبل بعثته.

نسبه الشريف

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن ناخور بن سود بن يعرب ابن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح، وهو آزر بن تاخور ابن ساروخ بن أرعوأ بن فالغ بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمح بن متولىخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليهما السلام .
هذا ما في نسخة ابن هشام في كتاب المغازى والسير عن ابن إسحاق، والنسخ مختلفة الأسماء في النسب من نزار.

الخلاف في نسب معبد بن عدنان

وفي نسخة أن نزاراً بن معبد بن عدنان بن أدد بن سام بن يشجب بن يعرب بن الهميسع بن صانوع بن يامد بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارح بن ناخور بن أرعوأ ابن أسرور بن فالغ بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن متولىخ بن أخنوخ بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم .

وفي رواية ابن الأعرابي عن هشام بن محمد الكلبي : هو نزار بن معن بن عدنان بن أدد بن الهميص بن نبت بن سلامان بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل بن تارح ابن ناخور بن أرعوأ بن فالع بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متولىخ بن أخيوخ بن يرد بن مهلايل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليهما السلام .

وفي التوراة أن آدم عليهما السلام عاش تسعمائة سنة وثلاثين سنة ؛ فيجب والله أعلم أن آدم عليهما السلام كان عند مولد لمك - وهو أبو نوح النبي عليهما السلام - ابن ثمانمائة سنة وأربع وستين سنة ، وشيث ابن سبعمائة وأربعين سنة ؛ فيجب على هذا الوصف من الحساب أن مولد نوح عليهما السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وستة وعشرين سنة .

وقد نهى النبي ﷺ - على حسب ما ذكرنا من نهيه - أن يتتجاوز عن معن؛ فقد ثبت أن نتوقف في النسب على [معن] ، وقد اختلف أهل النسب على ما ذكرنا ، فالواجب الوقف عند أمره عليهما السلام ونهيه .

قال المسعودي : وقد وجدت نسب [معن] بن عدنان في السفر الذي أثبته ياروخ بن ناريا كاتب أرميا النبي عليهما السلام أن معنًا بن معنًا بن أدد بن الهميص بن سلامان بن عوص بن برو بن متساويل بن أبي العوام بن ناسل بن حرا بن يلدارم بن بدلان بن كالح بن فاجم بن ناخور بن ماحي بن عسقي بن عنف بن عبيد بن الرعاء بن حمران بن يسن بن هري بن بحرى بن يلخي بن أرعوا بن عنقاء بن حسان بن عيسى بن أقتاد بن إيهام بن معصر بن ناجب بن رزاح بن سماي بن مر بن عوص بن عوام بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

وقد كان لأرميا مع معن بن عدنان أخبار يطول ذكرها ، وما كان من أمرهما بالشام ، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا ، وإنما ذكرنا هذا النسب من هذا الوجه ليعلم تنازع الناس في ذلك .

وقد نهى النبي ﷺ عن تجاوز معن؛ لعلمه من تباعد الأنساب وكثرة الآراء في طول هذه المدة والأعصار .

كنية الرسول

وكنيته ﷺ: أبو القاسم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

للهم مَمْنُ قد بَرَا صَفْرَةً وَصَفْرَةَ الْخَلْقِ بْنُو هَاشِمٍ
وَصَفْرَةَ الصَّفْرَةِ مِنْ هَاشِمٍ مُحَمَّدُ النُّورُ أَبُو الْقَاسِمِ

أسماؤه

وهو محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله به الذنوب، والعاقب، والحاشر الذي يحشر [الله] الناس على عقبه ﷺ.

مولده

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل، و[كان] بين عام الفيل وعام الفجراء عشرة سنّة.

حروب الفجراء

والفجراء حرب كانت بين قيس عيلان وبني كنانة، استحلوا فيها القتال في الأشهر الحرم، فسميت الفجراء، وكنانة: بن خزيمة بن مدركة، وهو عمرو، بن إلياس بن مضر بن نزار، وكان ولد إلياس عمراً وعمرأ، فعمرو هو مُدركة، وعامر هو طابخة، وعمير هو قمعة، وكانت أمهم ليلي بنت حلوان بن عمران بن إلحااف بن قضاعة وهي خنف؛ فغلب على مَنْ ذكرنا الألقاب، ونسب ولد إلياس إلى أمهم خنف، وفي ذلك يقول قصي بن كلاب بن مرة:

إني لدى الحرب وحبي، وأبى عند تناديهم بالوهب
معترم الصّولة عالي النسب أمي خنف وإلياس أبي

بطون قريش

وقريش خمسة وعشرون بطناً، وهم: بنو هاشم بن عبد مناف [بنو المطلب بن عبد مناف]، بنو الحارث بن عبد المطلب، [بنو أمية بن عبد شمس، بنو نوّافل بن عبد مناف، بنو الحارث بن فهير]، بنو أسد بن عبد العزّى بنتو عبد الدار بن قصي - وهم حجّة الكعبة - بنو زهرة بن كلاب، بنو ثيم بن مرة، بنو مخزوم، بنو يقظة، بنو مرة، بنو عدي ابن كعب، بنو سهم، بنو جمّع، وإلى هنا تنتهي قريش البطاح على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب، بنو مالك بن حنبل، بنو معيظ بن عامر بن لؤي [بنو نزار بن عامر]، بنو سامة بن لؤي، بنو الأدرم، وهو ثيم بن غالب، بنو محارب بن فهير، بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة، بنو عائذة، وهو خزيمة بن لؤي، بنو نباتة، وهو سعد بن لؤي، ومن بني مالك إلى آخر القبائل في قريش الظواهر على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للمطبيين وغيرهم من قريش.

حلف الفضول

وكان من حرب الفجّار ما ذكرنا للمتناхرين بالعشاير والتکاثر، وانتهى الفجّار في
شوال، وكان حِلْفُ الفضول بعد منصرفهم من الفجّار، فقال بعضهم:
نحن كُنَّا الْمُلُوكَ مِنْ آلِ نَجْدٍ وَحِمَاءَ الزَّمَانِ عِنْدَ الدِّمَارِ
وَمَنَعْنَا الْحَجُونَ مِنْ كُلِّ حَيٍّ وَمَنَعْنَا الْفَجَارَ يَوْمَ الْفَجَارِ
وفي ذلك قال خداشُ بن زهير العامري:

فلا توعديني بالفجّار فإنه أحَلَّ ببطحاء الحجّون المخازيا

سبب حلف الفضول

وقد كان الحلفُ في ذي القعدة بسبب رجل من زيد من اليمن، وكان باع سلعة له
من العاص بن وائل السهمي، فمطلة بالثمن حتى يش، فعلا جبل أبي قبيس، وقريش في
مجالسها حول الكعبة، فنادى بشعر يصف فيه ظلامته. رافعاً صوته منادياً يقول:
يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نادي الحي والنفر
إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر العذر

فمشت قريش بعضها إلى بعض، وكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد
المطلب بن هاشم بن عبد مناف، واجتمعت قبائل قريش في دار الثدوة وكانت للحلّ
والعقد، وكان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو المطلب بن عبد
مناف، وزهرة بن كلاب، وثيم بن مرة، وبنو الحارث بن فهير، فاتفقوا على أنهم
ينصفون المظلوم من الظالم، فساروا إلى دار عبد الله بن جذعان، فتحالفوا هنالك؛ ففي
ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

[حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار]
[نسميه الفضول إذا عقدنا يعزّ به الغريب لدى الجوار]
ويعلم من حوالى البيت أنا أباً الضيم نهجر كل عار

الفجّارات

وقد قدمنا في كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجّارات الأربع: فجّار الرزل، أو
فجّار بدر بن معشر، وفجّار القرد، وفجّار المرأة، وفجّار الرابع هو فجّار البراض، وبين
الفجّار الرابع [الذي كان فيه القتال وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة، وكان من] حضور

النبي ﷺ ومشاهدته الفجأة الرابع إلى أن خرج إلى الشام في تجارة خديجة، ونظر نسطور الراهب إليه وهو في صومعته، والنبي ﷺ مع مَيْسِرَةً، وقد أظلته غمامه، فقال: هذانبي، وهذا آخر الأنبياء - أربع سنين، وتسعة أشهر، وستة أيام، وإلى أن تزوج خديجة بنت خويلد شهراً، وأربعة وعشرون يوماً، وإلى أن شهد بنيان الكعبة، وحضر منازعة قريش في وضع الحجر الأسود عشر سنين.

قريش تبني الكعبة

وقد كان السيلُ هَدَمُ الكعبة فسرق منها لما انهدمت غزال من الذهب وحلَّي وجواهر، فنقضتها قريش، وكان في حيطانها صُورَ كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة: منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يُجيئ بالناس مُفِضاً، والفاروق قائم على وفد من الناس يقسم فيهم، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصي بن كلاب وغيرهم، في نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله صاحبها، وكيفية عبادته، وما اشتهر من فعله.

وضع الحجر الأسود

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سُمكها وتأثَّرَ لها ما أرادت في بنيانها من الخشب الذي ابتعاه من السفينة التي رمى بها البحر إلى ساحلهم التي بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر إلى الجبعة، لتبني هنالك له كنيسة، وانتهوا إلى موضع الحجر على ما ذكرنا وتنازعوا أيهم يَضَعُه، فاتفقوا أن يرضاوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي ﷺ من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه بالأمين؛ لوقاره وديه وصدق اللهجة، واجتنابه القاذورات والأدناس، فحكموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا إلى قضائه، فبسط ما كان عليه من رداء، وقيل: كساء [طاروني]، وأخذ عليه الصلاة والسلام الحَجَرَ فوضعه في وسطه، ثم قال لأربعة رجال من قريش - [وهم] أهل الرياسة فيهم، والزعماء منهم، وهم: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزَّى بن قصي، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم، وقيس بن عدي السهيمي - ليأخذ كل واحد منهم بجنب من جنبات هذا الرداء، فشالوه حتى ارتفع عن الأرض، وأدنوه من موضعه، فأخذ عليه الصلاة والسلام الحَجَرَ ووضعه في مكانه وقريش كلها حضور، وكان ذلك أول ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه.

فقال قائل ممن حضر من قريش متعجبًا من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سنًا:

واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سنًا، وأقلهم مالاً، فجعلوه رئيساً وحاكمًا! أما واللات والعزى ليفوقهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدواً ول يكن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم.

وقد تنوّع في هذا القائل: فمن الناس من رأى أنه إيليس ظهر في ذلك اليوم في جمعهم في صورة رجل من قريش كان قد مات، وزعموا أن اللات والعزى أحياه لذلك المشهد، ومنهم من رأى أنه بعض رجالهم وحكمائهم ومن كانت له فطنة.

كسوة الكعبة

فلما استتمت قريش بناء الكعبة كستها أردية الزعماء، وهي الوسائل، وأعادوا الصور التي كانت مصورة في الكعبة، وأتقنوا شكل ذلك وإحكامه [وكان أبو طالب حاضراً فلما سمع هذا الكلام من هذا القائل في النبي ﷺ، وما يكون من أمره في المستقبل، أنشأ يقول:

إن لنا أوله وأخره في الحكم العدل الذي لا ننكره
وقد جهدنا ليغمره وقد عهdenا أوله وأخره
فإن يكن حقاً ففيها أكثره]

وكان من بناء الكعبة إلى أن بعثه الله ﷺ خمس سنين، ومن مولده إلى يوم مبعثه أربعون سنة ويوم.

تحديد المولد

والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوماً، وكان قدولهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذي القرنين، وكان قدول أبرهة مكة لسبعين عشرة خلت من المحرم ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب، الذي أوله حجة العذر ولستة أربعين من ملك كسرى أنوشروان.

وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة، في دار ابن يوسف، ثم بعد ذلك بنتها الخيزران أم الهادي والرشيد مسجداً وكان أبوه عبد الله غائباً بأرض الشام فانصرف مريضاً، فمات بالمدينة ورسول الله ﷺ حمله، وقد تنوّع في ذلك: فمنهم من قال: إنه مات بعد مولد النبي ﷺ بشهر، ومنهم من قال: إنه مات في السنة الثانية من مولده.

نسب أمه عليها السلام

وأمها آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب وفي السنة الأولى من مولده دُفع إلى حليمة بنت عبد الله بن الحارث تُرْضَعَهُ، وفي السنة الثانية من كونه في بني سعد كان أبو عبد الله يقول:

الحمد لله الذي أعطاني
هذا الغلام الطيب الأرдан
أعيذه بالبيت ذي الأركان
قد ساد في المهد على الغلمان

[وفي رواية أن عبد المطلب قال:]

لا هُمْ رب الراكب المسافر
يُحِمد قلب بخير طائر
تنح عن طريقه الفواجر وحيه برصد الطواهر
واحبس كل حلف فاجر في درج الريح والأعاصر]

أحداث قبل النبوة

وفي السنة الرابعة من مولده شَقَّ الملكان بطنه، واستخرجا قلبه، فشقاه وأخرجا منه علقة سوداء ثم غسلا بطنه وقلبه بالثلج، وقال أحدهما لصاحبه: زَنْهُ بعشرة من أمته، فوزنه فرجح، ثم ما زال يزيد حتى بلغ الألف، فقال والله لو وزنته بأمته لوزنها.

وفي السنة الخامسة رَدَّته إلى أمها مرضعته حليمة؛ وقيل: في مستهل السادسة وبين ذلك وبين عام الفيل خمس سنين وشهران وعشرة أيام.

وفي السنة السابعة من مولده خرجت به أمها إلى أخواله تزورهم، فتوفيت بالأَبْوَاء، وقدمت به أم أيمن إلى مكة بعد خامسة من موت أمها.

وفي السنة الثامنة من مولده توفي جده عبد المطلب، وضممه عمه أبو طالب إليه، وكان في حجره، وخرج مع عمه إلى الشام، وله ثلاثة عشر سنة، ثم خرج في تجارة لخدية بنت خوبيلد إلى الشام مع غلامها ميسرة وهو ابن خمس وعشرين سنة.

قال المسعودي: وقد أتينا على مبسوط هذا الباب، في كتابينا: «أخبار الزمان» و«الأوسط».

ذكر مبعثه ﷺ

وما جاء في ذلك إلى هجرته

مجمل

ثم بعث الله ورسوله وأكرمه بما اختصه به من نبوته، بعد بناء الكعبة بخمس سنين على ما قدمنا آنفاً، وهو ابن أربعين سنة كاملة؛ فأقام بمكة ثلاثة عشرة سنة، وأخفي أمره ثلاثة سنين، ونكح خديجة بنت خويلد [وله خمس وعشرون سنة] وأنزل عليه بمكة من القرآن اثنان وثمانون سورة، ونزل تمام بعضها بالمدينة، وأول ما نزل عليه من القرآن «أَفَرَا يَسِيرَ رَبِّكَ الَّذِي حَلَقَ» [العلق: ١] وأتاه جبريل ﷺ في ليلة السبت، ثم في ليلة الأحد، وخطبه بالرسالة في يوم الاثنين، وذلك بحراء، وهو أول موضع نزل فيه القرآن، وخطبه بأول السورة إلى قوله تعالى «عَمَّرَ الْإِنْسَنَ مَا لَوْ يَعْمَلُ» [العلق: ٥] ونزل تمامها بعد ذلك؛ وخطب بفرض الصلوات ركعتين ركعتين، ثم أمر بإتمامها بعد ذلك، وأقررت ركعتين في السفر وزيد في صلاة الحضر.

تحديد المبعث

وكان مبعثه ﷺ على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبوريز، وذلك على رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالربعة، وذلك لستة آلاف ومائة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام، وقد ذكر مثل هذا عن بعض حكماء العرب في صدر الإسلام من قرأ الكتب السالفة على حسب ما استخرج منها، وفي ذلك يقول في أرجوزة طويلة:

في رأس عشرة من السنين إلى ثلاث حصلت يقين
والمائة المعدودة التمام إلى ألف سدست نظام
أرسله الله لنا رسولا وكان فيما هادي السبيلا

إسلام علي بن أبي طالب

وقد تتوزع في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وإسلامه، فذهب كثير من الناس إلى أنه لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام، بل كان تابعاً للنبي ﷺ في جميع أفعاله

مقتدياً به، وبلغ وهو على ذلك، وأن الله عصمه وسده ووفقه لتبعيه لنبيه ﷺ؛ لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات، بل مختارين قادرين، فاختارا طاعة رب، وموافقة أمره، واجتناب منهياته، ومنهم من رأى أنه أول من آمن، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عز وجل: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْبَرِ» [الشعراء: ٢١٤]، وكان بدؤه بعلي إذ كان أقرب الناس إليه وأتبعهم له، ومنهم من رأى غير ما وصفنا، وهذا موضع قد تنازع الناس فيه الشيعة، وقد احتج كل فريق لقوله ممن قال بالنص في الإمامة والاختيار، وأرضى كل فريق كيفية إسلامه ومقدار سنيه، وقد أتينا على الكلام في ذلك على الشرح والإيضاح في كتابنا المترجم «كتاب الصفوة في الإمامة» وفي كتاب «الاستبصار» وفي كتاب «الزاھي» وغيره من كتبنا في هذا المعنى.

إسلام أبي بكر ومن أسلم بياسلامه

ثم أسلم أبو بكر رضي الله عنه، ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم على يديه عثمان ابن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله؛ فجاء بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا، فهؤلاء النفر سبقو الناس بالإيمان، وقد قال بعض من تقدم من الشعراء في صدر الإسلام يذكرهم:

فيما سألي عن خيار العبا
خيار العباد جميعاً قريش
وخير قريش ذوى الهمجرة
وخير ذوى الهجرة السابقون
ثمانية وحدهم نُصرة
على وعثمان ثم الزبير
وشيخان قد جاؤا أحمداً
فمن كان بعدهما فاخراً

الخلاف في أول من أسلم

وقد اختلف في أول من أسلم: فمنهم من رأى أن أبي بكر الصديق كان أول الناس إسلاماً، وأسبقهم إيماناً، ثم بلال بن حمام، ثم عمرو بن عبسة، ومنهم من ذهب إلى أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال علي، ومنهم من رأى أن أول من أسلم زيد بن حارثة [حب النبي ﷺ] ثم خديجة، ثم علي كرم الله وجهه، وقد ذكرنا ما اجتبينا من القول في ذلك فيما قدمنا ذكره [من كتبنا] في هذا المعنى، والله تعالى ولي التوفيق.

ذكر هجرته، وجوابع مما كان في أيامه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلى وقت وفاته

تقدمه

أمر الله عز وجل رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بالهجرة، وفرض عليه الجهاد، وذلك في سنة إحدى من [سني] الهجرة، وهي السنة التي نزل فيها الأذان، وكانت سنة أربع عشرة منبعث.

وكان ابن عباس يقول: بُعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وهو ابن أربعين سنة، وأقام بمكة ثلاثة عشرة سنة، وهاجر عشرًا، وقبض وهو ابن ثلث وستين سنة.

تحديد الهجرة

وكانت سنة إحدى من الهجرة، وهي سنة اثنين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز، وسنة تسع من ملك هرقل ملك النصرانية، وسنة تسعماة وثلاث وثلاثين من ملك الإسكندر المقدوني.

كيف فعل في الهجرة؟

قال المسعودي : وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ في خروجه من مكة [ودخوله الغار] واستئجار علي له الإبل، ونؤمه على فراشه ؛ فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ من مكة ، ومعه أبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أرنيط الديلي دليل لهم على الطريق ، ولم يكن مسلماً ، وكان مقام علي بن أبي طالب بعده بمكة ثلاثة أيام إلى أن أدى ما أمر بأدائه ، ثم لحق بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

دخول المدينة

وكان دخوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة يوم الاثنين لاثتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، فأقام بها عشر سنين كواهل ، وكان نزوله عليه الصلاة والسلام في حال موافاته المدينة بقباء على سعد بن خيثمة [وابتني المسجد] وكان مقامه بقباء يوم الاثنين

والثلاثاء والأربعاء والخميس، وسار يوم الجمعة ارتفاع النهار، وأتته الأنصار حيًّا حيًّا يسأله كل فريق [منهم] التزول عليه ويتعلقون بزمام راحلته وهي تجذبه. فيقول عليه الصلاة والسلام: «خُلُوا عنها فإنها مأمورة» حتى أدركته الصلاة فيبني سالم، فصلَّى بهم يوم الجمعة، وكانت تلك أول جمعة صليت في الإسلام، وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذي تم بهم صلاة الجمعة: فذهب الشافعي في آخرين معه إلى أن الجمعة لا تجب إقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعداً، وأقل من ذلك لا يجزي، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم، وكانت صلاته في بطن الوادي المعروف بوادي رأثوناء إلى هذه الغاية، ثم استوى على ناقته، فسارت لا تُعرج على شيء، ولا يردها راًد، حتى أتت إلى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام، والموضع يومئذ لغامين يتيمين من بني النجار، فبركت، ثم سارت [فمضت] غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها واطمانت، والنبي ﷺ يراعي أحكام الباري فيه، وتوفيقه له، فنزل عنها، وسار إلى منزل أبي أيوب الأنصاري - وهو خالد بن كلبي بن ثعلبة بن عوف بن سحيم بن مالك بن النجار - فأقام في منزله شهراً حتى ابْتَيَ المسجد من بعد ابْتِياعه الموضع، وأحدثت به الأنصار واشتد سرورهم به، وأظهروا التأسف على ما فاتهم من نُصرته، وفي ذلك يقول صرمة بن [أبي] أنس أحد بني عدي النجار من قصيدة:

ثُوَى في قريش بضع عشرة حَجَّةَ
يُذَكِّرُ لَا يلقى صديقاً مواتياً
[ويعرض في أهل المواسم نفسه]
فلم ير من يوفي، ولم ير داعياً]
فَلَمَا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ
وأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطِيبَةِ رَاضِيَا
[وأصبح لا يخشى من الناس واحداً]
بَعِيداً، وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ دَانِيَا
[بَذَلْنَا لِهِ الْأَمْوَالَ فِي كُلِّ مَلْكَنَا]
وَأَنْفَسْنَا عَنْدَ الْوَغْرِيِّ وَالْتَّاسِيَا
[وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرَهُ]
وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لِلْحَقِّ رَائِيَا
نَعَادِيُّ الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمَصَافِيَا
فافرض [صيام] شهر رمضان، وحوّلت القبلة إلى الكعبة بعد قدومه بثمانية عشر
شهرًا، وقد قيل: إنه أنزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة.

علته ووفاته

ثم قبضه الله يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر في
الساعة التي دخل فيها المدينة، في منزل عائشة رضي الله عنه، وكانت علته اثني عشر
يوماً.

غزواته

وكانت غزواته ص بنفسه ستاً وعشرين غزواً، ومنهم من رأى أنها سبع وعشرون، الأولون جعلوا منصرف النبي ص من خير إلى وادي القرى غزوة واحدة، والذين جعلوها سبعاً وعشرين جعلوا غزوة خير مفردة ووادي القرى منصرف إلىها غزوة أخرى غير خير؛ فوقع التنازع في أعداد الغزوات من هذا الوجه، وذلك أن النبي ص حين فتح الله خير انصرف منها إلى وادي القرى من غير أن يأتي المدينة.

ترتيبها

وكان أول غزوته ص من المدينة بنفسه إلى وَدَان، وهي المعروفة بغزوة الأباء، ثم غزوة بُواط إلى ناحية رَضْوَى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى، وكان خروجه طلباً لكرز بن جابر، ثم غزوة بدر الكبرى، وهي بدر الثانية التي قُتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأسر من أسر من زعمائهم، ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الموضع المعروف بالكدر ماء لبني سليم، ثم غزوة السويق طلباً لأبي سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقرقرة الكدر، ثم غزوة غطفان إلى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي أمر، ثم غزوة بحران وهو موضع بالحجاز من فوق الفرع ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نجد، ثم غزوة بدر الأخيرة، ثم غزوة دومة الجندي [ثم غزوة المُرِيسِع] ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بني قُريظة، ثم غزوة بني لحيان بن هذيل بن مدركة، ثم غزوة ذي قرد، ثم غزوة بني المصطلق من خُزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يزيد قتالاً فصده المشركون، ثم غزوة خير، ثم اعتمر ص عمرة القضاء، ثم فتح مكة، ثم غزوة حُنَين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تَبُوك.

قاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، وخير، والفتح، وحنين، والطائف، وتَبُوك.

قول الواقدي في غزواته

هذا قول محمد بن إسحاق، فأما ما ذهب إليه الواقدي فإنه وافق ابن إسحاق في قتال النبي ص في هذه التسع الغزوات، وزاد أن النبي ص قاتل في غزاة وادي القرى، وذلك أن غلامه المعروف بمدحه رمي بسهم فقتل، وقاتل في يوم الغابة فقتل من المشركين ستة نفر، وقتل يومئذ محرز بن نضلة ففي قول الواقدي أنه قاتل في إحدى عشرة غزوة، وفي قول ابن إسحاق تسع، فقتاله في التسع باتفاق منهما، وزاد الواقدي على ما ذكرنا.

وقد قيل: إن أول غزوة غزاها غَلَقَتُهُ ذات العشيرة.

سراياه وبعوته

وقد تنازع مَنْ سلف من أهل السير والأخبار في عدة سراياه وبعوته: فقال قوم: إن عدة سراياه وبعوته بين أن قدم المدينة وبين أن قبضه الله خمس وثلاثون بعثاً وسَرِيَّة، وذكر محمد بن جرير الطبرى في كتابه في التاريخ قال: حدثني الحارث قال: حدثنا ابن سعد، قال: قال محمد بن عمر الواقدى: كانت سرايا النبي بِيَّنَةً ثمانيناً وأربعين سَرِيَّةً، وقيل: إن سراياه بِيَّنَةً وبعوته كانت ستة وستين.

مشاهير الأحداث

وقبض بِيَّنَةً وهو ابن ثلاط وستين سنة على حسب ما تقدم في صدر هذا الباب من قول ابن عباس، ولم يختلف من الولد إلا فاطمة غَلَقَتُهُ، وتوفيت بعده بأربعين يوماً، وقيل: سبعين يوماً، وقيل غير ذلك.

وكان تزوج علي بن أبي طالب بفاطمة غَلَقَتُهُ بعد سنة مضت من الهجرة، وقيل أقل من ذلك.

وكانت أول امرأة تزوج بها النبي بِيَّنَةً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وكانت وفاتها في شوال بعد مبعثه بثلاث سنين.

وأنسرى به وهو ابن إحدى وخمسين سنة وثمانين أشهر وعشرين يوماً.

وكانت وفاة عمّة أبي طالب - واسمه عبد مناف [بن عبد المطلب] - بعد وفاة خديجة بثلاثة أيام، وهو ابن تسع وأربعين سنة وثمانين أشهر، وقد قيل: إن أبو طالب اسم له.

وتزوج بعد وفاة خديجة بسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد وُدد بن نصر بن مالك [بن جنبل].

وتزوج بعائشة رضي الله عنها [قبل الهجرة بستين، وقيل: تزوجها بعد وفاة خديجة، ودخل بها] بعد الهجرة بسبعة أشهر وتسعة أيام، وقد أتينا على ذكر سائر أزواجها في الكتاب الأوسط؛ فأغنى [ذلك] عن إعادةه.

روى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إن الله عز وجل أدب محمداً بِيَّنَةً فأحسن تأدبه، فقال: «خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَرْفُوِّ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيَّةِ» [الأعراف: ١٩٩]، فلما كان كذلك قال الله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ حُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤] فلم قبل من الله فوض إليه فقال: «وَمَا أَنْتُ كُمْ

الرَّسُولُ فَحَدَّوْهُ وَمَا نَهَّكُمْ عَنِهِ فَإِنَّهُمْ [الحشر: ٧] وكان يضمن على الله الجنة، فأجيز له ذلك.

وكان عده من تزوج من النساء خمس عشرة: دخل بإحدى عشر منهن، ولم يدخل بأربع، وقضى عليه عن تسع.

النزاع في عمره عليه الصلاة والسلام

قال المسعودي: وقد تنوزع في مقدار عمره عليه، وقد قدمتنا ما روي في ذلك عن ابن عباس، وهو ما ذكره حماد بن سلمة بن أبي حمزة عن ابن عباس، وقد روي عن أبي هريرة مثل قول ابن عباس، وذكر عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: أُنزل على رسول الله عليه القرآن وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وأقام بمكة عشرًا، [وبالمدينة عشرًا]، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكذلك ذكر عن عائشة قالت: توفي رسول الله عليه وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقد روي عن ابن عباس من وجه آخر أن رسول الله عليه قضى وهو ابن خمس وستين سنة، وكذلك ذكر ابن هشام قال: حدثنا علي ابن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، وذكر قتادة عن الحسن عن دغفل - يعني ابن حنظلة - أن النبي عليه توفي وهو ابن خمس وستين، وقد قيل: إنه قضى وهو ابن ستين، وذكر ذلك عن ابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير، وذكر حماد قال: أخبرنا عمرو بن دينار، عن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله عليه وهو ابن أربعين سنة، ومات وهو ابن ستين، وذكر شيبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال: حدثني عائشة رضي الله عنها وابن عباس أن رسول الله عليه بعث وهو ابن أربعين سنة، فلبث بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وقضى وهو ابن ستين عليه.

وفاته وتكفينه ودفنه عليه

وإنما حكينا هذا الخلاف ليعلم من نظر في كتابنا هذا أنا لم نغفل شيئاً مما قالوه، ولا تركنا شيئاً ذكره إلا ذكرنا منه ما تأثرنا به وأشرنا إليه، ميلاً إلى الاختصار وطلبًا للإيجاز، والذي وجدهنا عليه آل محمد عليه الصلاة والسلام أنه قضى ابن ثلاث وستين سنة، ولما غسل عليه الصلاة والسلام كفن في ثلاثة أثواب ثوابين صُحَارَيْن وثواب حَبَرَة أدرج فيها إدراجاً، ونزل في قبره علي بن أبي طالب والفضل وقُشم ابن العباس وشَفَّرَان مولى رسول الله عليه، وقد ذكر في مقدار الثياب للكفن غير ما ذكرنا، والله أعلم بكيفية ذلك.

ولنرجع الآن إلى ذكر لمع من أمره وأخبار كانت من مولده إلى وفاته عليه وشرف وعظم.

ذكر أمور وأحوال من مولده إلى وفاته

تقدمة

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكر مولده عليه السلام وبعثه ووفاته جوامع يكتفي بها العالم المستبصر، ويتبَّأَ بها الطالب المسترشد، وذكروا جُملاً من الكواين والأحداث في تضاعيف ذلك، وأفردنا هذا الباب لذكر ترتيب جمل من السنين من مولده إلى وفاته، وجمل أحداث وكواين كانت في أيامه؛ ليقرب تناول ذلك على مريده، ويسهل مأخذة على الطالب له، وإن كنا قد أتينا على لمع من مبسوط هذا الباب فيما تقدمه من الأبواب إن شاء الله.

السنة الأولى من مولده

ففي أول سنة من مولده، دفع إلى حليمة بنت عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصافة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

السنة الخامسة

وفي السنة الخامسة من مولده رَدَّتْه حليمة إلى أمه، على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب.

السنة السادسة

وفي السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله زائرة فتوفيت بالأبواء بين مكة والمدينة، ونمي ذلك إلى أم أيمن، فخرجت إليه؛ وقدمت به إلى مكة؛ وكانت مولاة له قد ورثها عن أمه.

خروجه إلى الشام

وفي السنة التاسعة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، وقيل: إنه خرج مع عمه

أبي طالب إلى الشام وله ثلاثة عشرة سنة، وقد كان أبو طالب أخا عبد الله أبي النبي ﷺ لأبيه وأمه؛ فلذلك كفل بأمر النبي ﷺ من بين سائر إخوته - وهم: العباس، وحمزة، والزبير، وحجل، والمقدوم، وضرار، والحارث، وأبو لهب - وهم عشرة بنو عبد المطلب، وكان عبد المطلب ستة عشر ولداً: عشرة ذكور، وهم من سميها، وست إناث، وهن: عاتكة، وصفية، وأمية، والبيضاء، وبَرَّة، وأُزْوَى، ولم يسلم منها إلا صفية أم الزبير بن العوام، وقد توزع في أروى: فمنهم من قال: إنها أسلمت [ومنهم من خالف ذلك].

وفي خروجه ﷺ مع عمه في هذه السنة نظر إليه بحيراً الراهب، وأوصاه بمراعاته من اليهود فإنهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لخبر بحيراً الراهب وما كان من إخباره بنبوة النبي ﷺ، وذلك في باب أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام.

شهوده الفجار

وقد قدمنا أنه ﷺ شهد يوم حرب الفجار، وذلك في سنة إحدى وعشرين، وأنها حرب كانت بين قريش وقيس عيلان، فيما سلف من هذا الكتاب وغيره، وأنها إنما سميت بهذا الاسم الذي هو الفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم، وكانت لقيس على قريش، وأن النبي ﷺ لما شاهدتها صارت لقريش على قيس، وكان على قريش يومئذ عبد الله بن جُدعان التيمي، وكان نخاساً في الجاهلية بياعاً للجواري، وكانت هذه إحدى الدلائل المنذرة بنبوته ﷺ واليمين بحضوره.

ست وعشرين

وفي سنة ست وعشرين كان تزويجه بخديجة بنت خويلد، وهي يومئذ بنت أربعين، وقيل في سنها غير هذا.

ست وثلاثين

وفي سنة ست وثلاثين بنت قريش الكعبة، وتراءست به، فوضع الحجر على حسب ما قدمنا.

إحدى وأربعين

وفي سنة إحدى وأربعين بعثه الله نبياً ورسولاً إلى كافة الناس، وذلك [يوم الاثنين]

لعشر خلون من ربيع الأول، على حسب تنازع الناس في تاريخ مبعثه عليه السلام.

ست وأربعين

وفي سنة ست وأربعين كان حصار قريش النبي صلوات الله عليه وسلم وبني هاشم وبني [عبد] المطلب في الشغب.

سنة خمسين

وفي سنة خمسين كان خروجه عليه السلام ومن تبعه من الشعب.

وفي هذه السنة كانت وفاة خديجة زوجه [وفيها كان خروجه إلى الطائف] على حسب ما ذكرنا.

إحدى وخمسين

وفي سنة إحدى وخمسين كان الإسراء به صلوات الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، على حسب ما نطق به التنزيل.

أربع وخمسين

وفي سنة أربع وخمسين كانت هجرته صلوات الله عليه وسلم إلى المدينة، وفيها بني صلوات الله عليه وسلم مسجده، وفيها دخل عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه وهي ابنة تسع، وتزوج بها [قبل الهجرة وهي بنت سبع، وقيل: إنه تزوجها وهي بنت ست سنين، وبينها في المدينة] بعد الهجرة بسبعة أشهر، وقيل عن عائشة، إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قبض وهي بنت ثمان عشرة سنة، وكانت وفاتها سنة ثمان وخمسين من الهجرة، [بالمدينة، وصلى عليها أبو هريرة في أيام معاوية بن أبي سفيان وقد قاربت السبعين] وفيها أمر رسول الله صلوات الله عليه وسلم بالأذان، وأمر عبد الله بن زيد كيفية الأذان في منامه، وفيها كان تزوج علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا من التنازع في التاريخ.

اثنتين من الهجرة

وفي سنة اثنتين من الهجرة افترض على المؤمنين صوم شهر رمضان، وفي هذه السنة أمر النبي صلوات الله عليه وسلم بالتوجه إلى الكعبة، وفيها توفيت ابنته رقية، وفي آخر هذه السنة - وهي سنة اثنتين من الهجرة - كان دخول علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وفيها كانت وقعة بدر، وذلك في يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

ثلاث من الهجرة

وفي سنة ثلاث كان تزويجه بزيتب بنت خُزيمة، وكانت وفاتها بعد شهرين، وفي هذه السنة كان تزويجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب، وفيها كان تزويجه عثمان بن عفان بأم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ، وفيها كان مولد الحسن بن علي بن أبي طالب على ما في ذلك من التنازع في التاريخ، وفيها كانت غزوة أحد، وفي هذه السنة استشهد حمزة بن عبد المطلب.

أربع من الهجرة

وفي سنة أربع كانت غزوه المعروفة بذات الرّقاع، وفي هذه الغزاة صلّى صلاة الخوف بالناس، على حسب ما ذكر في كيفية ذلك من التنازع، وفيها كان تزويجه بأم سلمة بنت [أبي] أمية، وفيها كانت غزوه إلى اليهود من بني النّضير وامتنعوا منه بحصونهم، فقطعوا نخلهم وشجرهم، وأضرموا النار عليهم، فلما رأى ذلك صالحهم، وفيها كانت غزوه إلى بني المصطلق، وفيها - وهي سنة أربع - كان مولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد قيل: إن مولد فاطمة رضي الله تعالى عنها [كان] قبل الهجرة بثمان سنين.

خمس من الهجرة

وفي سنة خمس كانت غزوة الخندق وما كان [فيها] من حفر الخندق، وفيها غزا اليهود من بني قريظة، وكان من أمرهم ما قد شهر، وفيها كان تزويجه بزيتب بنت جحش، وفيها كان تقول أهل الإفك على عائشة رضي الله تعالى عنها.

ست من الهجرة

وفي سنة ست كان استسقاوه للنبي ﷺ لما لحق الناس من الضر والجدب، وفيها اعتمر عمرته المعروفة بعمره الحديبية وواعد المشركين، وفيها أخذ فدك، وفيها تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، ووجه بالرسُل إلى كسرى وقيصر، وكان فيها أداؤه لكتابه جُويرية بنت الحارث وتزويجه بها.

سبع من الهجرة

وفي سنة سبع غزا خير فافتتحها، واصطفى صفية بنت حُبَيْبَيْنَ بن أخطب لنفسه، وفيها تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية خالة عبد الله بن عباس في سفره حين اعتمر

عمره القضاء، على ما ذكر من التنازع في نكاحه لها، أفي حال حله نكحها أم في حال إحرامه؟ وما قال الفقهاء في ذلك، وتنازع الناس في نكاح المحرم، وفيها كان قدوم حاطب بن أبي بلترة من مصر من عند المقوقس ملكها ومعه مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وغير ذلك من هدايا المقوقس إليه، وفيها كان قدوم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة [ومعه أولاده وزوجته وغيرهم من المسلمين ممن كان بأرض الحبشة].

ثمان من الهجرة

وفي سنة ثمان استشهد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بأرض مؤتة من أرض البلقاء من أرض الشام وأعمال دمشق في وقتهم مع الروم، وفيها كانت وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ، وقيل: غير ذلك من التاريخ.

فتح مكة

وفي سنة ثمان كان افتتاح النبي ﷺ مكة، وقد تنازع الناس في فتحها، أصلحًا كان أم عنوة؟ وفيها كسرت الأصنام، وهدمت العزّى ثم قال النبي ﷺ: «يا معاشر قريش، ما ترون أنِي فاعل بكم؟» قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «إذهبوا فأئتم الطلقاء»، وفيها غزا غزوة حنين، وكان على هوازن مالك بن عوف التَّضْرِي ومعه ذُرِيد بن الصُّمَّة، وفيها كانت غزوة الطائف، وفيها كان إعطاؤه للمؤلفة قلوبهم وفيهم أبو سفيان صخر بن حرب وابنه معاوية، وفيها كان مولد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية.

تسعة من الهجرة

وفي سنة تسعة حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالناس، وقرأ علي بن أبي طالب عليهم سورة براءة، وأمر أن لا يحج مشرك، وأنه لا يطوف بالبيت عريان، وفيها كانت وفاة أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

عشر من الهجرة

وفي سنة عشر حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيتته يوم خلق الله السموات والأرض»، وفيها كانت وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وله سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام، وقيل غير ذلك، وفيها كان بعثه عليه الصلاة والسلام بعلي إلى اليمن، وأحرم كإحرام النبي ﷺ.

إحدى عشرة من الهجرة

[وفي سنة إحدى عشرة كانت وفاته] على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب قبل هذا الباب من ذكر وفاته ومقدار عمره وما قاله الناس في ذلك، وفيها كانت وفاة فاطمة بنت رسول الله [عليه السلام] على حسب ما ذكرنا من تنازع الناس في مقدار عمرها ومدة بقائها بعد أبيها، ومن الذي صلى عليها: العباس بن عبد المطلب أم بَعْلُوها على؟ ولما قبضت جزع عليها بعلها علي شديداً واشتد بكاؤه وظهر أنينه وحنينه، وقال في ذلك:

لكل اجتماع من خليلين فُرْقة وكلُّ الذي دون الممات قليل وإن افتقادِي فاطمًا بعدَ أَحْمَد دليلٌ على أن لا يدوم خليل

أولاده

وكلُّ أولاده [عليه السلام] من خديجة خلا إبراهيم: ولد له [عليه السلام]: القاسم، وبه كان يكتنی، وكان أكبر بنيه ستاً، ورقية وأم كلثوم، وكانت تحت عتبة وعيته ابني أبي لهب [عمه] فطلقاهمَا لخبر يطول ذكره، فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة، وزينب، وكانت تحت أبي العاص بن الربيع، وفرق الإسلام بينهما، ثم أسلم فردها عليه بالنكاح الأول، وهذا موضع خلاف بين أهل العلم في كيفية رده عليه الصلاة والسلام لزينب على أبي العاص، وولدت من أبي العاص أمامة، وتزوجها علي بعد موت فاطمة [عليها السلام].

وولد له عليه الصلاة والسلام بعد ما بعث عبد الله وهو الطيب والطاهر، الثلاثة الأسماء له؛ لأنَّه ولد في الإسلام، وفاطمة، وإبراهيم.

وقد أتينا في كتابنا «أخبار الزمان» والكتاب الأوسط على ما كان في سنة سنة من مولده عليه الصلاة والسلام إلى مبعثه، ومن مبعثه إلى هجرته، ومن هجرته إلى وفاته، ومن وفاته إلى وقتنا هذا - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - وما كان في ذلك من المغازي [والفتح] والسرايا والبعوث [والطرائق] والأحداث، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً منبهين بذلك على ما سلف من كتبنا، ومذكرين لما تقدم من تصنيفنا، وبالله التوفيق.

ذكر ما بدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأئمة

تقدمة

قال أبو الحسن علي بن الحسين [بن علي] بن عبد الله المسعودي: بعث الله نبيه ﷺ رحمة للعالمين، ومبشراً للناس أجمعين، وقرنه الله بالآيات، والبراهين النيرات، وأتى بالقرآن المعجز؛ فتحدى به قوماً وهم الغاية في الفصاحة، والنهاية في البلاغة، وأولوا العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب والسبعين والمُقْفَى والمتشور والمنظوم والأشعار في المكارم وفي الحث والزجر والتحضيض والإغراء والوعيد والمدح والتهجيج، فَقَرَعَ به أسماعهم، وأعجز به أذهانهم وفَقَعَ به أفعالهم، وذم به آراءهم [وسفة به أحلامهم] وأزال به دياناتهم، وأبطل [به] سنتهم، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم أن لا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، مع كونه عربياً ميناً.

وقد تنازع الناس في نظم القرآن وإعجازه، وليس الغرض من هذا [الكتاب] وصف أقاويل المختلفين، والإخبار عن كلام المتنازعين؛ إذ كان كتاب خبر، لا كتاب بحث ونظر.

آتاه الله الحكمة

ثبت عنه عليه الصلاة والسلام بالعلم الموروث، ونقل إلينا الباقى عن الماضي من بعد قيام الأدلة على صدقه، وما أورد من المعجزات والدلائل والعلامات التي أظهرها [ها] الله على يديه ليؤدي رسالات ربه إلى خلقه - أنه قال: أُوتيت جوامع الكلم، وقال: اختصر لي الكلام، مخبراً بما أُوتى من الحكمة [والبيان غير القرآن المعجز، وهو ما أُوتى عليه الصلاة والسلام من الحكمة] والنطق اليسير، والكلام القصير المفيد للمعاني الكثيرة والوجوه المتفرقة [مع ما فيه من الحكمة وتمام المصلحة].

وكان كلامه عليه السلام أحسن المقال وأوْجَزَه؛ لقلة ألفاظه وكثرة معانيه.

من موجز كلامه

فمن ذلك قوله ﷺ عند عزِّيه لنفسه على القبائل بمكة ومعه أبو بكر وعلي ووقوفه على بكر بن وائل، وتقديم أبي بكر إليهم، وما جرى بينه وبين دغفل من الكلام في النسب «الباء مُؤَكِّل بالمنطق» وهذا مما سبق إليه من الكلام ولم يصف إلى غيره من الأنام. ثم إخباره عن الحرب وقوله «الحرب خدعة» فعلم بهذا اللفظ اليسير والكلام الوجيز أن آخر مكاييد الحرب القتال بالسيف؛ إذ كان بدؤها خدعة، كما قال عليه الصلاة والسلام، وهذا يعرفه كل ذي رأي صحيح وذي رياضة وسياسة.

ثم قال: «العائد في هبته كالعائد في قيئه» زاجراً بهذا القول للواهب أن يسترجع شيئاً وله؛ إذ كان الفيء لا يرجع فيه من قاءه.

وللناس في هذا المعنى كلام كثير وخطب طويل، وإنما الغرض فيما نذكر إيراد كلامه ﷺ، ووصف قوله الذي لم يتقدمه به أحد من الناس.

وقوله «اخْنُوا في وجوه المَدَاحِينِ التَّرَابَ» المراد من ذلك إذا كذَّبَ المادح، ولم يُرد ﷺ إذا شكر الإنسان غيره بما أولاه أو وصفه بما هو فيه أو قال ما له أن يقول إن يُحشى في وجهه التراب، ولو كان هذا معنى قوله ﷺ إذا ما مدح أحد أحداً؛ إذ كان هذا النهي عموماً للصادق والكاذب، وأن يُحشى في وجه الجميع التراب، وهذا خلاف ما جاء به التنزيل حيث يقول عز وجل مخبراً عن نبيه يوسف وقوله للملك: «أَجْعَلْنِي عَلَىٰ حَرَابِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظُ عَلَيْهِ» [يوسف: ٥٥] فقد مدح نفسه ووصف حاله.

وجميع ما يذكر في هذا الباب مستفيض في السير والأخبار متعارف عند العلماء، متداول بين الحكماء، يتمثل به كثير من الناس، وتستعمل العوام كثيراً منه في ألفاظها، وثورده في أمثالها، وخطاباتها، والأكثر منهم لا يعلم أن رسول الله ﷺ [أول من تكلم به، وسبَّق إلى إيراده].

وقال عليه الصلاة والسلام: مَطْلَلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَمَنْ أَتَيْعَ عَلَىٰ مَلِيءٍ فَلِيَتَبَعِ، وقوله: الأرواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها اختلف، وما تناكر منها اختلف، رئيس الحكمة معرفة الله. يا خيل الله اركبي وأبشرى بالجنة. الآن حمي الوطيس. لا يتقطع فيها عنزان. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يجني على المرء إلا يده. ليس الخبر كالمعاينة. الشديد من غلب نفسه. بورك لأمتى في بكورها. ساق القوم آخرهم شريباً. المجالس بالأمانات. لو بَغَى جبل على جبل لدُكَ الْبَاغِي مِنْهُمَا [ابداً بمن تعول] مات حَنَفَ أنفه، يرید بذلك الفجأة وأنه مات من غير علة [ولَا حَالٍ أَوْجَبَتْ وَلَا سَبَبَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ]

تقدمت]، لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنمًا والزكاة مغروماً. قيدوا العلم بالكتابة. خير المال عين ساهرة لعين نائمة. المسلم مرآة المسلم. رحم الله من قال خيراً فغم أو سكت [عن شر] فسلم. المرء كثير بأخيه. اليد العليا خير من اليد السفلية. ترك الشر صدقة. فضل العلم خير من فضل العبادة. الغنى غنى النفس. الأعمال بالنيات. أي داء أدوا من البخل؟ الحباء خير كله. الخيل معقود بنواصيها الخير. السعيد من وُعظ بغيره. علة المؤمن كأخذ باليد. إن من الشعر لحكمة ومن البيان لسحراً. عفو الملوك بقاء للملك. ارْحَمَ من في الأرض يرحمك من في السماء. المكر والخدعة في النار. المرء مع من أحبّ، وله ما اكتسب. ليس منا من لم يرحم صغیرنا ويعرف حق کبیرنا. المستشار مؤمن. من قُتل دون ماله فهو شهيد. لا يحل لمؤمن أن يهجر أخيه فوق ثلاث. الدال على الخير كفاعله. الندم توبية. الولد للفراش وللعاهر الحجر. كل معروف صدقة. لا يشكر الله من لا يشكّر الناس. لا يُؤوي الضالة إلا ضال، حُبُك الشيء يعمي ويصم، السَّفَر قطعة من العذاب، قوله للأنصار: إنكم لتقلون عند الطمع وتکثرون عند الفزع، قوله: المسلمين عند شروطهم إلا شرطاً أَحَلَ حراماً أو حَرَمَ حلالاً. الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته. الناس معادن كمعدن الذهب [والفضة]. الظلم ظلمات يوم القيمة. تمام التحية المصافحة. جُبِلت النفوس على حب من أحسن إليها. أمنك من أعتك. ما نقص مال من صدقة. التائب من الذنب كمن لا ذُئْب له. الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. خذ حقك في عَفَاف واف أو غير واف. أعطوا الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه. أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف يوم القيمة. الجنة تحت ظلال السيف. ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه، انقووا النار ولو بشق تمرة. أَعْرُوا النساء يلزم من الحجاب. الكلمة الطيبة صدقة. لا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه. الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر. ما أملأَ تاجر صدق. الدعاء سلاح المؤمن. خير الأمور أوسطها. إذا أتاكم الزائر فأكرموه. اشفعوا تحملوا أو تؤجروا. الإيمان الصبر والسماحة أفضلكم معرفة. ما هلك امرؤ عن مشورة. ما عال امرؤ اقتصد. ما هلك امرؤ عرف قدره. شر العمى عمى القلب. الكذب مجانب للإيمان. ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى. [من أثني فقد كفى] قلة الحياة كفر. المؤمنون هيئون ليئون. شر الندامة يوم القيمة. شر المعدنة عند الموت. أُقْلِلُوا عثرات الكرام. اطلبوا الخير عند صباح الوجوه. الدنيا حُلْوة خضراء، وإن الله مستعملكم فيها ينظر كيف تعملون. انتظار الفرج عبادة. كادت القافة أن تكون كفراً. لم يبق من الدنيا إلا بلاه وفتنة. في كل عام ترذلون. زُرْ غبَاً تردد حباً. الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، أو قال: جميع الناس، قوله: لا يلقى الله أحد إلا نادماً. من عمل خيراً قال: يا لبني ازدلت،

ومن عمل غير ذلك قال: يا ليتني قصرت، وهذا مثل قوله: إياكم والتسويف وطول الأمل؛ فإنه كان سبباً لهلاك الأمم. قوله: ليس منا من غشنا، وهذا القول يتحمل معاني كثيرة: منها أن يكون إخباراً أن من غش المسلمين على حسب الحال في الوقت أن بعض أهل الكتاب أو المنافقين أخبر عنه بما كان من فعله، ويتحمل أن يكون على طريق الزجر والنهي عن الغش، وقد قيل غير ذلك، والله أعلم، مثل ما روى عنه أبو مسعود البدرى [أنه] قال: لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة أحد إلا مات، فاستفاضت هذه الرواية عن أبي مسعود عن النبي ﷺ، فجزع الأكثرون، فأفضى ذلك إلى علي رضي الله عنه، فقال: صدق أبو مسعود فيما قال، وذهب عنه المراد بذلك، وإنما مراد النبي ﷺ أن لا يبقى على وجه الأرض أحد بعد رأس مائة من رأى النبي ﷺ إلا مات [وقوله: استعينوا على أموركم بالكتمان، وعلى قضاء حوائجكم بالإسرار].

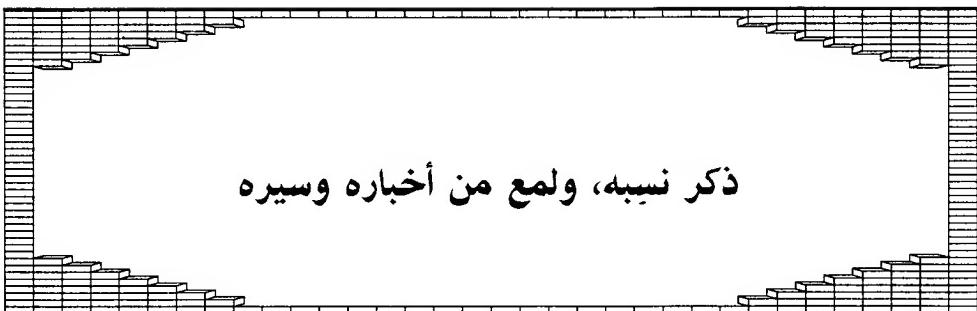
ذكر بعض من جمع موجز أقوال الرسول ﷺ

قال المسعودي: وقد جمع كثيراً من تقدم ومن شاهدناه كثيراً من ألفاظ النبي ﷺ [فأوردها في كتبهم، وذكروها في تصنيفهم، وقد أفرد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد لذلك كتاباً ترجمة بكتاب «المجتبى» يذكر فيه جملة من ألفاظه ﷺ، وكذلك ذكر أبو إسحاق الرجاجي النحوي صاحب أبي العباس المبرد، وأبو عبد الله نفطويه، وجعفر بن محمد بن حمدان الموصلـي، وغير هؤلاء من تقدّمهم وتأخر عنهم، أوردنا من ذلك في هذا الكتاب ما سهل إبراده وتأنى لنا ذكره، على حسب الحاجة إليه واستحقاق الموضوع له، وإن كُنا قد أتينا على جميع ما يحتاج إليه في هذه المعاني فيما سلف من كُتبنا وتقدم من تصنيفنا فأغنى ذلك عن إعادتها، والله تعالى ولي التوفيق.

باب ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

جماع تاريخه

قال المسعودي : ثم بايع الناسُ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، في سقيفة بني ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري ، في يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ ، وتوفي أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمانين بقين من جمادى الآخرة سنة ثلث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلث وستين سنة ، مستوفياً لعمر النبي ﷺ ، وهذا اتفاق فيسائر الروايات على ما ذكرنا ، وكان مولد أبي بكر بعد الفيل بثلاث سنين ، وكانت ولادته ستين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ودفن إلى جنب رسول الله ﷺ [رأسه على كتف رسول الله ﷺ] ، كذلك قالت عائشة ، وقد قيل : إن أبا بكر كانت خلافته ستين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملأً من أيامهم ومقادير ولادتهم ، وكذلك نفرد فيما يرد في هذا الكتاب - بعد ذكرنا لأيامبني أمية وبني العباس - باباً نذكر فيه جامع التاريخ الثاني من الهجرة إلى هذا الوقت - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة - في خلافه أبي إسحاق المتنبي لله ، أو بعد ذلك من الأوقات إلى حيث ينتهي بنا التصنيف ، وما ذكره أصحاب الزيجات في النجوم ، وما أرخوه في مقادير السنين والشهور والأيام [والخلاف بينهم وبين] تاريخ أصحاب السير والأخبار [وكتب التاريخ من الأخباريين] وغيرهم ؛ إذ كان التفاوت بين الفريقين يئننا ، ومعولنا في ذلك على ما ذكره أصحاب الزيجات .



ذكر نسبه، وللمع من أخباره وسيره

نسبه

كان اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله بن عثمان - وهو أبو قحافة - بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة بن كعب ، وفي مرة يجتمع برسول الله ﷺ ، ولقبه عتيق ؛ لبشرارة رسول الله ﷺ [إياه] أنه عتيق الله من النار ، فسمي يومئذ عتيقاً [وهو الصحيح] وقيل : إنما سمي عتيقاً لعتق أمهاه ، واستخلف وأبوه في الحياة .

صفاته

وكان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعًا في أخلاقه ولباسه ومطعمه [ومشربه] وكان لبسه في خلافته الشملة والعباءة .

تواضعه وزهده ونسكه

وقدم إليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل [والجبر] وبرود الوشي المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبة ونزعوا ما كان عليهم .

وفود العرب إليه

وكان منمن وفدى عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد دون من كان [معه] من عشيرته ، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلل ، فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيّاً بزيره ، حتى إنه رؤي يوماً في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففرزعت عشيرته [لذلك] وقالوا له : [قد] فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : أفاردتم [مني] أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام ، لا ها لله ، لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد في هذه الدنيا ، وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر ، وتذلّلوا بعد التجبر .

بين أبي بكر وأبي سفيان

وبلغ أبو بكر عليه السلام عن أبي سفيان صخر بن حرب أَمْرُ، فأحضره وأقبل يصيغ عليه، وأبو سفيان يتملّقه ويذلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر، فقال لقائده: على من يصيغ ابني؟ فقال له: على أبي سفيان، فدنا من أبي بكر وقال له: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق [الله]؟ وقد كان وبالأمس سيد قريش في الجاهلية [لقد تعدّيت طورك وجزت مقدارك] فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له: يا أبنت، إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذلَّ به آخرين .
ولم يتقلَّد [أحد] الخلافة وأبواه باقي غير أبي بكر.

نسب أمه

وأم أبي بكر سلمى - وتكنى: أم الخير - بنت صخر بن عمرو بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .
وارتدت العرب بعد استخلافه بعشرة أيام .

أولاده

وكان له من الولد: عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد؛ فأما عبد الله فإنه شهد يوم الطائف مع النبي صلوات الله عليه وآله وسالمون فلحقته جراحة وبقي إلى خلافة [أبيه] أبي بكر، ومات في خلافته، وخَلَفَ سبعة دنانير، فاستكثرها أبو بكر، ولا عقب لعبد الله؛ وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه شهد [يوم بدر] مع المشركين، ثم أسلم فحسن إسلامه، ولعبد الرحمن أخبار، وله عقب كثير يَذَّوَّ وَحَضَرَ في ناحية الحجاز مما يلي الجادة من طريق العراق في الموضوع المعروف بالصفينيات والمسح، ومحمد بن أبي بكر، أمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ومنها عقب جعفر بن أبي طالب، وخلف عليها حين استشهد عبد الله وعوناً ومحمدًا بني جعفر، فقتل عون ومحمد ابنا جعفر بالططف مع الحسين بن علي، ولا عقب لهما، وعقب [جعفر عن عبد الله بن جعفر، وولده] عبد الله بن جعفر: علي وإسماعيل وإسحاق ومعاوية، وتزوجها بعده أبو بكر الصديق، فخلف منها محمدًا، ثم تزوجها علي ابن أبي طالب فأولادها أولاً [درعوا]، ولا عقب له منها، وأم أسماء العجوز الحرishiَّة كان لها أربع بنات، وهذا العجوز أكثر الناس أصهاراً، كانت ميمونة الهمالية تحت النبي صلوات الله عليه وآله وسالمون، وأم الفضل تحت العباس بن عبد المطلب، وسلمى تحت حمزة بن عبد المطلب، وخلف منها بنتاً، وأسماء تحت من ذكرنا [من جعفر وأبي بكر وعلي، والعقب من محمد بن أبي

بكر قليل]، وأم جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر [الصديق]. وكان محمد بن أبي بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهذه، وربأه علي بن أبي طالب، وسنذكر خبره فيما يرد من هذا الكتاب ومقتله في أخبار معاوية بن أبي سفيان.

موت أبي قحافة

ومات أبو قحافة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه! وهو ابن تسع وتسعين سنة، وذلك في سنة ثلاثة عشرة من الهجرة، وهي السنة التي استخلف فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد قيل: إنه مات في سنة أربع عشرة.

يوم السقيفة

ولما بُويع أبو بكر في يوم السقيفة وجُددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج علي فقال: أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر، ولم تَرَنَا حتَّاً، فقال أبو بكر: بلى، ولكنني خشيت الفتنة، وكان للهجارين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل، ومجاذبة في الإمامة، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع، فصار إلى الشام، فقتل هناك في سنة خمس عشرة، وليس كتابنا هذا موضعًا لخبر مقتله، ولم يبايعه أحد منبني هاشم حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها.

عدي بن حاتم الطائي

ولما ارتدت العرب إلا أهل المساجدين، ومن بينهما وأناساً من العرب؛ قدم عدي بن حاتم بإبل الصدقة إلى أبي بكر رضي الله عنه؛ ففي ذلك يقول الحارث بن مالك الطائي:

وَقَيْنَا وِفَاءَ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ وَسَرْبَلَنَا مَجْدًا عَدَّيْ بْنَ حَاتَمَ

علته

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سَمَّته اليهود في شيء من الطعام، وأكل معه الحارث بن كلدة فعمي، وكان السم لسنة، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوماً.

كلام له

ولما اخْتُضَر قال: ما آسَى [على شيء] إلا على ثلات فعلتها وددت أني تركتها، وثلاث تركتها وددت أني فعلتها، وثلاث وددت أني سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها؛ فاما

الثلاث التي فعلتها، ووددت أني تركتها فوددت أني لم أكن فتشت بيت فاطمة، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً، ووددت أني لم أكن حرق الفجاءة وأطلقته نجيناً أو قتلته صريحاً، ووددت أني يوم سقيفةبني ساعدة قدف الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أميراً و كنت وزيراً، والثلاث التي تركتها ووددت أني فعلتها ودلت أني يوم أتيت بالأشعش بن قيس أسيراً ضربت عنقه؛ فإنه قد خيل لي أنه لا يرى شرّاً إلا أعاشه، ووددت أني كنت قد قدفت المشرق بعمر بن الخطاب، فكنت قد بسطت يميني وشمالي في سبيل الله، ووددت أني يوم جهزت جيش الردة ورجعت أقمت مكانى فإن سلم المسلمين سلموا، وإن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مَدَداً، وكان أبو بكر قد بلغ مع الجيش إلى مرحلة من المدينة، وهو الموضع المعروف بذى القصة، والثلاث التي ودلت أني سألت رسول الله ﷺ عنها [ووددت أني كنت سأله في مَنْ هذا الأمر؛ فلا ينزع الأمر أهله، و] ووددت أني سأله عن ميراث العمة وبنت الأخ فإن بنفسي منهما حاجة، ووددت أني سأله هل للأنصار في هذا [الأمر] نصيب فتعطيم إياه.

بناته

وخلف من البنات: أسماء ذات النطاقين، وهي أم عبد الله بن الزبير، وعمرت مائة سنة حتى عميت، وعائشة زوج النبي ﷺ.

بيعة علي إيه

وقد توزع في بيعة علي بن أبي طالب إيه: فمنهم من قال: بايعه بعد موت فاطمة بعشرة أيام، وذلك بعد وفاة النبي ﷺ بـ ١٧٠ يوماً، وقيل: بثلاثة أشهر، وقيل: ستة، وقيل غير ذلك.

وصيته لأمراء جيشه

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مُشيع له، فقال له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز، ولا تكثرن عليهم الكلام، فإن بعضه ينسى بعضاً، وأصلح نفسك يصلح الناس لك، وإذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم، فإنه أول خير إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، ولكن أنت الذي تلي كلامهم، ولا تجعل سرك مع علانيتك في merges عملك، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتي من قبل نفسك، وإذا بلغك عن العدو

عوره فاكتتمها حتى تعاينها، واستر في عسكرك [الأخبار] وأذكِّ حَرَسَكَ، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك، وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك.

المتنبئون

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأخبار في هذا الكتاب طلباً للاختصار والإيجاز: منها خبر العَنْسي الكذاب المعروف بعيهلة، وما كان من خبره باليمن وصنعاء، وتبئه ومقتله، وما كان من فيروز، وغيره من الأنباء في أمرهم، وخبر طليحة وتبئه، وخبر سجاح بنت الحارث بن سويد، وقيل: بنت غطفان وتبئي أم صادر، وهي التي يقول فيها قيس بن عاصم:

أضحت نبيتنا أنشى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذُكرانا
وفيها يقول الشاعر:

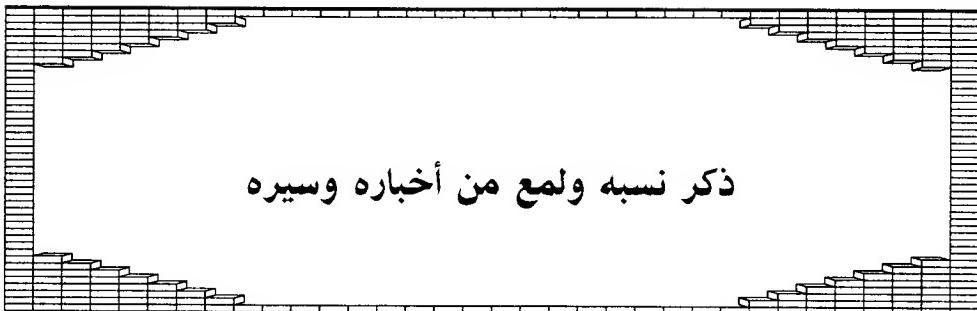
أضل الله سعى ببني تميم كما ضلت بخطبتها سجاح
وقد كانت مع ادعائهما النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب، ثم آمنت بنبوته، وكانت قبل ادعائهما النبوة متکهنة تزعم أن سبيلها سهل سطح [وابن سلمة] والمأمون الحارثي، وعمرو بن لحيٍ، وغيرهم من الكهان، وصارت إلى مسيلمة فنكحها، وما كان من خبر مسيلمة كذاب اليمامة، وحرره لخالد بن الوليد، وقتل وحشياً له مع رجل من الأنصار، وذلك في سنة إحدى عشرة، وما كان من أمره مع الأنصار في يوم سقيفة بني ساعدة والمهاجرين، وقول المنذر بن العجائب: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة، وقصة سعد بن عبادة، وما كان من بشر بن سعد، وتخلى الأوس عن معاضدة سعد خوفاً أن يفوز بها الخزرج، وأخبار من قعد عن البيعة ومن بايع، وما قالت بنو هاشم، وما كان من قصة فَدَكَ، وما قاله أصحاب النص وال اختيار في الإمامة، ومَنْ قال بإمامية المفضول وغيره، وما كان من فاطمة وكلامها متمثلة حين عدلت إلى قبر أبيها عليه السلام من قول صفية بنت عبد المطلب:

قد كَانَ بعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَهَيَّنَمَةٌ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكُنْ الْخَطْبَ
إِلَى آخر الشعر، إلى غير ذلك مما تركنا ذكره من الأخبار في هذا الكتاب؛ إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك في كتاب «أخبار الزمان» والكتاب «الأوسط»، فأغنى ذلك عن ذكره هنا، والله أعلم.

ذكر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

موجز

وبويع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما أن دخلت سنة ثلاثة وعشرين خرج حاجاً، فأقام الحجّ في تلك السنة، ثم أقبل حتى دخل المدينة، فقتله فiroz أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة [تمام] سنة ثلاثة وعشرين؛ فكانت ولائيه عشر سنين وستة أشهر وأربع ليالٍ، وقتل في صلاة الصبح، وهو ابن ثلاثة وستين سنة، ودفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، عند رجلي النبي ﷺ، وقيل: إن قبورهم مسطورة: أبو بكر إلى جنب النبي ﷺ، وعمر إلى جنب أبي بكر، وحج في خلافته تسع حجج، وبعد أن قُتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عَوف، وجعلها شُورى إلى ستة، وهم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وصلى عليه صهيب الرومي، وكانت الشورى بعد [هـ] ثلاثة أيام.



ذكر نسبة ولمع من أخباره وسيره

نسبة

هو عمر بن الخطاب بن نفیل بن عبد العزیز بن قحطان بن رياح بن عبد الله بن ر Zah بن عدی بن کعب، وفي کعب يجتمع نسبة مع [نسب] النبي ﷺ، وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء، وإنما سمي الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل، وكنيته أبو حفص، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين، سماه عدی بن حاتم، وقيل غيره، والله أعلم، وكان أول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعري [وأبو موسى أول من كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي موسى الأشعري] فلما قرئ ذلك على عمر قال: إني لعبد الله [وإني لعمر] وإنّي لأمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

صفاته

وكان متواضعاً، خشن الملبس، شديداً في ذات الله، واتبعه عماله فيسائر أفعاله وشيمه وأخلاقه، كلّ يتشبه به ممن غاب أو حضر، وكان يلبس الجبة الصوف المرفعة بالأديم [وغيره]، ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رُزقها، وكان أكثر ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عَمَالَه، مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال.

عماله

وكان من عماله سعيد بن عامر [بن خريم] فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله، فقال عمر: اللهم لا تُفل فراستي فيه اليوم [وقال لهم]: ماذا تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار، ولا يجيب أحداً بليل، وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا، فقال عمر: عليّ به، فلما [جاء] جمع بينهم وبينه، فقال: ما تنتقمون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار، فقالت: ما تقول يا سعيد؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس لأهلي

خادم، فأعجن عجبني، ثم اجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي، ثم أتوضاً وأخرج إليهم، قال: وماذا تقمون منه؟ قالوا: لا يجيب بليل، قال: قد كنت أكره أن أذكر هذا، إنني جعلت الليل كله لربي، وجعلت النهار لهم، قال: وماذا تقمون منه؟ قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه، قال: نعم، ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجفنه فأمسي؛ فقال عمر: الحمد لله الذي لم يُقل فراستي فيك، يا أهل حمص، استوصوا بواليكم خيراً، قال: ثم بعث إليه عمر بألف دينار، وقال: استعن بها، فقالت له امرأته: قد أغنانا الله عن خدمتك، فقال لها: ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أخرج ما كنا إليه؟ قالت: بلى، فصرّها صرراً ثم دفعها إلى من يشق به، وقال: انطلق بهذه [الصرة] إلى فلان، وبهذه إلى يتيمبني فلان، وهذه إلى مسكينبني فلان، حتى بقي منها شيء يسير، فدفعه إلى امرأته، وقال: أنفقي هذا، ثم عاد إلى خدمته، فقالت له امرأته: ألا تبعث إلى بذلك المال فنشيري لنا منه خادماً؟ فقال: ستأتيك أخرج ما تكونين إليه.

سلمان الفارسي

ومن عماله على المداين سلمان الفارسي، وكان يلبس الصوف، ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف، ويأكل خبز الشعير، وكان ناسكاً زاهداً، فلما احضر بالمداين قال له سعد بن وَقَاصٌ: [أوصني] يا أبا عبد الله [قال: نعم] قال: الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت، فجعل سلمان يكفي، فقال له: يا أبا عبد الله ما يكفيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المُخْفُون» وأرى هذه الأسوده حولي، فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة.

أبو عبيدة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعدل على ذلك، وقيل له: إنك بالشام و[والى] أمير المؤمنين وحولنا الأعداء، فغير من زيق، وأصلح من شارتكم، فقال: ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله ﷺ.

عمر يحرض على الجهاد

ذكر الواقدي في كتابه في فتوح الأمصار أن عمر قام في المسجد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم دعاهم إلى الجهاد وحثهم عليه وقال: إنكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز، وقد وعدكم النبي ﷺ فتح بلاد كسرى وقىصر؛ فسيراوا إلى أرض فارس، فقام

أبو عبيد فقال: يا أمير المؤمنين أول من انتدب من الناس، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس، وقيل لعمر: أمر على الناس رجالاً من المهاجرين أو الأنصار، فقال: لا أؤمر عليهم إلا أول من انتدب فأمّر أبا عبيد، وفي حديث آخر أنه قيل له: أتؤمر رجلاً من ثقيف على المهاجرين والأنصار؟ فقال: كان أول من انتدب فوليه، وقد أمرته أن لا يقطع أمراؤن مسلمة بن أسلم بن حريش سليط بن قيس، وأعلمته أنهم من أهل بدر، وخرج فلقي جمِيعاً من العجم عليهم رجل يقال له جاليوس، فانهزم، وسار أبو عبيد حتى عبر الفرات، وعقد له بعض الدهاقين جسراً، فلما خلف الفرات وراءه أمر بقطع الجسر، فقال له مسلمة بن أسلم: أيها الرجل، إنه ليس لك علم بما نرى، وأنت تخالفنا، وسوف يهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا تجد المسلمين ملجاً من هذه الصحاري والبراري [فلا ت يريد إلا أن تهلكهم في هذه القطعة] فقال: أيها الرجل، تقدم فقاتل فقد حُمِّ ما ترى، وقال سليط: إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط، ولا كان لهم بقتالهم عادة، فاجعل لهم ملجاً ومرجعاً من هزيمة إن كانت، فقال: والله لا فعلت جَبْنَتْ يا سليط، فقال سليط: والله ما جبنت، وأنا أجراً منك نفساً وقبلاً، ولكن والله أشرتُ بالرأي؛ فلما قطع أبو عبيد الجسر والتحم الناس واشتد القتال نظرت العرب إلى الفيلة عليها التجافيف فرأوا شيئاً لم يروا مثله قط، فانهزم الناس جميعاً، ثم مات في الفرات أكثر من قتل بالسيف، وخالف أبو عبيد سليطاً، وقد كان عمر أوصاه أن يستشيره ولا يخالفه، وكان رأي سليط أن لا يعبر حتى يعبروا إليه، ولا يقطع الجسر، فخالفه، وقال سليط في بعض قوله: لو لا أني أكره خلاف الطاعة لانحررت بالناس، ولكنني أسمع وأطيع، وإن كنت قد أخطأت وأشركني عمر معك، فقال له أبو عبيد: تقدم أيها الرجل، فقال: افعل، فتقدما فقتلا جميعاً، وقد كان أبو عبيد في هذا اليوم ترجلاً، وقد قتل من الفرس نحو ستة آلاف، فدنا من الفيل ورمجه في يده فطعنه في عينه، فخطف الفيل أبا عبيد بيده؛ وجال الناس، وتراجعت رجال فارس، فأخذ الناس السيف لما قتل أبو عبيد، وبادر رجل من بكر بن وائل [والمنى بن حارثة] فحمل الناس حتى عقدوا الجسر فعبروا ومعهم المنى حارثة، وقد فقد من الناس أربعة آلاف غرقاً وقتلاً، وكان على جيش فارس في هذا اليوم جاذبيه، ومعه راية فارس التي كانت لأفرييدون، حتى ثار الناس من الوهاد، وهي المعروفة بدرفش كاويان وكانت من جلود النمور طولها اثنا عشر ذراعاً في عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل، وكانت فارس تتيمن بها وتظهرها في الأمر الشديد، وقد قدمنا الخبر عن هذه الرایة في أخبار الفرس الأولى فيما سلف من هذا الكتاب.

ولما قتل أبو عبيد الثقي بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين، فخطبَ عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر [بصرار] وهو يريد الشخص، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله، وعلى ميمنته الزبير ابن العوام، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف، ودعا الناس، فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير، ثم قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن، أسيء أم أبعث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده، فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم، فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف، فاستشاره، فقال عبد الرحمن: فُديت بأبي وأمي، أقم وابعث؛ فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً قال: أشر على من أبعث؟ قال: قلت: سعد بن أبي وقاص، قال عمر: أعلم أن سعداً رجل شجاع، ولكنني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب، قال عبد الرحمن: هو على ما تصف من الشجاعة، وقد صحب رسول الله ﷺ وشهد بدرأً فاعهد إليه عهداً وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه؛ فإنه لن يخالف أمرك، ثم خرج فدخل عثمان عليه، فقال له: يا أبا عبد الله أشر على أسيء أم أقيم؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش، فإنه لا آمن إن أتي عليك آتٍ أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض، وابعث رجلاً له تجربة بالحرب وبصر بها، قال عمر: ومن هو؟ قال: علي بن أبي طالب، قال: فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا، فخرج عثمان فلقي علياً فذاكره ذلك، فأبى علي ذلك وكرهه، فعاد عثمان [إلى عمر] فأخبره، فقال له عمر: ومن ترى؟ قال: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: قال: ليس بصاحب ذلك، قال عثمان: طلحة بن عبيد الله، قال له عمر: أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل، ولكنني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب؟ قال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال عثمان: هو صاحب ذاك؛ ولكنه رجل غائب [وما معنى من ذكره إلا أنني قلت: رجل غائب] في عمل، فقال عمر: أرى أن أوجهه، وأكتب إليه أن يسير من وجهه ذلك، فقال عثمان: ومُرْه فليشاور قوماً من أهل التجربة والبصر بالحرب، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم، ففعل عمر ذلك وكتب إلى سعد بالتوجه نحو العراق.

وقد كان جرير بن عبد الله البجلي قدم على عمر - وقد اجتمعت إليه بجيلاً - فسرّحهم نحو العراق، وجعل لهم ديع ما ظهروا عليه من السواد، وساهمهم مع المسلمين، وخرج عمر فشيّعهم، ولحق جرير بناحية الأبلة ثم صاعد إلى ناحية المدائن، ونمي قدوم جرير إلى مربّان المدائن وكان في عشرة آلاف [من فارس] من الأسوار،

وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبي عبيد وسلط ، فقال بجية لجرير : اعبر الدجلة إلى المدائن ، فقال جرير : ليس ذلك بالرأي ، وقد مضى لكم في ذلك عبرة بمن قتل من إخوانكم يوم الجسر ، ولكن أمهلوا القوم ؛ فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم ، فإن فعلوا فهو الظفر إن شاء الله تعالى ، فأقامت الفرس أياماً بالمدائن ، ثم أخذوا في العبور ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن تسرع معه من بجية ، فثبتوا ساعة ، فقتل المرزيان ، وأخذهم السيف ، وغرق أكثرهم في دجلة ، وأخذ المسلمين ما كان في عسكرهم ، وسار جرير فاجتمع مع المثنى بن حرثة الشيباني بالبجية ، فأقبل إليهما مهران في جيشه ، فامتنع المسلمين من العبور [إليهم] ، فعبر مهران [ويغنى على المسلمين] فالتقوا وصبر الفريقان جميعاً حتى قتل مهران] قتله جرير ابن عبد الله البجلي وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي ، ضربه البجلي ، وطعنه الضبي ، وفاز جرير بمنطقته وسلبه وتنافز جرير وحسان في أيهما القاتل لمهران ، وقد كان جرير ضربه بعد أن طعنه حسان ، ولحسان في ذلك أبيات :

ألم ترني خالست مهران نفسه
بأشمر فيه كالخلال طرير
[فخر صريعاً والتلقاني برجله]
وبادر في رأس الهمام جرير [فقال: قتيلي، والحوادث جمة،
وكاد جرير للسرور يطير]
[فقال أبو عمرو: وقتلي قتله
ومثلي قليل والرجال كثيرة]
[فأرسل يميناً أنَّ رمحك ناله وأكرم أن تحلف وأنت أمير]

وقد تنازع أهل الأخبار والسير في جرير والمثنى : فمن الناس من ذهب إلى أن جريراً كان [هو] المؤلَّ على الجيش ، ومنهم من رأى أن جريراً على قومه والمثنى على قومه .

ولما قتل مهران أغظمت الفرس ذلك ، وسار شيرزاد في جمع فارس الأعظم وكنته بوران ؛ وقد كانت جميرة الأساورة تقدمت وتقدم أمامهم رستم ، فتنحى المسلمون لما بلغهم مسيره ، فلحق جرير بكاظمة فنزلها ، وسار المثنى بقومه من بكر بن وائل فنزل بسيراف ، وبها آبار كثيرة بين الكوفة وزبالة على ثلاثة أميال من المتزل المعروف بواقعة ، وكان المثنى قد أصيب بجراحات كثيرة في بدنِه يوم الجسر وغيره فمات بسيراف ، رحمة الله تعالى !

سعد بن أبي وقاص

ولما ورد كتاب عمر على سعد بن أبي وقاص نزل زبالة على حسب ما أمره به

عمر، ثم أتى سيراف، وأتاه الناس من الشام وغيرها، ثم سار فنزل العذيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلي القادسية، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم، والمسلمون يومئذ في ثمانية وثمانين ألفاً [وقيل: إن من أُسْهَمَ له ثلاثة وثلاثون ألفاً] والمشركون في ستين ألفاً، أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال، وحضر الناس بعضهم بعضاً، ويرز أهل النجدات، فأسبوا القتال، وخرج إليهم أفرانهم من صناديد فارس، فاعتوروا الضرب والطعن، وخرج غالب بن عبد الله الأستدي في [من خرج] ذلك اليوم وهو يقول:

قد علمت واردة المسالح ذات البنان واللبان الواضح
أني سمام البطل المشايخ وفارج الأمر المهم الفادح
فخرج إليه هرمز - وكان من ملوك الباب والأبواب، وكان متوجاً - فأسره غالب
[أسراً]، فأتى به سعداً، وكر راجعاً إلى المطاردة، وحمي الوطيس، وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبْب مثل اللجين يتغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب [مثلي على مثلك يغريه العتب]
فبرز إليه عظيم من أسوارتهم، فجالا، ثم إن الفارسي ولّى، واتبعه عاصم حتى
لجا إلى صفوفهم، وعُمِّوه، وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه، ثم خرج في
مجنبات القلب، وقد امراه بغل عليه صناديق موكبية بالآلة حسنة، فأتى به سعد [بن مالك]
وعلى البغل رجل عليه مقطّعات دياج وقلنسوة مذهبة، وإذا هو خباز الملك، وفي
الصناديق لطائف الملك من الأخبصة والعسل المعقود، فلما نظر إليه سعد قال: انطلقوا
[به] إلى أهل موقفه، وقولوا: إن الأمير قد نفلّكم هذا فكلوه [فعلوا].

أيام القادسية

وكانَ وقعة القادسية في المحرم سنة أربع عشرة، وما [من الفيلة] سبعة عشر
فيلاً على كل فيل عشرون رجلاً، وعلى الفيلة تجافيف الحديد والقررون مجللة بالدبياج
والحرير نحو بجالة، وحول الفيلة الرجال والخيول، فبعث [سعد] إلىبني أسد لما نظر
إلى المراكب والفيول قد مالت إلى بجالة، فأمرهم بمعونتهم، ومالت عشرون فيلاً نحو
القلب، فخرج طلحة بن خويلد الأستدي مع فرسانبني أسد [قتل منهم خمسمائة رجل

سوى من قتل من غيرهم] فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها، واشتد الجlad على بني أسد في هذا اليوم من سائر الناس، وهذا اليوم يعرف يوم أغوات.

فلما أصبح الناس في اليوم الثاني أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام، والأمداد سائرة قد غطت بأستتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في خمسة آلاف فارس من بني ربيعة ومضر وألف من اليمن، ومعهم القعّاع بن عمرو، وذلك بعد فتح دمشق بشهر، وقد كان عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد إلى العراق، ولم يذكر في كتابه خالداً، فشح أبو عبيدة بتخلية خالد عن يده، وبعث برجاهه عليهم هاشم بن عتبة على ما ذكرنا، وقد كان في نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبي بكر في قصة مالك بن ثورَة، وغير ذلك، وكان خالد بن الوليد خال عمر، فنقدم القعّاع في أوائل المدد، فأيقن أهل القادسية بالنصر على فارس، وزال عنهم ما لحقهم بالأمس من القتل والجرح، وبرز القعّاع حين وروده أمام الصف ونادى: هل من مبارز؟ فبرز إليه عظيم منهم، فقال له القعّاع: من أنت؟ قال: أنا بهمن بن جاذویه، وهو المعروف بذی الحاجب، فنادى القعّاع: يا لثارات أبي عبيدة وسلط وأصحابهم يوم الجسر!! وقد كان ذو الحاجب مبارزاً لهم على ما ذكرنا من قتله إياهم، فجلا، فقتله القعّاع، ويقال: إن القعّاع قتل في ذلك اليوم ثلاثين رجلاً في ثلاثة حملة، كل حملة يقتل فيها [رجلاً]، وكان آخر من قتل عظيماً من عظمائهم يقال له بزر جمهر، فيه يقول القعّاع:

حَبَّوْتُهُ جِيَاثَةً بِالنَّفْسِ هَدَّارَةً مِثْلَ شَعَاعِ الشَّمْسِ
فِي يَوْمِ أَغْوَاتِ قَتْلِيَ الْفَرْسِ أَنْخَسَ بِالْقَوْمِ أَشَدَّ نَخْسِ
حَتَّى يَفِيَضَ مَعْشَرِيَ وَنَفْسِي

وبارز في ذلك اليوم الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه [قال أخوه الأعور في ذلك:

لَمْ أَرْ يَوْمًا كَانَ أَحْلَى وَأَمْرًا مِنْ يَوْمِ أَغْوَاتِ إِذَا افْتَرَ الشَّغْرُ
مِنْ غَيْرِ ضَحْكٍ كَانَ أَسْوَا وَأَبْرًا]

واعتزل سعد فتختلف في حصن العذيب، وجلس في أعلىه يشرف على الناس، وقد تواقف الفريقان جميعاً، وأمسى الناس يتمنون، فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده في أعلى القصر: إن تم الناس على الانتماء فلا توقعوني فإنهم أقوىاء على عدوهم، وإن سكتوا فأيقظوني فإن ذلك شر، واشتد القتال في الليل.

أبو محجن الثقفي

وكان أبو محجن الثقفي محبوساً في أسفل القصر، فسمع انتماء الناس إلى آبائهم وعشائرهم، ووقع الحديد وشدة البأس، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف، فجبا حتى صعد إلى سعد يستشفعه ويستقيله، ويسأله أن يخلّي عنه ليخرج، فزجره سعد ورَدَهُ، فانحدر راجعاً، فنظر إلى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيباني، وقد كان سعد تزوجها بعده، فقال: يا بنت حفصة، هل لك في خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عنِّي وتعيريني البلقاء والله عليّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في القيد، قالت: وما أنا بذلك؟ فرجع يرسف في قيده وهو يقول:

كفى حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِيَ الْخَيْلَ بِالْقَنَا
إِذَا قَمْتَ عَنِّيَ الْحَدِيدَ فَأَغْلَقْتَ مَصَارِيعَ مِنْ دُونِيَ ثُصُمُ الْمَنَادِيَا
وَقَدْ كُنْتَ ذَا مَالَ كَثِيرٍ وَثَرَوَةٍ فَقَدْ تَرَكْتُنِي وَاحِدًا لَا أَخَالِيَا
فَلَلَّهِ عَهْدٌ لَا أُخْسِسُ بِعَهْدِهِ لَئِنْ فَرَجْتَ أَنْ لَا أَزُورَ الْحَوَانِيَا

قالت سلمى: إني استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، وقالت: شأنك وما أردت، فاقتاد بلقاء سعد، وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق، فركبها ثم دبّ عليها، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالاً كثيراً من قاتلهم، ونكس آخرين، والفريقان يرمونه بأبصارهم، وقد تنوزع في البلقاء فمنهم من قال: إنه ركبها عَزِيزاً، ومنهم من قال: بل ركبها بسُرْجٍ، ثم غاص في المسلمين، فخرج في ميسرتهم، وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم، وجعل يلعب برمحه وسلاحه لا يبدو له فارس إلا هتكه، فأوقفهم، وهابته الرجال، ثم رجع فغاص في قلب المسلمين، ثم بُرِزَ أمامهم ووقف يبازء قلب المشركين، ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه، وحمل عن المسلمين الحرب، فتعجب الناس منه، وقالوا: من هذا الفارس الذي لم ترْهُ في يومنا؟ فقال بعضهم: هو من قدم علينا من إخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عبدة المرقال، وقال بعضهم: [إن كان] الخضر عليه السلام يشهد الحرب فهذا هو الخضر قد مَنَّ الله به علينا وهو علم نصرنا على عدونا، وقال قائل منهم: لو لا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك، أبو محجن كالليلت عليه السلام الضُّرْغَام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم، ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خويلد والقطناع [بن عمرو] وهاشم بن عبدة المرقال وسائر قاتل العرب

وأبطالها ينظرون إليه، وقد حاروا في أمره، وجعل سعد يفكر ويقول وهو مشرف على الناس من فوق القصر: والله لو لا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، فلما اتصف الليل تحاجز الناس، وتراجعت الفرس على أعقابها وتراجع المسلمين إلى مواضعهم على بقائهم ومصافهم، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يعلم به، ورَدَّ البلقاء إلى مربطها [وعاد في محبسه] ووضع رجله في القيد، ورفع عقيرته وهو يقول:

لقد علمت ثِيقِفْ غَيْرَ فَخْر
وأكْرَمَهُمْ ذُرْوَعَاً سَايغاتِ
ولِيلَةَ قَادِسْ لَمْ يَشْعُرُوا بِي
وَأَنَا رَفِدَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَرِيفَاً
فَإِنَّ أَحْبَسْ فَذَلِكُمْ بِلَائِي
بَأْنَا نَحْنُ أَكْرَمَهُمْ سِيَوفَا

قالت له سلمى: يا أبو محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ تعني سعداً، قال: والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدبُّ الشعر على لسانِي فأصف القهوة وتداخلي أريحة فألذ بمدحِي إياها، فلذلك حبسني لأنني قلت فيها:

إِذَا مَتْ فَادْفُتُهُ إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ
وَلَا تَدْفُنَنِي بِالْفَلَّاَةِ فَإِنِّي
أَخَافُ إِذَا مَا مُتْ أَنْ لَا أَذْوَقُهَا
وَهِيَ أَبِيَاتٌ.

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها، لذكرها المُنتَهَى عند مختلف القنا، فأقمت مغاضبة له عشيَّةً أغوات وليلة الهرير وليلة السواد، حتى إذا أصبحت أنته فترضه وصالحته، ثم أخبرته خبرها مع أبي محجن، فدعا به، فأطلقه وقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله، قال: لا جَرَمَ والله لا أجبت لسانِي إلى صفة قبيح أبداً.

يوم عamas

وأصبح الناس في اليوم الثالث وهم على مصافهم، وهو يوم عamas، وأصبحت الأعاجم على مواقفها، وأصبح بين الفريقين كالرجال الحمراء - يعني الحرة. في عرض ما بين الصفين، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائتان ما بين رئيْثٍ وميت، وقتل من

الأعاجم ما لا يحصى ، فقال سعد: أيها الناس ، من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث ، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم ، وأقبل المسلمون على قتلامن فأحرزوه وجعلوهم وراء ظهورهم ، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ويحملون الرثيث إلى النساء ويعالجونهم من كُلُّهم ، وكان بين موضع الواقعة مما يلي القادسية وبين حصن العذيب نخلة ، فإذا حمل الجريح وفيه تميز وعقل ونظر إلى تلك النخلة - ولم يكن هنالك يومئذ نخلة غيرها ، واليوم بها نخل كثير - قال لحامله: قد قربت من السوداء ، فأريحوني تحت ظل هذه النخلة ، فيراح تحتها ساعة ، فسمع رجل من الجرجى [يقال له بجير من طيء] ، وهو يوجد بنفسه و [يقول]:

ألا يا إسلامي يا نخلة بين قادس وبين العذيب ، لا يجاورك النخل
وسمع آخر منبني تيم الله - وقد أريح تحتها وخشتته خارجة من جوفه - وهو
يقول:

أيا نخلة الجرجعا ، ويا نخلة العدا سقتك الغوادي والغيوث الهواطل
[وأنthon الأعور بن قطبة ، فحمل من المعركة ، فسأل حماله أن يريحة تحتها حتى
إذا بلغ إليها قال :

أيا نخلة بين العذيب فتلعة سقتك الغوادي الداجنات من النخل]
وأصبح الناس صبيحة يوم القادسية ، وهي صبيحة ليلة الهرير ، وهي:
تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام ، والناس حيارى ولم يغمضوا ليتهم كلها ، وحضرت
رؤساء القبائل عشائرهم ، واشتتد الجlad إلى أن جاء وقت الزوال ، فكان أول من زال حين
قام قائم الظهيرة الهرمزان [والنيرمران] ، فتأخرا ، وثبتا حيث انتهيا ، وانفوج القلب حين
قام قائم الظهيرة ، وهبت ريح عاصف فقطعت طيارة رستم عن سريره ، فهوت في نهر
العتيق والريح دبور ، فمال الغبار عليهم وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم فعثروا
به وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قد قدمت عليهم بما يومنئذ فهي
واقفة فاستظل في ظل بغل منها وحمله ، وضرب هلال بن علقة الحمل الذي رستم في
ظله فقطع حاله ، ووقع على رستم أحد العذلين ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأنزال من
ظهره فقارة [وضرره هلال ضربة ففتحت مسكا] ، ومضى رستم إلى نحو نهر العتيق فرمى
بنفسه فيه ، واقتضم هلال عليه فتناوله برجله ، ثم خرج به إلى الخندق وضربه بالسيف
حتى قتله ، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى: قتلت رستم
ورب الكعبة ، إلى إلى ، فطاف به الناس لا يحسون السرير ولا يرونها ، وتنادوا ، وتجنّبَتْ

قلوب المشركين عندها وانهزمو وأخذهم السيف، فمن غريق وقتيل، وقد كان ثلاثة [ألفاً] منهم قرئوا أنفسهم بعضهم إلى بعض بالسلسل والجبال وتحالفا بالنور وبيوت النيران لا يبرحون حتى يقتتلوا، فجثوا على الركب، وقع بين أيديهم قناديل الشاب، فقتل القوم جميعاً.

وقد تنوّع فيمن قتل رستم: فذهب الأكثر إلى أن قاتله هلال بن علقة من تيم الرياب على ما قدمنا، ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بني أسد، ولذلك يقول شاعرهم في ذلك اليوم - وهو عمرو بن شاس الأسدي - من أبيات:

جلبنا الخيل من أكناف نيقٍ إلى كسرى فوافقها رعالا
[تركتن بهم على الأقسام شجواً وبالحقوين أياماً طوالاً]
قتلنا رستما وبنيه قسراً تشير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا قياماً لا يريدون ارتحالا

وأخذ ضرار بن الخطاب في ذلك اليوم من فارس الراية العظيم المقدم ذكرها أنها من جلود النمور المعروفة بدرفش كاويان، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر، فُعوض منها بثلاثين ألفاً، وكانت قيمتها ألفي ألف ومائتي ألف، وقتل في ذلك اليوم حول هذه الراية - غير ما ذكرنا من المقرنين وغيرهم - عشرة آلاف.

تحديد تاريخ القادسية

وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف في عام القادسية والعذيب؛ فذهب كثير من الناس إلى أن ذلك [كان في سنة عشرة، وهذا قول الواقدي عن آخرين من الناس، ومنهم من ذهب إلى أن ذلك] كان في سنة خمس عشرة، ومنهم من رأى أنه كان في سنة أربع عشرة، والذي قطع عليه محمد بن إسحاق أنها كانت في سنة خمس عشرة، وقال: في سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بال القيام في شهر رمضان لصلاة التراويح [والذين ذهبوا إلى أن وقعة القادسية كانت في سنة أربع عشرة احتجوا بهذه الرواية، وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة صلاة التراويح].

تمصير البصرة

وذهب كثير من الناس منهم المدائني وغيره أن عمر أنفذ عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها ومصّرها، وذهب كثير من الناس أنها مصّرّت في ربيع سنة ست عشرة، وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إليها من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقاص

من حرب جلواء وتكريت، وإن عتبة قدم البصرة وهي يومئذ تدعى أرض الهند فيها حجارة يopian فنزل موضع الخريبة .

تمصير الكوفة

ومَصْرُ سعد بن أبي وقاص الكوفة في سنة خمس عشرة، ودُلهم على موضعها [ابن] نفيلة الغساني ، وقال لسعد: أدلّك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة، فدلّه على موضع الكوفة اليوم .

أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة

قال المسعودي: وكان عمر لا يترك أحداً من العجم يدخل المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة: إن عندي غلاماً نقاشاً نجاراً حداداً فيه منافع لأهل المدينة، فإن رأيت أن تأذن لي في الإرسال به فعلت، فأذن له، وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهرين، وكان يدعى أبو لؤلؤة، وكان مجوسياً من أهل نهاوند، فلبث ما شاء الله، ثم أتى عمر يشكوا إليه ثقل خراجه، فقال له عمر: وما تحسن من الأعمال؟ قال: نقاش، نجار، حداد، فقال له عمر: ما خرائجك بكثير في كنه ما تحسن من الأعمال، فمضى عنه وهو يتذمر، قال: ثم مر بعمر يوماً آخر وهو قاعد، فقال له عمر: ألم أحدث عنك أنك تقول: لو شئت أن أصنع رحأً تطحن بالريح لفعلت، فقال أبو لؤلؤة: لأصنعن لك رحاً يتحدث الناس بها، ومضى أبو لؤلؤة، فقال عمر: أما العلج فقد توعدني آنفاً، فلما أزمع بالذى أوعد به أخذ خنجراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر في زاوية من زوايا المسجد في العلس، وكان عمر يخرج في السحر فيوقظ الناس [للصلوة]، فمر به، فثار إليه فطعنه ثلاث طعنات إحداها تحت سرته وهي التي قتله، وطعن اثنين عشر رجلاً من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقي ستة، ونحر نفسه بخجره فمات، فدخل عليه ابنه عبد الله ابن عمر وهو يوجد بنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين، استختلف على أمّة محمد؛ فإنه لو جاءك راعي إيلك أو غنمك وترك إيله أو غنمك لا راعي لها للملة وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد؟ فاستختلف عليهم، فقال: إن استختلف عليهم فقد استختلف عليهم أبو بكر، وإن أتركتهم فقد تركتهم رسول الله ﷺ، فيش منه عبد الله حين سمع ذلك منه .

وكان إسلام عمر قبل الهجرة بأربع سنين [وكان يخضب بالحناء والكتم] .

أولاد عمر

وكان له من الولد: عبد الله، وحفصة زوج النبي ﷺ، وعاصم، وعيادة الله، وزيد، من أم، وعبد الرحمن، وفاطمة، وبنات آخر، وعبد الرحمن الأصغر - وهو المحدود في الشراب، وهو المعروف بأبي شحمة - من أم .

عمر وابن عباس

وذكر عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال: يا بن عباس، إن عامل حمص هلك، وكان من أهل الخير، وأهل الخير قليل، وقد رجوت أن تكون منهم، وفي نفسي منك شيء لم أره منك، وأعنيني ذلك، فما رأيك في العمل؟ قال: لن أعمل حتى تخبرني بالذى في نفسك ، قال: وما تريدين إلى ذلك؟ قال: أريدك ، فإن كان شيء أخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أنني لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فإني قلما رأيتك طلبت شيئاً إلا عاجلته ، فقال: يا بن عباس، إني خشيت أن يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول: هلم إلينا ، ولا هلمنكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم ، قال: والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك؟ قال: والله ما أدرى أصنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنت ، أم خشي أن تباعوا بمنزل لكم منه فيقع العتاب ، ولا بد من عتاب ، وقد فرغت لك من ذلك ، فما رأيك؟ قال: قلت: أرى أن لا أعمل لك ، قال: ولم؟ قلت: إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك ، قال: فأشر على ، قلت: إني أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك .

عمر يستعمل النعمان بن مقرن غازياً لنهاؤنه

وذكر علقة بن عبد الله المزن尼، عن معقل بن يسّار، أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان في فارس وأصبهان وأذربيجان، فقال له: أصبهان الرأس، وفارس وأذربيجان الجناحان، فإن قطعت أحد الجناحين ناء الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان، فابدأ بالرأس، فدخل المسجد فإذا هو بالنعمان بن مقرن يصلّي، فقدع إلى جنبه، فلما قضى صلاته قال: ما أراني إلا مستعملك ، قال: أما جابياً فلا، ولكن غازياً، قال: فإنك غاز، فوجّهه وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدُّوه، وبعث معه الزبير بن العوام، وعمرو بن معد يكرب، وحديفة، وابن عمرو، والأشعث بن قيس، فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة إلى ملوكهم، وهو يقال له ذو الجناحين، فقطع إليهم نهرهم، فقيل لذى

الجناحين: إن رسول العرب ها هنا، فشاور أصحابه، فقال: ما ترون؟ فقالوا: اقعد له في بهجة الملك أو [اقعد له في هيئة الحرب، فقال: بل أقعد له في بهجة الملك]، فصعد على سريره ووضع التاج على رأسه وأقعد أبناء الملوك سماطين عليهم الأقراط وأسورة الذهب والدياج، وأذن للمغيرة، فأخذ بضعيه رجالن ومعه سيفه ورممه قال: فجعل المغيرة يطعن برممه في بسطهم يخرقها لينظروا فيغضبهم بذلك حتى قام بين يديه وجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما. فقال: إنكم معاشر العرب أصابكم جهد، فإن شئت مناكم ورجعتم، فتكلم المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا معاشر العرب كنا أذلةً يطؤنا الناس ولا نطؤهم، ونأكل الكلاب والجيف، ثم إن الله تعالى بعث منا نبياً في شرف منا أو سلطنا حسباً وأصدقنا حديثاً، وبعث النبي ﷺ بيعته، وأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال لنا، وإنه وعدنا فيما وعدنا به أننا سنملأ ما ها هنا ونغلب عليه، وإنني أرى ها هنا هيبة وبرزة ما من خلني بتاركها [حتى] يصيدها أو يموتها، فقالت لي نفسي: لو جمعت جرائمك وثبتت فقد عدت مع العلاج على سريره حتى يتظر، قال: فوثبت وثبة فإذا أنا معه على سريره، فجعلوا يلکزونني بأرجلهم ويجدبونني بأيديهم فقلت لهم: إنا لا نفع برسلكم هكذا، وإن كنت قد فجرت واستخففت فلا تؤاخذوني، فإن الرسل لا يصنع بها هكذا، فقال الملك: إن شئتم قطعنا إليكم وإن شئتم قطعتم إلينا، قلت: بل نقطع إليكم،قطعونا إليهم، قال: فتسليوا كل خمسة وستة حتى لا يفروا. فدنونا إليهم فضايقناهم، فرشقونا حتى أشعروا فيها، فقال المغيرة للنعمان: إنه قد أشرع في الناس وقد جرحوها، فلو حملت، فقال النعمان: إنك لذو مناقب، وقد شهدت مع رسول الله ﷺ القتال، وكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر، ثم قال: إنني هاز لوابي ثلاثة مرات، فأما أول هزة فليقضى الرجل حاجته ولتيوضاً، وأما الثانية فلينظر الرجل إلى شسعه وليلزم سلاحه، فإذا هزرت الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد، وإن قتل النعمان، وإن داع إلى الله بدعوة، وأقسمت على كل أمرىء منكم لما أمنَّ عليها، وقال: اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة في نصر وفتح عليهم. فأمن القوم. فهز [لواءه] ثلاثة، ثم أذنى درعه وحمل ثم حمل الناس فكان أول صريح، قال معلق: فأتيت عليه فذكرت عزيته لا أقف عليه، وأعلم غلمانه لأعرف مكانه، وأمعنا القتل فيهم، ووقع ذو الجناحين عن بغلة له شهباء فانشق بطنه، وفتح الله على المسلمين، فأتيت إلى مكان النعمان فصادفه وبه رمق، فأتيته بإداوة فغسلت وجهه، فقال: من هذا؟ قلت: معلق بن يسار، قال: ما فعل الله بالناس؟ قلت: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله كثيراً اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت نفسه، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وأرسلوا إلى أم ولده: هل عهد إليك النعمان عهداً له أم عندك كتاب؟ قالت: بل سقط فيه

كتاب، فأخرجوه فإذا فيه: [إذا قتل النعمان ففلان] وإن قتل فلان ففلان، وإن قتل فلان ففلان، فامتثلوا، وفتح الله على المسلمين فتحاً عظيماً.

شهداء نهاوند

قال المسعودي رحمة الله: وهذه وقعة نهاوند، وقد كان للأعاجم فيها جمع كثير وقت هنالك خلق كثير: منهم النعمان بن مقرن، وعمرو بن معد يكرب، وغيرهما، وقبورهم إلى هذا الوقت بينة معروفة على نحو فرسخ من نهاوند فيما بينها وبين الديبور وقد أتينا على وصف هذه الواقعة فيما سلف من كتبنا.

عمر يسأل عمرو بن معد يكرب عن قبائل من العرب

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال: لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عمر سأله عن سعد بن أبي وقاص، فقال فيه ما قال من الثناء، ثم سأله عن السلاح، فأخبره بما علِم، ثم سأله عن قومه، فقال له: أخبرني عن قومك مذحج [ودع طيئاً] قال: سلني عن أيهم شئت، قال: أخبرني عن علة بن جلد، قال: هم فرسان أغراضنا، وشفاعة أمراضنا، وهم أعتقنا، وأنجينا، وأسرعنا طليباً، وأقلنا هرباً، وهم أهل السلاح والسماح والرماح، قال عمر: مما أبقيت لسعد العشيرة؟ قال: هم أعظمنا خمساً، وأسخانا نفوساً، وخيرنا رئيساً، قال: مما أبقيت لمراد؟ قال: هم أوسعنا داراً، وخيرنا جاراً، وأبعدنا آثاراً، وهم الأتقياء البررة، والسامعون الفخرة، قال: فأخبرني عن بني زيد، قال: أنا عليهم ضنين، ولو سألت الناس عنهم لقالوا هم الرأس والناس الأذناب، قال: فأخبرني عن طيء، قال: خصوا بالجود، وهم جمرة العرب، قال: مما تقول في عبس؟ قال: حجم عظيم، وزبن أثير، قال: أخبرني عن حمير، قال: رعوا العفو، وشربوا الصَّفَرَ، قال: فأخبرني عن كندة، قال: ساسوا العباد، وتمكنوا من البلاد، قال: فأخبرني عن همدان. قال: أبناء الليل، وأهل النيل، يمنعون الجار، ويوفون الذمار [ويطلبون الشار] قال: فأخبرني عن الأزد قال: هم أقدمنا ميلاداً، وأوسعنا بلاداً، قال: فأخبرني عن الحارث بن كعب، قال: هم الحسكة المسكة، تلقى المنايا على أطراف رماحهم. قال: فأخبرني عن لخم. قال: آخرنا ملكاً، وأولنا هلكاً، قال: فأخبرني عن جذام. قال: أولئك كالعجز الغراء، وهم أهل مقال وفعال، قال: فأخبرني عن غسان. قال: أرباب في الجاهلية نجوم في الإسلام، قال: فأخبرني عن الأوس والخزرج قال: [هم الأنصار و] هم أعزنا داراً، وأمنعنا ذماراً، وقد كفانا الله مدحهم إذ يقول: «وَالَّذِينَ بَوْءُوا لَدَارَ وَالْأَيْمَنَ» [الحشر: ٤] قال: فأخبرني عن خزانة. قال: أولئك مع كنانة لـ

نسبهم، وبهم نصرنا، قال: فأي العرب أبغض إليك أن تلقاه؟ قال: أما من قومي فوادعة من همدان، وغطيف من مراد، وبلحوث من مذحج، وأما من سعد فعدي من فزاره، ومرة من ذبيان، وكلاب من عامر، وشيبان من بكر بن وائل. ثم لو جلت بفرسي على مياه معد ما خفت هيج أحد ما لم يلقني حراها وعبداتها. قال: ومن حراها ومن عبداتها؟ قال: أما حراها فعامر بن الطفيلي وعينية بن الحارث بن شهاب التميمي، وأما عبداتها فعتنة العبيسي وسليك المناقب.

ويسائله عن الحرب

ثم سأله عن الحرب فقال: سألت عنها خيراً، هي والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق، إذا شمرت عن ساق، من صبر فيها ظفر، ومن ضعف فيها هلك، ولقد أحسن واصفها فأجاد:

الحرب أول ما تكون فتية تبدو بزيتها لكل جهول
حتى إذا حميّت وشبّ ضرائمها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهاة للثم والتقبيل

ثم سأله عن السلاح، فأخبره [بما عرف] حتى بلغ السيف، قال: هنالك قارعتك أملك عن ثكلها، فعلاه عمر بالدرة، وقال: بل أملك قارعتك [عن ثكلها]، والله إنني لأهم أن أقطع لسانك، فقال عمرو: الحُمَى أضرعني [لنك] اليوم، وخرج من عنده وهو يقول:

أتوعدني كأنك ذو رُغْيْن بائعم عيشة أو ذو ثواسِ؟
فكم قد كان قبلك من ملوك عظيم ظاهر الجبروت قاسٍ
فأصبح أهله بادوا، وأمسى ينقال من أناس في أناسٍ
فلا يغرك ملوك، كل ملك يصير مذلة بعد الشّناس

قال: فاعتذر عمر إليه، وقال: ما فعلت ما فعلته إلا لتعلم أن الإسلام أفضل وأعز من الجاهلية، وفضله على الوفد.

عمرو يحدث عمر عن فراره ذات مرة

وقد كان عمر آنس عمراً بعد ذلك، وأقبل يسأله ويزاكره الحروب وأخبارها في الجاهلية، فقال له عمر: يا عمرو، هل انصرفت عن فارس قط في الجاهلية هيبة له؟

قال: نعم، والله ما كنت أستحلّ الكذب في الجاهلية فكيف أستحلّه في الإسلام؟ لأحد شئوك حديثاً لم أحدث به أحداً قبلك، خرجت في جريدة خيل لبني زيد أريد الغارة، فأتينا قوماً سراة، فقال عمر: وكيف عرفت أنهم سراة؟ قال: رأيت مزاود وقدوراً مُكافأة وقباب أدم حمراً ونعمـاً كثيراً وشاء، قال عمر: فأهويت إلى أعظمها قبة بعدهما حينا السبي، وكان متبدداً من البيوت، وإذا امرأة بادية الجمال على فرش لها، فلما نظرت إلى وإلى الخيل استعتبرت، قالت: ما يبكيك؟ قالت: والله ما أبكي على نفسي، ولكنني أبكي حسداً لبنات عمي يسلمن وأبنتي أنا من بينهن، فظلت والله أنها صادقة، فقلت لها: وأين هن؟ قالت: في هذا الوادي، فقلت لأصحابي: لا تحدثوا شيئاً حتى آتكم، ثم همذت فرسى حتى علوت كثيراً، فإذا أنا بغلام أصحابي أهذب [أقنى أقب] يخصف نعاله وسيفه بين يديه وفرسه عنده، فلما نظر إلى رمي النعل من يده ثم أحضر غير مكتثر، فأخذ سلاحه وأشرف على ثنية، فلما نظر إلى الخيل محيطة بيته [ركب ثم] أقبل نحوه وهو يقول:

أقول لما مَنَحْتُنِي فَاهَا وَالْبَسْتَنِي بَكْرَةً رَدَاهَا
إِنِي سَأَحْوِي الْيَوْمَ مَنْ حَوَاهَا فَلِيْتْ شَعْرِي الْيَوْمَ مَنْ دَهَاهَا
فَحَمِلْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا أَقُولُ :

عَمَرُو عَلَى طُولِ الرَّدَى دَهَاهَا بِالْخَيْلِ يَبْقِيهَا عَلَى وَجَاهَا
حَتَّى إِذَا حَلَّ بَهَا حَوَاهَا

ثم حملت عليه بالفرس فإذا هو أروغ من هو، فراغ عنى، ثم حمل على فضريني بسيفه ضربة جرحتني، فلما أفتقت [من ضربته] حملت عليه، فراغ والله، ثم حمل على، ثم صرعني، ثم استفاق ما في أيدينا، ثم استويت على فرسى، فلما رأني أقبل وهو يقول:
أنا عبيد الله محمود الشيم وخير من يمشي بساق وقدم
عذُوهُ يفديه من كل السَّقْم

فَحَمِلْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا أَقُولُ :

أَنَا ابْنُ ذِي التَّقْلِيدِ فِي الشَّهْرِ الْأَصْمَمِ أَنَا ابْنُ ذِي الْإِكْلِيلِ فَتَأْلُلُ الْبُهْمِ
مِنْ يَلْقَنِي يَوْدِي كَمَا أَوْدَتْ إِرْمَ أَتَرَكَهُ لَحْمَانَ عَلَى ظَهَرِ وَضْمَّ
فَرَاغَ وَاللهُ عَنِي، ثُمَّ حَمَلَ عَلَيَّ فَضْرِبِنِي ضَرْبَةً أُخْرَى، ثُمَّ صَرَخَ صَرَخَةً، وَرَأَيْتَ
الْمَوْتَ وَاللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، وَحَفْتُهُ خَوْفًا لَمْ أَخْفَ [قَطْ] أَحَدًا مِثْلَهُ،

وقلت له: من أنت ثكلتك أمك؟ فوالله ما اجترأ على أحد قط إلا عامر بن الطفيلي لاعجابه بنفسه، وعمرو بن كلثوم لسته وتجربته [فمن أنت؟] قال: بل مَنْ أنت؟ خبرني وإلا قتلتك، قلت: أنا عمرو بن معد يكرب، قال: وأنا ربيعة بن مُكَدِّم، قلت: اخترت مني إحدى ثلات خصال: إن شئت اجتلدنَا بسيفينا حتى يموت الأَعْجَزُ مِنَا، وإن شئت اصطركُونَا، وإن شئت السُّلْمَ، وأنت يا بن أخي حَدَثْ [وبِقُومِكِ إِلَيْكِ حاجة]، قال: بل هي إِلَيْكِ، فاخترت لنفسك، واخترت السلم، ثم قال: انزل عن فرسك، قلت: يا بن أخي] قد جرحتني جراحتين ولا نزول لي، فوالله ما كَفَ عنِي حتَى نزلت عن فرسِي، فأخذ بعنانه، ثم أخذ بيدي في يده وانصرفنا إلى الحي وأنا أجرِ رجلي، حتى طلعت علينا الخيل، فلما رأوني همزوا خيولهم إلى فناديتهم: إِلَيْكُمْ، وأرادوا ربيعة، فمضى والله كأنه ليث حتى شَقَّهم، ثم أقبل علي فقال: يا عمرو، لعل أصحابك يريدون غير الذي تريده، فضمنت والله القوم ما فيهم أحد ينطق، وأعظموا ما رأوا منه، فقلت: يا ربيعة ابن مُكَدِّم لا يريدون إلا خيراً، وإنما سميتها ليعرفه القوم، فقال لهم: ما تريدون؟ وما تريده؟ قد جرحت فارس العرب، وأخذت سيفه وفرسه، ومضى ومضينا معه، حتى نزل، فقامت إليه صاحبته وهي ضاحكة تمسح وجهه، ثم أمر بباب فتحرت، وضربت علينا قباب، فلما أمسينا جاءت الرعاء ومعهم أفراس [لربيعه] لم أر مثلها قط [فلما رأى نظري إليها قال: كيف ترى هذه الخيول؟ قلت: لم أر مثلها قط] قال: أما لو كان عندي بعضها ما لبشت في الدنيا إلا قليلاً، فضحكتُ وما ينطق أحد من أصحابي، فأقمنا عنده يومين ثم انصرفنا.

عمرو بن معد يكرب يغير علىبني كنانة

قال: وقد كان عمرو بن معد يكرب بعد ذلك بزمان أغاث على كنانة في صناديد قومه، فأخذ غنائمهم، وأخذ امرأة ربيعة بن مُكَدِّم، فبلغ ذلك ربيعة - وكان غير بعيد - فركب في الطلب على فرس عُري ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه، فلما نظر إليه قال: يا عمرو، خَلَ عن الظعينة [وَمَا مَعَكَ] فلم يلتفت إليه، ثم أعاد عليه، فلم يتلفت إليه، فقال: يا عمرو، إما أن تقف [لي وإما أن أقف لك] فوق عمرو، وقال: لقد أنصف القارة من رامها، قف لي يا بن أخي، فوقف له ربيعة، فحمل عليه عمرو وهو يقول:

أَنَا أَبُو ثَوْرٍ وَوَقَافُ الزَّلْقَ لَسْتُ بِمَأْفُونٍ وَلَا فِي حُرْقَ
وَأَسَدُ الْقَوْمِ إِذَا احْمَرَ الْحَدَقَ إِذَا الرَّجُالُ عَضَّهُمْ نَابُ الْفَرْقَ
وَجَدْتُنِي بِالسِّيفِ هَتَّاكَ الْحَلْقَ

حتى إذا ظنَّ أنه خالطه السنان إذا هو لَبَّ لفرسه، ومَرَ السنان على ظهر الفرس، ثم وقف له عمرو، فحمل عليه ربيعة وهو يقول:

أنا الغلام ابن الكناني لا بذخ كم من هزير قد رأني فانشدخ
 فقرع بالرمح رأسه، ثم قال: خذها إليك يا عمرو، ولو لا أني أكره قتل مثلك
 لقتلتك، فقال عمرو: لا ينصرف إلا أحذنا، فقف لي، فحمل عليه حتى إذا ظن أنه قد
 خالطه السنان إذا هو حزام لفرسه [ومر السنان على ظهر الفرس] ثم حمل عليه ربيعة فقرع
 بالرمح رأسه أيضاً، وقال: خذها إليك يا عمرو ثانية، وإنما العفو مرتان، وصاحت به
 امرأته: السنان الله درك، فأخرج سناناً من سنج إزاره كأنه شعلة نارٍ، فركبه على رمحه،
 فلما نظر إليه عمرو، وذكر طعنته بلا سنان قال له عمرو: [يا ربيعة] خذ الغنية، قال:
 دعها وانج، فقالت بنو زيد: أترك غنيمتنا لهذا الغلام؟ فقال لهم عمرو: يابني زيد،
 والله لقد رأيت الموت الأحمر في سنانه، وسمعت صريره في تركيه، فقالت بنو زيد: لا
 يتحدث العرب أن قوماً منبني زيد فيهم عمرو بن معد يكتب تركوا غنيمتهم لمثل هذا
 الغلام، قال عمرو: [إنه] لا طاقة لكم به، وما رأيت مثله قط، فانصرفوا عنه، وأخذ
 ربيعة امرأته والغنية وعاد إلى قومه.

قال المسعودي رحمه الله تعالى: ولعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أخبار
 كثيرة في أسفاره في الجاهلية إلى الشام والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم، وسير
 في الإسلام، وأخبار وسياسات حسان، وما كان في أيامه من الكوانين والأحداث وفتح
 مصر [والشام وال العراق وغيرها من الأمصار]، قد أتينا على مبوسطها في كتابنا «أخبار
 الزمان» والكتاب «الأوسط»، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعاً مما لم نذكره فيما سلف من
 كتبنا، وبالله التوفيق.

ذكر خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه

بويع [عثمان] يوم الجمعة غرة المحرم [لليلة بقيت من ذي الحجة] سنة ثلاثة وعشرين [وقتل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين]، وقيل غير ذلك مما سئرده بعد هذا الموضع [إلا أنه في ذي الحجة]؛ فجميع ما ولد اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام، وقتل وهو ابن اثنين وثمانين سنة، ودفن بالمدينة بموضع يعرف بحش كوكب [وكانت خلافته رضي الله تعالى عنه اثنتي عشرة سنة إلا ثمانية أيام].

ذكر نسبه، ولمع من أخباره وسيره

نسبه وأولاده

هو عثمان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويكنى بأبي عبد الله [وأبي عمرو، والأغلب منهما أبو عبد الله]، وأمه أروى بنت كريز بن جابر بن حبيب بن عبد شمس، وكان له من الولد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، وأمهمما رقية بنت رسول الله ﷺ. وأبان، وخالد، وسعيد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأم أبان، وأم سعيد، وأم عمرو، وعائشة، وكان عبد الله الأكبر يلقب بالمطرف لجماله وحسناته. وكان كثير التزوج، كثير الطلاق، وكان أبان أبرص أحول، قد حمل عنه أصحابُ الحديث عدة من السنن. وولي لبني مروان مكة وغيرها. [وكان سعيد أحول بخيلاً. وقتل في زمن معاوية] وكان الوليد صاحب شراب وفتوة ومجون. وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مصبغات واسعة. وبلغ عبد الله [الأصغر] من السن ستة وسبعين عاماً، فنقره ديك في عينه، فكان ذلك سبب موته، وعبد الملك مات صغيراً ولا عقب له.

صفا

وكان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد. فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته، وتأسوا [به] في فعله. وبني دار في المدينة، وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعزعر واقتني أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة.

ثروته

وذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان [له] عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحُسين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً كثيراً وإبلأ.

ثروة الزبير بن العوام

وفي أيام عثمان اقتني جماعة من الصحابة الضياع والدور: منهم الزبير بن العوام، بني داره بالبصرة، وهي المعروفة في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة - تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحرين وغيرهم، وابتني أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية.

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس، وألف عبد وأمة، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار.

ثروة طلحة بن عبيد الله

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي: ابنتي داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكتنasa بدار الطلحين، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة وبنها بالأجر والجص والساج.

ثروة عبد الرحمن بن عوف

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري: ابنتي داره ووسعها، وكان على مر بيته مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف [شاة] من الغنم، ويبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

ثروة قوم من الصحابة

وابنتي سعد بن أبي وقاص داره بالعيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شرفات.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار.

وابنتي المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

ومات يعلى بن منية، وخلف خسمائة ألف دينار، وديوناً على الناس، وعقارات، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثة ألف دينار.

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه، فيمن تملك من الأموال في أيامه ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جاذبة واضحة وطريقة بيته.

وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً، وقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا.

ولقد شكا الناس أميرهم [بالكوفة] سعد بن أبي وقاص - وذلك في سنة إحدى وعشرين - ببعث عمر محمد بن مسلمة الأنباري حليفبني عبد الأشهل، فحرق عليه باب قصر الكوفة، وعرضه في مساجد الكوفة يسألهم عنه؛ فحمدوه بعضهم، وشكاه بعض، فعزله وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الشغر، وعثمان بن حنيف على الخراج، وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، وفرض لهم في كل يوم شاة؛ فجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف، فأين عمر ممن ذكرنا؟ وأين هو عما وصفنا؟

عمال عثمان

وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية - والحكم هو طريد رسول الله ﷺ الذي غرّبه عن المدينة، ونفاه عن جواره - وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة، وهو من أخبار النبي ﷺ أنه من أهل النار، وعبد الله بن أبي سرح على مصر، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الله بن عامر على البصرة، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة، وولاه سعيد بن العاص.

الوليد بن عقبة

وكان السبب في صرف الوليد [بن عقبة] وولاية سعيد - على ما روي - أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندائه ومحبيه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلوة خرج متفضلاً في غلاته، فتقدّم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعاً، وقال: أتريدين أن أزيدكم؟ وقيل: إنه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني، فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول: ما تزيد لأزدادك الله من الخير، والله لا أعجب إلا من بعثك إلينا واليأ علينا أميراً، وكان هذا القائل عتاب بن غilan الثقفي.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح، ويتمثل بأيات لتأبیط شرّا:

ولست بعيداً عن مدام وَقِينَةَ ولا بصفا صلد عن الخير معزَل
ولكثني أروى من الخمر هامتي وأمشي المَلَأ بالساحب المتسلسل
وفي ذلك يقول الحطيثة:

شهد الحطيثة يوم يلقى ربه
نادى وقد تَمَّت صلاتهم
ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا
حبسو عنانك في الصلاة، ولو
أن الوليد أَحَقُّ بالعذر
أَلْزِيدُكُمْ؟! ثمَّلاً وما يدرِي
لقرنت بين الشفيع والوتر
خَلَّوا عنانك لم تزل تجري

وأشاعوا بالكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته [على] شرب الخمر، فهجم عليه
جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما،
فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثم تقابلاً
عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوه من قَوْرهِم إلى المدينة، فأتوا
عثمان بن عفان، فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدرِيكما
أنه شرب خمراً؟ فقالوا: هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه
إليه، فزجرهما ودفع في صدورهما، وقال: تتحيَّا عنِي، فخرجَا من عنده وأتيا عليَّ بن
أبي طالب رضي الله عنه وأخباره بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود،
وابطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك [فتحضره]
فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقامت عليه الحد، فلما حضر
الوليد دعاهم عثمان: فأقاما الشهادة عليه ولم يُدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى عليَّ،
قال علي لابنه الحسن: قم يابني فأقم عليه ما أوجب الله عليه، فقال: يكفيه بعض من
تَرَى، فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقيتاً لغضب عثمان لقرباته منه
أخذ على السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد، وقال: يا صاحب مكس، فقال
عقيل بن أبي طالب وكان من حضر: إنك لتتكلم يا بن أبي مُعيط كأنك لا تدرِي من
أنت، وأنت علَج من أهل صَفْرَرِيَّة - وهي قرية بين عكا واللُّجُون، من أعمال الأردن،
من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها - فأقبل الوليد يَرُوغُ من علىِ، فاجتبه
علي فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال:
بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

سعيد بن العاص

وولي الكوفة بعده سعيد بن العاص، فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبي أن يصعد المنبر حتى يغسل، وأمر بغسله، وقال: إن الوليد كان نجساً رجساً، فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة، فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان: إنما هذا السواد قطين لقريش، فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث التخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيفونا ومراكز رماحنا بستانًا لك ولقومك؟ ثم خرج إلى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد [بن العاص]، وسألوا عزله عنهم، فمكث الأشتر وأصحابه أيامًا لا يخرج لهم من عثمان في سعيد شيء، وامتدت أيامهم بالمدينة، وقدم على عثمان أمراؤه من الأنصار منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من مصر ومعاوية من الشام وعبد الله بن عامر من البصرة وسعيد بن العاص من الكوفة، فأقاموا بالمدينة أيامًا لا يردهم إلى أنصارهم، وكراهة أن يرد سعيداً إلى الكوفة، وكره أن يعزله، حتى كتب إليه من بأنصارهم يشكرون كثرة الخراج وتعطيل التغور، فجمعهم عثمان وقال: ما ترون؟ فقال معاوية: أما أنا فراض بي جندي، وقال عبد الله بن عامر بن كريز: ليكفك أمرؤ ما قبلك ما قبلي، وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره، وقال سعيد بن العاص: إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون، وقد صاروا حلقاً في المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض، فجهزهم في البعث حتى يكون هم أحدهم أن يموت على ظهر دابته، قال: فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد، فإذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه، فقالا له: [تعال] إلينا، فصار إليهما، فقالا: ما وراءك؟ قال: الشر، ما ترك شيئاً من المنكر إلا أتى به وأمره به، وجاء الأشتر فقالا له: إن عاملكم الذي قمت فيه خطباء قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعث وبكذا وبكذا، فقال الأشتر: والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء، فكيف وقد قمنا؟! وابن الله على ذلك لولا أني أنفدت النفقة وأنضبت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها، فقالا له: فعندي حاجتك التي تقوم بك في سفرك قال: فأسلفاني إذا مائة ألف درهم، قال: فأسلفه كل واحد منها خمسين ألف درهم، فقسمها بين أصحابه، وخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً، وصعد المنبر وسيقه في عنقه ما وضعه بعد، ثم قال: أما بعد، فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم، وأمر بتجهيزكم في البعث، فباعوني على أن لا يدخلها، فباعه عشرة آلاف من أهل الكوفة وخرج راكباً متخفياً يرید المدينة أو مكة،

فلقي سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر، فانصرف إلى المدينة، وكتب الأشتر إلى عثمان: إننا والله ما معنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك، [ولكن لسوء سيرته فيما وشدة عذابه، فابعث إلى عملك] مَنْ أحببْت. فكتب إليهم: انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه، فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعري، فولوه.

بعد الطعن على عثمان وسببه

وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضي الله عنه، وظهر عليه التكبير لأشياء ذكروها من فعله:

منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود، وانحراف هذيل عن عثمان من أجله.
ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتنة والضرب، وانحرافبني مخزوم عن عثمان من أجله.

الوليد بن عقبة ويهودي مشعوذ

ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة في مسجد الكوفة، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكني قرية من قرى الكوفة مما يلي جسر بابل يقال لها زراراة يعمل أنواعاً من الشعوذة وال술 يعرف بيطروني فأحضر[ه] فرأاه في المسجد ضرباً من التخييل، وهو أن أظهر له في الليل قيلاً عظيماً على فرس [يركض] في صحن المسجد ثم صار اليهودي ناقة يمشي على حبل، ثم أراه صورة حمار دخل من فيه ثم خرج من ذبره، ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه، ثم أمز السيف عليه فقام الرجل، وكان جماعة من أهل الكوفة حُضوراً منهم جندب بن كعب الأزدي، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان، ومن عمل يبعد من الرحمن، وعلم أن ذلك [هو] ضرب من التخييل وال술، فاختلط سيفه وضرب به اليهودي ضربة أدار رأسه ناحية من بدنـه، وقال: «جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَنِطَلُ إِنَّ الْبَنِطَلَ كَانَ زَهُوقًا» [الإسراء: ٨١]، وقد قيل: إن ذلك كان نهاراً، وإن جندباً خرج إلى السوق ودنا من بعض الصيالة وأخذ سيفاً ودخل فضرب به عنق اليهودي، وقال: إن كنت صادقاً فأحيي نفسك، فأنكر عليه الوليد ذلك، وأراد أن يقيده به، فمنعته الأزد، فحبسه، وأراد قتلـه غيلة، ونظر السجان إلى قيامـه ليـه إلى الصبح، فقال له: انجـ بنفسك، فقال له جندب: تُقتلـ بي، قال: ليس ذلك بكثيرـ في مرضـة الله والدفعـ عنـوليـ منـ أولـيـاءـ اللهـ فـلـمـ أـصـبـ الـولـيدـ دـعاـ بـهـ وـقـدـ اـسـتـعـدـ لـقـتـلـهـ فـلـمـ يـجـدـهـ، فـسـأـلـ السـجـانـ، فـأـخـبـرـهـ بـهـرـبـهـ، فـضـرـبـ عـنـقـ السـجـانـ، وـصـلـبـهـ بـالـكـنـاسـةـ.

بين عثمان وأبي ذر

ومن ذلك ما فعل بأبي ذر، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان: أرأيتم من زكي ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين، فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يا بن اليهودي، ثم تلا **﴿تَبَّأَلَرَ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾** [البقرة: ١٧٧] فقال عثمان: أترون بأساً أن تأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فتنفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال: يا بن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا! فقال له عثمان: ما أكثر أذاك لي! غَيْب وجهاك عنِّي فقد آذيتنا، فخرج أبو ذر إلى الشام، فكتب معاوية إلى عثمان، إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك، فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه فتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواسطه أفخاده وكاد أن يتلف، فقيل له: إنك تموت من ذلك، فقال: هيئات لن أموت حتى أنفي، وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولى دفنه، فأحسن إليه [عثمان] في داره أيامًا، ثم دخل إليه مجلس على ركبته وتكلم بأشياء، وذكر الخبر في ولد أبي العاص إذا بلغوا ثالثين رجالاً اتخذوا عباد الله خَوْلًا، ومَرْ في الخبر بطوله، وتكلم بكلام كثير، وكان في ذلك اليوم قد أتى عثمان برقة عبد الرحمن بن عوف [الزهري] من المال، فنشرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً؛ لأنَّه كان يتصدقُ، ويقري الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأخبار: صدقَت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: يا بن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبي ﷺ يقول «ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً» فقال له عثمان: وارعني وجهك، فقال: أسيء إلى مكة، قال: لا والله، قال: فتمنعني من بيت ربي أبده فيه حتى أموت؟ قال: إيه والله، قال: إلى الشام، قال: لا والله [قال]. البصرة؟ قال: لا والله، فاختَر غير هذه البلدان، قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان، فَسَيَّرَني حيث شئت من البلاد، قال فإني مسرك إلى الربذة، قال: الله أكبر، صدق رسول الله ﷺ قد أخبرني بكل ما أنا لاق، قال عثمان: وما قال لك؟ قال: أخبرني بأنني أمنع عن مكة والمدينة وأموات بالربذة، ويتولى مواراتي نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز، وبعث أبو ذر إلى جمل

له فحمل عليه أمرأته - وقيل: ابنته - وأمر عثمان أن يتجاهله الناس حتى يسير إلى الربذة، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ومعه ابناه الحسن والحسين وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعتراض مروان فقال: يا علي إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيرة ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي ابن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته، وقال: تَنَحَّ حاكَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ، وَمَضِيَ مَعَ أَبِي ذَرٍ فَشَيْعَهُ ثُمَّ وَدَعَهُ وانصرف، فلما أراد علي الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمةكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله ﷺ، فشكراً مروان إلى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب، فقال عثمان: يا معاشر المسلمين من يعذرني من علي؟ رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطيه حقه، فلما رجع علي استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال علي: غَضَبَ الْخَيْلُ عَلَى الْلُّجْمِ.

فلما كان بالعشري جاء إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجرأت على ورددت رسولي وأمري؟ قال: أما مروان فإنه استقبلني يرددني فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أرده، قال عثمان: ألم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشيعه؟ فقال علي: أوكل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل، قال عثمان: أقد مروان، قال: ومم أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته [وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك] قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضر بها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً. قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟ فغضب علي بن أبي طالب وقال: ألي تقول هذا القول؟ وبمروان تعذلي؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه تبلي قد نثتها، وهلم فاثل بنيلك، فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره، وانصرف علي، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم علياً وقال: إنه يعييني ويُظاهر من يعييني، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما [حتى اصطلحوا] وقال له علي: والله ما أردت بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى.

عمار بن ياسر

وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان: أفيكم أحد

الثورة على عثمان

ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة في مائتى
رجل، وحكيم بن جبلة العبدى في مائة رجل من أهل البصرة، ومن أهل مصر ستمائة
رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وقد ذكر الواقدى وغيره من أصحاب السير
أنه من بايع تحت الشجرة، إلى آخرين من كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعي
وسعد بن حمران التجبي، ومعهم محمد بن أبي بكر الصديق، وقد كان تكلم بمصر،
وحرَّض الناس على عثمان لأمر يطول ذكره كان السبب فيه مروان بن الحكم، فنزلوا في
الموضع المعروف بذى الخشب فلما علم عثمان بنزولهم بعث إلى علي بن أبي طالب
فأحضره، وسألته أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن
السيرة، فسار على إلينهم، فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا، فلما
صاروا إلى الموضع المعروف بحسنى إذا هم بغلام على بعير وهو مُقبل من المدينة،
فتأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان، فقرُّرُوه، فأقرَّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب
مصر [وفيه] «إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان، واقتل فلاناً، وافعل بفلان كذا،
وأحصى أكثر من في الجيش، وأمر فيهم بما أمر» وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان،
فرجعوا إلى المدينة، واتفق رأيهم ورأي من قدم من العراق، ونزلوا المسجد وتكلموا،
وذكروا ما نزل بهم من عَمَالِهِمْ، ورجعوا إلى عثمان فحاصروه في داره، ومنعوه الماء،
فأشترف على الناس وقال: ألا أحد يسقينا، وقال: بم تستحلون قتلى وقد سمعت

رسول الله ﷺ يقول «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلات: كفر بعد إيمان، أو ذنبي بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس»؟ والله ما فعلت ذلك في جاهلية أو إسلام، فبلغ علياً طلبه للماء، فبعث إلي بثلاث قرب ماء، فما وصل إليه ذلك حتى خرج جماعة من مواليبني هاشم وبني أمية، وارتفع الصوت، وكثُر الضجيج، وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان، فأبى أن يخلُّ عنده، وفي الناس بنو رُحْرَة لأجل عبد الله بن مسعود لأنَّه [كان] من أخلافها، وهذيل لأنَّه كان منها، وبنو مخزوم وأخلافها لعمار، وغفار وأخلافها لأجل أبي ذر، وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر، وغير هؤلاء من لا يحمل كتابنا ذكره، فلما بلغ علينا أنهم يريدون قته بعث ببنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله، ويعث طلحة ابنه محمداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباءهم اقتداءً بمن ذكرنا، فصدُّوهم عن الدار، فرمي من وصفنا بالسهام، واشتبك القوم، وجُرح الحسن، وشُجَّ قبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشى القوم أن يتعرض بنو هاشم وبني أمية، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوَّرُوا عليها، وكان من وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران، وعند عثمان زوجته، وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال، فأخذ محمد بن أبي بكر بلحنته، فقال: يا محمد، والله لو رأك أبوك لسأه مكانك فتراخت يده، وخرج عنه إلى الدار، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه، فصعدت امرأته فصرخت [وقالت: قد] قتل أمير المؤمنين، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية، فوجدوه قد فاضت نفسه رضي الله عنه، فبكوا، فبلغ ذلك علينا وطلحة والزبير [وسعداً] وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علي الدار، وهو كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ولطم الحسن وضرب [صدر] الحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير، فقال له طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم، ولا تلعن، لو دفع [إليهم] مروان ما قتل، وهرب مروان وغيره من بني أمية، وطلبوه ليقتلوا فلم يوجدوا، وقال علي لزوجته نائلة بنت الفرافصة، من قته وأنت كنت معه؟ قال: دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبي بكر، فلم ينكر ما قالت، وقال: والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قته، فلما خاطبني بما قال خرجت، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنِّي، والله ما كان لي في قته [من] سبب، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله.

وكانت مدة ما حاصر عثمان في داره تسعاً وأربعين يوماً، وقيل: أكثر من ذلك.

مقتله، وقتلته

وُقْتُلَ فِي لَيْلَةِ الْجَمْعَةِ ثَلَاثَ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَذُكْرُ أَنَّ أَحَدَ الرَّجُلَيْنَ كَنَانَةً ابْنَ بَشَرَ التَّجِيَّبِيِّ، ضَرَبَهُ بِعَمُودٍ عَلَى جَهَتِهِ، وَالْآخَرُ مِنْهُمَا سَعْدَ بْنَ حُمَرَانَ الْمَرَادِيَّ ضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ فَحَلَّهُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْحَمْقَ طَعْنَهُ بِسَهَامٍ تَسْعَ طَعْنَاتٍ، وَكَانَ فِيمَنْ مَالَ عَلَيْهِ عَمِيرَ بْنَ ضَابِئَ [الْبَرْجَمِيِّ] التَّمِيمِيِّ، وَخَصْصَخْضَ سَيْفَهُ فِي بَطْنِهِ.

مدفنه

وَدُفِنَ عَلَى مَا وَصَفَنَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُعْرُوفِ بِحَشْ كُوكَبٍ، وَهَذَا الْمَوْضِعُ فِي مَقَابِرِ بَنِي أَمِيَّةَ، وَيُعْرَفُ أَيْضًا بِحَلَّةٍ، وَصَلَّى عَلَيْهِ جَبِيرُ بْنُ مَطْعَمٍ وَحَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ وَأَبُو جَهْمَ ابْنَ حَذِيفَةَ.

وَلَمَّا حُوْصِرَ عُثْمَانُ كَانَ أَبُو أَيُوبُ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصْلِي بِالنَّاسِ، ثُمَّ امْتَنَعَ، فَصَلَّى بِهِمْ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ النَّحرِ صَلَّى بِهِمْ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: إِنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ وَمَعَهُ فِي الدَّارِ مِنْ بَنِي أَمِيَّةِ ثَمَانِيَّةِ شَرْعَرَ رِجَالًا مِنْهُمْ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكْمَ.

ما قيل فيه من الرثاء

وفي مقتله تقول زوجته نائلة بنت الفراصة:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قَتِيلِ التَّجِيَّبِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ مَصْرِ
وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَتَبْكِي قَرَابِتِيِّ وَقَدْ غَيْبُوا عَنِي فَضُولُ أَبِي عَمْرو
وَقَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ فِيمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ وَخَذَلَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَعْانَ [عَلَيْهِ]
وَ[عَلَى قَتْلِهِ]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا قَالَهُ، مِنْ آيَاتٍ:

خَذَلَتُهُ الْأَنْصَارُ إِذْ حَضَرَ الْمُوْتَ وَكَانَتْ وَلَايَةُ الْأَنْصَارِ
فَمَنْ عَذِيرِي مِنْ الزَّبِيرِ وَمِنْ طَلْحَةِ إِذْ جَاءَ أَمْرَ لَهُ مَقْدَارٌ
فَتَولَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَيْانًا، وَخَلَفَهُ عَمَارٌ
فِي شِعْرٍ لَهُ طَوِيلٍ يَذَكُرُ فِيهِ غَيْرَ مِنْ ذَكْرِنَا، وَيُنْسَبُهُمْ إِلَى التَّمَالُؤِ عَلَى قَتْلِهِ، وَالرَّضَا
بِمَا فَعَلَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَكَانَ حَسَانُ عَثْمَانِيَا مُنْحَرِفًا عَنْ غَيْرِهِ، وَكَانَ عَثْمَانَ إِلَيْهِ مُحَسِّنًا،
وَهُوَ الْمُتَوَعِّدُ لِلْأَنْصَارِ فِي قَوْلِهِ فِي شِعْرِهِ:

[ياليث شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن علي وابن عفانا]
 لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكًا فِي دِيَارِهِمُ اللَّهُ أَكْبَرُ، يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ
 وَكَانَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرًا مَا يَنْشَدُ أَيَّاتًا قَالَهَا وَيُطْلِيلُ ذَكْرَهَا لَا تُعْرِفُ لِغَيْرِهِ،
 مِنْهَا:

تفنى اللذادة ممَّن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
 يلقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار
 وكان الوليد بن عقبة بن أبي مُعْنَاط أخا عثمان لأمه، فسمع في الليلة الثانية من مقتل
 عثمان يندبه، وهو يقول:

بني هاشم، إنا وما كان بيننا
 كصُدُع الصفا ما يومض الدهر شاعبُه
 بني هاشم، كيف الهوادة بيننا
 وسيف ابن أروى عندكم وحرائبُه
 بني هاشم، ردوا سلاح ابن أختكم
 ولا تنھبوه، لا تحل مناهبه
 كما غدرت يوماً بكسرى مَرَازِبُه
 غدرتم به كيما تكونوا مكانه
 وهي أبيات:

فأجابه عن هذا الشعر، وفيما رمى به بني هاشم ونسبة إليهم، الفصلُ بن العباس
 [ابن عتبة] بن أبي لهب فقال:

أضيع، وألقاه لدى الرؤوف صاحبه
 فهم سلبوه سيفه وحرائبُه
 على، وفي كل المواطن صاحبه
 وأنت مع الأشقيين فيما تحاربه
 بما لك فينا من حميم تعاته
 وأنت أمرؤ من أهل صفواء نازح
 بما لك في الإسلام سهم تطالبه
 وقد أنزل الرحمنُ أنك فاسق
 فلا تسألونا سيفكم؛ إن سيفكم
 سلو أهل مصر عن سلاح ابن أختنا
 وكان ولئِ الأمر بعد محمد
 على ولِي الله أظهر دينه
 وأنت امرؤ من أهل صفواء نازح
 قال المسعودي رحمه الله: ولعثمان أخبار وسير وآثار حسان، قد أتينا على ذكرها
 في كتابنا «أخبار الزمان» والكتاب «الأوسط»، وكذلك ما كان في أيامه من الكوائن
 والأحداث والفتح والحروب من الروم وغيرهم [والله ولِي التوفيق، وصلَى الله على
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم].

ذكر خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه!

موجز

بويع علي بن أبي طالب في اليوم الذي قُتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فكانت خلافته إلى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام وقيل: أربع سنين وتسعة أشهر إلا يوماً، وكانت الفرق بينه وبين معاوية [بن أبي سفيان] على ما ذكرنا في خلافته، وكان مولده في الكعبة، وقيل: إن خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعين ليل، واستشهد وهو ابن ثلاثة وستين سنة، وعاش بعد الضربة الجمعة والسبت، وتوفي ليلة الأحد، وقد قيل في مقدار عمره أقل مما ذكرنا، وقد توزع في موضع قبره؛ فمنهم من قال: إنه دفن في مسجد الكوفة، ومنهم من قال: إنه حمل إلى المدينة فدفن عند [قبر] فاطمة، ومنهم من قال: [إنه] حمل في تابوت على جمل، وإن الجمل تاه ووقع إلى وادي طيء، وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا، وقد أتيانا على ذلك في كتابنا «أخبار الزمان» والكتاب «الأوسط».

ذكر نسبة، ولمع من أخباره وسيره

نسبة

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكنى أبو الحسن، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، ولم يكن من عهد النبي ﷺ إلى وقتنا هذا من خلافة المتنقي [ممن ولـيـ الخلافـة] من اسمـه عـلـيـ غيرـه، و[غيرـ] المكتـفي بالـلهـ عـلـيـ بنـ المـعـتـضـدـ، وـكـانـ أـوـلـ مـنـ وـلـدـ هـاشـمـيـانـ مـنـ الـخـلـفـاءـ، وـقـدـ قـيلـ: إـنـهـ بـوـيـعـ الـبيـعـةـ الـعـامـةـ بـعـدـ قـتـلـ عـثـمـانـ بـأـرـبـعـةـ أـيـامـ، وـقـدـ ذـكـرـنـاـ الـبيـعـةـ الـأـولـىـ فـيـماـ سـلـفـ مـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ.

إخواته وأخواته

وتـنـازـعـ النـاسـ فـيـ اـسـمـ أـبـيـ طـالـبـ أـيـهـ، وـوـلـدـ أـبـيـ طـالـبـ بـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ أـرـبـعـةـ ذـكـورـ وـابـتـانـ فـطـالـبـ وـعـقـيلـ وـجـعـفـرـ وـعـلـيـ وـفـاخـتـةـ وـجـمـانـةـ لـأـبـ وـأـمـ، أـمـهـ فـاطـمـةـ بـنـتـ أـسدـ بـنـ هـاشـمـ، وـبـيـنـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ الـبـنـينـ عـشـرـ سـنـينـ: [فـطـالـبـ الـأـكـبـرـ وـبـيـنـهـ وـبـيـنـ عـقـيلـ عـشـرـ سـنـينـ، وـبـيـنـ عـقـيلـ وـجـعـفـرـ سـتـانـ وـ] بـيـنـ جـعـفـرـ وـعـلـيـ عـشـرـ سـنـينـ، وـأـخـرـجـ مـشـرـكـوـ قـرـيـشـ طـالـبـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ يـوـمـ بـدـرـ إـلـيـ حـرـبـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ كـرـهـاـ، وـمـضـىـ وـلـمـ يـعـرـفـ لـهـ خـبـرـ، وـحـفـظـ مـنـ قـوـلـهـ فـيـ هـذـاـ يـوـمـ:

يا رب إما خرجوا بطلاب في مقرب من تلكم المقابل
فاجعلهم المغلوب غير الغالب والرجل المسلوب غير السالب

وكان زوج فاختة بنت أبي طالب أبو وهب هبيرة بن عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وخلف عليها ابنها بنتها، وهاجرت، ومات زوجها بنجران مشركاً، وفيها يقول بلاد نجران من أبيات كثيرة:

أشافتكم هند أم شاك سؤالها؟	كذاك النوى أسبابها وانتقالها
وأرقتني في رأس حصن ممرد	بنجران يسري بعد نوم خيالها
فإن تك قد تابعت دين محمد	وقطعت الأرحام منك حبالها

وهي طويلة، وكانت تكنى أم هانيء، وقد استعمل علي - حين أفضت الخلافة إليه - ابنها جعدة بن هبيرة، وجعدة هو القائل:

أبى من بني مخزومِ أَنْ كُنْتْ سَائِلًا
وَمِنْ هَاشِمَ أَمْيَ لِخِيرِ قَبِيلٍ
فَمِنْ ذَا الَّذِي يَبْأَى عَلَيَّ بِخَالِهِ وَخَالِي عَلَيَّ ذُو التَّدَى وَعَقِيلٍ
وَجَمَانَةُ بُنْتُ أَبِي طَالِبٍ كَانَ بَعْلَهَا سَفِيَانُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ، وَهِيَ أُولَى
هَاشِمِيَّةٍ وَلَدَتْ لِهَاشِمِيَّةٍ، كَذَلِكَ ذَكْرُ الرَّزِيرِ بْنِ بَكَارٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَنْسَابِ قَرِيشٍ وَأَخْبَارِهَا،
وَهَاجَرَتْ وَمَاتَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ.

مسيره إلى البصرة

وكان مسیر علي إلى البصرة في سنة ست وثلاثين، وفيها كانت وقعة الجمل، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادی الأولى منها، وقتل فيها من أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً، وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف، وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين: فمن مقلل ومكث؛ فالمقلل يقول: قتل منهم سبعة آلاف [والมากث يقول: عشرة آلاف] على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كل فريق منهم، وكانت وقعة واحدة في يوم واحد.

وقيل: إنه كان بين خلافة علي إلى وقعة الجمل [خمسة أشهر وأحد وعشرون يوماً، وبين وقعة الجمل] وأول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، وبين ذلك وبين دخول علي إلى الكوفة [شهر، وبين ذلك وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وستة أشهر وعشرة أيام، وبين دخول علي و][التقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وبين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوماً.

قتلى صفين وأيامها

وقتل بصفين سبعون ألفاً: من أهل الشام [خمسة وأربعون ألفاً]، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام، وقتل بها من الصحابة ممن كان مع علي خمسة وعشرون رجلاً: منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سمية وهو ابن ثلث وسبعين سنة.

وكانت عدة الواقع بين أهل العراق والشام سبعون وقعة.

التقاء الحكمين

وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين - وهو عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري - بأرض البلقاء من أرض دمشق، وقيل: بدومة الجندي، وهي على [نحو] عشرة أميال من دمشق، وكان من أمرهما ما قد شهر، وسنورد في هذا الكتاب جوامع ما ذكرنا، وإن كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتابنا.

وفي هذه السنة حكمة الخوارج [وتحكمت]، وهم الشّرّاة.

وكان من شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار من بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ تسعمائة، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة.

حربه مع الخوارج

وفي سنة ثمان وثلاثين كان حربه مع أهل النهروان من الخوارج، وقد عن يبيته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر: منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وبایع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان، ومنهم قدامه بن مظعون، وأهبان بن صيفي، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة الثقيفي، وممن اعترض من الأنصار كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وكانا شاعرين، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة حليفبني عبد الأشهل، [ويزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، ونعمان بن بشير] وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة [ومسلمة بن خالد، في آخرين من لم نذكرهم من العثمانية من الأنصار] وغيرهم منبني أمية وسواهم.

واتبع علي أملاكاً كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين، وقسم ما في بيت المال على الناس، ولم يفضل أحداً على أحد، وبعثت أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أخيها معاوية بقميص عثمان مخصوصاً بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصاري، واتصلت بيعة علي بالكوفة وغيرها من الأنصار، وكان أهل الكوفة أسرع [إجابة] إلى يبيته، وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعري، حتى تكاثر الناس عليه، وكان عليها عاملاً لعثمان.

بنو أمية عند علي

وأثار جماعة من تخلف عن يبيته منبني أمية: منهم سعيد بن العاص، ومرwan

ابن الحكم، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجرى بينه وبينهم خطب طويل، وقال له الوليد: إنما لم تختلف عنك رغبة عن بيتك، ولكننا قوم وترنا الناس، وخفنا على نفوسنا، فعذرنا فيما نقول واضح، أما أنا فقتل أبي صبراً، وضررتني حداً، وقال سعيد ابن العاص كلاماً كثيراً، وقال له الوليد: أما سعيد فقتل أبياه، وأهنت مثواه، وأماماً مروان فإنك شتمت أبياه، وعبت عثمان في ضمه إيه.

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكتب بن مالك والنعمان بن بشير - قبل نفوذه بالقميص - أتوا عليهما في آخرين من العثمانية فقال كعب بن مالك: يا أمير المؤمنين، ليس مسيئاً من عتب، وخير كفر ما محاه عذر، في كلام كثير، ثم بایع وبایع من ذكرنا جميعاً.

عمرو بن العاص

وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لأنحرافه [عنه] وتوليه مصر غيره، فنزل الشام، فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة علي، كتب إلى معاوية يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان، وكان فيما كتب به إليه: ما كنت صانعاً إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع، فبعث إليه معاوية، فسار إليه، فقال له معاوية: بايوني، قال: لا، والله لا أعطيك من ديني حتى أنان من دنياك، قال: سلن، قال: مصر طغمة، فأجابه إلى ذلك، وكتب له به كتاباً، وقال عمرو بن العاص في ذلك:

مُعاوِيَ لا أُعْطِيكَ دِينِي وَلَمْ أَنْلِ بِهِ مِنْكَ دُنْيَا، فَأَنْظُرْنِي كَيْفَ تُصْنِعْ
إِنْ تَعْطِنِي مَسْرًا فَأَرْبِحْ بِصَفْقَةِ أَخْذِي بِهَا شِبْخًا يَضْرِبْ وَيَنْفَعْ

المغيرة بن شعبة ينصح علياً ثم يرجع

وأتى المغيرة بن شعبة علياً، فقال له: إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحوز به ما في غد، وإن المضاع اليوم تضيع به ما في غد، أقر معاوية على عمله، وأقر ابن عامر على عمله، وأقر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتيك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت، قال: حتى أنظر، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد، فقال: إني أشرت عليك بالأمس برأي وتعقبته برأي، وإنما الرأي أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك، ثم خرج [من عنده] فتلقاء ابن عباس خارجاً وهو داخل؛ فلما انتهى إلى علي قال: رأيت المغيرة خارجاً من عندك فقيم جاءك؟ قال: جاءني أمس بكير وكير؛ وجاءني اليوم بذير وذير؛ فقال: أما أمس فقد نصحتك؛ وأما اليوم فقد غشوك؛ قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي أن تخرج حين قتل عثمان، أو قبل ذلك، فتأتي

مكة فتدخل دارك فتعلق عليك بابك؛ فإن كانت العرب مائلة مضطربة في أثرك لا تجد غيرك؛ فأما اليوم فإنبني أمية سيحسنون الطلب بأن يلزمونك شعبة من هذا الأمر، ويشبهون فيك على الناس، وقال المغيرة: نصحته فلم يقبل، فغضشت، وذكر أنه قال: والله ما نصحته قبلها، ولا أنسحه بعدها.

قال المسعودي: ووُجِدَتْ فِي وَجْهِ آخَرَ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسَ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ مَكَةَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ بِخَمْسِ لَيَالٍ، فَجَئْتُ عَلَيْهَا أَدْخِلُ عَلَيْهِ، فَقَيْلَ لِي: عَنْدَهُ الْمَغِيرَةُ بْنُ شَبَّابَةَ، فَجَلَسْتُ بِالْبَابِ سَاعَةً، فَخَرَجَ الْمَغِيرَةُ، فَسَلَمَ عَلَيَّ، وَقَالَ: مَتَى قَدِمْتَ؟ قَلَتْ: السَّاعَةُ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهَا وَسَلَمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَينَ لَقِيتَ الزَّبِيرَ وَطَلْحَةَ؟ قَلَتْ: بِالنَّوَاصِفَ، قَالَ: وَمَنْ مَعَهُمَا؟ قَلَتْ: أَبُو سَعِيدَ بْنَ الْحَارِثَ بْنَ هَشَامَ فِي فَتِيَّةِ مِنْ قَرْيَشِ، فَقَالَ عَلَيْهِ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْأٌ يَخْرُجُوا يَقُولُونَ نَطْلُبُ بَدْمَ عُثْمَانَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَتَّلُوا عُثْمَانَ، فَقَلَتْ: أَخْبَرْتُنِي عَنْ شَأْنِ الْمَغِيرَةِ، وَلَمْ خَلَّ بَكِ؟ قَالَ: جَاءَنِي بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ بِيَوْمَيْنِ، فَقَالَ: أَخْلَنِي، فَفَعَلَتْ، فَقَالَ: إِنَّ النَّصْحَ رَحِيقٌ وَأَنْتَ بَقِيَّةُ النَّاسِ، وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ، وَأَنَا أَشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَرْدِ عَمَالَ عُثْمَانَ عَامَكَ هَذَا، فَاكْتَبْ إِلَيْهِمْ بِإِثْبَاتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَإِذَا بَأْيَعُوكَ وَاطْمَأْنَ أَمْرَكَ عَزَّلَتْ مِنْ أَحَبِّتَ وَأَقْرَرْتَ مِنْ أَحَبِّتَ، فَقَلَتْ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَدَاهَنُ فِي دِينِي، وَلَا أُعْطِيَ الرِّيَاءَ فِي أَمْرِيِّ، قَالَ: إِنَّكَنْتَ قَدْ أَبَيْتَ فَانْزَعْ مِنْ شَيْتَ وَاتَّرَكَ معاوِيَةَ إِنَّهُ لَهُ جَرَاءَةٌ وَهُوَ فِي أَهْلِ الشَّامِ مَسْمُوعٌ مِنْهُ، وَلَكَ حَجَّةٌ فِي إِثْبَاتِهِ فَقَدْ كَانَ عَمْرَهُ وَلَاهُ الشَّامُ كُلُّهُ، فَقَلَتْ لَهُ: لَا وَاللَّهِ لَا استَعْمَلُ معاوِيَةَ يَوْمَيْنِ أَبْدَأُ، فَخَرَجَ مِنْ عَنْدِي عَلَى مَا أَشَارَبِهِ، ثُمَّ عَادَ، فَقَالَ: إِنِّي أَشَرَتُ عَلَيْكَ بِمَا أَشَرْتُ بِهِ وَأَبَيْتُ عَلَيْهِ، فَنَظَرَتْ فِي الْأَمْرِ، وَإِذَا أَنْتَ مَصِيبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَأْخُذَ أَمْرَكَ بِخُدُوعِ، وَلَا يَكُونُ فِي دَلْسَةِ، قَالَ ابْنَ عَبَّاسَ: فَقَلَتْ لَهُ: أَمَا أَوْلَ مَا أَشَارَ [بِهِ] عَلَيْكَ فَقَدْ نَصَحَكَ، وَأَمَا الْآخِرُ فَقَدْ عَشَّكَ، وَأَنَا أَشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْثِتْ معاوِيَةَ إِنَّهُ بَاعَ لَكَ فَعْلَيَّ أَنْ أَقْلِعَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهِ إِلَّا السِّيفَ، ثُمَّ تَمَثَّلَ:

فَمَا مِيَّتَهُ إِنْ مِيَّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارِ، إِذَا مَا غَالتَ النَّفْسَ غُولُهَا

فَقَلَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ رَجُلٌ شَجَاعٌ، أَمَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْحَرْبُ خُدُوعٌ»؟ فَقَالَ عَلَيْهِ: بَلِي، قَلَتْ: أَمَا وَاللَّهُ لَئِنْ أَطْعَتْنِي لِأَصْدِرَنَّ بِهِمْ بَعْدَ وَرَوْدَ، وَلَا تَرْكُنُهُمْ يَنْظَرُونَ فِي أَدْبَارِ الْأَمْرِ، وَلَا يَدْرُونَ مَا كَانَ وَجْهَهَا، مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ لَكَ، وَلَا إِثْمٌ عَلَيْكَ، فَقَالَ لِي: يَا بَنَ عَبَّاسَ، لَسْتُ مِنْ هَنْيَاتِكَ وَلَا هَنْيَاتٌ معاوِيَةٌ فِي شَيْءٍ تَشِيرُ بِهِ عَلَيَّ بِرَأْيِي، فَإِذَا عَصَيْتَكَ فَأَطْعَنِي، فَقَلَتْ أَنَا: أَفْعُلُ، فَإِنَّ أَيْسَرَ مَا لَكَ عَنْدِي الطَّاعَةُ، وَاللَّهُ وَلِي التَّوْفِيقَ.

ذكر الأخبار عن يوم العجل وبدئه وما كان فيه من الحرب، وغير ذلك

تدبير الخروج على علي

ودخل طلحة والزبير مكة، وقد كانا استأذناً علينا في العمرة، فقال لهم: لعلكما تريدان البصرة أو الشام، فأقسموا أنهما لا يقصدان غير مكة، وقد كانت عائشة رضي الله عنها بمكة، وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلي بها على الناس حرثة بن قدامة السعدي، ومسير عثمان بن حنيف الأنباري إليها على خراجها من قبل علي رضي الله عنه! وانصرف عن اليمين عامل عثمان [وهو يعلى بن منية، فأتى مكة وصادف بها عائشة وطلحة والزبير ومروان بن الحكم في آخرين منبني أمية، فكان من حَرَضَ على الطلب بدم عثمان]، وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة ألف درهم، وكراماً وسلاماً، ويعث إلى عائشة بالجمل المسمى عسيراً، وكان شراؤه عليه باليمين مائتي دينار، فأرادوا الشام، فصدهم ابن عامر، وقال: إن به معاوية، ولا يقاد إليكم ولا يطيعكم، لكن هذه البصرة لي بها صنائع وعَدَ، فجهزهم بألف ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك.

المسير إلى البصرة

وسار القوم نحو البصرة في ستمائة راكب، فانتهوا في الليل إلى ماء لبني كلاب يعرف بالحوَّاب، عليه ناس من بني كلاب، فَعَوْتَ كُلَّابِهِمْ عَلَى الرَّكْبِ، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجملها: الحواب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك، فقالت: رُدُونِي إِلَى حَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا حاجة لي في المسير، فقال الزبير: والله ما هذا الحواب، ولقد غلط فيما أخبرك به، وكان طلحة في ساقية الناس، فلتحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحواب، وشهد معهما خمسون رجلاً من كان معهم، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الإسلام، فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمانعهم، وجرى بينهم قتال، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم علي، فلما كان في بعض الليالي بيَّنوا عثمان بن حنيف فأسروه وضربوه وتنفوا لحيته، ثم

إن القوم استرجعوا وخفوا على مخلصيهم بالمدينة من أخيه سهل بن حنيف وغيره من الأنصار، فخلوا عنه، وأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به وهم السابحة، فقتل منهم سبعون رجلاً غير من جرح، وخمسون من السبعين ضربت رقابهم صبراً [من] بعد الأسر، وهؤلاء أول من قُتل ظلماً في الإسلام وصبراً، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى، وكان من سادات عبد القيس وزهاد ربيعة وسأاكها، وتشاء طلحة والزبير في الصلاة بالناس، ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبد الله بن الزبير يوماً، ومحمد بن طلحة يوماً، في خطب طويل كان بين طلحة والزبير إلى أن اتفقا على ما وصفنا.

مسير علي إلى العراق

وسار علي من المدينة بعد أربعة أشهر، وقيل غير ذلك، في سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار منهم سبعون بدرىًّا وباقיהם من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري، فانتهى إلى الرَّبْذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة، وفاته طلحة وأصحابه، وقد كان على أرادهم، فانصرف حين فاته إلى العراق في طلبهم، ولحق به من أهل المدينة جماعة من الأنصار فيهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأتاه من طيء ستمائة راكب، وكاتب على من الرَّبْذة أبا موسى الأشعري ليستتر الناس، فتبَطِّهم أبو موسى، وقال: إنما هي فتنة، فنمى ذلك إلى علي، فولى على الكوفة قرَّةَ بن كعب الأنصاري، وكتب إلى أبي موسى: اعزز عملنا يا بن العائذ مذموماً مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فيما لهنات وهنيات. وسار علي بمن معه حتى نزل بذى قار، وبعث بابنه الحسن وعمار [بن ياسر] إلى الكوفة يستفران الناس، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف، وقيل: ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً [منهم الأشتر] فانتهى [علي] إلى البصرة وراسَ القوم وناشدتهم الله، فأبوا إلا قتاله.

قديم علي البصرة

وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي عن ابن عائشة عن مَعْنَى بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال: لما قدم علي رضي الله عنه البصرة دخل مما يلي الطف، فأتى الزاوية فخرجتُ أنظر إليه، فورد موكب في نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنوسوة وثياب بيض متقلد سيفاً ومعه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مُدَجَّجين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأنصار

وغيرهم، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيضاء متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا جُزيمة بن ثابت الأنباري ذو الشهادتين، ثم مرّ بنا فارس آخر على فرس كُميٍّ معتمّ بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض [متصقول] متقلد سيفاً متنكب قوساً في نحو ألف فارس من الناس ومعه راية، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: أبو قتادة بن ربعي، ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيضاء وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية بيضاء في ألف من الناس مختلفي التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب كأنما قد أوقفوا للحساب، أثر السجود [قد أثر] في جيابهم، فقلت: من هذا؟ فقيل: عمار بن ياسر في عدّة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، ثم مر بنا فارس على فرس أشقر عليه ثياب بيضاء وقلنسوه بيضاء وعمامة صفراء متنكب قوساً متقلد سيفاً تخطط رجلاه [في] الأرض في ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء، قلت: من هذا؟ قيل: هذا [قيس بن] سعد بن عبدة في [عدة من] الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان، ثم مر بنا فارس على فرس أشهَلَ ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيضاء وعمامة سوداء قد سَدَلَها من بين يديه بلواء، قلت: من هذا؟ قيل: هو عبد الله بن العباس في [وفده] وعدة من أصحاب رسول الله ﷺ، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشهَلَ الناس بالأولين، قلت: من هذا؟ قيل: [عبد الله بن العباس، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشهَلَ الناس بالأولين، قلت: من هذا؟ قيل: قثم بن العباس، أو معبد بن العباس ثم أقبلت المراكب والرايات يقدم بعضها بعضاً، واشتبكت الرماح، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفو الرايات في أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كسر وجبر [قال ابن عائشة: وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، وكذلك تخبر العرب في وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر] كأنما على رؤوسهم الطير، وعن [يمينه] شاب حسن الوجه، وعن [يساره] شاب حسن الوجه [وابين يديه شاب مثلهما] قلت: من هؤلاء قيل: هذا علي بن أبي طالب، وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيانبني هاشم، وهؤلاء المشايخ [هم] أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلّى أربع ركعات، وغفر خديه على التراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعوا: اللهم رب السموات وما

أطلت ، والأرضين وما أقتلت ، ورب العرش العظيم ، هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين ، اللهم [إن] هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي ، وبَغَوا علي ونكثوا بيعتي ، اللهم احقن دماء المسلمين .

وبعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء ، وقال : عَلَامْ تقاتلوني ؟ فأبوا إلا الحرب ، فبعث [إليهم] رجلاً من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعو[هم] إلى الله ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل إلى علي وقالت أمه :

يَا رَبِّ إِنْ مُسْلِمًا أَتَاهُمْ يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ لَا يَخْشَاهُمْ
فَخَضَّبُوا مِنْ دَمِهِ لَحَاظُهُمْ وَأَمَهُ قَائِمَةً تَرَاهُمْ

مبدأ القتال

وأمر علي رضي الله عنه أن يصافوهم ، ولا يدؤوهם بقتال ، ولا يرمونهم بسهم ولا يضرروهم [بسيف] ولا يطعنوهم برمح ، حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول ، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل ، فقال علي : اللهم اشهد ، وأغذروا إلى القوم .

ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم في الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف ، وعائشة على جَمَلٍ في هودج من دفوف الخشب قد ألسسوه المسوح وجلود البقر ، وجعلوا دونه اللبود ، وقد غشي على ذلك بالدروع ، فدنا عمار من موضعها ، فنادى : إلى ماذا تدعين ؟ قالت : إلى الطلب بدم عثمان ، فقال : قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم لتعلمون أينما الممالئ في قتل عثمان ؟ ثم أنشأ يقول وقد رَشَّقُوه بالنبيل :

فَمِنْكِ الْبَكَاءُ ، وَمِنْكِ الْعَوِيلُ وَمِنْكِ الرِّيَاحُ ، وَمِنْكِ الْمَطَرُ
وَأَنْتَ أَمْرُتِ بِبَقْتَلِ الْإِمَامِ وَقَاتَلَهُ عَنْدَنَا مَنْ أَمْرَ
وَتواترَ عَلَيْهِ الرَّمِيُّ وَاتَّصَلَ ، فَحَرَكَ فَرْسَهُ ، وَزَالَ عَنْ مَوْضِعِهِ [وَأَتَى عَلَيْهَا] فَقَالَ :
مَاذَا تَنْتَظِرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَكَ عِنْدَ الْقَوْمِ إِلَّا الْحَرْبُ ؟ !

خطبة لعلي قبل الالتحام

فقام علي رضي الله عنه [في الناس خطيباً رافعاً صوته] فقال : أيها الناس إذا هزمتموه فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً ، ولا تتبعوا مولياً ، ولا تطلبوا

مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترأ، ولا تقربوا [شيئاً] من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كُرَاع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله.

بين علي والزبير

وخرج علي بن نفسه حاسراً على بغلة رسول الله ﷺ لا سلاح عليه فنادى: يا زبير، اخرج إلي، فخرج [إليه الزبير] شاكاً في سلاحه، فقيل [ذلك] لعائشة، فقالت: وائلك يا أسماء، فقيل لها: إن علياً حاسراً، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منها صاحبه، فقال له علي: ويحك يا زبير! ما الذي أخر جنك؟ قال: دم عثمان، قال: قَتَلَ اللَّهُ أُولَانَا بدم عثمان، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بياضة وهو راكب حماره، فضحك إلى رسول الله، وضحكتك [إليه]، وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله، ما يدع عليًّا زهوة، فقال لك «ليس به زهو: أتجبه يا زبير» فقلت: إني والله لأحبه، فقال لك: «إنك والله ستقاتلته وأنت له ظالم» فقال الزبير: أستغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت، فقال له: يا زبير ارجع، فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطن؟ هذا والله العار الذي لا يُغسل، فقال: يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار فرجع الزبير وهو يقول:

اخترت عاراً على نار مؤجحةٍ ما إن يقوم لها خلقٌ من الطين
نادى عليًّا بأمرٍ لست أجهله عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت: حسبك من عذل أبا حسنٍ فبغض هذا الذي قد قلت يكفيني

قال ابنه عبد الله: أين [تذهب و] تَدْعُنا؟ فقال: يابني أذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته. فقال: لا والله، ولكنك فررت من س يوسف بنى عبد المطلب؛ فإنها طوال حداد، تحملها فتية أنجاد، قال: لا والله، ولكنني ذكرت ما أنسانيه الدهر، فاخترت العار على النار، أبا لجين تعييني لا أبا لك؟ ثم أمال سنانه وشدَّ في الميمنة فقال علي: افرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشدَّ في الميسرة، ثم رجع فشدَّ في القلب، ثم عاد إلى ابنه، فقال: أيفعل هذا جبان؟ ثم مضى منصراً، حتى أتى وادي السبع والأختنفُ بن قيس معتزل في قومه منبني تميم، فأتاه آتِ فقال له: هذا الزبير مارأ، فقال: ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فترين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مار إلى منزله سالماً؟ فللحقة نفر منبني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز، وقد نزل الزبير إلى الصلاة [فقال: أتؤمنني أو أؤمك؟! فأمه الزبير] فقتله عمرو في الصلاة.

مقتل الزبير ورثاؤه

وقتل الزبير رضي الله عنه وله خمس وسبعون سنة، وقد قيل: إن الأحنف بن قيس قتله بإرساله من أرسل من قومه وقد رثته الشعراً وذكرت عذر عمرو بن جرموز به، وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن [عمرو] بن ثقيل أخت سعيد بن زيد، فقالت:

عذر ابن جرموز بفارس بعْهَمَةِ يوم اللقاء، وكان غير مسلَّدٍ
يا عمرو، لو نبَهْتَه لوجدهه لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
[هبلتك إن قلت لمُسْلِمًا حلت عليك عقوبة المتعتمد]
[ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فيمن مضى ومن يروح ويغتدي]

وأتى عمرو علياً بسيف الزبير وخاتمه ورأسه، وقيل: إنه لم يأت برأسه، فقال علي: سيف طالما جلا الكربَ عن [وجه] رسول الله ﷺ، لكنه الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفية في النار؛ ففي ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمي [في أبيات]:
أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أرجو به الزلفه
فَبَشَّرَ بالنار قبل العيَانِ وبئس بشارة ذي التحفة
لَسَيَانٌ عندي قتلُ الزبير وضرطة عنز بذى الجحفة

بين علي وطلحة

ثم نادى علي رضي الله عنه طلحَةَ حين رجع الزبير: يا أبا محمد، ما الذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أو لانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» وأنت أول من بايعني ثم نكثت، وقد قال الله عز وجل: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَنْ نَفْسِهِ» [الفتح: ١٠] فقال: أستغفر الله، ثم رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالي رميَتْ هاهنا أم هاهنا، فرماه في أكحله فقتله، فمر به عليٌّ بعد الواقعة في موضعه في قنطرة قرة، فوقف عليه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كارهاً لهذا، أنت والله كما قال القائل:

فَتَّى كَانَ يُذْنِيهِ الْغَنِيَّ مِنْ صَدِيقَهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبَعْدُهُ الْفَقْرُ
كَأنَّ الشَّرِيَّاً عُلِّقَتْ فِي يَمِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشَّعْرَى، وَفِي الْآخِرِ الْبَدْرُ

وذكر أن طلحة رضي الله عنه لما ولَّي سُمع وهو يقول:
ندامة ما ندمت وضل حلمي ولهمي ثم لهف أبي وأمي

ندمت ندامة الْكُسَعِيُّ لِمَا طَلِبَ رَضَا بْنِ جَرْمَ بْنِ عَمِي
وَهُوَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ الْغَبَارَ وَيَقُولُ: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا» [الأحزاب: ٣٨]
وَقَيلَ: إِنَّهُ سَمِعَ وَهُوَ يَقُولُ هَذَا الشِّعْرُ وَقَدْ جَرَحَهُ فِي جَبَهَتِهِ [عبد الملك] وَرَمَاهُ مَرْوَانُ فِي
أَكْحَلِهِ وَقَدْ وَقَعَ صَرِيعًا يَجُودُ بِنَفْسِهِ.

ترجمة طلحة

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وهو ابن عم أبي بكر الصديق، ويكنى أباً محمد، وأمه الصعبة، وكانت تحت أبي سفيان صخر بن حرب، كذلك ذكر الزبير بن بكار في كتابه في أنساب قريش، وقتل وهو ابن أربع وستين سنة، وقيل غير ذلك، ودفن بالبصرة، وقبره ومسجده [فيها مشهور] إلى هذه الغاية، وقبر الزبير بوادي السباع.

مقتل محمد بن طلحة

وُقُتِلَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ مَعَ أَبِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَمَرَّ بِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ قُتِلَ بِرَبِّهِ
بِأَبِيهِ وَطَاعَتِهِ [لَهُ] وَكَانَ يُدْعَى بِالسَّجَادَ، وَقَدْ تَنَزَّعَ فِي كَنْتِهِ، فَقَالَ الْوَاقِدِيُّ: كَانَ يُكْنَى
بِأَبِي سَلِيمَانَ، وَقَالَ الْهَيْشَمُ بْنُ عَدِيٍّ: كَانَ يُكْنَى بِأَبِي الْقَاسِمِ، وَفِيهِ يَقُولُ قَاتِلُهُ:
وَأَشَعَثَ سَجَادَ بِآيَاتِ رَبِّهِ قَلِيلُ الْأَذَى فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ مُسْلِمٌ
شَكَّتْ لَهُ بِالرَّمْحِ جَيْبَ قَمِيصِهِ فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدِيْنِ وَلِلْفَمِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ أَنْ لَيْسَ تَابِعًا عَلَيْهَا وَمَنْ لَا يَتَابُعُ الْحَقَّ يَنْدَمُ
يَذَكِّرُنِي حَامِيْمِ الرَّمْحِ شَارِعًا فَهَلَا تَلَا حَامِيْمِ قَبْلِ التَّقْدِمِ

وقد كان أصحاب الجمل حملوا على ميمنة علي وميسره فكشفوها، فأتاهم بعض ولد عقيل وعلي يتحقق نعاً على قرّبوس سرجه، فقال له: يا عم، قد بلغت ميمتك ومسيرتك حيث ترى، وأنت تتحقق نعاً؟ قال: اسكت يا بن أخي، فإن لعمك يوماً لا يعوده، والله ما يبالي عمك وقع على الموت أو وقع الموت عليه، ثم بعث إلى ولده محمد بن الحنفية، وكان صاحب رايته: احمل على القوم فأبطأ محمد بحملته، وكان بإزاره قوم من الرماة يتظاهر نقاد سهامهم، فأتاهم علي فقال: هلا حملت، فقال: لا أجد متقدماً إلا على سهم أو سنان، وإنني متظاهر نقاد سهامهم وأحمل، فقال [له]: احمل بين الأسنة؛ فإن للموت عليك جنة، فحمل محمد، فشك بين الرماح والنشاب فوقف، فأتاهم علي فضربه بقائم سيفه وقال: أدركك عزقاً من أمك، وأخذ الرأبة وحمل، وحمل الناس

معه، فما كان القوم إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، وأطافت بنو ضبة بالجمل وأقبلوا يرتجون ويقولون:

نَحْنُ بَنُو ضَبَّةِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ [نَتَازَلَ الْمَوْتُ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ]
رُدُّوا عَلَيْنَا شِيخَنَا ثُمَّ بَجَلَنَ تَنْعَى ابْنَ عَفَانَ بِأَطْرَافِ الْأَسْلِ
وَالْمَوْتُ أَحْلَى عَنَدَنَا مِنَ الْعَسْلِ

وقطع على خطام الجمل سبعون يداً، من بنو ضبة منهم سعد بن سود القاضي متقلداً مصحفاً، كلما قطعت يد واحد منهم [فرض] قام آخر فأخذ الخطام وقال: أنا الغلام الضبي، ورمي الهودج بالنثأب والنبل حتى صار كأنه قنفذ، وعرقب الجمل وهو لا يقع وقد قطعت أعضاؤه وأخذته السيف حتى سقط، ويقال: إن عبد الله بن الزبير قبض على خطام الجمل، فصرخت عائشة - وكانت خالته: واثكل أسماء، خل الخطام، وناشته، فخلى عنه، ولما سقط الجمل ووقع الهودج جاء محمد بن أبي بكر، فأدخل يده فقالت: من أنت؟ قال: أقرب الناس [منك] قرابة، وأبغضهم إليك، أنا محمد أخوك، يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟ قالت: ما أصابني إلا سهم لم يضرني، فجاء عليٌّ حتى وقف عليها، فضرب الهودج بقضيب، وقال: يا حميراء، رسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك أن تقري في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلكم وأبرزوكم، وأمر أخاكاً محمداً فأنزلها في دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبد [وهي أم طلحة الطلحات] ووقع الهودج والناس مفترقون يقتلون، والتقي الأستر مالك بن الحارث النخعي وبعد الله بن الزبير فاعتربا وسقطا على الأرض عن فرسيهما [وطال اعتراكهما على وجه الأرض، فعلاه الأستر ولم يجد سبيلاً إلى قتله لشدة اضطرابه من تحته] والناس حولهما يجولون، وابن الزبير ينادي:

اقْتُلُونِي وَمَالِكَأَ وَاقْتُلُوا مَالِكَأَ مَعِي

فلا يسمعه أحد لشدة الجlad ووقع الحديد [على الحديد] ولا يراهما راء لظلمة اللّقّع، وتردف العجاج، وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت إلى عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تنكس اليوم رأس محمد، واردد إليه الرأيَّةَ، فدعا به، ورد عليه الرأيَّةَ، وقال:

أَطْعَنْهُمْ طَعْنَ أَبِيكَ تَحْمِدْ لَا خَيْرَ فِي الْحَرْبِ إِذَا لَمْ تَوْقِدْ
بِالْمَشْرِفِيَّ وَالْقَنَا الْمَسْرَدَ

ثم استسقى، فأتى بعسل وماء، فحسا منه حُسْنَة، وقال: هذا الطائفي، وهو غريب [يهذا] البلد، فقال له عبد الله بن جعفر: أما شَغَلَكَ ما نحن فيه عن علم هذا؟ قال: إنه والله يابني ما مَلَأ صدر عمك شيءٍ قط من أمر الدنيا.

دخول علي البصرة

ثم دخل البصرة، وكانت الواقعة في الموضع المعروف بالخربة [وذلك] يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، على حسب ما قدمنا آنفًا من التاريخ، وخطب الناس بالبصرة خطبته الطويلة التي يقول فيها: يا أهل السبخة يا أهل المؤتفكة اتفكت بأهلك من الدهر ثلاثة، وعلى الله تمام الرابعة، يا جُند المرأة، يا أتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فانهزتم، أخلاقكم راقق، وأعمالكم نفاق، ودينكم زينة وشقاق، ومؤاكم أجاج [و] وزعاق، وقد ذم على أهل البصرة بعد هذا الموقف مراراً كثيرة.

بين ابن عباس وعائشة

وبعث بعد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة، فدخل عليها بغیر إذنها، واجتب سادة فجلس عليها، فقالت [له]: يا بن عباس أخطأت السنة المأمور بها، دخلت إلينا بغیر إذننا، وجلست على رحلنا بغیر أمرنا فقال لها: لو كنت في البيت الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ ما دخلنا إلا بإذنك، وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك، وإن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة، والتأهب للخروج إلى المدينة، فقالت: أبیت ما قلت وخالفت ما وصفت، فمضى إلى علي ، فخبره بامتناعها، فرده إليها، وقال: إن أمير المؤمنين يعلم عليك أن ترجعي، فأنعمت وأجابت إلى الخروج، وجهزها علي وأتاهما في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقى أولاده وأولاد إخوته وفتیان أهله من بنى هاشم وغيرهم من شيعته من هَمْدَان، فلما بصرت به النسوان صحن في وجهه وقلن: يا قاتل الأحبة، فقال: لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذا البيت، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر وغيرهم، فضرب مَنْ كان معه بأيديهم إلى قواصم سيفهم لما علموا مَنْ في البيت مخافة أن يخرجوا منه فيغتالوه، فقالت له عائشة بعد خطب طويل كان بينهما: إني أحب أن أقيم معك فأسأير إلى قتال عدوك عند سيرك، فقال: بل ارجعني إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله ﷺ، فسألته أن يؤمّن ابن أختها عبد الله بن الزبير، فأمنه، وتكلم الحسن والحسين في مروان، فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية، وأمّن الناس

جميعاً، وقد كان نادى يوم الواقعة: من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن.

حزن علي على القتلى

واشتد حزن عليٌّ من قتل من ربيعة قبل وروده البصرة، وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة، وجاء حزنه قتل زيد بن صوحان [العبيدي] قتلها في ذلك اليوم عمرو بن سبرة، ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة في ذلك اليوم أيضاً، وكان عليٌّ يكثر من قوله:

يا لهفَّ نفسي على ربيعة ربيعة السامعة المطيعه

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف [في] القتلى، فوجدت ابنين لها قد قتلا، وقد كان [قتلاً] زوجها وأخوان لها فيما قتل قبل مجيء عليٍّ البصرة، فأنسأت تقول:

شهدت الحروب فشيببني فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضرَّ على مؤمنٍ فتنَّهُ وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها ولتيك عسکر لم ترتحل

وقد ذكر المدائني أنه رأى بالبصرة رجلاً مصطلماً الأذن، فسألته عن قصته، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر إلى القتلى، فنظر إلى رجل منهم يخفض رأسه ويرفعه وهو يقول:
لقد أوردتنا حومة الموتِ أُمّنا فلم تنصرف إلا ونحن رواءُ
أطعنا ببني تَيْمٍ لشقوة جدنا وما تيم إلا أعبدُ وإماء

فقلت: سبحان الله! أتقول هذا عند الموت؟ قل لا إله إلا الله، فقال: يا بن اللختاء، إيهي تأمر بالجزاء عند الموت؟ فولئث عنه متعجبًا منه، فصاح بي أذن مني [و]ألفني الشهادة، فصررت إليه، فلما قربت منه استدناني، ثم التقم أذني فذهب بها، فجعلت أعنده وأدعوه عليه، فقال: إذا صررت إلى أمك فقالت: من فعل هذا بك؟ فقل عمير ابن الأهلب الضبي مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين.

خروج عائشة من البصرة

وخرجت عائشة من البصرة، وقد بعث معها على أخيها عبد الرحمن [بن أبي بكر] وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس [وهمدان وغيرهما]، ألبسهن العمام وقلدهن السيوف، وقال لهن: لا تعلمنَّ عائشة أنكن نسوة [وئلثمنَّ]
أنكن رجال، وكُنَّ اللاتي تلين خدمتها وحملها، فلما أتت المدينة قيل لها: كيف رأيت

مسيرك؟ قالت: كنت بخير والله، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً [أنكرتهم] فعرفها النسوة أمرهن، فسجدت وقالت: ما أزدلت والله يا بن أبي طالب إلا كرماً، ووددت أنني لم أخرج وإن أصابتي كيت وكيت من أمور ذكرتها [شاقة]، وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن الذي قتل من أصحاب علي في ذلك اليوم خمسة آلاف [نفس] ومن أصحاب الجمل [وغيرهم] من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً، وقيل غير ذلك.

وقف عليٌ على عبد الرحمن بن عتاب بن أبي العيص بن أمية وهو قتيل يوم الجمل فقال: لهفي عليك يغسُوب قريش، قتلت الغطاريف منبني عبد مناف، شفَيت نفسي وجدت أنفي، فقال له الأشت: ما أشد جَزَعَك عليهم يا أمير المؤمنين وقد أرادوا بك ما نزل بهم! فقال: إنه قامت عني وعنهم نسوة لم يقمن عنك [وقد كان قتله في ذلك اليوم الأشت النخعي] وأصيب كف ابن عتاب بمئي [وقيل باليمامة] أقتلتها عقاب وفيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب وكان اليوم الذي وجد فيه الكف بعد يوم الجمل بثلاثة أيام.

ودخل عليٌ بيت مال البصرة في جماعة من المهاجرين والأنصار، فنظر إلى ما فيه من العين والورق فجعل يقول: يا صقراء، غُرْيَ غيري [ويا بيضاء، غري غيري] وأدام النظر إلى المال مفكراً، ثم قال: اقسموه بين أصحابي ومن معه خمسمائة خمسين، ففعلوا بما نقص درهم واحد، وعدد الرجال اثنا عشر ألفاً.

وقبض ما كان في معسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وألة وغير ذلك فباعه وقسمه بين أصحابه، وأخذ لنفسه كما أخذ لكل واحد ممن معه من أصحابه وأهله [وولده] خمسمائة درهم، فأتاه رجل من أصحابه فقال: يا أمير المؤمنين إني لم آخذ شيئاً، وخلفني عن الحضور كذا، وأدلني بعذر، فأعطيه الخمسمائة التي كانت له.

وقيل لأبي لَيدِ الجهمي من الأذد: أتحب علياً؟ قال: وكيف أحب رجلاً قتل من قومي في بعض يوم ألفين وخمسمائة، وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزي أحداً، واشتغل أهل كل بيت بمن لهم؟

مسيره إلى الكوفة

وولي عليٌ على البصرة عبد الله بن عباس، وسار إلى الكوفة، فكان دخوله إليها لاثتي عشرة ليلة مضت من رجب؛ ويعث إلى الأشعث بن قيس يعزله على أذربيجان وأرمينية، وكان عاملاً لعثمان [عليها]، وصرف عن همدان جرير بن عبد الله البجلي،

وكان عاملاً لعثمان]، فكان في نفس الأشurst على علي ما ذكرنا من العزل، وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال.

علي يبعث إلى معاوية

ووجه بجرير بن عبد الله إلى معاوية [وقد كان الأشترا حَذْرَةً من ذلك، وخوفه من جرير]، وقد كان جرير قال لعلي: أبعتني إليك، فإنه لم يزل [لي] مستتصحاً ووادأ، فأتاهه وأدعيه إلى أن يسلم لك هذا الأمر، وأدعوه أهل الشام إلى طاعتك، فقال الأشترا: لا تبعثه ولا تصدقه. فوالله إني لأظن هواهم ونبيتهم، فقال علي: دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا، فبعث به وكتب إلى معاوية معه يعلمه مبایعه المهاجرين والأنصار إيه واجتمعهم عليه، ونکث الزبير وطلحة، وما أوقع الله بهما، ويأمره بالدخول في طاعته، ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، فلما قدم عليه جرير دافعه وسأله أن يتظره وكتب إلى عمرو بن العاص على ما قدمنا [فقدم عليه فأعطاه مصر طعمة على ما قدمنا] في صدر هذا الباب، فأشار إليه عمرو بالبعث إلى وجوه الشام وأن يلزم علياً دم عثمان، ويقاتله بهم؛ فقدم جرير على علي فأخبره خبرهم، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله، وأنهم ي يكون على عثمان ويقولون: إن علياً قتله، وأوى قتلته ومنع منهم، وإنهم لا بد لهم من قتاله حتى يفتوه أو يفنيهم، فقال الأشترا: قد كنت أخبرتك يا أمير المؤمنين بعداوته وغضبه، ولو بعثتني لكنت خيراً من هذا الذي أرخي خنقاً وأقام حتى لم يدع باباً نرجو روحه إلا فتحه، ولا باباً يخاف منه إلا أغلقه، فقال جرير: لو كنت ثم لقتلوك، والله لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان، قال الأشترا: لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيني جوابهم، ولا نقل على خطابهم، ولحملت معاوية على خطة أعلجتُ فيها عن الفكر، ولو أطاعني أمير المؤمنين فيك لحبسك وأشباشك في محبس فلا تخرجون منه حتى يستقيم هذا الأمر.

فخرج جرير عند ذلك إلى بلاد قرقيسيا والرحبة من شاطئ الفرات، وكتب إلى معاوية يعلمه بما نزل به، وأنه أحبت مجاورته والمقام في داره، فكتب إليه معاوية يأمره بالمسير إليه.

بين المغيرة ومعاوية

ويبعث معاوية إلى المغيرة بن شعبة الثقي - عند منصرٍ على من الجمل، وقبل مسيره إلى صفين - بكتاب يقول فيه: لقد ظهر من رأي ابن أبي طالب ما كان تقدم من وعده لك في طلحة والزبير، فما الذي بقي من رأيه فينا؟ وذلك أن المغيرة بن شعبة لما

قتل عثمان وبaidu الناس على دخل عليه المغيرة فقال: يا أمير المؤمنين، إن لك عندك نصيحة، فقال: وما هي؟ قال: إن أردت أن يستقيم لك ما أنت فيه فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة، والزبير بن العوام على البصرة، وابعث إلى معاوية بعهده على الشام حتى تلزمه طاعتك، فإذا استقر قرارها رأيت فيه رأيك، قال: أما طلحة والزبير فسأرئ رأيي فيهما، وأما معاوية فلا والله لا يراني الله أستعين به ما دام على حاله أبداً، ولكنني أدعوه إلى ما عرفته، فإن أجب وإلا حاكمته إلى الله، فانصرف المغيرة [مغضباً] وقال:

نصحت علياً في ابن هند مقالة فردت، فلا يسمع لها الدهر ثانية وقلت له: أرسل إليه بعهده على الشام، حتى يستقر معاويه ويعلم أهل الشام أن قد ملأْتْه وأم ابن هند عند ذلك هاویه فلم يقبل النصح الذي جئتُه به وكانت له تلك النصيحة كافية

قال المسعودي رحمه الله: وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ما كان من المغيرة مع علي، وما أشار به، وهذا أحد الوجوه المروية في ذلك.

فهذه جوامع ما يُحتاج إليه من أخبار يوم الجمل وما كان فيه، دون الإكثار والتطويل وتكرار الأسانيد [في ذلك] والله ولي التوفيق.

ذكر جوامع مما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصفين

قال المسعودي رحمه الله: قد ذكرنا جملًا وجوامع من أخبار علي رضي الله عنه بالبصرة، وما كان يوم الجمل؛ فلنذكر الآن جوامع من سيره إلى صفين، وما كان فيها من الحروب، ثم نعقب ذلك بشأن الحكمين والنهروان، ومقتله عليه السلام.

مسيره إلى صفين

وكان سير علي من الكوفة إلى صفين لخمس خلوات من شوال سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري فاجتاز في مسيره بالمدائن، ثم أتى الأنبار، وسار حتى نزل الرقة، فعقد له هناك جسر، فعبر إلى جانب الشام.

عدد جيشه

وقد توزع في مقدار ما كان معه من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً، وقال رجل من أصحاب علي لما استقروا مما يلي الشام من أبيات كتب بها إلى معاوية [حيث يقول]:

اثبُت معاويَّا قد أتاكَ الْحَافِلُ تسعُونَ أَلْفَأَ كَلْهُمْ مُقاتِلُ
عَمَّا قَلِيلٍ يَضْمَحِلُ الْبَاطِلُ

جيش معاوية

وسار معاوية من الشام، وقد توزع في مقدار من كان معه [أيضاً] فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً فسبق علياً إلى صفين، وعسكر في موضع سهل أقيح اختاره قبل قدوم علي، على شريعة لم يكن على الفرات [في ذلك الموضع] أسهل منها للوارد [إلى الماء]، وما عداها أخراق عالية، ومواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً، وكان علي مقدمته، وبات علي وجشه في البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء فقال عمرو بن العاص

لمعاوية: إن علياً لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم، ولكن دعُهم يشربون ونشرب، فقال معاوية: لا والله أو يموتونا عطشاً كما مات عثمان، و[خرج] عليٌّ يدور في عسكره بالليل، فسمع قائلاً [وهو] يقول: [أَيْمَنُنَا الْقَوْمُ ماءُ الْفَرَاتِ وَفِينَا عَلَيْهِ وَفِينَا الْهَدْيِ؟ وَفِينَا الصَّلَاةُ، وَفِينَا الصِّيَامُ، وَفِينَا الْمَنَاجُونَ تَحْتَ الدَّجْى ثُمَّ مَرَّ بَآخِرِ عَنْ رَأْيَةِ رَبِيعَةِ، وَهُوَ يَقُولُ:]

أَيْمَنُنَا الْقَوْمُ ماءُ الْفَرَاتِ وَفِينَا الرَّمَاحُ وَفِينَا الْحَجَفُ؟ [وَفِينَا عَلَيْهِ لَهُ صَوْلَةٌ إِذَا خَوَفُوهُ الرَّدَى لَمْ يَخْفِ] وَنَحْنُ غَدَةٌ لِقِينَا الزَّبِيرُ وَطَلْحَةٌ خُضْنَا غِمَارَ التَّلْفِ فَمَا بَالَنَا أَمْسِ أَسْدَ الْعَرَبِينَ وَمَا بَالَنَا يَوْمَ شَاءَ التَّبَجْفُ

وألقى في فساطط الأشعث بن قيس رقعة فيها:

لَئِنْ لَمْ يُجْلِي الْأَشْعَثُ الْيَوْمَ كَرْبَلَةَ مِنَ الْمَوْتِ فِيهَا لِلنُّفُوسِ تَقْلُبَتْ فَنَشَرَبَ مِنْ مَاءِ الْفَرَاتِ بِسِيفِهِ فَهَبَنَا أَنَاسًا قَبْلَ كَانُوا فَمَوْتُوا

فلما قرأها حمى وأتى علياً رضي الله عنه، فقال له: اخرج في أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم بهم في وسط عسكر معاوية فتشرب و تستقي لأصحابك أو تموتونا عن آخركم، وأنا مُسْتَر الأشتر في خيل ورجاله وراءك، فسار الأشعث في [أربعة آلاف من الخيل] وهو يقول مرتجزاً:

لَا وَرِدَنَ خَيْلِي الْفَرَاتَا شُغْلَ الثَّوَاصِي أَوْ يَقَالُ مَا تَا

ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِ الأَشْتَرَ فَسَرَّحَهُ فِي أَرْبَعَةِ آلَافِ مِنَ الْخَيْلِ وَالرَّجَالَةِ، فَصَارَ يَوْمُ الْأَشْعَثَ [وَ] صَاحِبُ رَأْيِهِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ النَّجْعَ [وَهُوَ] يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

يَا أَشْتَرَ الْخِيرَاتِ يَا خَيْرَ النَّجَعِ وَصَاحِبُ النَّصْرِ إِذَا عَمَّ الْفَرْزِعَ قَدْ جَزَعَ الْقَوْمُ وَعَمِّوْا بِالْفَرْزِعِ إِنْ تَسْقِنَا الْيَوْمَ فَمَا هُوَ بِالْبَدْعِ

ثُمَّ سَارَ عَلَيْهِ رِضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَاءَ الأَشْتَرَ بِبَاقِيِ الْجَيْشِ، وَمَضِيَ الْأَشْعَثُ فَمَا رَدَ وَجْهَهُ [أَحَدٌ] حَتَّى هَجَمَ عَلَى عَسْكَرِ معاوِيَةَ، فَأَزَالَ أَبَا الْأَعْوَرَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَأَغْرَقَ مِنْهُمْ بَشَرًا وَخِيلًا، وأَوْرَدَ خَيْلَهُ الْفَرَاتَ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَشْعَثَ دَاخَلَتْ الْحَمْيَةَ فِي هَذَا الْيَوْمَ، وَكَانَ يَقْدِمُ رَمْحَهُ ثُمَّ يَحْتَ أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ: ازْحِمُوهُمْ مَقْدَارَ هَذَا الرَّمْحِ، فَيَزِيلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ

المكان، بلغ ذلك من فعل الأشعث علياً، فقال: هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية، وفي ذلك يقول رجل من أهل العراق:

كَشَفَ الْأَشْعَثُ عَنَا كُرْبَةَ الْمَوْتِ عِيَانًا
بَعْدَ مَا طَارَتْ طَلَاقًا طَيْرَةً مَسَتْ لَهَانًا
فَلَهُ الْمَمْنُ عَلَيْنَا وَبِهِ دَارَتْ رَخَانًا

وارتحل معاوية عن الموضع، وورد الأستر، وقد كشف الأشعث القوم عن الماء، وأزالهم عن مواضعهم، وورد عليٌ فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية فقال معاوية لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، ما ظنك بالرجل أتراه يمنعنا الماء لمنعنا إيه؟ وقد [كان] انحاز بأهل الشام إلى ناحية في البر نائية عن الماء، فقال له عمرو: لا، إن الرجل جاء لغير هذا، وإنه لا يرضى حتى تدخل في طاعته أو يقطع حبل عاتقك، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في وروده مشرعته واستقاء الناس من طريقه ودخول رسله في عسكره، فأباحه عليٌ كلَّ ما سُأله وطلب منه.

ولما كان أول يوم من ذي الحجة - بعد نزول عليٍ على هذا الموضع بيومين - بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقا على المواعدة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين، وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغفهم بالحروب، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعليٍ، ولم يتم بين عليٍ ومعاوية صلح على غير ما اتفقا [عليه من المواعدة في المحرم، وعزم القوم على الحرب بعد انتهاء المحرم] ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي صاحب رأية معاوية:

فَمَا دُونَ الْمَنَابِيَا غَيْرُ سَبْعَ بَقِينَ مِنَ الْمُحْرَمِ أَوْ ثَمَانِ

ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث [عليٌ] إلى أهل الشام: إني قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإنني قد نبذت إليكم على سوء، إن الله لا يهدى كيد الخائبين، فلم يردوا عليه جواباً إلا «السيف بيتنا وبينك أو يهلك الأعجز منا».

مبدأ الحرب

وأصبح عليٌ يوم الأربعاء - وكان أول يوم من صفر - فعبأ الجيش، وأخرج الأستر أمام الناس، وأخرج إليه معاوية - وقد تضافَ أهل الشام وأهل العراق - حبيب بن مسلمة

الفهري، وكان بينهم قتال شديد [سائر يومهم]، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعاً، وانصرفوا.

فلما كان يوم الخميس - وهو اليوم الثاني - أخرج على هشام بن عتبة بن أبي وقاص الهرمي المزقال، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص، وإنما سمي المزقال لأنَّه كان يرقل في الحرب، وكان أعمور ذهبت عينه يوم اليرموك، وكان من شيعة علي، وقد أتينا على خبره في اليوم الذي ذهبت فيه عينه، وحسن بلاه في ذلك اليوم، وفي الكتاب الأوسط في فتوح الشام، فأخرج إليه معاوية أبا الأعمور السُّلْمِي وهو سفيان بن عوف وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن علي، فكانت بينهم [الحرب] سجالاً، وانصرفوا في آخر يومهم عن قتلي كثير.

وأخرج علي في اليوم الثالث - وهو يوم الجمعة - أبا اليقطان عمار بن ياسر في عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن تسرع معهم من الناس، وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص في تَوْخَ وَهَرَاء وغيرهما من أهل الشام، فكانت بينهم سجالاً إلى الظهر، ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا، فأزال عمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت عن قتلي كثيرة من أهل الشام ودونهم من أهل العراق.

وأخرج علي في اليوم الرابع - وهو يوم السبت - ابنه محمد بن الحنفية في همدان وغيرها من حَفَّ معه من الناس، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير ولخم وجذام، وقد كان عبيد الله [بن عمر] لحق بمعاوية خوفاً من علي أن يقيده بالهرمزان - وذلك أن أبا لؤلؤة [غلام المغيرة بن شعيبة] قاتل عمر، وكان في أرض العجم غلاماً للهرمزان، فلما قُتل عمر شَدَّ عبيد الله على الهرمزان فقتله، وقال: لا أترك بالمدينة فارسيًّا ولا في غيرها إلا قتلتة بأبي، وكان الهرمزان عليه في الوقت الذي قُتل فيه عمر - فلما صارت الخلافة إلى علي أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إيه ظلماً من غير سبب استحقه فلجأ إلى معاوية، فاقتلوه في ذلك اليوم، وكانت على أهل الشام، ونجا ابن عمر في آخر النهار هرباً.

وأخرج علي في اليوم الخامس - وهو يوم الأحد - عبد الله بن العباس فأخرج إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبي مُعْنِط ، فاقتلوه، وأكثر الوليد من سَبْ بنى عبد المطلب بن هاشم، فقاتلته ابن عباس قتالاً شديداً، وناداه: ابرز إلى يا صفوان، وكان لَقَبَ الوليد، وكانت الغلبة لابن عباس، وكان يوماً صعباً.

وأخرج علي في اليوم السادس - وهو يوم الاثنين - سعيد بن قيس الهمданى، وهو

سيد همدان يومئذ، فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع، وكانت بينهما إلى آخر النهار، وأسفرت عن قتلى، وانصرف الفريقان جميعاً.

وأخرج علي في اليوم السابع - وهو يوم الثلاثاء - الأشتر في التّخْع وغیرهم، فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، فكانت [الحرب] بينهم سجالاً، وصبر كلاً الفريقين وتكافؤوا وتوافقوا للموت ثم انصرف الفريقان وأسفرت عن قتلى منهم، والجراح في أهل الشام أعم.

خروج علي للقتال

وخرج في اليوم الثامن - وهو يوم الأربعاء - علي رضي الله عنه بنفسه في الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وريعة وهمدان.

قال ابن عباس:رأيت في هذا اليوم علياً وعليه عمامة بيضاء، وكأن عينيه سراجاً سليط، وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثهم ويحرضهم، حتى انتهى إلى وأنَا في كثيف من الناس، فقال: يا معاشر المسلمين، عموا الأصوات، وأكملوا اللامة، واستشعروا الخشية، وألقوا السيف في الأجنان قبل السلة، والحظوا الشّرر، واطعنوا الهبر، ونافحوا بالظباء، وصلوا السيف بالخطا والنيل بالرماح، وطيبوا عن أنفسكم أنفساً، فإنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله، عاودوا الكرو، واستقبحوا الفرر، فإنه عار في الأعقاب، ونار يوم الحساب دونكم هذا السود الأعظم، والرواق المطئب، فاضربوا نهجة، فإن الشيطان راكب صعيده، مفترش ذراعيه، قد قدم للوثبة يداً وأخر للنكوص رجلاً، فصبراً جميلاً حتى تجلبي عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترككم أعمالكم.

وتقىد علي للحرب على بُلَة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشهباء، وخرج معاوية في عدد أهل الشام، فانصرفوا عند المساء وكلٌ غير ظافر.

وخرج في اليوم التاسع - وهو يوم الخميس - علي، وخرج معاوية، فاقتتلوا إلى ضحوة من النهار، ويرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من الخضرية معممين بشقاق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان، وابن عمر يقدمهم وهو يقول:

أنا عَبْيَدُ اللهِ يَنْمِينِي عُمَرْ خَيْرُ قَرِيشٍ مَنْ مَضِيَ وَمَنْ غَبَرْ
غَيْرُ نَبِيِّ اللهِ وَالشَّيْخِ الْأَغْرِيِّ قَدْ أَبْطَأَتِ فِي نَصْرِ عُثْمَانَ مُضَرَّ
وَالرِّبَاعِيُّونَ، فَلَا أَسْقَوْا الْمَطْرَ

فناداء علي: ويحك يا بن عمر، علام تقاتلني؟ والله لو كان أبوك حياً ما قاتلني،
قال: أطالب بدم عثمان، قال: أنت تطلب بدم عثمان، والله يطلبك بدم الهرمزان، وأمر
علي الأشتر [النخعي] بالخروج إليه، فخرج الأشتر إليه وهو يقول:

إنني أنا الأشتر معروف السير إنني أنا الأفعى العراقي الذكر
لست من الحي ربيع أو مضر لكنني من مذبح البيض الغرّز
فانصرف عنه عبيد الله ولم يارزه، وكثُرت القتلى يومئذ.

عمار بن پاسر

وقال عمار بن ياسر: إنني لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفatas هَجَر رضي الله عنه لكننا على الحق وكانوا على الباطل.

وتقديم عمار فقاتل ثم رجع إلى موضعه فاستسقى، فأتته امرأة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعُسْنٍ فيه لبَنٍ، فدفعته إليه، فقال: الله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأرض، صَدَقَ الصادق، وبذلك أخبرني الناطق، وهو اليوم الذي وُعْذِتْ فيه، ثم قال: أيها الناس، هل من رائح إلى الله تحت العوالي؟ والذي نفسي بيده لنقاتلتهم على تأويله كما قاتلناهم على تزيله، وتقديم وهو يقول:

نَحْنُ ضَرِبَنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ فَالْيَوْمَ نُضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
ضَرِبَنَا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقْبِلِهِ وَيُذَهِّلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ
أَوْ يُرْجِعُ الْحَقَّ إِلَى سَبِيلِهِ

فتوسط القوم، واشتبكت عليه الأسنة، فقتله أبو العادية العامل يابن جون السكسي، واختلفا في سلبه؛ فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال لهم: أخرجا عنى، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول، أو قال قال رسول الله ﷺ وولعت قريش بعمار «ما لهم ولعمار؟ يدعونه إلى النار» وكان قتلها عند المساء وله ثلاثة وتسعون سنة، وقبره بصفين وصلى عليه عليٌّ رضي الله عنه ولم يغسله، وكان يغير شيء. وقد توزع في نسبة فمن الناس من ألحقوه بيدي مخزوم، ومنهم من رأى أنه من حلفائهم، ومنهم من رأى غير ذلك، وقد أتينا على خبره في كتاب «مظاهر الأخبار وطرائف الآثار» عند ذكرنا الأشرأط الخمسين الذين بايعوا علياً على الموت، وفي قتله يقول الحاجاج بن عزية الأنصارى أياً تأْرَاهُ بِهَا:

قد هاجة حزني أبو اليقظان عمار
يدعوا السكون وللنجشين إعصار
للرمح، قد وجَّبَتْ فينا له النار
أثَّثَ بذلك آيات وآثار
على الأسرة لم تمسسهم النار
سيطرت لحومهم بالبغى، فجَّار
 أصحاب تلك وفيها النار والعار
يا للرجال لعين دمُّها جاري
أهوى إليه أبو حَوَّا فوارسه
فاختلَّ صدر أبي اليقظان معتراضاً
الله عن جمعهم لا شك كان عفَا
من ينزع الله غالاً من صدورهم
قال النبي له تقتلك شرذمة
فالليوم يعرف أهل الشام أنهم

ولما صرَّع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمданى في همدان، وتقدم [قيس بن] سعد
ابن عبادة الأنباري في الأنصار وربيعة، وعدى بن حاتم في طيء وسعيد بن قيس
الهمدانى في أول الناس، فخلطوا الجمع بالجمع، واشتَدَّ القتال وحطمت همدان أهل
الشام حتى قذفهم إلى معاوية، وقد كان معاوية صَمَدَ فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن
معه من همدان، وأمر على الأشتر أن يتقدم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل
قنسرين، فأكثر القتل في أهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء، وأبلى المزقال يومئذ
بمن معه فلا يقوم له شيء، وجعل يرقل كما يرقل الفحل في قيده، وعلى وراءه يقول له:
يا أعزور، لا تكون جباناً، تقدم، والمزقال يقول:

قد أكثر القوم وما أَفَلَّ
أعزور يبغى أهله محلاً
قد عالج الحياة حتى مَلَّ
لا بدَّ أن لا يَفْلَّ أَوْ يُفَلَّ
أشْلَهُمْ بَنِي الْكَعُوبَ شَلَّ

ثم صمد هاشم بن عتبة المزقال الذي الكلَّاع وهو في حمير، فحمل عليه صاحب
لواء ذي الكلَّاع، وكان رجلاً من عُذْرة وهو يقول:

أثبت فإني لست من فرعوني مصر نحن اليمانيون ما فينا ضجر
كيف ترى وقع غلام من عذر يعني ابن عفان ويَلْخَى من غدر
[يا أعزور العين رمى فيها العور] سيان عندي من سعي ومن أمر

صرع هاشم المزقال

فاختلغا طعتين، فطعنه هاشم المزقال فقتله، وقتل بعده تسعة عشر رجلاً، وحمل
هاشم المزقال وحمل ذو الكلَّاع ومع المزقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو
يفتحوا أو يقتلوا، فاجتهد الناس، فقتل هاشم المزقال، وقتل ذو الكلَّاع جميعاً، فتناول

ابن المرقال اللواء حين قبل أبوه في وسط المعركة وكر في العجاج وهو يقول:
 يا هاشم بن عتبة بن مالك أعزز بشيخ من قريش هالك
 تخطي الخيلاث بالسنابك أبشر بحور العين في الأرائك
 والرُّوح والريحان عند ذلك

وقف علي رضي الله عنه عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من المسلمين
 وغيرهم، فدعا لهم وترحم عليهم، وقال من أبيات:

جزى الله خيراً عصبة أسلمية صباح الوجه ضرعوا حول هاشم
 يزيد وعبد الله بشر بن معبد وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم
 وعروة لا يتقد ثناه وذكره إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

حذيفة بن اليمان، وابناه

واستشهد في ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان، وقد كان حذيفة عليلاً
 بالكوفة في سنة ست وثلاثين، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلي فقال: «آخر جوني
 وادعوا الصلاة جامعة» فوضع على المنبر، فحمد الله وأنثى عليه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ثم قال: أيها
 الناس، إن الناس قد بايعوا علياً فعليكم بتقوى الله وانصرموا علياً ووازووه؛ فوالله إنه لعلى
 الحق آخر وأولاً، وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقي إلى يوم القيمة، ثم أطبق يمينه
 على يساره ثم قال: اللهم اشهد، إني قد بايعت علياً، وقال: الحمد لله الذي أبقاني إلى
 هذا اليوم، وقال لابنه صفوان وسعد: احملاني وكونا معه، فستكون له حروب كثيرة
 فيهلك فيها خلق من الناس، فاجتهاه أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه
 على الباطل، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام، وقيل: بأربعين يوماً [واستشهد عبد
 الله بن الحارث النخعي أخو الأشتر] واستشهد فيه عبد الله وعبد الرحمن ابنا بدبل بن
 ورقاء الخزاعي في خلق من خزاعة، وكان عبد الله في ميسرة علي و هو يرتجز ويقول:

لم يبق إلا الصبر والتوكل وأخذك الترس وسيف مصقلن
 ثم التمشي في الرعيل الأول

قتل ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده، فيمن ذكرنا من خزاعة.

ولما رأى معاوية القتل في أهل الشام وكلَّ أهل العراق عليهم استدعى بالنعمان
 ابن جَبَلَةَ التَّنْوَخِي - وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء - وقال له لقد هممت أن أولي
 قومك من هو خير منك مقدمًا، وأنصح منك ديناً، فقال له النعمان: إنما لو كنا ندعى قومنا

إلى جيش مجموع لكان في كسع الرجال بعض الأناء فكيف ونحن ندعوههم إلى سيف قاطعة، ورُذئية شاجرة، وقوم ذوي بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملوك على ديني، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه، وحدث عن الحق وأنا أبصره، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملوك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناكم ما أعطيناكم لكان أرأف بالرعية، وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من إتمامه كان غياً أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً، وستقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب.

مقتل عبيد الله بن عمر

وكان عبيد الله بن عمر إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشددن عليه سلاحه، ما خلا الشيبانية بنت هانيء بن قبيصة، فخرج في هذا اليوم، وأقبل على الشيبانية، وقال لها: إني قد عبّات اليوم لقومك، وايم الله إني لأرجو أن أربط بكل طنْب من أطناب فسطاطي سيداً منهم، فقالت له: ما أبغض إلا أن تقاتلهم قال: ولم؟ قالت: لأنه لم يتوجه إليهم صنديد [في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صعر] إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوك، وكأني بك قتيلاً وقد أتيتهم أسألهم أن يهبو الي جيفتك، فرمماها بقوس فشجّها وقال لها: ستعلمين بمن آتاك من زعماء قومك، ثم توجّه فحمل عليه حرث بن جابر الجعفي فطعنه فقتله، وقيل: إن الأشت النخعي هو الذي قتله، وقيل: إن علياً ضربه [ضربةً] فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حشوة جوفه، وإن علياً قال حين هرب فطلب ليقיד منه بالهرمزان: لئن فاتني في هذا اليوم لا يفوتنـي في غيره، وكلم نساؤه معاوية في جيفته، فأمر أن تأتينـ ربيعة فتبذلنـ في جيفته عشرة آلاف، ففعلـ ذلك، فاستأمرت ربيعة علياً، فقال لهم: إنما جيفته جيفة كلب لا يحلـ بيعها، ولكن قد أجبـتهم إلى ذلك؛ فأجعلـوا جيفته لبنت هانيء بن قبيصة الشيباني زوجـته، فقالـوا لنسـوة عـبد الله: إن شـتنـ شـددـناـهـ إلىـ ذـنـبـ بـغـلـ ثمـ ضـربـناـهـ حتـىـ يـدـخـلـ إلىـ عـسـكـرـ مـعـاوـيـةـ، فـصـرـخـ وـقـلـنـ: هـذـاـ أـشـدـ عـلـيـنـ، وـأـخـبـرـنـ مـعـاوـيـةـ بـذـلـكـ، فـقـالـ لـهـنـ: اـتـوـاـ الشـيـبـانـيـةـ فـسـلـوـهـاـ أـنـ تـكـلـمـهـمـ فـيـ جـيـفـتـهـ، فـفـعـلـنـ، وـأـتـتـ الـقـوـمـ وـقـالـتـ: أـنـاـ بـنـتـ هـانـيـءـ بـنـ قـبـيـصـةـ وـهـذـاـ زـوـجـيـ الـقـاطـعـ الـظـالـمـ وـقـدـ حـذـرـتـهـ مـاـ صـارـ إـلـيـهـ فـهـبـوـاـ إـلـيـ جـيـفـتـهـ، فـفـعـلـوـاـ، وـأـلـقـتـ إـلـيـهـمـ بـمـطـرـفـ خـزـ فـأـدـرـجـوـهـ فـيـهـ وـدـفـعـوـهـ إـلـيـهـ [فـمـضـتـ بـهـ، وـكـانـ] قـدـ شـدـ فـيـ رـجـلـهـ إـلـيـ طـنـبـ فـسـطـاطـهـ مـنـ فـسـاطـيـطـهـ.

ولما قتل عمار ومن ذكرنا في هذا اليوم حرض على عليه السلام الناس وقال لربيعة: أنت درعي ورمحي، فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل، وعلى أمامهم على البغة الشهباء، وهو يقول:

من أي يومي من الموت أفر أيام لم يُقدَّر أم يوم فُدِر
وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتفض،
وأهmedوا كل ما أتوا عليه، حتى أتوا إلى قبة معاوية، وعلى لا يمر بفارس إلا قَدَّه وهو
يقول:

**أضربيهم ولا أرى معاوية الأخرَر العين العظيم الحاويه
تهوي به في النار أم هاويه**

وقيل: إن هذا الشعر لبديل بن ورقاء، قاله في ذلك اليوم.

ثم نادى علي: يا معاوية، علام يقتل الناس بيسي وبينك؟ هلم أحاكِمك إلى الله فأينا
قتل صاحبه استقامت له الأمور، فقال له عمرو: قد أنصفك الرجل، فقال له معاوية: ما
أنصفت، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره، فقال له عمرو: وما يحمل
بك إلا مبارزته، فقال له معاوية: طمعت فيها بعدي، وحَقَّدَها عليه.

وقد قيل في بعض الروايات: إن معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن
يبرز إلى علي، فلم يجد عمرو من ذلك بدأ، فبرز، فلما التقى عرفه علي وشال السيف
ليضربه به، فكشفت عمرو عن عورته، وقال: مُكْرَه أخوك لا بطل فحول علي وجهه
[عنه]، وقال: قبحت! ورجع عمرو إلى مصافه.

وقد ذكر هشام بن محمد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أن معاوية قال لعمرو بعد
انقضاء الحرب: هل غششتني منذ نصحتني؟ قال: لا، قال: بل والله يوم أشرت علي
بمبازة علي وأنت تعلم ما هو، قال: دعاك إلى المبارزة فكانت من مبارزته على إحدى
الحسينين: إما أن تقتله ف تكون قد قتلت قاتل القرآن وتزداد شرفاً إلى شرفك، وإما أن
يقتلوك ف تكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فقال
معاوية: يا عمرو، الثانية أشد من الأولى.

وكان في هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل، ووُجِدَت في بعض النسخ من أخبار
صفين أن هاشما المزقال لما وقع إلى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فإذا عبيد الله بن
عمر مطروحاً إلى قربه جريحاً، فجبا حتى دنا منه، فلم يزل بعض على ثدييه حتى ثبتت
فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة؛ لأنه أصيب فوقه ميتاً هو ورجل من بكر بن وائل، قد
رَحَفَا إلى عبيد الله [جميعاً] فنهشاه، وانصرف القوم إلى مواضعهم، وخرج كل فريق
منهم يحملون ما أمكن من قتلاهم.

ومر معاوية في خواص من أصحابه في الموضع الذي كانت ميمنته فيه، فنظر إلى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي مُعَفِّراً بدمائه، وقد كان على ميسرة علي، فحمل على ميمنة معاوية فأصيب على ما قدمنا آنفاً، فأراد معاوية أن يمثل به، فقال له عبد الله بن عامر وكان صديقاً لابن بديل: والله لا ترتكب وإياه، فهو به له، فخطاه بعماته [وحلمه] فواراه، فقال له معاوية: قد والله واريت كيشاً من كباش القوم وسيداً من سادات خزاعة غير مدافع، والله لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا، ولو أنا من جنَدَلْ، دون هذا الكيش، وأنشا يقول متمثلاً:

أخو الحرب إن عضَّت به الحرب عضها وإن شَمَّرت يوماً به الحرب شمرا
كليث هَرَبَّرِ كان يحمي ذماره رمته المنيا قصدها فتقَطَّرا

ونظر علي إلى غسان في مصافهم لا يزولون، فحضر أصحابه عليهم؛ وقال: إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم، وضرب يفلق الهام ويصفع العظام، وتسقط منه المعاصم والأكف، وحتى تشدخ جياثهم بعْدُ الحديد، وتنتشر لممهم على الصدور والأذقان، أين أهل الصبر وطلاب الأجر؟ فتاب إليه عصابة من المسلمين من سائر الناس، فدعا ابنه محمداً، فدفع إليه الرأية وقال: امش بها نحو هذه الرأية مشياً رويداً، حتى إذا أشرعت في صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتيك أمري، ففعل، وأتاه عليٌّ ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة، وقد كَرَدَسَ الخيل، فحملوا على غسان ومن يليها، فقتلوا منها بشرأً كثيراً، وعادت الحرب في آخر النهار كحالها في أوله، وحملت ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون ألفاً مقعنون في الحديد على ميسرة علي، فاقتطعوا ألف فارس، فانتدب من أصحاب علي عبد العزيز بن الحارث الجعفي، وقال لعليٍّ: مني بأمرك، فقال: شَدَّ الله رنك! سر حتى تنتهي إلى إخواننا المحاط بهم، وقل لهم: يقول لكم علي: كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقي، فحمل الجعفي، فطعن في عرضهم حتى انتهى إليهم، فأخبرهم بمقالة علي، فكبروا، ثم شدوا حتى التقووا بعليٍّ، وشَدَّخُوا سبعمائة من أهل الشام، وقتل حوشب ذو ظليم، وهو كيش من كباش اليم من أهل الشام، وكان على رأية دُهْلَ ابن شيبان وغيرها من ربعة الحُضَيْنُ بن المنذر بن الحارث بن وعلة الذهلي، وفيه يقول علي في هذا اليوم:

لمن رأية سَوْدَاء يُخْفِق ظلها إذا قلت قَدْمَها حُضَيْنُ تقدما

ليلة الهرير

فأمره بالتقدم ، واختلط الناس ، وبطل النبل ، واستعملت السيوف ، وجَنَّهم الليل ، وتنادوا بالشعار ، وتقصفت الرماح ، وتكادم القوم ، وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعن جميعاً إلى الأرض عن فرسها ، وكانت ليلة الجمعة - وهي ليلة الهرير - فكان جملة من قتل على بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم ، وذلك أنه كان إذا قتل رجلاً كبيراً إذا ضرب ، ولم يكن يضرب إلا قتل ، ذكر ذلك عنه مَنْ كان يليه في حربه ، ولا يفارقه من ولده وغيرهم .

وأصبح القوم على قتالهم ، وكسفت الشمس ، وارتفع القنَّام ، وتقطعت الألوية [والريات] ولم يعرفوا مواقيت الصلاة ، وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول :

نَحْنُ قَتَلْنَا حَوْشَبَا لِمَا أَعْدَاهُ
وَذَا الْكَلَاعَ قَبْلَهُ وَمَعْبُدًا إِذْ أَفْدَمَا
إِنْ تَقْتَلُوا مِنْنَا أَبَا^{يَقْظَانَ} شِيخًا مُسْلِمًا
فَقَدْ قَتَلْنَا مِنْكُمْ سَبْعِينَ رَأْسًا مُجْرِمًا
[أَضَحَّوْا بِصَفَّيْنِ وَقَدْ لَاقُوا نِكَالًا مُؤْلِمًا]

خدعة رفع المصاحف

وكان الأشتر في هذا اليوم - وهو يوم الجمعة - على ميمنته على ، وقد أشرف على الفتح ، ونادت مشيخة أهل الشام : [يا معاشر العرب] الله الله في الحرمات والنساء والبنات ، وقال معاوية : هل مخبأتك يا بن العاص فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر ، فقال عمرو : أيها الناس ، مَنْ كان معه مصحف فليرفعه على رُمحه ، فكثر في الجيش رفع المصحف ، وارتقت الضجة ونادوا : كتاب الله بيتنا وبينكم ، مَنْ لشغور الشام بعد أهل الشام؟ ومن لشغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث :

فَأَصْبَحَ أَهْلُ الشَّامِ قَدْ رَفَعُوا الْقَنَّا عَلَيْهَا كِتَابَ اللهِ خَيْرِ قُرْآنِ
وَنَادَوْا عَلَيْهَا : يَا بْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ أَمَا تَتَقَبَّلِي أَنْ يَهْلِكَ الثَّقَلَانِ؟
فَلَمَّا رَأَى كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَقِ ذَلِكَ قَالُوا : نَجِيبٌ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَثَنِيبٌ إِلَيْهِ ، وَأَحَبُّ
الْقَوْمَ الْمَوَادِعَةَ ، وَقَلِيلٌ لَعَلِيٌّ : قَدْ أَعْطَاكَ معاويةَ الْحَقَّ ، وَدَعَاكَ إِلَى كِتَابِ اللهِ فَأَقْلَى مِنْهُ ،

وكان أشدهم في ذلك [اليوم] الأشعث بن قيس، فقال علي: أيها الناس، إنه لم يزل من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وإنني كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وقد أحبتكم البقاء، فقال الأشتر: إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان مثل صبرك ولا نصرك، فاقرع الحديد [بالحديد] واستعن بالله، وتكلم رؤساء أصحاب علي بنحو من كلام الأشتر، فقال الأشعث [بن قيس]: إن لك اليوم على ما كنتم عليه أمس، ولسنا ندري ما يكون غداً، وقد والله فعل الحديد، وكنت البصائر، وتكلم معه غيره بكلام كثير، فقال علي: ويحكم [إنهم] ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا له: إنه ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال: ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم به، ونبذوا كتابه، فامضوا على حكمكم وقصدكم، وخذلوا في قتال عدوكم؛ فإن معاوية وابن العاص وابن أبي معيظة وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدداً غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم؛ صحبتهم أطفالاً [ورجالاً]، فهم شر أطفال ورجال، وجرى له مع القوم خطب طويل قد أتينا بعضه، وتهددوه أن يُضئن به ما صنع بعثمان، وقال الأشعث: إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، قال: ذلك إليك فأته إن شئت، فأتأهله الأشعث فسألة، فقال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى كتاب [الله، و] وإلى ما أمر به في كتابه: تبعثون منكم رجالاً ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل، ونأخذ عليهم العهد والميثاق أن يعملوا بما في كتاب الله ولا يخرجوا عنه، وننقاد جميعاً إلى ما اتفقا عليه من حكم الله، فصواب الأشعث قوله، وانصرف إلى علي، فأخبره ذلك، فقال أكثر الناس: رضينا وقبلنا وأطعنا، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأي الخوارج: رضينا نحن بأبي موسى الأشعري، فقال علي: قد عصيتمني في أول [هذا] الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولئك أبا موسى الأشعري، فقال الأشعث ومن معه: لا نرضى إلا بأبي موسى الأشعري، قال: ويحكم! هو ليس بثقة: قد فارقني وخذل الناس [مني] وفعل كذا وكذا، وذكر أشياء فعلها أبو موسى، ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أولئك ذلك، فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فيما مضى، قال علي: فالأشتر، قالوا: وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر، قال: فاصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه، فبعثوا إلى أبي موسى وكتبوا له القصة، وقيل لأبي موسى: إن الناس قد اصطلحوا، فقال: الحمد لله، قيل: وقد جعلوك حكماً، قال: إن الله وإنما إليه راجعون.

ذكر الحكمين وبدء التحكم

وكان أبو موسى الأشعري يحدّث قبل وقعة صفين ويقول: إن الفتنة لم تزل في بني إسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى يعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من اتبعهما [وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتنة ترفعها وتخفضها حتى يعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما]، فقال [له] سعيد بن غفلة: إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين، قال: أنا؟ قال: نعم أنت، قال: فكان يخلع قميصه ويقول: لا جعل الله لي إذا في السماء مَضْعَداً، ولا في الأرض مَقْعَداً، فلقيه سعيد بن غفلة بعد ذلك فقال: يا أبو موسى، أتذكرة مقالتك؟ قال: سَلْ رَبِّكَ العافية.

شروط الحكم وموعد الاجتماع

وكان فيما كتب في الصحفة أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن [ويميتا ما أمات القرآن]، ولا يتبعان الهوى، ولا يُدَاهنَان في شيء [من ذلك] فإن فعلاً حكم لهما، وال المسلمين من حكمهما براء، وقال علي للحكمين حين أكره على أمرهما ورد الأشتر وكان قد أشرف في ذلك اليوم على الفتح فأخبره مخبر بما قالوا في علي وأنه إن لم يُرده سلم إلى معاوية يفعل به ما فعل بابن عفان، فانصرف الأشتر خوفاً على علي [فقال لهما علي]: على أن تحكمما بما في كتاب الله، وكتاب الله كله لي، فإن لم تحكمما بما في كتاب فلا حكم لكم، وصَرَرُوا الأجل إلى شهر رمضان على اجتماع الحكمين في موضع بين الكوفة والشام، وكان الوقت الذي كتبت فيه الصحفة لأيام يقين من صفر سنة سبع وثلاثين، وقيل: بعد هذا الشهر منها، ومرةً الأشعث بالصحفة يقرؤها على الناس فرحاً مسروراً، حتى انتهى إلى مجلس لبني تميم، فيه جماعة من زعمائهم، منهم عروة بن أدية التميمي، وهو أخو بلال الخارجي، فقرأها عليهم، فجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل، وإن الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيوا إلى أمر الله، وقال له عروة بن أدية: أتحكمون في دين الله وأمره ونبهيه الرجال؟ لا حكم إلا لله، فكان أول من قالها وحكم بها، وقد تنزع في ذلك، وشد بسيفه على الأشعث

فضم فرسه عن الضربة فوقعت في عجز الفرس ونجا الأشعث، وكادت العصبية أن تقع بين التزارية واليمانية، لو لا اختلاف كلمتهم في الديانة والتحكيم.

وفي فعل عروة بن أدية بالأشعث يقول رجل من بني تميم في أبيات:

[عُزوْ يَا عَرُو كُلُّ فِتْنَةٍ قَوْمٌ سَلَقْتُ إِنَّمَا تَكُونُ فَتِيَّهُ]
[ثُمَّ تَنْمِي وَيَعْظُمُ الْخَطْبُ فِيهَا فَاحْذَرُنِي غَبَّ مَا أُتِيتُ عُرَيْهُ]
أَعْلَى الْأَشْعَثَ الْمَعْصِبَ بِالْتَّاجِ حَمْلَتُ السَّلَاحَ يَا بْنَ أَدِيهِ؟
[إِنَّهَا فِتْنَةٌ كَفْتَنَةٌ ذِي الْعِجْلِ، أَيَا عَرُو الْعَصَمَ وَالْعَصِيَّهُ]
فَانْظُرْ الْيَوْمَ مَا يَقُولُ عَلَيَّ وَأَتَبِعْهُ، فَذَاكْ خَيْرُ الْبَرِيَّهِ]

عدة قتلى صفين

وقد تنوزع في مقدار من قتل من أهل الشام وال伊拉克 بصفين: فذكر أحمد بن الدورقي عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس: من أهل الشام تسعون [ألفاً]، ومن أهل العراق عشرون ألفاً، ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل في هذا الباب، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل، سوى الخدم والأتباع، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعاً من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلاثة وألفاً، بل أكثر من ذلك؛ لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه، وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك، وأهل العراق كانوا في عشرين ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم وأما الهيثم بن عدي [الطائي] وغيره مثل الشرقي بن القطاومي وأبي مخنف لوط بن يحيى فذكروا ما قدمنا، وهو أن جملة من قتل من الفريقين جميعاً سبعون ألفاً: من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، فيهم خمسة وعشرون بدرياً، وأن العدد كان يقع بالتقسيمي والإحصاء للقتلى في كل وقعة، وتحصيل هذا يتفاوت؛ لأن في قتلى الفريقين من يُعرَف ومن لا يُعرَف، وفيهم من عرق، وفيهم من قتل في البر؛ فأكلته السبع فلم يدركهم الإحصاء، وغير ذلك مما يتعذر ما وصفنا، وسمعت امرأة بصفين [من أهل العراق] وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول:

أَعْيَنِيْ جُودًا بِدَمْعَ سَرِبٍ عَلَى فَتِيَّةٍ مِنْ خِيَارِ الْعَرَبِ
وَمَا ضَرَّهُمْ غَيْرُ حَنْ النَّفُوسِ بِأَيِّ امْرَءٍ مِنْ قَرِيشٍ غَلَبَ

بعد التحكيم

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعاً [وأقلَّ بعضهم يتبرأ من بعض]: يتبرأ الأخ

من أخيه، والابن من أبيه، وأمر عليٌ بالرحيل، لعلمه باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم في جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمغارع ونعال السيوف، وتسابوا، ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه، وسار علي يوم الكوفة، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم بيده.

الخوارج الحروبية

ولما دخل عليٌ رضي الله عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم فلحقوا بحروراء - قرية من قرى الكوفة - وجعلوا عليهم شبيب بن ربي التميمي ، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكوأء اليشكري من بكر بن وائل ، فخرج عليٌ إليهم وكانت له معهم مناظرات ، فدخلوا جميعاً الكوفة ، وإنما سموا الحروبية لاجتماعهم في هذه القرية ، وانحيازهم إليها .

وقد ذكر يحيى بن معين قال: حدثنا وهب بن جابر بن حازم ، عن الصَّلت بن بهرام ، قال: لما قدم عليٌ الكوفة جعلت الحروبية تناديه وهو على المنبر: جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم إلا الله ، فيقول: حُكْمُ الله أَنْتَظِرْ فِيكُمْ ، فيقولون: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِئَنَّ أَشْرَكَتُمْ لِيَجْبَطَنَّ عَمَّا وَلَتَكُونُنَّ مِنْ الْخَتَّارِيْنَ﴾ [الزمر: ٦٥] فيقول عليٌ: ﴿فَأَمْصِرْ إِنَّ وَقَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفَفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

التقاء الحكمين

وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل ، وقيل: بغيرها ، على ما قدمنا من وصف التنازع في ذلك ، وبعث عليٌ بعد الله بن العباس وشريح بن هانئ الهمданاني في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعري ، وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط في أربعمائة ، فلما تداني القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبي موسى: إن علياً لم يرض بك حكماً لفضلِ عننك والمتقدمون عليك كثير ، وإن الناس أبوا غيرك ، وإنني لأظن ذلك لشرياد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس في معاوية خصلة تقرره من الخلافة ، ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى ، فقال: يا أبا عبد الله ، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضوان بك ، وقد ضم إليك

رجل طوبل اللسان قصیر الرأي، فأخْرَ الحَزْ، وطبق المفصل، ولا تلْفَه برأيك كله، ووافاهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو [وبعد الرحمن بن عوف الزهرى] والمغيرة بن شعبة الثقفي وغيرهم، وهؤلاء من قَعَدَ عن بيعة علي، في آخرين من الناس، وذلك في شهر رمضان [من سنة ثمان وثلاثين]، فلما التقى أبو موسى عمرو قال عمرو لأبي موسى: تكلم وقل خيراً، فقال أبو موسى: بل تكلم أنت يا عمرو فقال عمرو: ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك، ولك حقوق كلها واجبة لستك وصحبتك رسول الله ﷺ، وأنت ضيف، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه، وذكر الحديث الذي حلّ بالإسلام، والخلاف الواقع بأهله، ثم قال: يا عمرو: هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة، ويُلِمُ الشَّعْثَ، ويصلح ذات البين؟ فجزأه عمرو خيراً، وقال: إن للكلام أولاً وأخراً، ومتنى تنازعنا الكلام خطباً لم يبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من الكلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا، قال: فاكتبه، فدعنا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فتقدّم إليه ليبدأ به أولاً دون أبي موسى؛ لما أراد من المكر به، ثم قال له بحضوره الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئاً يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتبه، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا، اكتب: باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان فكتب، وبدأ عمرو، فقال له عمرو: لا ألم لك! أتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه؟ فبدأ باسم عبد الله بن قيس، وكتب: تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه وقد أدى الحق الذي عليه، قال أبو موسى: اكتب، ثم قال في عمر مثل ذلك، [فقال أبو موسى: اكتب] ثم قال عمرو: واكتب «وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشُورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضاً منهم، وأنه كان مؤمناً»، فقال أبو موسى الأشعري: ليس هذا مما قعدنا له، قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً [فقال أبو موسى: كان مؤمناً، قال عمرو: فمُرْه يكتب]: قال أبو موسى: اكتب، قال عمرو: ظالماماً قتل عثمان أو مظلوماً، قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً، قال عمرو: قال عمرو: أفاليس قد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولية أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: أفاليس لمعاوية أن يطلب قاتله حি�ثما كان حتى يقتله أو يعجز [عنه]؟ قال أبو موسى: بلى، قال عمرو لل كتاب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإننا نقيم البينة أن علياً قتل عثمان، قال أبو موسى: هذا أمر قد حدث في الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره، فهلم إلى

أمر يصلح الله به [أمر] أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟ قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون علياً أبداً، فهلم نخلعهما جميعاً ونستخلف عبد الله بن عمر؟ وكان عبد الله بن عمر على بنت أبي موسى، قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى: نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل، فعمد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فصوّبه، وقال له: هل لك في سعد؟ قال له أبو موسى: لا، فعَدَّ له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر، فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختمها جميعاً، وقال عمرو: أرأيت إن رضي أهل العراق بعد الله بن عمر وأباء أهل الشام أتقاتل أهل الشام؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: فإن رضي أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟ قال أبو موسى: لا، قال عمرو: أما إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير لل المسلمين فقم فاختُب الناس، واخلع صاحبينا [معاً] وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه، فقال أبو موسى: بل أنت قم فاختُب فأنت أحق بذلك، قال عمرو: ما أحب أن أتقدملك. وما قولك وقولك وقول للناس إلا قول واحد، فقم راشداً.

تمام الخدعة

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمرنا، فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث وحَقْن الدماء وجمع الألفة خلعنَا عليةً ومعاوية، وقد خلعت عليةً كما خلعت عمامتي هذه، ثم أهوى إلى عمامته فخلعها، واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه، وصاحب أبوه النبي ﷺ، فبرأ في سابقته، وهو عبد الله بن عمر، وأطراه، ورَغَبَ الناس فيه، ثم نزل.

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إن أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليةً وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإنني قد خلعت عليةً معه، وأثبتت معاوية عليةً وعليكم، وإن أبا موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قد قتل مظلوماً شهيداً وأن لوليه [سلطاناً] أن يطلب بدمه حيث كان، وقد صحب معاوية رسول الله ﷺ بنفسه، وصاحب أبوه النبي ﷺ، [وأطراه، ورغب الناس فيه، وقال]: هو الخليفة علينا، وله طاعتُنا ويعتنى على الطلب بدم عثمان، فقال أبو موسى: كذب عمرو، لم نستخلف معاوية، ولكننا خلعنَا معاوية وعليةً معاً، فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليةً ولم أخلع معاوية.

قال المسعودي رحمه الله: ووُجِدَتْ في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على

خلع عليٌّ معاوية، وأن يجعل الأمر بعد ذلك شوري: يختار الناس رجلاً يصلح لهم، فقدم عمرو أباً موسى، فقال أبو موسى: إني قد خلعت علياً معاوية، فاستقبلوا أمركم، وتنتهي، وقام عمرو مكانه فقال: إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعته، وأثبتت صاحبتي معاوية، فقال أبو موسى: مالك لا وفتك الله عذرتَ وفجرت؟ إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، فقال له عمرو: بل إياك يلعن الله، كذبت وغدرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ثم وكر أباً موسى فألقاه لجنه، فلما رأى ذلك شريح بن هانئ قطع عمراً بالسوط، وانخرzel أبو موسى، فاستوى على راحلته ولحق بمكة، ولم يُعذَّ إلى الكوفة، وقد كانت خطته وأهله وولده بها، وألى أن لا ينظر إلى وجه عليٍّ ما بقي، ومضى ابن عمر وسعد إلى بيت المقدس [فأحرما].

ما قيل من الشعر في التحكيم

وفي فعل الحكمين يقول أيمن بن خريم بن فاتك الأستدي:

لو كان للقوم رأي يعصمون به عند الخطوب زمِّوكم بابن عباس
لكن رموكم بوعدٍ من ذوي يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

وفي اختلاف الحكمين والمحكمة يقول بعض من حضر ذلك:

رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربنا والنبي وبالذكر
وبالأصلع الهادي على إمامنا رضينا بذلك الشيخ في العسر واليسر
رمضانا به حيَا وميتاً؛ فإنه إمام الهدى في موقف النهي والأمر

ولأبي موسى يقول ابن أعين:

أبا موسى، بليت وأنت شيخ
وأبا موسى صفاتك يا بن قيس
فأمسيت العشية ذا اعتذار
تعض الكف من ندم، وماذا
قريب العفو مخزون اللسان
فيما الله من شيخ يمانى
ضعيف الركن منكوب الجنان
يرد عليك عضك للبنان؟

وقيل: إنه لم يكن بينهما غير ما كتباه في الصحيفة وإنرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوماً وغير ذلك مما قدمنا، وإنهما لم يخطبا، وذلك أن عمراً قال لأبي موسى: سَمِّ من شئت حتى أنظر معك، فسمى أبو موسى ابن عمر [وغيره] ثم قال لعمرو: قد سميتك أنا فسَمِّ أنت، قال: نعم، أسمى لك أقوى هذه الأمة عليها، وأسَدَّها رأياً، وأعلمها بالسياسة، معاوية بن أبي سفيان، قال: لا والله ما هو لذلك بأهل، قال: فأتيك بآخر ليس

هو بدونه، قال: من هو؟ قال: أبو عبد الله عمرو بن العاص، فلما قالها علم أبو موسى أنه يلعب به، فقال: فعلتها لعنك الله، فتسألاً، فلتحق أبو موسى بمكة.

فلما انصرف أبو موسى انصرف عمرو بن العاص إلى منزله، ولم يأت إلى معاوية، فأرسل إليه معاوية يدعوه، فقال: إنما كنت أجيئك إذ كانت إليك حاجة، فاما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا، فعلم معاوية ما قد دفع إليه، فحمر الرأي وأعمل الحيلة، وأمر معاوية ب الطعام كثير فصنع، ثم دعا بخاسته ومواليه وأهله، فقال: إنني سأغدو إلى عمرو، فإذا دعوت بالطعام فدعُوا مواليه وأهله فليجلسوا قبلكم، فإذا شبع رجل منهم وقام فليجلس رجل منكم مكانه، فإذا خرجوا ولم يبق في البيت أحد منهم فأغلقوا باب البيت، واحذروا أن يدخل أحد [منهم] إلا أن أمركم.

خدعة معاوية لعمرو بن العاص

وقد أتاه معاوية وعمرو جالس على فراشه، فلم يقم له عنها، ولا دعاه فجأة معاوية وجلس على الأرض، واتكأ على [ناحية] الفراش، وذلك أن عمراً كان يحدث نفسه أنه قد ملك الأمر وإليه العقد، يضعها في مين يرى، ويندب للخلافة من يشاء، فجرى بينهما كلام كثير، وكان مما قال له عمرو: هذا الكتاب الذي بيني وبينه عليه خاتمي وخاتمه، وقد أقرَ بأن عثمان قتل مظلوماً، وأخرج علينا من هذا الأمر، وعرض على رجالاً لم أرهم أهلاً لها، وهذا الأمر إلى أن استخلف من شئت، وقد أعطاني أهل الشام عهودهم ومواثيقهم، فجادلته معاوية ساعة وأخرجه عما كانوا عليه، وضاحكه وداعبه، ثم قال: يا أبا عبد الله، هل من غداء؟ قال: أمّا شيء يشبع من ترى فلا والله، فقال معاوية: هلم يا غلامي غدائك، فجيء بالطعام المستعد، فوضع، فقال: يا أبا عبد الله، ادع مواليك وأهلك، فدعاهم، ثم قال له عمرو: وادع أنت أصحابك، قال: نعم يأكل أصحابك [أولاً] ثم يجلس هؤلاء بعد، فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية، حتى خرج أصحاب عمرو وبقي أصحاب معاوية، فقام الذي وكله بغلق الباب، فأغلق الباب، فقال له عمرو: فعلتها، فقال: إيه والله بيني وبينك أمران فاخترت أحدهما شئت: البيعة لي، أو أقتلك، ليس والله غيرهما، قال عمرو: فأذن لغلامي وردان حتى أشاوره وأنظر رأيه، قال: لا تراه والله ولا يراك إلا قتيلاً أو على ما قلت لك، قال: فالوفاء إذن بطعمة مصر، قال: هي لك ما عشت، فاستوثق كل واحد منهم من صاحبه، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام، ومنع أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو، فقال لهم عمرو: قد رأيت أن أبایع معاوية، فلم أر أحداً أقوى على هذا الأمر منه، فبایعه أهل الشام، وانصرف [معاوية] إلى منزله خليفة.

بين علي وأصحابه

ولما بلغ علياً ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال: إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتم عنها، فأبىتم إلا عصياني، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبىتم علي؟ والله إني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت، ولكن الله من ورائي، يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم، وكنت فيما أمرت به كما قال أخوه بنى خثعم:

أمرتُهمْ أمرِي بمنعرج اللوى فلم يستبيئوا الرشد إلا ضَحَى الغد

مَنْ دعا إلى هذه الحكومة فاقتلوه قتلته الله ولو كان تحت عمamتي هذه، ألا إن هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله، وحكموا بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معروف، فأماتا ما أحيا القرآن، وأخيما ما أماته، واختلف في حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما، فبريء الله منها ورسوله وصالح المؤمنين، فتأهبا للجهاد واستعدوا للمسير، وأصبحوا في عساكركم إن شاء الله تعالى.

قال المسعودي: وقد اختلفت الفرق من أهل ملتنا في الحكمين، وقالوا في ذلك أقاويل كثيرة، وقد أتينا على ما ذهبوا إليه في ذلك وما قاله كل فريق منهم، ومن أيد قوله من الخارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم من فرق هذه الأمة في كتابنا في «المقالات في أصول الديانات» وذكرنا في كتاب «أخبار الزمان» قول علي في مواقفه وخطبه، وما قاله في ذلك، وما أكره عليه، وتأنيبه لهم بعد الحكومة، وما تقدم الحكومة من تحذيره إياهم منها حين ألحوا في تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو، حيث قال: ألا إن القوم قد اختاروا لأنفسهم أقرب الناس مما يحبون، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس مما تكرهون، إنما عهدكم بعد الله بن قيس بالأمس وهو يقول ألا إنها فتنة، فقطعوا فيها أوتاركم وكسروا قسيّكم، فإن يك صادقاً فقد أخطأ في مسيرة غير مستقره عليه، وإن يك كاذباً فقد لزمته التهمة، وهذا كلام أبي موسى في تحذيله الناس، وتحريضهم على الجلوس [وتشييظهم] عن أمير المؤمنين علي في حربه ومسيره إلى الجمل وغيره، ثم ما قاله في بعض مقاماته في معانته لقريش، وقد بلغه عن أناس منهم ممن قعد عن بيته ونافق في خلافته كلام كثير، فقال: وقد زعمت قريش أن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب، تربت أيديهم! وهل فيهم أشد مراساً لها مني؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد أربيت على نيف وستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع.

قال المسعودي : وإذ قد تقدم ذكرنا لجمل من أخبار الجمل وصفين والحكمين ؛ فلنذكر الآن جوامع من أخبار يوم النهروان ، ونعقب ذلك بذكر مقتله عليه السلام وإن كنا قد أتينا على مبسوط سائر ما تقدم لنا في هذا الكتاب وما تأخر ، فيما سلف من كتبنا ، والله أعلم .

ذكر حروبه رضي الله عنه مع أهل النهروان وما لحق
بها الباب من مقتل محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه
والأستر النخعي، وغير ذلك

اجتماع الخوارج ومسير علي إليهم

واجتمعت الخوارج في أربعة آلاف، فبايعوا عبد الله بن وهب الراسيي، ولحقوا بالمدائن، وقتلوا عبد الله بن حباب عامل علي عليها: ذبحوه ذبحاً، وبقرروا بطنه امرأته وكانت حاملاً، وقتلوا غيرها من النساء، وقد كان علي اتفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفاً، وأتاه من البصرة، من قبل ابن عباس - وكان عامله عليها - عشرة آلاف فيهم الأحتفُ بن قيس وحارثة بن قدامة السعدي، وذلك في سنة ثمان وثلاثين، فنزل على الأنبار، والتأمت إليه العساكر، فخطب الناس وحرضهم على الجهاد، وقال: سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدمًا، فإنهم طالما سعوا في إطفاء نور الله، وحرضوا على قتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه، إلا أن رسول الله أمرني بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم، والممارقين ولم نلقهم بعد، فسيروا إلى القاسطين، فهم أهم علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جارين يتذذهم الناس أرباباً، ويتخذون عباد الله خولاً وما لهم دولاً، فأبوا إلا أن يبدؤوا بالخوارج، فسار علي إليهم، حتى أتى النهروان، فبعث إليهم بالحارث بن مرة العبدى رسولًا يدعوهم إلى الرجوع، فقتلوه، وبعثوا إلى علي: إن ثبت من حكومتك وشهدت على نفسك [بالكفر] بايتك، وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً فإنك براء، فبعث إليهم علي: أن ابعثوا إلى بقتلة إخواني فأقتلهم ثم أتاركم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب، ولعل الله يُقْبِلُ قلوبكم، فبعثوا إليه: كلنا قتلة أصحابك، وكلنا مستحلٌ لدمائهم، مشتراكون في قتلهم، وأخبره الرسول - وكان من يهود السواد - أن القوم قد عبروا نهر طبرستان، وهذا النهر عليه بقنظرة، تعرف بقنظرة طبرستان، بين حلوان ويغداد، من بلاد خراسان، فقال علي: والله ما عبروه ولا يقطعونه، حتى نقتلهم بالرميلة دونه، ثم توالت عليه الأخبار بقطعهم لهذا النهر، وعبرتهم هذا الجسر، وهو يأبى ذلك، ويحلف أنهم لم يعبروه، وأن مصارعهم دونه. ثم قال: سيروا إلى القوم، فوالله لا

يفلت منهم إلا عشرة، ولا يقتل منكم إلا عشرة، فسار علي، فأشرف عليهم، وقد عسکروا بالموضع المعروف بالرميلة على [حسب] ما قال لأصحابه. فلما أشرف عليهم قال: الله أكبر، صدق [الله و] رسول الله ﷺ، فتصفّف القوم، ووقف عليهم بنفسه، فدعاهم إلى الرجوع والتوبة، فأبوا ورموا أصحابه، فقيل له: قد رمونا، فقال: كفوا، فكرروا القول عليه ثلثاً وهو يأمرهم بالكف، حتى أتى بمن قتيل متشحّطاً بدمه، فقال علي: الله أكبر، الآن حلّ قاتلهم، احملوا على القوم، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب علي، فجرح فيهم، وجعل يغشى كل ناحية، ويقول:

أضربيهم ولو أرى علىَ الْبَسْتَهُ أَبْيَضَ مَشْرَفِيَا

فخرج إليه علي رضي الله عنه، وهو يقول:

يَا أَيَّهَا الْمُبْتَغِي عَلَيَا إِنِّي أَرَاكَ جَاهِلًا شَقِيَا
قَدْ كُنْتَ عَنْ كَفَاحِهِ غَنِيَا هَلْمٌ فَابْرَزْ هَا هُنَا إِلَيَا

وتحمل عليه علي، فقتله.

ثم خرج منهم آخر، فحمل على الناس، فتك فيهم، وجعل يكر عليهم، وهو يقول:

أَضْرِبْهُمْ وَلَوْ أَرَى أَبَا حَسَنَ الْبَسْتَهُ بِصَارَمِي شَوبَ غَبَنْ

فخرج إليه علي وهو يقول:

إِيَا أَيَّهَا الْمُبْتَغِي أَبَا حَسَنَ إِلَيْكَ فَانْظُرْ أَيْنَا يَلْقَى الْغَبَنْ
وَحَمْلُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ وَشَكِهِ بِالرَّمْحِ، وَتَرْكُ الرَّمْحِ فِيهِ، فَانْصَرَفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَقَدْ
رَأَيْتَ أَبَا حَسَنَ فَرَأَيْتَ مَا تَكْرَهَ.

المخدج ذو الثديّة

وتحمل أبو أيوب الأنصاري على زيد بن حصن فقتله، وقتل عبد الله بن وهب الراسبي، قتل هانيء بن حاطب الأزدي، وزياد بن حفصة، وقتل حرقوص بن زهير السعدي، وكان جملة من قتل من أصحاب علي تسعة، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة، وأتى علي على القوم، وهم أربعة آلاف، فيهم المخدج [ذو الثديّة] إلا من ذكرنا من هؤلاء العشرة، وأمر علي بطلب المخدج، فطلبوه، فلم يقدروا عليه، فقام علي وعلىه أثر الحزن لفقد المخدج، فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض، فقال: افجروا، فجرجوه يميناً وشمالاً واستخرجوه، فقال علي رضي الله عنه: الله أكبر، ما كذبنا على

محمد، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم، طرفها حلمة مثل ثدي المرأة، عليها خمس شعرات أو سبع، رؤوسها معرفة، ثم قال: انتوني به، فنظر إلى عضده، فإذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليه شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذى بطن يده الأخرى، ثم تترك فتعود إلى منكبه، فتشي رجله ونزل، وخر الله ساجداً.

ثم ركب ومرّ بهم وهو صَرْعَى، فقال: لقد صرعتم من غركم، قيل: ومن غركم؟ قال: الشيطان وأنفسُ السوء، فقال أصحابه: قد قطع الله دابرهم إلى آخر الدهر، فقال: كلا والذى نفسي بيده، وإنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأشmost يخرج إليه رجل من أهل البيت فيقتله، ولا تخرج بعدها خارجة إلى يوم القيمة.

وجمع على ما كان في عسكر الخوارج، فقسم السلاح والدواب بين المسلمين، ورَدَ المtauع والعبيد والإماء إلى أهليهم، ثم خطب الناس، فقال: إن الله قد أحسن إليكم وأعز نصركم، فنوجها من فوركم هذا إلى عدوكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين قد كُلْتَ سيفنا، ونفذت نبالنا، ونصلت أسنة رماحنا، فدعنا نستعد بأحسن عدّنا، وكان الذي كلمه بهذا الأشعث بن قيس، فعسكر على بالنخيلة.

تفرق أصحاب علي وردمتهم

فجعل أصحابه يتسللون ويلحقون بأوطانهم، فلم يق معه إلا نفر يسير، ومضى الحارث بن راشد الناجي في ثلاثة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية، وهم من ولد سامة بن لؤي [بن غالب، من ولد إسماعيل] عند أنفسهم، وقد أتى ذلك كثير من الناس، وذكروا أن سامة بن لؤي ما أعقب، وقد حكي عن علي فيهم ما قد ذكرناه في كتابنا في «أخبار الزمان».

ولد سامة بن لؤي وعلي

ولست [تكاد] ترى ساميَا إلا منحرفاً عن علي: من ذلك ما ظهر من علي بن الجهم الشاعر السامي من النصب والانحراف، وقد أتينا على لمع من شعره وأخباره في الكتاب الأوسط، ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلي رضي الله عنه أنه كان يلعن آباء، فسئل عن ذلك، وبم استحق اللعن منه؟ فقال: بتسميته إباهي علياً.

فسرح إليهم علي معقل بن قيس الرياحي، فقتل الحارث ومن معه من المرتدين بسيف البحر، وسبى عيالهم وذراريهم، وذلك بساحل البحرين، فنزل معقل بن قيس بعض كُور الأهواز بسي القوم، وكان هنالك مصقلة بن هيبة الشيباني عاملًا لعلي،

فصالح به النسوة: امنن علينا، فاشتراهم بثلاثمائة ألف درهم وأعتقهم، وأدّى من المال مائتي ألف وهرّب إلى معاوية، فقال علي: قبح الله مصلقة، فعل فعل السيد وفر فرار العبد، لو أقام أخذنا ما قدرنا على أخذه، فإنّ أعسر أنظرناه، وإن عجز لم نأخذه بشيء، وأنفذ العتق وفي ذلك يقول مصلقة بن هبيرة، من أبيات:

تركت نساء الحي بكر بن وائل وأعتقت سبياً من لؤي بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد لمالي قليل لا محالة ذاهب
وفي ذلك يقول الآخر:

ومصلقة الذي قد باع بيعاً ربيحاً يوم ناجية بن سامه
ولمصلقة أفعال آتها، وحيل عملها قد ذكرناها وما قال في ذلك من الشعر في
الكتاب الأوسط.

وقال علي بن محمد بن جعفر [العلوي] فيمن انتهى إلى سامة بن لؤي بن غالب.
وسامة مثنا، فاما بنوه فأمرُهم عندنا مُظلّم
أناس أتوا بآنسابهم خرافة مضطجع يحمل
وقلنا لهم مثل قول الوصي وكل أقوابه مُخكّم
إذا ما سئلت فلم تذر ما تقول، فقل: ربنا أعلم

عمرو بن العاص ومحمد بن أبي بكر في مصر

وفي سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عمرو بن العاص إلى مصر في أربعة آلاف،
ومعه معاوية بن خديج، وأبو الأعور السلمي، واستعمل عمراً عليها حياته، ووَقَى بما
تقدّم من ضمانه، فالتحقوا به ومحمد بن أبي بكر - وكان عامل علي عليها - بالموقع
المعروف بالمسنة، فاقتتلوا، فانهزم محمد لإسلام أصحابه إياه وتركهم له، وصار إلى
موقع مصر، فاختفى فيه، فأحيط بالدار، فخرج إليهم محمد ومن معه من أصحابه،
فقاتلهم حتى قتل، فأخذته معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما، فجعلوه في
جلد حمار وأضرمه بالنار، وذلك بموضع في مصر، يقال له: كوم شريك، وقيل: إنه
فعل به ذلك، وبه شيء من الحياة، ويبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه، فأظهر الفرح
والسرور. ويبلغ علياً قتل محمد وسرور معاوية، فقال: جزعنا عليه على قدر سرورهم،
فما جزّعْتُ على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزاعي عليه، كان لي ربيباً، وكنت أعدُه
ولداً، وكان بي برأ، وكان ابن أخي، فعلى مثل هذا نحزن، وعند الله نحتسبه.

ولاية الأشتر ومقتله بالعرיש مسوماً

وولى علي الأشتر مصر وأنفذه إليها في جيش، فلما بلغ ذلك معاوية دسَ إلى دهقان كان بالعريش، فأرغبه، وقال: اترك خراجك عشرين سنة، واحتل للأشتر بالسم في طعامه، فلما نزل الأشتر العريش سأله الدهقان: أي الطعام والشراب أحب إلي؟ قيل له: العسل، فأهدى له عسلاً، وقال: إن من أمره شأنه كذا وكذا، ووصفه للأشتر، وكان الأشتر صائماً، فتناول منه شربة، فما استقرت في جوفه حتى تلف، وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وقيل: كان ذلك بالقلزم، والأول أثبت، بلغ ذلك علياً، فقال: للدين والفن، وبلغ ذلك معاوية، فقال: إن الله جنداً من العسل.

وقبض أصحابه عن علي في هذه السنة ثلاثة أرباق على حسب ما كان يحمل إليه من المال من أعماله، ثم ورد عليه مال من أصحابه، فخطب الناس، وقال: اغدوا إلى عطاء رابع، فوالله ما أنا لكم بخازن، وكان في عطائه [أسوة للناس] يأخذ كما يأخذ الواحد منهم.

ولم يكن بين علي ومعاوية من الحرب إلا ما وصفنا بصفين، وكان معاوية في بقية أيام علي يبعث سرايا تغيير، وكذلك علي كان يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس، وقد أتينا علي ذكر السرايا والغارات فيما سلف من كتابنا.

فرق المعاملة بين الجمل وصفين وسره

قال المسعودي رحمه الله: وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الآراء من الخوارج وغيرهم في فعل علي يوم الجمل، وصفين، وتبادر حكمه فيهما، من قتلهم من أهل صفين، مقبلين ومدبرين، وإجهازه على جرحاهم، ويوم الجمل لم يتبع مولياً، ولا أجهز على جريح، ومن ألقى سلاحه أو دخل داره كان آمناً، وما أجابهم به شيعة علي في تبادر حكم علي في هذين اليومين لاختلاف حكمهما، وهو أن أصحاب الجمل لما انكشفوا لهم فتنة يرجعون إليها، وإنما رجع القوم إلى منازلهم، غير محاربين ولا متابعين، ولا لأمره مخالفين، فرضوا بالكف عنهم، وكان الحكم فيهم رفع السيف إذا لم يطلبوا عليه أعوناً، وأهل صفين كانوا يرجعون إلى فتنة مستعدة، وإمام متصرف، يجمع لهم السلاح، ويُسني لهم الأعطيَّة، ويقسم لهم الأموال، ويجرس كسيرهم، ويحمل راجلهم، ويردهم، فيرجعون إلى الحرب، وهم إلى إمامته منقادون، ولرأيه متبعون، ولغيره مخالفون، والإمامته تاركون، ولحقه جاحدون، وبأنه يطلب ما

ليس له قائلون، فاختلف الحكم لما وصفنا، وتباين حكمها لما ذكرنا، ولكل فريق من السائل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه، وقد أتينا على استيعابه، وما ذكره كل فريق منهم فيما سلف من كتبنا، فأغنى ذلك عن إعادته، والله أعلم.

ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المؤامرة

وفي سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج، فتذاكروا الناس، وما هم فيه من الحرب والفتنة، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وتواعدوا، واتفقوا [على] أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه، حتى يقتله أو يقتل دونه، وهم: عبد الرحمن بن ملجم، لعنه الله! وكان من تُجَيِّب، وكان عدادهم في مراد، فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصرمي، ولقبه: البركُ، وزادوته: مولى بني العنبر، فقال ابن ملجم - لعنه الله! : أنا أقتل علياً، وقال البرك: أنا أقتل معاوية، وقال زادوته: أنا أقتل عمرو بن العاص، واتّعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، وقيل: ليلة إحدى وعشرين.

ابن ملجم وقطام

فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادي إلى علي، فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه، وكان [عليه] قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت أجمل أهل زمانها، فخطبها، فقالت: أتزوج حتى تسمى لي، قال: لا تسأليني شيئاً إلا أعطيته، فقالت: ثلاثة آلاف وعبداً وقيمة، وقتل علي، فقال: ما سألت هو لك مهر إلا قتل علي، فلا أراك تدركينه، قالت: فالتمس غرته، فإن أصبته شفيت نفسي وتفَعَّكت العيشُ معي، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا، فقال: والله ما جاء بي إلى هذا المصر، وقد كنت هارباً منه إلا ذلك، وقد أعطيتك ما سألت، وخرج من عندها وهو يقول:

ثلاثة آلاف وعبداً وقيمةً وقتل علي بالحسام المصمم
فلا مهرَ أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن نجدة من الخوارج. فقال له: هل لك في شرف الدنيا والأخرة؟ فقال: وما ذاك قال: تساعدني على قتل علي، قال: ثكلتك أمك!

لقد جئت شيئاً إذا، قد عرفت غناه في الإسلام، وسابقته مع النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقال ابن ملجم: ويحك! أما تعلم أنه قد حكم الرجال في كتاب الله، وقتل إخواننا المصليين؟ فقتله ببعض إخواننا، فأقبل معه حتى دخل على قطّام، وهي في المسجد الأعظم، وقد ضربت كلّة لها وهي معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، فأعلمتهم أن مجاشع بن وردان [بن علقمة] قد انتدب لقتله معهما، فدعت لهما بحرير فعصبتهم وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التي يخرج منها علي للمسجد، وكان علي يخرج كل غداة أول الأذان [يوقظ الناس] للصلوة، وقد كان ابن ملجم مرّ بالأشعث وهو في المسجد، فقال له: **فَضَحَّكَ الصبح**، فسمعها حجر بن عدي، فقال: قتلته يا أعزور قتلك الله، وخرج علي رضي الله عنه ينادي: أيها الناس، الصلوة، فشد عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون: الحكم الله، لا لك، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه، وأما شبيب فوقيعه ضربته بعصادة الباب، وأما [مجاشع] بن وردان فهرب، وقال علي: لا يفوتنكم الرجل، وشدّ الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصبات، ويتناولونه ويصيحون، فضرب ساقه رجل من همدان برجله، وضرب المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه، وأقبل به إلى الحسن، ودخل ابن وردان بين الناس، فنجا بنفسه، وهرب شبيب حتى أتى رحله، فدخل إليه عبد الله بن نجدة - وهو أحدبني أبيه - فرأه ينزع الحرير عن صدره، فسأله عن ذلك، فخبره [خبره] فانصرف عبد الله إلى رحله، وأقبل إليه بسيفه ضربه حتى قتله.

وقيل: إن علياً لم ينم تلك الليلة، وإنه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة، وهو يقول: والله ما كذبت ولا كذبت، وإنها للليلة التي وعدت [فيها] فلما [خرج] صاح بطكان للصبيان، فصاح بهن بعض من في الدار، فقال علي: ويحك! دعهن فإنهن نوائح. وقد ذكرت طائفة من الناس أن علياً رضي الله عنه أوصى [إلى] ابنيه الحسن والحسين؛ لأنهما شريكاه في آية التطهير، وهذا قول كثير من ذهب إلى القول بالنص.

وصية علي لأولاده

ودخل عليه الناس يسألونه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن فقدناك ولا تفقدك، أنابيع الحسن؟ قال: لا أمركم ولا أنهاكم، وأنتم أبصر، ثم دعا الحسن والحسين، فقال لهما: أوصيكم بتقوى الله وحده، ولا تبغيا الدنيا وإن بغيركم، ولا تأسفا على شيء منها، قوله الحق، وارحاما اليتيم، وأعينا الضعيف، وكوننا للظالم خصما وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكم في الله لومة لائم؛ ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال: هل

سمعت ما أوصيت به أخيك؟ قال: نعم، قال: أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخيك، وتزيين أمرهما، ولا تقطعنَّ أمراً دونهما، ثم قال لهما: أوصيكما به، فإنه سيفكمَا وابن أبيكما، فأكرمهما واعرفاً حقه.

فقال له رجل من القوم: ألا تعهد يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنني أتركهم كما تركهم رسول الله صلوات الله عليه وسلم، قال: فماذا تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم [إنك] أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني، ثم قضيتي وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم، وإن شئت أصلحهم، ثم قال: أما والله إنها الليلة التي ضرب منها يُوشُّ بن نون ليلة سبع عشرة، وقضى ليلة إحدى وعشرين.

وبقي على الجمعة والسبت، وقبض ليلة الأحد، ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة.

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخباره تنازع للناس في موضع قبره، وما قيل في ذلك.

سننه وفضله

وقبض وقد أتى عليه اثنان وسبعون سنة، وقيل: اثنان وستون، وقد قدمنا تنازع الناس في مقدار سنّه، وكان كما قال الحسن: والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الأولون إلا بفضل النبوة، ولا يدركه الآخرون، وإن رسول الله صلوات الله عليه وسلم كان يبعث فيكتنه جبريل عن يمينه و咪كائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه. وكان الذي صلّى عليه الحسن ابنه، وكبر عليه سبعاً، وقيل غير ذلك.

تركته

ولم يترك صفراء ولا بيضاء، إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد أن يشتري بها خادماً لأهله، وقال بعضهم: ترك لأهله مائتين وخمسين درهماً ومصحفه وسيفه.

فعلهم بابن ملجم

ولما أردوا قتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر: دعوني حتى أشفني نفسي منه، فقطع يديه ورجليه، وأحمرى له مسماراً حتى إذا صار جمرة كحله به، فقال: سبحان الذي خلق الإنسان إنك لتکحّل عملك بملموال الرصاص، ثم إن الناس أخذوه وأدرجوه في بواري ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق، وفيه يقول عمران بن حطّان الرقاشي يمدحه في ضربته من شعر له طويل:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أو في البرية عند الله ميزانا

[فأجابه القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعي:

إني لأبراً مما أنت قائله عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقي ما أراد بها إلا ليهدم لِلإسلام أركانا
إني لأذكره يوماً فألعنه دنيا، وألعن عمراناً وحطانا
عليه ثم عليه الدُّهْر متصلةً لعائن الله إسراً وإعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به نص الشريعة برهاناً وتبيانا

وزاد بعضهم على هذه الأبيات بيتاً آخر، وهو:

عليكم لعنة الجبار ما طلت شمس، وما أوقدوا في الكون نيرانا

معارضة لبيتي اللعين ابن حطان لعنه الله في ابن ملجم أخزاه الله:

قل لابن ملجم، والأقدار غالبة، هَدَمْتَ ويلك لِلإسلام أركانا
قتلت أفضل منْ يمشي على قدم وأول الناس إسلاماً ولإيماننا
وأعلم الناس بالقرآن، ثم بما
أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له
وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكرأ
ذَكْرُتْ قاتله والدموع منحدر
إني لأحسبه ما كان من بشر
أشقى مراد إذا عُدَّتْ قبائلها
كعاقر الناقة الأولى التي جَلَبتْ
قد كان يخبرهم أنْ سوف يخضبها
فلا عَفَا الله عنه ما تحمله
لقوله في شقي ظل مجرماً
[يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها
بل ضربة من غوي أورثته لظى
كأنه لم يرد قصدًا بضربيته

ولعمران بن حطان ولأبيه حطان أخبار كثيرة قد أتينا على ذكرها في كتابنا «أخبار الزمان» في باب أخبار الخوارج من الأزارقة والأباضية والحرمية والصفورية والنجدية وغيرهم من فرق الخوارج إلى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة.

وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بغيرون، فأدخل على المقتدر بالله، بعث به ابن حمدان من كفرتوتا، وقد كان خرج في أيامه أيضاً المعروف بأبي شعيب. وقد رثى الناس أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه في ذلك الوقت وإلى هذه الغاية، وذكروا مقتله، ومن رثاه في ذلك الوقت أبو الأسود الدؤلي من أبيات.

ألا أبلغ معاوية بن حرب فلا فرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرأ أجمعينا؟
قتلتم خير من ركب المطايا وذلّلها ومن ركب السفينـا
ومن لبس النعال ومن حذـاها ومن قرأ المثاني والمبيـنا
إذا استقبلت وجه أبي حسين رأيت النور فرق الناظريـنا
لقد علمت قريش حيث كانت بأنك خيرهم حسـباً ودينـا

البرك ومعاوية

وانطلق البركُ الصريمي إلى معاوية فطعنه بخنجر في أليته وهو يصلّي فأخذ وأوقف بين يديه، فقال له: ويلك! وما أنت؟ وما خبرك؟ قال: لا تقتلني وأخبره، قال: إننا تبايعنا في هذه الليلة عليك وعلى علي وعلي عمرو؛ فإن أردت فاحبسني عندك، فإن كانا قتلاً وإلا خليت سبيلي فطلبت قتل علي، ولك على أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدي في يدك، فقال بعض الناس: قتله يومئذ، وقال بعضهم: حبسه حتى جاءه خبر قتل علي فأطلقه.

زادويه وعمرو بن العاص

وانطلق زادويه - [وقيل: إنه] عمرو بن بكر التميمي - إلى عمرو بن العاص، فوجد خارجة قاضي مصر جالساً على السرير يطعم الناس في مجلس عمرو، وقيل: بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم، وتختلف عمرو عن الصلاة لعارض، فضربه بالسيف، فدخل عليه عمرو وبه رمق، فقال له خارجة: والله ما أراد غيرك، فقال عمرو: ولكن الله أراد خارجة، وأوقف الرجل بين يدي عمرو، فسأله عن خبره؛ فقصص عليه القصة وأخبره أن عليناً ومعاوية قد قتلا في هذه الليلة، فقال: إن قتلا أو لم يقتلوا فلا بد من قتلك،

فبكى، فقيل له: أجزعاً من الموت مع هذا الإقدام؟ قال: لا والله، ولكن غماً أن يفوز صاحبي بقتل علي ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو، فضربت عنقه وصلب. وكان علي رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل:

تلکم قریش ثَمَنَانِی لِتَقْتَلَنِی فَلَا وَرِبَّکَ مَا بَرُّوا وَمَا ظَفَرُوا
فَإِنْ هَلَکَتْ فَرَهْنَنْ ذَمَتِی لَهُمْ بِذَاتِ وَدْقَنِی لَا يَعْفُو لَهَا أَثْرٌ
وَكَانَ يَکْثُرُ مِنْ ذَکْرِ هَذِینَ الْبَیْتَیْنِ:

أَشَدَّ حِیاَزِیْمَکَ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا قِیْکَاَ
وَلَا تَجْزَعْ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا حَلَّ بِسَوَادِیْکَاَ
وَسَمِعَا مِنْهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِی قُتِلَ فِیْهِ، فَإِنَّهُ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَقَدْ عَسَرَ عَلَیْهِ
فَتْحَ بَابِ دَارِهِ، وَكَانَ مِنْ جَنْوُبِ النَّخْلِ، فَاقْتُلَعَهُ وَجَعَلَهُ نَاحِيَةً، وَانْحَلَّ إِزَارُهُ، فَشَدَّهُ
وَجَعَلَ يَنْشَدُ هَذِینَ الْبَیْتَیْنَ الْمُتَقْدِمِيْنِ.

وقد كان معاوية دسّ أنساً [من أصحابه] إلى الكوفة يشيعون موته، وأكثر الناسُ القول في ذلك حين بلغ علياً، فقال في مجلسه: قد أكثركم من نعي معاوية، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي، وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندي فيه، وما يكون من أمر في المستقبل من الزمان، ومَرَّ في كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسمونه من العذاب، فارتفاع الضجيج، وكثير البكاء والشهيق، فقام قائم من الناس فقال: يا أمير المؤمنين، ولقد وصفت أموراً عظيمة، الله إن ذلك كائن؟ قال علي: والله إن ذلك لكائن، ما كذبت ولا كذبت، فقال آخرون: متى [يكون] ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا خُضبَت هذه من هذه، ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه، فأكثر الناس من البكاء، فقال: لا تبکوا في وقتكم هذا فستبکون بعد طويلاً، فكتاب أكثر أهل الكوفة معاوية سراً في أمورهم، واتخذوا عنده الأيدي، فوالله ما مضت إلا أيام قلائل حتى كان ذلك، وستذكر فيما يرد من هذا الكتاب - بعد ذكرنا لزهده ولمع من كلامه - جملة من أخباره أيضاً في أيام معاوية بن أبي سفيان، والله ولي التوفيق.

ذكر لمع من كلامه، وأخباره، وزهده رضوان الله عليه!

لم يلبس غَلَّةَ اللَّهِ في أيامه ثوباً جديداً، ولا اقتنى ضيعة ولا ربعاً، إلا شيئاً كان له
يینع مما تصدق به وحبسه.

والذي حفظ الناس عنه من خطبه فيسائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون
خطبة يوردها على البديهة؛ وتداول الناس ذلك عنه قولأً وعملاً.

خيار العباد

وقيل له: مَنْ خيَارُ الْعِبَادِ؟ قال: الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبَشَرُوا، وَإِذَا أَسَأُوا اسْتَغْفَرُوا
[وَإِذَا أَعْطُوا شَكْرًا] وَإِذَا ابْتَلُوا صَبَرُوا، وَإِذَا أَغْضَبُوا غَفَرُوا.

وصف الدنيا

وكان يقول: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى
لمن تزود منها، الدنيا مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومبهط وحيه، ومتجر
أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحا فيها الجنة، ومن ذا يذمها وقد آذنت بينها، ونادت
بفراقها، ونَعَت نفسها وأهلها، ومثلت لهم بيلاتها البلاء، وشوقت بسرورها إلى السرور،
وراحت بفجيعة، وابتكرت بعافية؛ تحذيراً وترغيناً وتخويناً، فذمها رجال غبّ الندامة،
وحمدتها آخرون غبّ المكافأة، ذكرتهم فذكروا تصارييفها، وصدقتهم فصدقوا حديثها،
فيما إليها الدائم للدنيا المغتر بغورها، متى استدامتك لك الدنيا؟ بل متى غرتك من نفسها؟
أبىضاجع آبائك من البلى؟ أم بمصارع أمهاتك من الشرى؟ كم قد عللتك بكفك ومَرَضَتْ
بيدك من تغى له الشفاء وتستوصف له [الدواء من] الأطباء! لم تنفعه بشفائك، ولم
تسعد له بطلبتك، وقد مثلت لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك: غالباً لا ينفعك
بكاؤك، ولا يعني عنك أحباءك - ولا تسمع في مدح الدنيا أحسن من هذا.

ومما حفظ من كلامه في بعض مقاماته في صفة الدنيا أنه قال: ألا إن الدنيا قد
ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد دنت مُقبلة، ولهذه أبناء، وللهذه أبناء، فكونوا من أبناء

الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وكوئياً من الزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة، إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والترب فراشاً والماء طيباً، وفَوْضُوا الدنيا تقوضاً، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلّاً عن الشهوات، ومن أشفع من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيّبات، ومن راقب الآخرة سارع في الخيرات، ألا وإن الله عباداً [كأنهم] يرون أهل الجنة في الجنة منعمين مخلدين، [ويرون أهل النار معذبين] قلوبهم محزونة، وشّورهم مأمومة، أنفسهم عفيفة، وحاجتهم خفيفة صبروا أياماً قليلة فصارت لهم العقبى، راحة طويلة، أما الليل فصافوا أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم، ويسعون في فكاك رقابهم، وأما النهار فعلماء حكماء بَرَّةُ أتقياء، كأنهم القداح بِرَاهِم الخوف والعبادة ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرض، إن خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها.

وقال لابنه الحسن: يابني، استغن عن شئت تكن نظيره، وسل من شئت تكن حقيره، وأعط من شئت تكن أميره.

دخل عليه رجل من أصحابه فقال: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ قال: أصبحت ضعيفاً مذيناً، آكل رزقي، وأنظر أجيلى، قال: وما تقول في الدنيا؟ قال: وما أقول في دار أولها غم، وآخرها موت، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، حلالها حساب، وحرامها عقاب، قال: فأي الخلق أنعم؟ قال: أجساد تحت التراب، قد أمنت [من] العقاب، وهي تنتظر الثواب.

وصف علي عند معاوية

ودخل ضرار بن ضمرة - وكان من خواص علي - على معاوية وافداً، فقال له: صرف لي علياً، قال: أغفني يا أمير المؤمنين، قال معاوية: لا بد من ذلك، فقال: أما إذا كان لا بد من ذلك فإنه كان والله يعبد المدى، شديد القوى، يقول فضلاً، ويحكم عدلاً، يتفرّج العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يعجبه من الطعام ما خشن، ومن اللباس ما قصر [وكان والله] يجibly إذا دعوناه، ويعطينا إذا سألناه، وكنا والله - على تقربيه لنا وقربه منا - لا نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمة في نفوسنا، يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويرحم المساكين، ويطعم في المسفة يتيمًا ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، يكسو العريان، وينصر اللّهـان، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته، وكأنني به وقد أرخي الليل سُدُوله، وغارت نجومه، وهو في محاربه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويسكي بقاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي

غيري، ألي تعرضت أم إلى تشوفت؟ هيئات هيئات!! لا حان حينك، قد أبتك ثلاثة لا رجعة لي فيك، عمرك قصير، وعيشك وحقر، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد [وبعد السفر] ووحشة الطريق.

من كلامه

فقال له معاوية: زدني شيئاً من كلامه، فقال ضرار: كان يقول: أعجب ما في الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإن سَنَحَ له الرجاء أماله الطمع، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه القنوط قتله الأسف، وإن عرَضَ له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف فضحه الجزع، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عصته فاقه فضحه الفقر، وإن أجهده الجوع أقدهه الضعف، وإن أفرط به الشبع كَثُّته البطن، فكل تقدير به مضر، وكل إفراط مفسد.

فقال له معاوية: زدني كلما وعيته من كلامه، قال: هيئات أن آتي على جميع ما سمعته منه، ثم قال: سمعته يوصي كمبل بن زياد [ذات يوم فقال له:] يا كمبل ذُبْ عن المؤمن فإن ظهره حمى الله، ونفسه كريمة على الله، وظالمه خصم الله، وأحدركم من ليس له ناصر إلا الله.

قال: وسمعته يقول ذات يوم: إن هذه الدنيا إذا أقبلت على قوم أغارتهم محاسن غيرهم، وإذا أذربت عنهم سَلَبَتهم محاسن أنفسهم.

قال: وسمعته يقول: بَطَرَ الغنى يمنع من عز الصبر.

قال: وسمعته يقول: ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة، وسكتوه فكرة، وكلامه حكمة.

وكان رسول الله ﷺ - بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب الطيار بمؤنة من أرض الشام - لا يبعث بعليٍّ في وجه من الوجوه إلا يقول: «رَبِّ لَا تَذَرِّنِي فَكَرْدًا وَأَنَّ خَيْرَ الْوَرَثَتِينَ» [الأنياء: ٨٩].

وحمل عليٌّ يوم أحد على كردوس من المشركين [خشن] فكشفهم، فقال جبريل: يا محمد، إن هذه لهي الموساة، فقال النبي ﷺ: «يا جبريل إن علياً مني» قال جبريل: وأنا منكم، كذلك ذكره إسحاق عن ابن إسرائيل وغيره.

ووقف على عليٍّ سائل، فقال للحسن: قل لأمك تدفع إليه درهماً، فقال: إنما عندنا ستة دراهم للدقيق، فقال علي: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ثم أمر للسائل بالستة الدرافم كلها، فما برح عليٍّ رضي الله عنه

حتى مر به رجل يقود بعيراً، فاشتراه منه بمائة وأربعين درهماً، وأنسا أجلة ثمانية أيام، فلم يحلَّ أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال: بكم هذا؟ فقال: بمائتي درهم، فقال: قد أخذته، فوزن له الثمن، فدفع على منه مائة وأربعين درهماً للذى ابتاعه منه، ودخل بالستين الباقية على فاطمة ، فسألته: من أين هي؟ فقال: هذه تصدق لما جاء به أبوك عليه السلام: «من جاء بالحسنة فلم عثر أمثلها» [الأنعام: ١٦٠].

ومرَّ ابن عباس بقوم ينالون من علي ويسبونه، فقال لقائده: أذني منهم، فأدناه، فقال: أيكم السابُ الله؟ قالوا: نعوذ بالله أن نسب الله، فقال: أيكم السابُ رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه? قالوا: نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فقال: أيكم السابُ علي بن أبي طالب؟ قالوا: أما هذه فنعم، قال: أشهد لقد سمعت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يقول: «من سبني قد سب الله، ومن سب علياً فقد سبني» فأطربُوا، فلما ولي قال لقائده: كيف رأيتم؟ فقال:

نظروا إليك بأعين مُزُورَةٍ نظر التيوس إلى شفار الجازر

قال: زدني فداك أبي وأمي، فقال:

خُرُز العيون مُنْكَسِي أدقانهم نظر الذليل إلى العزيز القاهر

قال: زدني فداك أبي وأمي، قال: ما عندي مزيد، [قال]: ولكن عندي:

أحياوْهُمْ تجني على أمواتهم والميتون فضيحة للغابر

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي بن الحسين بن علي أن علياً قال في صبيحة الليلة التي ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم، بعد حمد الله والثناء عليه والصلاحة على رسوله صلوات الله عليه وآله وسلامه: كل امرئ ملاقيه ما يفر منه، والأجل ساق النفس إليه، والهرب منه موافاته، كما اطردت الأيام أتحينها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله عز وجل إلا إخفاءه، هيهات علم مكنون.

وصيته يوم موته

أما وصيتي فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمدًا لا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، حمل كل امرئ منكم مجده، وخفف عن الحملة رب رحيم، ودين قويم وإمام عظيم، كنا في إعصار ذي رياح تحت ظل غمامه اضمحل راقدها فمحظها من الأرض حياً، وبقي من بعدي جنة جاؤه، ساكنة بعد حرقة، كاظمة بعد نطق، ليعظكم هدوئي وخفاوت أطرافي، إنه أوعظ لكم من نطق البلوغ، ودعتمكم وداع امرئ مرصد

لتلاق، وغدا ترون ويكشف عن ساق، عليكم السلام إلى يوم المرام، كنت بالأمس صاحبكم واليوم عظة لكم وغداً أفارقكم، إن أفق فاناولي دمي، وإن أمت فالقيامة ميعادي، والعفو أقرب للتفوي، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم.

ترهيد في الدنيا

ومن خطبه قبل هذا وترهيد في هذا الدنيا قوله في بعض مقاماته وخطبه: إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أشرفت وأقبلت باطلاع، وإن المضمار اليوم والسباق غداً، ألا إنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد حسن عمله [وما قصرَ أجله، ومن قصرَ في أيام أجله خسرَ أجله، ألا] فاعلموا الله في الرغبة، كما تعملون في الرهبة، ألا وإنني لم أر كالجنة نام طالها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه مَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ الْحَقُّ يَضْرِبُهُ الْبَاطِلُ، ومن لا يستقيم له الهدى يخزيه الضلال وقد أمرتم بالظعن ولدلتם على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

وفضائل علي ومقاماته ومناقبه و[وصف] زهذه ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب، أو يبلغه إسهاب مسهب، أو إطناب مُطب، وقد أتينا على جمل من أخباره وزهذه وسيره، وأنواع من كلامه وخطبه في كتابنا المترجم بكتاب «حدائق الأذهان، في أخبار آل محمد ﷺ» وفي كتاب «مزاهر الأخبار، وطرائف الآثار، للصفوة扭ورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة».

فضائله رضي الله عنه

قال المسعودي: والأشياء التي استحق بها أصحاب رسول الله ﷺ الفضل هي: السبق إلى الإيمان، والهجرة، والنصرة لرسول الله ﷺ، والقربي منه [والقناعة] وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتزيل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والzed، والقضاء، والحكم، والفقه والعلم وكل ذلك لعلي رضي الله عنه منه النصيب الأوفر، والحظ الأكبر، إلى ما ينفرد به من قول رسول الله ﷺ حين أخى بين أصحابه «أنت أخي» وهو ﷺ لا ضد له، ولا ند، وقوله صلوات الله عليه: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» وقوله عليه الصلاة والسلام: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» ثم دعا به ﷺ وقد قدم إليه أنس الطائر: اللهم أدخل إلى أحب خلقك إليك ياكل معي من هذا الطائر»، فدخل عليه علي، إلى آخر الحديث، فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرق في غيره، ولكل

فضائل ممن تقدم وتأخر، وقبض النبي ﷺ وهو راض عنهم، مُخبر عن بواسطتهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان، وبذلك نزل التنزيل، وتولى بعضهم بعضاً، فلما قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحي حدثت أمور تنازع الناس في صحتها [منهم، وذلك غير يقين]، ولا يقطع عليهم بها، واليقين من أمرهم ما تقدم، وما روي مما كان في أحاديثم بعد نبيهم ﷺ وغير متيقن، بل هو ممكן، ونحن نعتقد فيهم ما تقدم، والله أعلم بما حدث، والله ولي التوفيق.

قد تم - بحمد الله تعالى وحسن توفيقه - تحقيق الجزء الثاني من كتاب «مروج الذهب، ومعادن الجوهر» للعلامة المسعودي، ويليه - إن شاء الله - الجزء الثالث منه، مفتتحاً بخلافة الحسن بن علي بن أبي طالب، نسأل الله القدير أن يمن علينا بإكماله، ويوافقنا ويعينا على ضبطه وتجويده، إنه ولي ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفهرس

ذكر السودان، وأنسابهم، واختلاف أجناسهم، وأنواعهم وتبينهم في ديارهم، وأخبار ملوكهم ٥
ولد كوش بن كنعان ومساكنهم ٥
الزرافة ٥
وقليمي ملك الزنج ٦
صيد الفيلة ٧
لعب الشطرنج ومقامرة الهند به ٧
الفيل ببلاد الهند ٨
حيوان الزبرق ٨
عنابة المنصور بالفيلة ١١
عود إلى وصف الفيل ١١
عود إلى وصف الزنج ١٣
البقر والجوميس ١٣
تفسير لقب ملك الزنج ١٤
مساكن النوبة ١٤
البجة ١٥
الحبش ١٥
جزيرة سقطرة وسكانها ١٦
بقية أجناس السودان ١٦
بين النوبة وفتح مصر ١٧
معدن الزمرد وأنواعه ١٨
قوص وقطط من بلاد مصر ٢٠
الواحات ٢١
أعداد الطعوم وخواصها ٢١
وصف بلاد الأحابش وحاصلاتها ٢٢
من أوصاف الفيل أيضاً ٢٣

نسب الصقالبة وأجناسهم ذكر الصقالبة ومساكنها وأخبار ملوكها، و(فرق) أجناسها ..	٢٥
ملوك الصقالبة ..	٢٦
أجناس الصقالبة ..	٢٦
نسبهم وصفاتهم مساكنهم ذكر الإفرنجة والجلالقة، وملوكها (وما يتصل بذلك) ..	٢٧
ملوك الإفرنجة ..	٢٨
بين عبد الرحمن والجلالقة ..	٢٩
ذكر التوكبرد، وملوكها ..	٣٠
نسبهم ومساكنهم ..	٣٠
نسب عاد وعبادته وأولاده ..	٣١
ذكر عاد وملوكها ..	٣١
عاد الأولى ..	٣١
عاد أول ملك بعد نوح ..	٣١
شديد بن عاد ..	٣٢
شداد بن عاد ..	٣٢
ذكر ثمود وملوكها، وصالح نبئها ..	٣٣
مساكن ثمود ..	٣٣
ملوك ثمود ..	٣٣
صالح رسول الله إلى ثمود ..	٣٣
ذكر مكة وأخبارها، وبناء البيت ومن تداوله من جرهم وغيرها، وما لحق بهذا الباب ..	٣٦
سكن إسماعيل وأمه بمكة ..	٣٦
نزول العماليق معهما ..	٣٦
زيارة إبراهيم الأولى لابنه ..	٣٧
نزول جرهم مكة ..	٣٧
زيارة إبراهيم الثانية ..	٣٧
سر تسمية إسماعيل ..	٣٨
أبناء إسماعيل ..	٣٨
بناء الكعبة ..	٣٨
ولاة البيت من جرهم وأبناء إسماعيل ..	٣٨
إساف ونائلة صنماني ..	٣٩
رواية أخرى في الولاية بمكة ..	٤٠

٤٠	العمالق
٤١	طسم وجديس
٤١	أصحاب الرس
٤١	النبيط
٤١	مساكن عاد وثمود وجديس وطسم وعيلام ونبيط
٤٢	دعوى الشعوبية
٤٢	الرد على الشعوبية
٤٣	ولاية خزاعة أمر البيت
٤٤	عمرو بن لحي أول من عبد الأصنام
٤٤	خصال ولاية البيت ثلاثة خصال
٤٥	النساء والنساء
٤٥	ولاية البيت تؤول إلى قصي بن كلاب
٤٦	قريش البطاح
٤٦	قريش الظواهر
٤٦	الأحلاف
٤٦	الطيبون
٤٧	الإيلاف والتقريش
٤٨	ذكر جوامع (من) الأخبار، ووصف الأرض والبلدان وحنين النفوس للأوطان
٤٨	عمر بن الخطاب يستوصف بقاع الأرض
٤٨	تأثير البيئة الطبيعية
٤٨	الشام
٤٩	مصر
٤٩	اليمن
٤٩	الحجاز
٤٩	المغرب
٤٩	العراق
٥٠	الجبال
٥٠	خراسان
٥٠	فارس
٥٠	خوزستان

الجزيرة	٥٠
الهند والصين	٥١
كعب الأخبار يصف لعمر العراق	٥١
وصف إقليم بابل وحين المؤلف إليه	٥١
الخنین إلى الأوطان	٥٢
فضل علم الأخبار	٥٣
فضل الكتاب	٥٣
ذكر تنازع الناس في المعنى الذي من أجله سمي يمناً، والعراق عرaca الشام شاماً، والحجاز حجازاً	٥٥
ذكر اليمن وأنسابها، وما قاله الناس في ذلك	٥٦
ذكر اليمن وملوکها، ومقدار سينها	٥٩
سباً	٥٩
حمير	٥٩
كهلان	٥٩
عمرو بن سباً	٥٩
قول آخر	٥٩
جماعة من ملوك اليمن	٦٠
ذو الأذغار	٦٠
تبع الأول	٦٠
بلقيس وسليمان	٦٠
بقية ملوك اليمن	٦١
أبرهة أبو يكسوم	٦٢
أبو رغال	٦٢
قبور العبادي	٦٣
مسروق بن أبرهة	٦٤
وفود العرب تهنيء معديكرب	٦٦
عبد المطلب يهنيء الملك	٦٦
أبو زمعة يهنته	٦٧
مقتل معديكرب	٦٧
رواية عبيد بن شريعة	٦٧

٧٩	ملك فارس باليمن
٧٩	ملك اليمن في أبناء إبراهيم
٧٠	عاصمة اليمن
٧٠	مساحة اليمن وحدوده
٧٢	ذكر ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم
٧٢	جذيمة الوضاح ومقتله
٧٢	مالك بن فهم
٧٢	عمرو بن عدي
٧٣	قصة عمرو بن عدي
٧٣	قصة نديمي جذيمة
٧٤	بين الزياء وجذيمة
٧٦	عمرو بن عدي يأخذ بثأر حاله
٧٨	بقية ملوك الحيرة
٧٩	بين النابغة والنعمان
٨٠	بين النعمان وزيد بن عدي وكسرى
٨١	بنت النعمان عند سعد بن أبي وقاص
٨٣	خراب الحيرة
٨٤	ذكر ملوك الشام من اليمن، من غسان وغيرهم من الملوك
٨٤	أول ملوك الشام
٨٤	تنوخ ونسبها
٨٤	سلیح ونسبها
٨٥	ملوك غسان على الشام
٨٥	حسان والحارث الغساني
٨٦	جبلة بن الأبيه
٨٦	منازل غسان
	ذكر البوادي من العرب، وغيرها من الأمم وعلة سكنها البدو وجمل من أخبار العرب
٨٨	وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى
٨٨	بين دليل والكميت
٨٩	بين تبع وقباذ ملك الطوائف
٩٠	أولاد نزار بن معد

9٠	قصتهم مع الأفعى الجرمي
٩٣	علة سكني البدو
٩٥	خطيب العرب عند كسرى يعلل اختيار قومه البداوة
٩٧	الأكراد ونسبهم ومساكنهم
٩٧	بعض أيام العرب
	ذكر ديانات العرب وأرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد، وخبر أصحاب الفيل
٩٨	وعبد المطلب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب
٩٨	ديانات العرب في الجاهلية
٩٩	عبد المطلب بن هاشم
٩٩	أصحاب الفيل
١٠٠	القول بتناسخ الأرواح
١٠٢	الاختلاف في إيمان عبد المطلب
١٠٢	أبو طالب
١٠٣	اختلاط الألسنة
١٠٣	مسير يعرب وسكناه اليمن
١٠٣	مسير عاد إلى الأحاف
١٠٣	إرم ذات العماد
١٠٤	نزول ثمود الحجر
١٠٤	مسير جديس إلى اليمامة
١٠٤	مسير عملاق إلى مواضع مختلفة
١٠٥	أذينة بن السميعد العملاقي
١٠٥	مسير طسم إلى البحرين
١٠٦	عملوق الظالم ملك طسم
١٠٧	التفكير في الانتقام
١٠٨	رباح الطسمي يستنجد حمير على جديس
١٠٩	زرقاء اليمامة
١٠٩	مسير وبار بن أميم
١١١	مسير عبد ضخم للطائف
١١١	بدء الكتابة بالعربية
١١١	مسير جرهم إلى مكة

مسير أميم إلى فارس ١١١
أول أمرىء بنى البيوت أميم بن لاوذ ١١١
أنساب البربر ١١٢
الشام بلاد كنعان ١١٢
مسير نوافير إلى الهند ١١٢
عبادة عاد، ويغיהם ١١٢
أصل الشرك ١١٢
وفود عاد على مكة ١١٣
مهلك عاد ١١٤
الجحفة ١١٤
يشرب ١١٥
قوم شعيب ١١٥
حروف الجمل ١١٥
عذاب يوم الظلة ١١٦
حضوراً تنازع الناس في أنسابهم ١١٦
منازل حضوراً ١١٧
ذكر ما ذهب إليه العرب في النفوس والهام والصفر وغير ذلك (من مذاهب الجاهلية في النفوس والمريء) ١١٨
الاختلاف في النفس ١١٨
الهام ١١٨
تنقل الأرواح ١١٩
ذكر أقاويل العرب في الغilan والتغول وما لحق بهذا الباب ١٢٠
رأيهم في الغول ١٢٠
الغول تتلون وتضلل ١٢٠
رأي الفلسفه ١٢١
قولهم في السعلة ١٢٢
قولهم في الشياطين ونحوهم ١٢٢
ذكر قول العرب في الهواتف والجان ١٢٤
قولهم في الهواتف والجان ١٢٤
بين شق وعلقمة بن صفوان ١٢٤

الجن تقتل حرب بن أمية	١٢٥
من قتلت الجن	١٢٥
قبر حاتم طيء يقرى الضيف	١٢٥
ذكر ما ذهبت إليه العرب من القيافة، والزجر (والعيافة) والسانح، والبارح، وغير ذلك	١٢٨
الخلاف في القيافة وجوازها	١٢٨
اختصاص العرب بذلك	١٢٨
منشأ القيافة	١٢٩
الزجر	١٣٠
اختصاص بعض العرب ببعض هذه الأمور	١٣٠
القيافة	١٣١
القيافة عند أهل الشرع	١٣١
ذكر الكهانة، وما قيل في ذلك وما اتصل بهذا الباب مما يراه الناس وحد النفس الناطقة	١٣٣
أصل ادعاء علم الغيب	١٣٣
العرفة وبعض العرافين	١٣٤
الكهانة في العرب	١٣٥
الرؤيا وأسبابها	١٣٥
سطيح وشق الكاهنات	١٣٨
ذكر جل من أخبار الكهان، وسيل العزم وتفرق الأزد في البلدان	١٣٩
السد وبيانه ومكانه	١٣٩
وصف بلاد سبا	١٣٩
مبدأ التهدم	١٤٠
العمر	١٤١
مفاخرة عند السفاح بين قحطاني وعدناني	١٤١
العمر في شعر العرب	١٤١
طول العمر وعمر النسور	١٤٢
علة طول الأعمال ونقصها	١٤٢
عود لذكر سبا	١٤٣
طريقة الكاهنة	١٤٣
عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده	١٤٥

١٤٧	عبادة أهل مأرب وصنعهم مع رسليهم
١٤٨	أول كهانة سطيع الغساني
١٤٩	ذكر سنى العرب والعجم وشهرها وما اتفق منها، وما اختلف
١٥٠	ذكر شهور القبط والسريانين والخلاف في أسمائها وجمل من التاريخ
١٥٠	شهور القبط ومقابلاها من شهور السريان
١٥٠	سنة القبط
١٥٠	مبدأ التواريخ
١٥١	أوائل كل تاريخ
١٥٢	ذكر شهور السريانين ووصف موافقتها الشهور العرب وعدة أيام السنة ومعرفة الأنواء ..
١٥٢	شهور وأيام كل شهر
١٥٢	سر تسمية المهرجان
١٥٣	بطارقة النصارى
١٥٣	شهور كنائسهم
١٥٤	عود إلى الشهور وأيامها
١٥٤	أيام العجوز
١٥٥	شهور الروم
١٥٦	ذكر شهور الفرس
١٥٦	أسماء الشهور وعدة أيامها
١٥٧	ذكر أيام الفرس
١٥٧	أسماء الأيام
١٥٧	كبس الفرس
١٥٨	ذكر سنى العرب وشهرها
١٥٨	أسماء الشهور
١٥٨	إيماء إلى النسيء
١٥٩	وتسمية أيامها وليلاتها الأشهر الحرم
١٥٩	شهور الحج
١٥٩	تسمية أيام التشريق
١٦٠	الأيام التحسات
١٦٠	أسماء الأيام عند العرب قديماً
١٦٠	أسماء الشهور عند العرب

الأزمة الأربعة	١٦٠
شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب	١٦١
ذكر قول العرب في ليالي الشهور القمرية وغيرها	١٦٢
تقسيم الليالي ثلاثةً وثلاثًا واسم كل ثلاث	١٦٣
أسماء الهلال والليلي	١٦٣
ذكر القول في تأثير النيرين في هذا العالم وجمل مما قيل في ذلك وغير ذلك مما لحق بهذا الباب	١٦٤
تصور الجنين في الرحم	١٦٤
يشبه الولد أباه وأهل بيته أيمه	١٦٥
الاختلاف في تأثير النيرين	١٦٦
كروية السماء والأرض	١٦٦
ذكر أرباع العالم، والطبائع وما خص به كل جزء منه من الشرق والغرب والتيمن والجنوبي والأجوية، وغير ذلك من سلطان الكواكب وما لحق بهذا الباب (واتصل بهذا المعنى)	١٦٩
الطبائع الأربع	١٦٩
علة عدم سكنا بعض الأرض	١٧٠
مدة سلطان الكوكب	١٧٠
أجناس الأجسام	١٧١
الجن وأنواعها	١٧٢
النسناس	١٧٢
العنقاء	١٧٤
خالد بن سنان العبسي	١٧٥
الخيل	١٧٥
الكلام على الأخبار	١٧٦
أمثله من الأخبار	١٧٧
عود إلى ذكر أرباع العالم والطبائع	١٧٧
للطعام انتظامات ثلاثة	١٧٧
فصول السنة وأثر كل منها	١٧٨
الهواء وأثره في الإنسان والحيوان	١٧٨
الاستدلال بالأقاليم على تأثير الهواء	١٧٩

١٧٩	أثر الجنوب
١٨٠	أثر الشمال
١٨٠	الرياح الأربع
١٨٠	مساحات المالك وما بينها من المسافة
١٨٢	أصول الطب
١٨٣	ذكر البيوت المعظمة، والهياكل المشرفة
١٨٣	عبادة الهند واتخاذهم الأصنام
١٨٣	عبادتهم الكواكب واتخاذهم أصناماً لها
١٨٣	وبيوت التيران والأصنام وذكر الكواكب، وغير ذلك من عجائب العالم
١٨٤	بوداسف أول الصابئة
١٨٤	جم أول من دعا إلى عبادة النار
١٨٤	عمرو بن لحي أظهر الأصنام بمكة
١٨٥	البيت الحرام
١٨٥	بيت للمجوس بأصبهان
١٨٥	بيت بالهند
١٨٥	بيت البرامكة ببلخ
١٨٦	غمدان بصناعة
١٨٦	بيت بفرغانة بخراسان
١٨٧	بيت بالصين
١٨٨	ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين
١٨٨	بيت أنطاكية
١٨٨	الأهرام بمصر
١٨٨	بيت المقدس
١٨٩	ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم
١٨٩	بيت قرطاجنة
١٨٩	بيت يافرنجة
١٨٩	بيت مقدونية
١٩٠	ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة
١٩٠	البيت الأول
١٩٠	البيت الثاني

البيت الثالث	١٩٠
ذكر البيوت المعممة، والهيكل المشرفة للصابة وغيرها (وغير ذلك) مما لحق بهذا الباب وأتصل بهذا المعنى	١٩١
هيكل العقل والعلة الأولى	١٩١
جلة من هياكلهم	١٩١
القول في تنقل الأرواح ..	١٩٢
المقولات	١٩٣
عود إلى الكلام عن الصابة ..	١٩٣
ذكر الأخبار عن بيوت النيران، وغيرها ..	١٩٥
رأيهم في النار والنور ..	١٩٥
أماكن بيوت النيران ..	١٩٥
زرادشت والبيوت التي اتخذها ..	١٩٧
بيت بإصطخر ..	١٩٧
وصف يصف بيتاً بإصطخر والناس ..	١٩٧
بيت بسابور ..	١٩٧
بيت بجور ..	١٩٧
بيوت أخرى ..	١٩٨
حصن الحضر ..	١٩٨
قول في نسب النعمان بن المنذر ..	١٩٨
جلة من بيوت النار ..	٢٠٠
بيت بعل ..	٢٠٠
جيرون بدمشق ..	٢٠٠
كتاب ألف ليلة وليلة ..	٢٠١
أصل مسجد دمشق ..	٢٠١
البريق بدمشق ..	٢٠١
الديماس بأنطاكية ..	٢٠١
بعض عجائب الدنيا ..	٢٠٢
محاولات قديمة لوصول بحر الروم بالبحر الأحمر ..	٢٠٣
ذكر جامع التاريخ ..	٢٠٥
بعض قول الطبيعين ..	٢٠٥

من بدء العالم إلى مولد رسول الله ﷺ	٢٠٥
وما لحق بهذا الباب	٢٠٥
دليل على حدوث العالم	٢٠٦
المحدث للعالم	٢٠٦
عمر الدنيا	٢٠٧
رأي أهل النظر من المسلمين	٢٠٨
ذكر مولد النبي ﷺ، ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب	٢١٠
تقديم	٢١٠
نسبه الشريف	٢١٠
الخلاف في نسب معد بن عدنان	٢١٠
كنية الرسول	٢١١
أسماؤه	٢١٢
مولده	٢١٢
حروب الفجار	٢١٢
بطون قريش	٢١٢
حلف الفضول	٢١٣
سبب حلف الفضول	٢١٣
الفجارات	٢١٣
قريش تبني الكعبة	٢١٤
وضع الحجر الأسود	٢١٤
كسوة الكعبة	٢١٥
تحديد المولد	٢١٥
نسب أمه ﷺ	٢١٦
أحداث قبل النبوة	٢١٦
ذكر مبعثه ﷺ وما جاء في ذلك إلى هجرته	٢١٧
مجمل	٢١٧
تحديد المبعث	٢١٧
إسلام علي بن أبي طالب	٢١٧
إسلام أبي بكر ومن أسلم بسلامه	٢١٨

الخلاف في أول من أسلم ٢١٨
ذكر هجرته، وجوابع تما كان في أيامه <small>بِيَّنَةً إِلَى</small> وقت وفاته ٢١٩
علته ووفاته ٢٢٠
غزواته ٢٢١
ترتيبها ٢٢١
قول الواقدي في غزواته ٢٢١
سراباوه وبعوته ٢٢٢
مشاهير الأحداث ٢٢٢
النزاع في عمره عليه الصلاة والسلام ٢٢٣
ذكر أمور وأحوال من مولده إلى وفاته <small>بِيَّنَةً إِلَى</small> ٢٢٤
تقديمة ٢٢٤
السنة الأولى من مولده ٢٢٤
السنة الخامسة ٢٢٤
السنة السادسة ٢٢٤
خروجه إلى الشام ٢٢٤
شهوده الفجار ٢٢٥
ست وعشرين ٢٢٥
ست وثلاثين ٢٢٥
إحدى وأربعين ٢٢٥
ست وأربعين ٢٢٦
سنة خمسين ٢٢٦
إحدى وخمسين ٢٢٦
أربع وخمسين ٢٢٦
اثنتين من الهجرة ٢٢٦
ثلاث من الهجرة ٢٢٧
أربع من الهجرة ٢٢٧
خمس من الهجرة ٢٢٧
ست من الهجرة ٢٢٧
سبعين من الهجرة ٢٢٧
ثمان من الهجرة ٢٢٨

فتح مكة	٢٢٨
تسع من الهجرة	٢٢٨
عشر من الهجرة	٢٢٨
إحدى عشرة من الهجرة	٢٢٩
أولاده <small>عليهم السلام</small>	٢٢٩
تقديمة	٢٣٠
آتاه الله الحكمة	٢٣٠
ذكر ما بدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام	٢٣٠
تقديمة	٢٣٠
آتاه الله الحكمة	٢٣٠
ذكر ما بدأ به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام ...	٢٣٠
من موجز كلامه	٢٣١
باب ذكر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه	٢٣٤
جماع تاريخه	٢٣٤
ذكر نسبه، وملع من أخباره وسيره	٢٣٥
نسبه	٢٣٥
صفاته	٢٣٥
تواضعه وزهده ونسكه	٢٣٥
وفود العرب إليه	٢٣٥
بين أبي بكر وأبي سفيان	٢٣٦
نسب أمه	٢٣٦
أولاده	٢٣٦
موت أبي قحافة	٢٣٧
يوم السقيفة	٢٣٧
عدي بن حاتم الطائي	٢٣٧
علته	٢٣٧
كلام له	٢٣٧
بناته	٢٣٨
بيعة علي إيه	٢٣٨

٢٣٨	وصيته لأمراء جيشه
٢٣٩	المتبينون
٢٤٠	ذكر خلافة عمر بن الخطاب <small>تسلية</small>
٢٤١	ذكر نسبه ولع من أخباره وسيره
٢٤٠	موجز
٢٤١	نسبه
٢٤١	صفاته
٢٤١	عماله
٢٤٢	سلمان الفارسي
٢٤٢	أبو عبيدة
٢٤٢	عمر يحرض على الجهاد
٢٤٥	سعد بن أبي وقاص
٢٤٦	أيام القادسية
٢٤٨	أبو محجن الثقيفي
٢٤٩	يوم عباس
٢٥١	تمحيد تاريخ القادسية
٢٥١	تمصير البصرة
٢٥٢	تمصير الكوفة
٢٥٢	أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة
٢٥٣	أولاد عمر
٢٥٣	عمر وابن عباس
٢٥٣	عمر يستعمل النعمان بن مقرن غازياً لنهاوند
٢٥٥	شهداء نهاوند
٢٥٥	عمر يسأل عمرو بن معد يكرب عن قبائل من العرب
٢٥٦	ويسأله عن الحرب
٢٥٦	عمرو يحدث عمر عن فراره ذات مرة
٢٥٨	عمرو بن معد يكرب يغير علىبني كنانة
٢٦٠	ذكر خلافة عثمان بن عفان
٢٦١	نسبه وأولاده
٢٦١	صفا

ثروته	٢٦١
ثروة الزبير بن العوام	٢٦٢
ثروة طلحة بن عبيد الله	٢٦٢
ثروة عبد الرحمن بن عوف	٢٦٢
ثروة قوم من الصحابة	٢٦٢
عمال عثمان	٢٦٣
الوليد بن عقبة	٢٦٣
سعید بن العاص	٢٦٥
بدء الطعن على عثمان وسبيه	٢٦٦
الوليد بن عقبة ويهودي مشعوذ	٢٦٦
بين عثمان وأبي ذر	٢٦٧
عمار بن ياسر	٢٦٨
الثورة على عثمان	٢٦٩
مقتله، وقتلته	٢٧١
مدفنه	٢٧١
ما قيل فيه من الرثاء	٢٧١
ذكر خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه!	٢٧٣
ذكر نسبة، ولع من أخباره وسيره	٢٧٤
موجز	٢٧٣
نسبة	٢٧٤
إخواه وأخواته	٢٧٤
مسيره إلى البصرة	٢٧٥
قتل صفين وأيامها	٢٧٥
التقاء الحكمين	٢٧٦
حربه مع الخوارج	٢٧٦
بنو أمية عند علي	٢٧٦
عمرو بن العاص	٢٧٧
المغيرة بن شعبة ينصح علياً ثم يرجع	٢٧٧
ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبئته وما كان فيه من الحرب، وغير ذلك	٢٧٩
تدبير الخروج على علي	٢٧٩

٢٧٩	المسير إلى البصرة
٢٨٠	مسير على إلى العراق
٢٨٠	قدوم علي البصرة
٢٨٢	مبدأ القتال
٢٨٢	خطبة لعلي قبل الالتحام
٢٨٣	بين علي والزبير
٢٨٤	مقتل الزبير ورثاؤه
٢٨٤	بين علي وطلحة
٢٨٥	ترجمة طلحة
٢٨٥	مقتل محمد بن طلحة
٢٨٧	دخول علي البصرة
٢٨٧	بين ابن عباس وعائشة
٢٨٨	حزن علي على القتلى
٢٨٨	خروج عائشة من البصرة
٢٨٩	مسيره إلى الكوفة
٢٩٠	علي يبعث إلى معاوية
٢٩٠	بين المغيرة ومعاوية
٢٩٢	ذكر جوامع ما كان بين أهل العراق وأهل الشام بصفين
٢٩٢	مسيره إلى صفين
٢٩٢	عدد جيشه
٢٩٢	جيش معاوية
٢٩٤	مبدأ الحرب
٢٩٦	خروج علي للقتال
٢٩٧	عمار بن ياسر
٢٩٨	نصر هاشم المرقال
٢٩٩	حذيفة بن اليمان، وابنه
٣٠٠	مقتل عبيد الله بن عمر
٣٠٣	ليلة الهرير
٣٠٣	خدعة رفع المصاحف
٣٠٥	ذكر الحكمين وبدء التحكيم

شروط الحكم وموعد الاجتماع ٣٥٥	
عدة قتل صفين ٣٥٦	
بعد التحكيم ٣٥٦	
الخوارج الحرورية ٣٥٧	
البقاء الحكيمين ٣٥٧	
تمام الخدعة ٣٥٩	
ما قيل من الشعر في التحكيم ٣١٠	
خدعة معاوية لعمرو بن العاص ٣١١	
بين علي وأصحابه ٣١٢	
ذكر حروبه رضي الله عنه مع أهل النهروان وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد بن أبي بكر الصديق <small>تَعَالَى</small> والأشر الخمي، وغير ذلك ٣١٤	
اجتماع الخوارج ومسير علي إليهم ٣١٤	
المخدج ذو الثدية ٣١٥	
فرق أصحاب علي وردمهم ٣١٦	
ولد سامة بن لؤي وعلي ٣١٦	
عمرو بن العاص ومحمد بن أبي بكر في مصر ٣١٧	
ولاية الأشر ومقتله بالعرיש مسموماً ٣١٨	
فرق المعاملة بين الجمل وصفين وسره ٣١٨	
ذكر مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب <small>تَعَالَى</small> ٣٢٠	
المؤامرة ٣٢٠	
ابن ملجم وقطام ٣٢٠	
وصية علي لأولاده ٣٢١	
سنن وفضله ٣٢٢	
تركته ٣٢٢	
فعلهم بابن ملجم ٣٢٢	
البرك ومعاوية ٣٢٤	
زادويه وعمرو بن العاص ٣٢٤	
ذكر لمع من كلامه، وأخباره، وزهده رضوان الله عليه! ٣٢٦	
خيار العباد ٣٢٦	
وصف الدنيا ٣٢٦	

٣٢٧	وصف علي عند معاوية ..
٣٢٨	من كلامه ..
٣٢٩	وصيته يوم موته ..
٣٣٠	ترهيده في الدنيا ..
٣٣٠	فضائله رضي الله عنه ..
٣٣٣	الفهرس ..